الدكتور صابر محمد دياب حسين

الدولة الإسلامية في العصر العباسي

قضايا ومواقف

علاء الخضري





قضايا ومواقف

تأليف

الدكتور صابر محمد دياب حسين

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٩٥٣,٠٤ صابر محمد دياب حسين.

ص ا د و الدولة الإسلامية فى العصر العباسى : قضايا ومواقف / تأليف صابر محمد دياب حسين.- القاهرة: دارالفكر العربى، ٢٠٠١.

٣٢٠ص ؛ ٢٤ سم.

ببليوجرافية ، [٣٠٧]- ٣١٦.

تدمك :٧-١٤٤٤-١٠-٩٧٧

١- العالم العربى - تاريخ - العصر العباسى. ٢- الدولة العباسية ٧٥٠- ١٢٥٨م. أ- العنوان.

تصميم وإخراج فنى

منى حامد عمارة ثريا إبراهيم حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا ما دامت السموات والأرض...

وبعد ...

فقد مرت الدولة الإسلامية - منذ أقام الرسول دعائمها في المدينة المنورة ؛ إلى أن اكتسح المغول بهمجيتهم الوحشية سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٦م بغداد وأسقطوا الخلافة فيها- بمراحل تاريخية عدة ولكلٍ منها سماتها المتميزة عن غيرها.

ومن أهم هذه الفترات فترة حكم بنى العباس الذين بدأ حكمهم منذ عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م ـ بعد سقوط دولة بنى أمية بوفاة آخر خلفائهم مروان بن محمد في «أبو صوير» بمصر - واستمرت إلى أن أسقط المغول خلافتهم في بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٦م.

وقد شهد العالم الإسلامي خلال العصر العباسى - أى طوال فترة زادت عن الخمسة قرون (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠ -١٢٥٦م) - الكثير من الأحداث والتطورات مما يجعل لتاريخ وحكم بنى العباس أهمية كبيرة في تاريخ عالم الإسلام.

وقد حاولت في دراستي لتاريخ هذه الدولة أن أركز على أهم القضايا التى شغلت الناس - مسئولين ورعية- في فترة حكم بنى العباس فجاءت دراسة الدولة من خلال مواقفها ومعالجتها لقضايا عصرها.

ونظرا لطول فترة حكمهم فقد قصرت الدراسة في هذا العصر على الفترة الممتدة منذ نشأة الدولة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م حتى أوائل القرن الرابع الهجرى سنة ٣٣٤هـ أى حتى بداية ظهور نفوذ بنى بويه وتآكل سلطة ومكانة الخلافة والخلفاء العباسيين.

والله المستعان ...

د.صابر دياب

تمهيد:

بدأ الحكم الأموي راسخاً بعد أن قضى على ثورتي المختار وابن الزبير واستمر على هذه الحال طوال خمسين عاما، ثم حدثت فجأة (حوالي ١٢٢هـ / ٧٤٠م) فتن جديدة نجمت عن حالات تذمر مكبوتة، أدت إلى سقوط الأسرة الأموية، بعد عشر سنوات من هذا التاريخ، وإلى تغيير نظام الحكم بالذات، بمعناه الواسع، لدرجة تجعلنا نقرر أن ما حدث لم يكن مجرد إحلال أسرة ما، مكان أسرة سابقة، بل تغييراً شاملاً حل بكل مناحي الحياة في الدولة الإسلامية. وقد عجلت الانقسامات الداخلية التي أعقبت وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ/٧٤٣م، واستمرت حتى ١٣١-١٣٢هـ/ ٧٤٨-٧٥٠م بهذا التغيير الشامل الذي عمَّ كل جوانب الحياة في العالم الإسلامي.

عوامل انهيار الحكم الأموي:

لعل من أهم العوامل التي ساعدت على انهيار الحكم الأموي هو ما طرحه التطور الاجتماعي والفكري على بني أمية من قضايا اجتماعية ودينية، لم يكن نظامهم قادرا على حلها.

وقد عرض لنا المستشرق (فلهاوزن) ما يعتبر أول عرض علمي للتاريخ الأموي في كتابه الشهير الذي أصدره في مطلع القرن الحالي وأسماه «الإمبراطورية[1] العربية وسقوطها». ثم راح المستشرقون والباحثون من بعده، يؤكدون على العوامل القومية والاجتماعية التي أسهمت في انهيار النظام الأموي. وهم في أبحاثهم ودراساتهم - وإن لم يغفلوا الجانب الديني أو الحركات الدينية - التي تصدى لها الأمويون، لم يربطوا بين هذه العناصر جميعا ربطا عميقا بعض الشيء. فكانت الثورة العباسية تبعا لوجهة نظرهم ما هي إلا حصيلة لتذمر الموالي الإيرانيين من الحكم الأموي في بادئ الأمر، ثم صار هؤلاء الموالي أول المنتفعين بالثورة المذكورة. وإن كانت هذه الثورة قد استخدمت حركةً علويةً، إلا أن قوتها لم تكن تكمن في هذه الحركة.

---

(١) نتحفظ على إطلاق لفظ إمبراطورية على أي عصر من عصور الدولة الإسلامية؛ لأن كلمة إمبراطورية تعني بالدرجة الأولى الإشارة إلى تلك النظم التي حكمت شعوب العالم بالقهر والاستعباد في الفترات السابقة على الإسلام أو اللاحقة له وهو مالا ينطبق على دول الإسلام.

والحق أنه إذا كان للعوامل الاجتماعية تأثيرها البالغ في إذكاء روح الثورة على بني أمية، فما ذلك إلا بسبب اصطباغها بالصبغة الدينية الإسلامية؛ ذلك أن بني أمية بسلوكهم في الحكم، وما انتهجوه من سياسة : قوامها تفضيل بعض القبائل على بعض، والعرب على غيرهم من شعوب دولة الإسلام - إبان حكمهم - كانوا كمن يعمل في حفر قبره بظلفه، أو كانوا كمن اختار أن يسعى إلى حتفه بقدميه.

ولاغرو، فقد صارت العناصر العربية وغير العربية في الدولة الإسلامية، خلال العصر الأموي تعتبر الثورة على ذلك الحكم عملاً يقترب من فريضة الجهاد : دفعاً للظلم والتفاضل العرقي، الذي يعتبر السمة البارزة للعصر الأموي.

وبناء على ذلك، لم يعد الخروج على ذلك التمايز العرقي خروجا على الإسلام، بل إنه - على العكس - تم باسم المبادئ الإسلامية ذاتها. ومن ناحية أخرى نجد أن تعالي بعض العناصر العربية، التي لم تكن قد أُشْرِبَتْ بعدُ روحَ الإسلام الحنيف، وتعاملهم مع أهالي البلاد المفتوحة، بشيء من عدم الاكتراث، أوجد الأرض الخصبة، للخروج علي ذلك الحكم، الذي أتاح لبعض تلك العناصر العربية الفرصة للتحكم في رقاب المسلمين من غير العرب. خارجين بذلك عن أهم المبادئ الإسلامية التي تقضي بأن مقياس التفاضل بين الناس في عالم الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، وليس الجنس أو اللون أو الحسب أو السلطان.

وخلاصة القول فإن المسعودي - (في مروج الذهب جـ٢ ص١٩٤) - أورد مجمل أسباب زوال ملك بني أمية نقلا عن بعض شيوخهم عقب زوال ملكهم، حيث قال ذلك الشيخ:

«إنما شُغِلْنا بلذاتنا عن ما كان تفقده يلزمنا، فظلمْنا رعيتَنا، فيئسوا من إنصافنا، وجار عمالُنا علىٰ رعيتنا، فتمنوا الراحة منا، وتُحومل على أهل خراجنا، فجلُوا عنا، وخربت ضياعنا، فخربت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جنودنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا، وطلَبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا».

وهنا يبرز سؤال هام هو : هل كانت أسباب الثورة على الحكم الأموي متشابهة في جميع الأقاليم ؟، والجواب بالقطع : إن أسباب ودوافع الثورة لم تكن واحدة، كما لم تكن أيضا متشابهة في أقاليم الدولة الإسلامية.

فلقد وُجدَ في الجزيرة العربية أُناسٌ ساءهم ألا يأخذوا نصيبهم من غنائم الفتوح. فنشبت خصـومةُ بين عرب العراق وعـرب الشام، وانتشر عرب الـعراق أيضا في إيران وآسيا الوسطى، في حين انتـشر عرب الشام في مصر والمغـرب والأندلس. هذا، فضلاً عن الخلافات القبلية التي اشتدت حدتها آنذاك باشتداد ظاهرة الخلاف عموما.

ولا شك في أن العودة إلى المنازعـات القبلية يُعَدُّ ارتدادا إلى ضـرب من ضروب فوضى الجاهلية البدوية، التي كانت قد اخـتفت تماماً يوم امتلأت نفوس المسلمين بنسائم العقيدة الخالصة العبقة الشـذى، المعطرة بسيرة خاتم المرسلين. فلقد عادت روح الجاهلية البـدوية تطل - كالأفـاعي - برأسهـا حين خـرج المسلمون عن خط الإيمان الإسـلامي الصحيح، كمـا رسمه لهم قرآنهم ورسولهم -عليه الصلاة والسـلام. وما نزعة الخوارج إلا ذريعة أيديولوجية لمثل تلك الفوضـى، وإن بدت - من حيث المبدأ - بعيدة عن تلك المشاحنات القبلية والعِرقية، التي صبغت ذوقَ الخوارج أيضا بصبغتها.

كذلك سرت مشاعر الغضـب بين جموع الموالي (المسلمين من غير العرب) بحكم وضعـهم غير المستقـر بالنسبة للـحكم الأموي، وما فـرضه ذلك النظام من تشـريعات ضريبيـة منافيةً لروح الإسلام الحنيف. فـقد ظل الموالي أدنى مرتبة من قـدماء المسلمين ومن العرب عامة، لكنهم مع كل ذلك لم يقفوا من الإسلام مـوقفا عدائيا؛ لأن القضية لا تكمن في عيب النظام الإسلامي ذاته، بقدر مـا تكمن أساسا في أسلوب تطبيق تلك المبادئ العادلة بطريقة غير سليمة، تخرج بها عن نطاق العدل والقسط.

ولقـد رأى الموالي أن مـا ينهـضـون به من عبء خطيـر في المجـتـمع العـربي الإسلامي، جدير بجعلهم يشاركـون في قطف الثمرات مع العرب الحكام. ولا شك أن وجود مـثل هذا الوضع الغير مـستقـر، سيؤدي حـتما في يوم من الأيام إلى حـركة أو انتفاضة لا دافع لها ولا راد.

ومن ناحية أخرى، دار نقاش كبير حـول الحقوق التي كان ينسبها إلى آل البيت، قطاع متزايد من جمهور المسلمين.

كمـا دار جدل حـول موضوع الـثأر، ممن تنكروا لتلك الحـقوق بعـد أن لطخوا أيديهم بدماء آل البـيت. فإذا وجدت وقتـئذ أسباب - ولو حـملت طابعا اجتمـاعيا - فذلك لأن السلطة لا يمارسها صاحب الحق الشرعي فـيها. وإذا كانت هناك أسباب دينية للتذمر فذلك لنفس السبب. وبذلك فلن يقر للأمور قرار إلا إذا وُلي الخلافة رجل جدير بها، يقضي حـتما على كل هذه المصاعب بهدى من الله وتوفيـقه . ذلك الرجل الجدير بالخلافة لا بد أن يكون - حسب رأي البعض - من آل البيت.

الخوارج والشيعة وحركاتهم المناهضة لبني أمية :

من العسير علينا أن نصل إلى التقييم الصحيح للحركات السياسية والدينية التي لم تصلنا أخبارها إلا عن طريق المؤلفين الذين عاشوا في عهد لاحق، وقيّموا الأمر تبعا لمذاهبهم ولمصلحة هذه المذاهب التي تطورت تطورا كبيرا، وكان الموضوع الرئيسي للنقاش الديني يدور حول المؤهلات التي ينبغي أن تتوافر في الرجل الذي تعقد له الإمامة، وحول سلوك الجماعة الإسلامية تجاهه. فما هو الموقف من الرؤساء الذين لا يتحلّون بمثل تلك الصفات والمناقب ؟ ولعل هذا هو ما أضفى على حركة الخوارج سمة من سمات النبل والعظمة. فجذب إليهم - إلى جانب البدو - أُناسا مستنيرين، اتصفوا بصفات روحية عالية صافية.

وصفوة القول، أن المسلمين وقفوا بصدد تلك القضية الرئيسية مواقف ثلاثة :

أما الفئة الأولى وهي الخوارج : فترى أن الخلافة لا تعقد عندهم الا للرجل الذي اختاره الله بوصفه أفضل المسلمين. وكان الخوارج - عشية صفين - يجهلون كيفية انتخابه، ثم قر رأيهم على أن يتم ذلك باتفاق أولياء الأمر أو بإجماع المؤمنين. واستقر رأيهم على أن الخليفة الصالح قد يكون سليل أي عائلة من العائلات، أو أي قوم من الأقوام دون تفضيل لجنس أو لون أو حسب أو جاه (ومن هنا كان أثرهم البالغ في أقوام كالبربر مثلا). لكن غلبة العنصر البدوي في صفوفهم نفرت منهم فعلاً معظم أهالي البلاد باستثناء البربر، فلم يَقْوُوا على - إنشاء إمارات أوسع من الإمارات المحلية. ثم راحوا يحددون المعيار الصحيح «للمسلم الفاضل». فقالوا: إنه لا بد أن يتحلى بالإيمان، وهذا شيء مُسَلَّم به، ولابد من قيامه بالصالحات من الأعمال. أي أن كل سيئة قد تؤدي إلى خلعه. ثم ساورت الخوارج - شيئا فشيئا - فكرة ضمنية مفادها «أن الإنسان - أو الزعيم - مسئول عن أفعاله أمام الله سبحانه وتعالى». وهذا يعني الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة، وبمبدأ الجبر مع الاحتفاظ بقدر من الحرية الإنسانية. وفي هذا المثل الأعلى سمو رفيع، وهو كذلك لا يخلو من مثالية ليس من اليسير تنفيذها؛ ولذا تاقت نفوس الخوارج للتقوى والطهر واعتزال الناس، كما تاقوا إلى الشهادة في الجهاد ضد أشرار الناس، ولم يقصدوا في يوم من الأيام إلى جمع العالم الإسلامي تحت رايتهم.

ويرى البعض من غير الخوارج : أن يكون الخليفة من أفضل المسلمين، لكن هذا لا يعني إدعاء الحق في تجزئة الأمة أو الخروج على الزعيم الذي لا يتحلى بالفضيلة.

وترى هذه الفئات أن مناقب الخـلافة لا يملكها إلا أفراد من آل البيت، اجـتباهم الله، وميّزهم على العالمين بـ «نورانيـة» خاصة تعيـنهم على تفسيـر الوحي المنزل. أما الغلاة فقد نسـبوا إلى الخليفة - تقديسا لـه - صفات تسمو على الصفـات الإنسانية قد تصل به إلى مرتبة الألوهية.

وبصرف النظر عن كل تلك المبـالغات، فإن المسلمين كـانوا يريدون الوقوف على الصفات أو الإمارات الـتي تعينهم على معرفة الرجل الجدير بالإمـامة؛ لأن الإمام ليس زعيما أو حاكما دنيويا فحسب بل خـصه الله - سبحانه وتعالى - بميزات وفضائل تجعله يهدى المؤمنين «سواء السبيل».

كمـا رأى بعضهم أن اكتـساب هذه الفضـائل ممكن بالدرس والتحصـيل فقط أو بالتحصيل والكفاح في سبيل الخلافة... وهذه الفكرة شاعت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي.

واستنكرت **فئة ثالثة** أن يُنصَح الإمام بالسعي والكفاح خوفا من أن يقع - الرجل الموهوب - في مكاره لا قبل لـه بها. وقد ساقـهم هذا إلى التنويه بصفـات باطنية على الإمام أن يخفيها عن الناس فترة من الزمن وأن يحرص عليها.

وهناك نقطة أساسيـة أخرى في نظر المؤمنين وهي : كيف السبـيل إلى أن يتيقنوا من أن المرشح هو إمامهم ؟ هل يقنعون بتعيين من سلفه أم لابد أن ينتقل إليه نصيب من النبوة بهذا التعيين ؟ أم بدونه ؟ وفي هذه القضايا استعانوا بالأفكار والقضايا القديمة التي تتكلم عن تناسخ الأرواح، وهي أفكار بعيدة تماما عن الإسلام نصا وروحاً.

والواقع أنه وإن تزايدت على مر الزمن أهمية آل البيت إلا أن حزبا واحدا حقيقيا لم يتكون للدفاع عن مـصلحتهم. ومن هنا كـان الأمل، الذي راود السوادَ الأعظم من أتباعـهم، هو أن الأسرة العلوية سوف تُؤَمِّن - في الوقت المناسب - إجـماع الناس من حولها، ليتولى الخلافة مرشحها، متجاوزة في ذلك جميع المنازعات بين الفروع العلوية.

ذلك - على وجه التقـريب - كان الوضع الاجتماعـي والفكري الذي كان سائدا منذ حوالي عام ١٢٢هـ/ ٧٤٠م. ونحن لا يعنينا استعـراض تفاصيل الفتن المختلفة، ولا اضطهاد المذاهب والشيع على نحو ما ترويه لنا النصوص بقدر متفاوت من الوضوح.

* * *

البيت العباسي

يعتبر عبد المطلب بن عبد مناف هو أساس هذا البيت، وقد بقي عقبه من كثير من أولاده ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من وَلَدَيْه العباس وأبى طالب اللذين ملأ بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الإسلامية من أقصى حجر في بلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر في أواسط آسيا. ولكل من البيتَيْن تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الإسلامية، وفيما يلى نبذة موجزة عن هذا البيت العباسي.

العباس بن عبد المطلب:

ولد العباس بن عبد المطلب قبل حادث الفيل بثلاث سنين، وكان العباس من سادات بني هاشم وعقلائهم، وصديقا وفيا لأبي سفيان صخر بن حرب. ولما جاء الإسلام كان العباس من المخلصين لرسول الله ﷺ وإن لم يُظهر متابعته حين الهجرة، وهو - أي العباس - الذي تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الأنصار. وقد توفي العباس بن عبد المطلب في خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ)، يوم الجمعة ١٤ رجب الفرد سنة ٣٢هـ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع. وقد أعقب العباسُ الفضلَ، وهو أكبر أولاده، وبه كان يُكنَّى، وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، ومعبد، وأم حبيبة، وأمهم جميعا لبابة بنت الحارث بن حزن، من بني هلال بن عامر من قيس عيلان.

عبد الله بن العباس:

هو الولد الثاني للعباس بن عبد المطلب، ولد قبل الهجرة بسنتين، وكان الرسول ﷺ يحبه ودعا له فقال «اللهم علمه التأويل». فكان رضي الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه في الدين «على ما أوتيه من لسان طلق ذلق، غوَّاص على موضع الحُجَّة». وكان عمر رضي الله عنه يحبه، ويدخله مع كبار الصحابة في مجلس شوراه، ويستفتيه في كثير من المسائل على صغر سنه. وقد ولاَّه عثمان -وهو محصور- الموْسِم سنه ٣٥ من الهجرة فأقام الموسم . ولما بويع علي رضي الله عنه بالخلافة، كان له عضدا ونصيرا في حروبه كلها. وولاه البصرة وأعمالها. وقد رحل إلى مكة ثم أقام في الطائف.

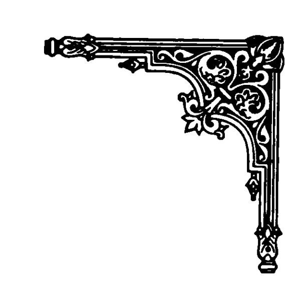
وقد ظل عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مقيما في الطائف طوال حياة معاوية كلها. وكان معاوية يجالسه ويتودد إليه كثيرا، كما كان يفعل مع سائر بني هاشم، وكانت وفاته سنة ٦٨هـ.

وعبد الله بن العباس هو الذي نما من نسله البيت العباسي؛ لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق، وعَقِبُ عبد الله الذي نما إنما هو من ولده علي بن عبد الله بن العباس.

علي بن عبد الله بن العباس (ت١١٧ هـ):

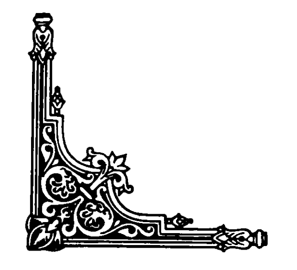
أمه زرعة بنت مشرح بن معد يكرب من كنده. ولد ليلة قُتِلَ علي بن أبي طالب سنه ٤٠ من الهجرة، فسمي باسمه وكني بكنيته أبي الحسن. وكان سيدا شريفا بليغا وسيما، كثير الصلاة، فارعَ الطول، «حتى إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله». وقد أقطعه بنو أمية قرية الحُميّمة بالشراة (وهي بلدة بالشام في طريق المدينة من دمشق، بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء) فأقام بها، وفيها ولد أكثر أولاده، وكانت وفاته سنة ١١٧هـ. وقد أنجب علي بن عبد الله بن العباس اثنين وعشرين ولدا وإحدى عشرة أنثى.

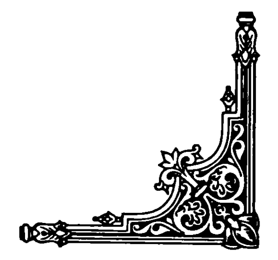
* * *



الفصل الأول

نشأة فكرة الخلافة عند بني العباس





١- الدعوة العباسية:

يصور مؤرخو الملل والنحل المذاهب الإسلامية على أنها الأقسام الدينية الكبرى، ثم يُشَعِّبون هذه المذاهب إلى فرق، والفرق الى طوائف، والطائفة إلى ملل، والملة إلى طرق، والطريقة إلى نحل، ثم يصتعون لكل من هذه الأقسام والشعب آراء دينية وفلسفية واضحة، ويحاولون الربط بين هذه المذاهب وأقسامها وشعبها، بشبكة متقنة من الآراء والأفكار(١).

ومع هذا فإن الدراسات الحديثة تشكك وتتساءل عن حقيقة وجود بعضها (٢). فيقول مونتجومرى وات إنه «على الرغم من كثرة الإشارات فى كتب الملل والنحل إلى فرقة الجهمية، فإن هذه الفرقة لم توجد أصلا، فالمعلومات المحددة عن بعض الأشخاص الذين يعرف الشيء القليل عن تاريخهم هى أوثق وأغلى من الأوصاف العامة للطوائف»(٣).

أما علماء الكلام فقد غَيَّروا الكثير من وصف أهل الملل لتاريخ الملل الأول. ومن الباحثين المعاصرين من اعتبر فرقة الهاشمية من فرق الغلاة. فيذكر برنارد لويس أن العباسيين -الذين خلفوا الأمويين- عرفوا بالهاشميين، نسبة إلى «هاشم» الجد الأعلى للعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب والرسول محمد ﷺ. وقد اتخذ أساسا للادعاء بالوراثة الأدلة المستندة إلى القرآن ومن الرسول ﷺ (٤). وهذا الاسم -الهاشمية- له أهمية خاصة. فهو يشرح الأصل الحقيقي للحزب العباسي. ففي خلال حكم بنى أمية فإن عددا كبيرا من الفرق الشيعية والمناصرة للشيعة، يمكن تقسيمها بصورة عامة إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول: هم الذين يتبعون أولاد فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. وهم معتدلون عموما، ويؤيدون المطالب السياسية لأبناء على بن أبى طالب رضي الله عنه.

---

(١) محمد عبد الحى شعبان: الثورة العباسية، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى، دار الدراسات الخليجية، أبوظبى، ١٩٧٧، ص٢٢٣.

(٢) محمد عبد الحى شعبان: نفس المرجع، ص٢٢٣.

(٣) و. م. واط : الاتجاهات السياسية عند المعتزلة (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، عام ١٩٦٣، ص٤١-٤٢).

(٤) محمد عبد الحى شعبان، نفس المرجع، ص٢٢٤.

والقسم الثاني: الذين ظهر لأول مرة في ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي (الكيسانية) الذي خرج عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ م، يدعو إلى ولد آخر من أولاد علي بن أبي طالب -من غير ولد فاطمة- هو محمدابن الحنفية(١).

وقد انقسم أتباع محمدابن الحنفية بعد موته في عام ٨١ هـ / ٧٠٠م إلى ثلاثة أقسام رئيسية، تبعت إحداها ابنه عبد الله «أبا هاشم» وعرفت «بالهاشمية». فلما مات أبو هاشم دون عقب في عام ٩٨ هـ / ٧١٦ م تشتت أتباعه إلى جماعات، ادعت إحداها أن «أبا هاشم» أوصى بالإمامة من بعده إلى محمد بن علي بن العباس، حين حضرته الوفاة في دار علي بن عبد الله (أبي محمد) في الحميمة من أرض فلسطين. وهذه الجماعة ظلت تُدْعَى «الهاشمية» كما عرفت أيضا «بالراوندية»(٢).

وقد ذهب المستشرق «كلود كاهن» إلى تفسير جديد للفظ «الغلاة»، بأنهم المتطرفون الذين يبالغون في تعظيم شخصية ما إلى درجة التقديس، بإضفاء صفات إلهية عليها(٣)، وهذه الشخصية هي «الإمام».

وتتفق فرق الشيعة على أن العلم هو مصدر سلطات الإمام وصفاته. إذ المفروض في الإمام أن يحيط إحاطة تامة بالعلوم الإلهية، التي بها يستطيع حل مشاكل الأمة الإسلامية. وعلى ذلك فالفرق الشيعية تحتاج الإمام، ليكون أميرا للمؤمنين، يجمع في يديه السلطتين الزمنية والدينية معاً(٤).

وقد يساعدنا الإلمام بوصف مختصر لتطور فكرة «إمرة المؤمنين» وواجباتها على توضيح أوجه الخلاف حول هذا الموضوع.

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه -وهو أول من ولي شئون المسلمين بعد رسول الله ﷺ- لم يكن «أميرا للمؤمنين»، وإنما كان «خليفة رسول الله»(٥).

وقد اختير أبو بكر ليجمع كلمة المسلمين حوله، وليحمي حوزة الدين، الذي جاء به النبي الكريم محمد ﷺ، ومن الواضح أن أحدا لم يسبق أبا بكر إلى هذا المنصب،

---

(١) لويس برنارد : العباسيون، (دائرة المعارف الإسلامية) ليدن، ١٩٥٤ م، Abbassides.

(٢) لويس برنارد : العباسيون، (دائرة المعارف الإسلامية) ليدن، ١٩٥٤، محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٤.

(٣) كاهن كلود، وجهة نظر حول الثورة العباسية (المجلة التاريخية ١٩٦٣)، ص٣٠٩.

(٤) محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٥.

(٥) انظر ابن خلدون، المقدمة، الفصل السادس، ص ١٥٩.

ولذلك لم يكن لديه سوابق يعتمد عليها ويهتدى بها. كما أن من الواضح أيضا أن أبا بكر لم يكن يستطيع ممارسة كل الصلاحيات التى كانت للرسول. وساعد على غموض الموقف اختلاف المفسرين -قدامي ومحدثون- على معنى كلمة «خليفة» (١).

«فمونتجومرى وات» مثلا يرى أن المعنى الأول لكلمة «خليفة» هو أن يخلف شخص شخصاً آخر ويحل محله فى أمر ما (٢).

فلما نجحت تجربة الحكم الإسلامي فى عهد الصديق تقرر السير بها قدما. ولهذا رشح أبو بكر عُمَر من بعده، فلقى ترشيحه قبولا من جمهور الأمة، وتلقب بـ «أمير المؤمنين»، وهو ما يعنى أنه ولى أمرهم وقائدهم. فكلمة «أمير» تعنى : الملك، والرئيس، والوالى، والحاكم، وقائد العميان، والبعل، والناصح، والجار، والمشير. وهذا الأخير هو الذى يهمنا فى هذا الصدد (٣). فقد كان لقب أمير المؤمنين يعنى فى أول الأمر «مشاور». وقد سماه المؤرخ اليوناني ثيوفانيس 'Theophanes' «المشاور الأول» (٤). الأول بين أقرانه 'Primus Interpares'.

وعلى هذا اختير عمر مشاورا للجماعة المسلمة دون أية سلطة قيادية. وإذا كان عمر رضي الله عنه قد أفاد من شخصيته القوية فى ممارسة صلاحياته، إلا أنه ظل يراقب نفسه بكل حذر وعناية خشية أن يتعدى حدود ما رُسِمَ له (٥).

فلما طُعِنَ عمر برزت مشكلة مستقبل النظام السياسى كله فى دولة الإسلام بعد عمر، الذى لم يستخلف من بعده فردا بعينه، بل فضل أن يختار جماعة الشورى لتقرر النظر فى ترشيح من يخلفه. وقد جاء اختيارهم مبنيا على فحص دقيق لسياسة كل من المرشحين ودراسة شاملة لكل الأوضاع فى الدولة. واستقر الترشيح على اثنين هما : عثمان، وعلي الذى لم يرض بالترشيح على أن «يتبع نهج الشيخين (أبو بكر وعمر)». أى أن تكون سلطته فى الحكم محدودة، وإنما طلب حرية العمل حسب اجتهاده قائلاً : «ولكن على (قدر) جهدى من ذلك وطاعتى». وما كان مطلب عليّ ذلك طمعا فى

---

(١) راجع صابر دياب، الخلافة ونظام الحكم فى الدولة الإسلامية.
(٢) وات، م ، الفكر الإسلامي السياسى، ١٩٦٨م، ص٣٢ عن م.ع شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٦.
(٣) ابن منظور، لسان العرب كلمة «أمر».
(٤) فلهاوزن، الإمبراطورية العربية، ص١٣٨.
(٥) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٧.

الاستئثار بالسلطة، وإنما ليواجه متطلبات الظروف المتغيرة الجديدة أو المستجدة. أما عثمان فوافق على الترشيح على أساس أن يتبع نهج «الشيخين» [١].

بويع عثمان بالخلافة، وتولى السلطة فى ظل ظروف تموج بموجات اضطراب وقلق، وتحولات عميقة نجمت عن حركة الفتوح الإسلامية، وتقرير العطاء للجند والقبائل العربية، وتمسك الأشراف بأن يكون لهم وضعية خاصة متميزة فى العطاء، مما خلق حالة من التذمر والتوتر.

ولكن سرعان ما أدرك عثمان عجزه عن الوفاء بما التزم به، وشعر بالحاجة إلى مزيد من السلطة الدينية والزمنية، لينهض بالمهام الموكولة إليه، ويعالج المشاكل التى تواجهه. وليس عثمان بالحاكم الضعيف، بل بالعكس، فقد كان يحاول أن يكون قويا. فابتدأ بسلسلة من المغازى فى الشمال الأفريقى وإيران (بلاد فارس)، وعين أمراء أشداء لقيادة تلك البعوث والحملات. ولم يكن إحلال أخيه من الرضاع «عبد الله بن سعد بن أبى سرح» محل عمرو بن العاص مجرد عمل من أعمال المحسوبية والتعصب لذوى قرباه، بل كان له دلالة أعمق من ذلك وأبعد. إذ تعمد عثمان تنحية والٍ صلب الرأي حرٍّ الذهن والتفكير، ليحل محله آخر يستطيع أن يثق فيه ويطمئن إلى طاعته وولائه[٢].

وكان عثمان يحاول تأكيد سيطرته على الولايات عن طريق تعيين رجاله ولاةً وعمالاً عليها. وعلى هذا يمكننا تفسير الكثير من أعماله التى شكت منها بعض الفئات الإسلامية؛ ذلك أنه كان يهدف إلى تقوية سلطاته وتشديد قبضته كأمير للمؤمنين. وكان أعنف معارضيه في سياسته هذه هم رجال القبائل العربية فى الولايات الجديدة وهم الذين خرجوا عليه فى النهاية وقتلوه [٣].

وقد جزع أهل المدينة للتطور غير المتوقع للأحداث، وظلوا بعد مقتل عثمان خمسة أيام وهم لا يجدون من يرضي بتولى مسئولية الحكم، ويقبل أن يكون أمير المؤمنين الجديد[٤]. وأخيرا اضطر عليٌ -تحت ضغط الأحداث السائدة- إلى قبول الحكم فى أسوأ ظروف ممكنة. وانقسمت الجماعة الإسلامية على نفسها أسوأ انقسام وأعمقه،

---

(١) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٧، وراجع : البلاذرى، أنساب الأشراف، ج٥، ص٤١/٤٢، والطبرى ١/ ٢٧٩٣-٤.

(٢) الطبرى، ج١، ص٣٠٧٣.

(٣) محمد عبد الحى شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٩.

(٤) الطبرى، نفس المصدر، ج١، ص ٣٠٧٣.

وكان علَى علِىٍّ أن يقبل تولى الخلافة وشئـون الدولة فى هذه الظروف الصعبة. كما أن قريشا كانت ترى أن ظروف نـشأته فى بيت محمد ﷺ قد قللت من اهتـمامه بالمصالح المكية. وكـان طلحة والزبيـر هما زعـيمى المعارضـة المكية لعلى، ولكنهـما فـشلا فى الحصول على تأييد واسع لقضيتهما ضده(١).

وكانت قوة عليّ تستند على ائتلاف جماعـات متعددة، كانت ترجو أن تؤثر عليه لتحقيق مصالحها الخاصة. فـقد أصبح على بطل قضية الأنصار من أهل المدينة، وخاصة حينما بدأ هؤلاء يشعرون بالإهمـال بعد وفاة رسول الله ﷺ. وقد وقف أهل المدينة مع علي حتى اللحظة الأخيرة رغم أنهم ما كانوا ولم يصبحوا أبدا من الشيعة (٢).

ولقد كانت الكوفة بجميع فئاتها مع علي أيضا، على أمل أن يصحح علىٌّ طريقة توزيع الغنائم تصحـيحا جوهريا يحـقق مساواتهم مع زمـلائهم المؤسسين الأوائل. لكن عليا سرعان ما أدرك صعوبة التوفيق بين مـختلف المصالح والفئات فى الكوفة، لشدة ما كان بينها من تناقض وتباين، بحيث صار إرضاء أية فـئة منها يؤدى إلى إغضاب الفئات الأخرى(٣).

وكان الخوارج أول من خرج على علىٍّ من أنصاره وعارضوه بقوة وعنف، لأنهم رأوا فى نظرته للأمور وشرحه للنصوص خطرا يهدد مصالحهم؛ ذلك أنهم كانوا يريدون تطبيق حكم الله أى حكم القرآن كـما يَرْون هم، لا كما يفسـره الآخرون. فهم يريدون أن يكون أمير المؤمنين مجرد اسم لا سلطة له أبدا. هذا بينما أيد القادمون اللاحقون إلى الكوفة عليا، واعتبروه هو الخليفة والإمام، وصاروا شيعة، على أمل أن ينصفهم التغيير الذى كان يريده على بن أبى طالب، نظرا لما كـان يتصف به على من علم وإلمام وإدراك لكُنْه آيات كتاب الله الحكيم، ومعرفة بجوهر معانى وأهداف أحاديث النبى محمد رسول الله ﷺ. وهذا العلم وتلك المعرفـة صارتا هما حجر الزاوية فى الاعـتقاد الشيعى فـيما بعد(٤).

لكن انفراط عقد ائتلاف الجماعـة الإسلامية من حول على-إلا قليلاً منهم- أدى إلى أفول نجم علي بن أبى طـالب وخسرانه لقـضيته، لـدرجة أنه دفع حيـاته ثمنا لهذا

---

(١) محمد عبد الحى شعبان، الثورة العباسية، ص٢٢٩.

(٢) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص ٢٣٠.

(٣) م. ع. شعبان، نفس المرجع، ص٢٣٠.

(٤) راجع م.ع. شعبـان، الثورة العباسـية، ص٢٣١، وعنه راجع و. م. واط، فكرة البطولة فى الإسلام، ص ٨٥، والفكر الخارجى فى العصر الأموى، (مجلة الإسلام Islam، مجلد ٣٦، ص٢١٧).

الفشل الذى مني به، وهو مـا وقع لابنه الحسن من بعده، الذى لم يجد التـأييد الكافى لموقفـه فى مواجـهة معـاوية بن أبى سفـيان، مما جعـله يؤثر التنازل عن حقـه فى إمرة المؤمنين، والمناداة بمعاوية خليفة وأميرا للمؤمنين [1].

وقد عالج معاوية (أمير المؤمنين) الموقف بكل حـصافة وأناة وتعقل، مفضلاً عدم إظهار مـا لديه من قوة أجناد الشـام. فأظهر قـبولاً لمشـاركة رؤساء القـبائل العـربية له الحكم، وحاول إزالة بعـض المظالم فى العراق. فكان توازن القـوى الدقيق الذي حققـه يعتمد أولاً وقـبل كل شيء على شخصه بالذات. ثم سرعان مـا عادت الأمور من بعد إلى ما كانت عليه من اضطراب وتوتر.

فكانت ثورة الحسين بن على، الذى اعتبر نفـسه أحق بالأمر من غيره، ولكنه لم ينجح فى ثورته، كما استغل أهل مكة تدهور الموقف محاولين استعادة نفوذهم. فأقاموا برئاسة عبد الله بن الزبير نظام حكم منافس ومناوئ لبنى أمية.

وإذا كان هذا النظام الذى أقامه المكيون بزعامة عـبد الله بن الزبير قد لقي اعترافا واسعـا، إلا أن التأييـد له لم يكن على جانب كـبيـر من القوة والحمـاس. إذ لم تكن الجمـاعة المسلمة-وخاصـة جند الشام- على استـعداد للانضواء تحت لواء عـبد الله بن الزبير. وقـد استطاع مـعاوية مع أهل الشـام -بعد فـترة من الوقت- أن يحقـق بالقوة العسكرية السيطرة -إلى حد كبير- على أنحاء الدولة الإسلامية كافة.

وقد تميزت هذه الفتـرة بالارتباك العام والفوضى الشاملة. فالـبصرة -التى كانت معرضة لخطر ماحق من الخوارج- كانت على اسـتعداد للقبول بأية سلطة تدفع عنها هذا الخطر. بينما ظلت الكوفة مركزا ومهدا للحركات الثورية. وقد اعتقد بعض أهل الكوفة أن حكم بنى أمية قد انتهى بوفاة يزيد بن مـعاوية عام ٦٤ هـ / ٦٨٤م. فظهرت حركة التوابين - وقوامها نحو أربعة آلاف نفـر- من أبناء القبائل العربية فى الكوفة يتوبون لله تعالى عن مقتل الحسين بن على، وينتقمون من قاتليه [2].

كما ظهـرت فى الكوفة أيضا حركـة المختار بن أبى عبيـد الثقفى الشيـعية، التى كانت تسعـى لتغيير الأوضـاع. وقد نسبت دوافع ثورة المختـار خطأ إلى سخط الموالى، بينما الحـقيقـة أن أكبر مجـموعة للمـوالى بين أتباع المختـار لم يتعد عـددها نحو ألفين

---

(١) م.ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٣١.

(٢) م. ع. شـعبـان، الثـورة العـباسيـة، ص٢٣٢-٢٣٣، وعنه راجع كلود كـاهن، ص٣٠٣-٣٠٥، و. م. واط، الشيعة تحت الحكم الأموى، المجلة الآسيوية الملكية، ص١٦٢-١٦٥.

وثلاثمائة رجل فقط [1]. وكان أول من أيد الحركة هو إبراهيم بن الأشتر النخعي ورجاله، ولم يكن منهم أحد من الموالى.

أما عن المختار بن أبى عبيد الثقفى نفسه، فقد كان رجلاً انتهازيا. وقد اعتقد أن توتر الأوضاع السياسية سوف يمكنه من إعلان أمره فى الكوفة، تحت ستار المناداة بالإمامة لأحد أبناء على بن أبى طالب وهو «محمد ابن الحنفية»، الذى كان يسكن الحجاز آنذاك، ووافق أن يمنح اسمه لثورة المختار. فنودى «بمحمد ابن الحنفية» «إماما»، وأعلنت الثورة باسمه ولقّبه المختارُ «بالمهدى»[2].

ولعل المختار قصد بإضفاء هذا اللقب أن يؤكد الصفة الشرعية الدينية للإمام، لتتميز تجاه ذلك صفة «المختار» نفسه أمينا أو وزيرا، ولينفرد بالتالى بالسلطان الزمنى عند نجاح الثورة. وقد نجح المختار فى إقناع أبناء القبائل، الذين كانوا سنده ومصدر قوته، بشرعية حركته.

ولقد كان الأشراف هم أقوى المعارضين للمختار فى الكوفة، لتمتعهم بامتيازات خاصة، وكان عليهم فى النهاية أن يتركوا الكوفة ويلحقوا بابن الزبير فى البصرة حيث كونوا وحدة قوية فى جيشه استطاعت أن تضع حدا لثورة المختار[3].

فلما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة أقام حكومة مركزية قوية. ولم يحاول هو أو أى من خلفائه الادعاء بأى سلطة دينية. بل تمتعوا بسلطات زمنية أوسع من سلطات معاوية مؤسس الدولة. كما تركزت اهتمامات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على إصلاح ما أفسدته سياسات أسلافه، دون أن يكون ذلك على حساب هيبة الحكومة المركزية.

ومع أن الأمويين استطاعوا ضبط الأمور بشكل فعال بصفة عامة، إلا أن سياستهم لم تُرْضِ كل العناصر، التى خرجت منها بعد ذلك. وكان لكل ثورة أسبابها الخاصة بها النابعة من ظروف المنطقة المعنية. وكانت أغلبها عبارة عن احتجاجات لهذه المظلمة أو تلك، التى يفرض عليهم النظام القائم وأنصاره [4].

ذلك أن الخوارج اتفقوا على أنهم يريدون أميرا للمؤمنين دون صلاحيات زمنية أو دينية. بينما أجمع الشيعة على أن يكون أمير المؤمنين إماما له القدرة على تفسير

---

(١) البلاذرى، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٤٦.

(٢) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٣٤.

(٣) البلاذرى، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢١٤-٢٧٣.

(٤) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٣٥.

النصوص الدينية. معتمدين فى ذلك على تراث جهاد على بن أبى طالب، الذى جسده استشهاد ابنه الحسين فى كربلاء، وقرابته للرسول ﷺ.

وقد رأى الشيعة أن من حقهم إمامة الأمة الإسلامية، وأن العلم الذى اشتهر به على انتقل إلى ذريته أو على الأقل من إمام إلى آخر. وكانت بعض هذه الفرق الشيعية تدعو للثورة المسلحة. بينما آثر البعض الآخر الانتظار حتى تحين اللحظة المناسبة دون أن تؤدى إلى انقسام الأمة الإسلامية[1].

وقد أعلن أهل الكوفة معارضتهم الصريحة لولاة بنى أمية، بمؤازرتهم لثورات المختار، ويزيد بن المهلب وغيرهما. مما دفع الأمويين إلى تقوية مركز جند أهل الشام فى العراق بقيادة مسلمة بن عبد الملك فى عام ١٠٢ هـ / ٧٢٠م. فقام الشيعة للتعبير عن معارضتهم باللجوء للعمل السري[2].

وقد برزت فى الكوفة في هذا المجال ثلاث حركات فى ذلك الوقت، الأولى حركة «بيان بن سمعان» الذي أُعدِمَ عام ١١٩ هـ / ٧٣٧م، وكان قد ادعى أنه مبعوث أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية (٩٨ هـ / ٧١٦م)، ثم غير ادعاءه إلى محمد الباقر (١١٣ هـ / ٧٣١م) من أحفاد الحسين بن على، وكانت الحركة الثانية هى حركة «المغيرة ابن سعيد العجلى»، الذى أعدم عام (١١٩ هـ / ٧٣٧م) أيضا. وكان هذا قد دعا أولا لمحمد الباقر، ولكنه كان عند موته يدعو إلى «محمد النفس الذكية» من أحفاد الحسن بن على، وقاد ثورة غير ناجحة ضد الخليفة «أبى جعفر المنصور» فقتل عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م.

أما الحركة الثالثة فكانت بقيادة «أبى منصور» الذى دَعَى إلى محمد الباقر أيضا، وقد قتل عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢م، واشتهر عن أصحابه قيامهم بخنق مناوئيهم (٣). كذلك كان زيد بن على أخو محمد الباقر قد قام بثورة مسلحة فى الكوفة عام ١٢٢ هـ/ ٧٢٠م، انتهت بمقتله، وهرب بعدها ابنه يحيى إلى خراسان حيث قتل هو الآخر هناك.

وفى عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤م قاد عبد الله بن معاوية، حفيد جعفر بن أبى طالب، ثورة مسلحة فى الكوفة. ولكن سرعان ما طُرِدَ من الكوفة، فعاد وظهر فى غربى إيران.

---

(١) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٣٦.

(٢) م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٣٦.

(٣) راجع م. ع. شعبان، الثورة العباسية، ص٢٣٦، وعنه راجع Montegomry Watt, Shites, P.168.

وقد طورد هناك ودُحِرَ على يد قوات بنى أمية. فاضطر للفرار إلى خراسان حيث اغتاله فيها أبو مسلم الخراسانى [١].

وتعتبر ثورة عبد الله بن معاوية ثورة شيعية الملامح، ما دام قائدها واحدا من بيت النبوة. وإن كان أنصار عبد الله بن معاوية لم يقتصروا على شيعة أهل الكوفة فقط. وكان من أبرز رجالات ثورته -من غير الشيعة- من العرب منصور بن جمهور الكلبى من قواد أجناد الشام، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وشيبان الزعيم الخارجي. كما انضم إليه بعض بنى العباس كأبى جعفر المنصور[٢] نفسه.

وكان اختيار عبد الله بن معاوية للكوفة ثم إيران مكانا لثورته، سببا فى هزيمة حركته. حيث إن هذين المكانين كانا قريبين من معسكر جند أهل الشام فى واسط[٣].

ومع أن ادعاء عبد الله بن معاوية بالإمامة لم يكن أقوى من ادعاءات العباسيين بها، فقد استطاع أن يجمع حوله قوى المعارضة، ويصبح خطرا يهدد الدولة الأموية.

إذن ففى مثل هذا الجو يستطيع المرء أن يفهم سبب رضاء العباسيين بالدعوة إلى «الرضا من آل محمد». إذ إنهم كانوا واثقين من أن خطتهم ستؤدى إلى انهيار الحكم الأموى. وبعد ذلك فإن قدرة بنى العباس فى الاستيلاء على الحكم لن تكون أقل من قدرة غيرهم فيه إن لم يكن أكثر.

٢- الدعوة العباسية وطبيعتها في الميزان [٤]

لم يحاول المؤرخون الأوائل أمثال الطبري والبلاذري والدينوري والمسعودي وغيرهم - إعطاء تفسيرات واضحة عن طبيعة الدعوة العباسية، كشأنهم مع الحوادث والثورات ذات التأثير الكبير في التاريخ الإسلامي.

كما أن العباسيين حالوا دون انتشار بعض الكتب مثل تاريخ الموصل للأزدي، لاحتوائه على أحداث تُعرضُ بهم وبسياستهم، وخاصة حين يتكلم عن مجزرة الموصل التي خطط لها والي المدينة العباسي يحيى بن محمد - أخو الخليفة - بالتعاون مع قائد حامية المدينة محمد بن حمول (مولى قبيلة خثعم) سنة ١٣٢هـ، أي بعد

---

(١) الطبرى، ج١، ص١٩٧٧.

(٢) الطبري، ج١، ص١٩٧٧، عند م.ع. شعبان، الثورة العباسية، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) م. ع. شعبان، المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٤) استفدنا في هذا الموضوع بدرجة كبيرة من كتاب الدكتور فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي. نشر دار القلم، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد.

تأسيس الدولة العباسية بفترة قصيرة. حيث يذكر الأزدي العبارة التالية منددا بالعباسيين «ليس من الإسلام من يرتكب هذه المجازر»[١] . أما كتاب التاريخ لخليفة بن خياط فَحُجِبَ عن المشرق الإسلامي حيث قوة السلطة العباسية، نظرا لميول المؤلف الأموية، واعتماده على رواة أمويين ، وذكره روايات تندد بالعباسيين.

على أن المؤرخين المسلمين الأوائل ساقتهم دوافع عديدة - بطريقة شعورية أو لا شعورية - للتأكيد على بعض تعليقات قصيرة ذات دلالات كبيرة.

فالطبري مثلاً يذكر أن ملامح الثورة العباسية الدينية والسياسية كانت عباسية صرفة منذ بدء تنظيمها [٢].

بينما يرى ابن أعثم الكوفي في مخطوطته [٣] أن الدعوة كانت عامة لآل البيت الهاشميين، وأن العباسيين انقضوا عليها في نهاية المطاف واقتطفوا ثمارها. أما البلاذري فيظهر أهمية الأشراف ورؤساء القبائل في خراسان. بينما يؤكد كل من الدينوري في الأخبار الطوال وحمزة الأصفهاني في تاريخ سني ملوك الأرض على دور الموالي الفرس في الدعوة. ويبرزان فضل أبي مسلم الخراساني في نجاح الدعوة وانتصارها [٤].

هذا، ويعلل المسعودي سبب عدول أبي سلمة الخلال عن العباسيين إلى العلويين، ومحاولة تنصيب خليفة علوي «بخوفه من انتقاض الأمر بسبب عدم وجود شخصية عباسية قادرة على تحمل المسئولية بعد وفاة إبراهيم الإمام»[٥].

ولقد حاول الكثير من المؤرخين - شرقيين وغربيين - منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي البحث في تاريخ الدعوة العباسية وما حدث في أعقابها ، وجاء قسم منهم بتفاسير جديدة أو بأفكار مبتكرة أو بدراسة استقصائية ، يعوزها الشيء الكثير.

فقد فسر كل من المستشرقين الألمانيان «فان فلوتن» و «يوليوس فلهاوزن»[٦] الدعوة العباسية على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الحكام العرب. متأثرين في ذلك

---

(١) الأزدي : تاريخ الموصل (مخطوط) ورقة ١٢١ (نسخة شستربيتي ليبرري ، دبلن ، أيرلندا ، رقم ٣٠٣).

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك.

(٣) راجع فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٣٢.

(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ص٣٤٤ ،٣٥٥،٣٥٩-٣٦٠ وحمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض ص١٣٠ وما بعدها.

(٥) المسعودي : مروج الذهب جـ٦ ص ٩٣.

(٦) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات ترجمة حسن إبراهيم سنة ١٩٣٤ويوليوس فلهاوزن: الدولة العربية وسقوطها. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨م.

بالأفكار العنصرية التي كانت سائدة وقتـذاك في أوربا وخاصة ألمانيا. فنظرا للثورة على أنها صـراع بين الفرس والعرب أو الآريين والساميين. وأن الثورة العباسية لم تكن إلا نتيجة أخطاء ارتكبها العرب أيام حكم بني أمية ، الذي لم يعامل الشعوب الإسلامية غير العربية معاملة مساوية للعرب المسلمين ، مما أدى إلى ظهور القومية الإيرانية كسلاح ذاتي للشعب الفارسي المضطهد.

ويعقب على ذلك الدكتور فاروق عمر قائلاً [1] بأن «كلا من المستشرقَيْن نظرا بمنظار ضيق إلى طبيعة الدعوة العباسية. ففلوتن لم يتفهم جيداً وضع خراسان قبل وقوع الثورة. أما يوليوس فلهاوزن فرأى في النزعات القبلية والعصبية بين القبائل المستقرة في خراسان الأساس المحرك لفعاليات شيوخها ، وتتبع جذورها قبل الإسلام متخذا من أحلافها في الجاهلية دليلاً لتفسير أحلافها في الإسلام ، ولم يعر للظروف الجديدة التي نتجت عن هجرة القبائل إلى أقاليم جديدة مثل العراق وفارس وخراسان أية أهمية. والحقيقة أن الأحلاف الجديدة بين القبائل العربية في خراسان ، ربما تأثرت بالماضي حين كان العرب في جزيرتهم. ولكنها دون شك تطورت وتبدلت بتبدل الظروف في بيئتهم الجديدة في خراسان»[2].

كما رأى مستشرقون آخرون بأن للترك الساكنين في بلاد ما وراء النهر (ترانسكسونيا) دورا هاما في الثورة العباسية. وقد أورد ذلك المستشرق أرمينيوس فامبري في كتابه «تاريخ بخارى»[3].

أما المستشرقان الإنجليزيان البروفيسور هاملتول جب، والبروفيسور برنارد لويس ، فرأيا أن الدور الفعال في الدعوة العباسية كان للعرب من أهل خراسان وخاصة القبائل اليمنية منهم[4].

أما المستشرق «دانيال دينت» فقد أعلن أن الوجه السياسي للثورة وضعف مركز الخليفة «مروان بن محمد» - آخر خلفاء بني أمية - كان العامل المباشر لسقوط الأمويين؛ ولذلك اعتبر أن سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة خراسان بقدر ما كان بسبب ثورة بلاد الشام [5]. ومما يلاحظ على دينت كذلك اهتمامه بالواجهة السياسية للدعوة العباسية وإهماله الواجهة الدينية حيث لم يُشِرْ إليها إلا عرضا.

---

(١) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٣٤.

(٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية (١٣٢ - ١٧٠هـ/ ٧٥٠ - ٧٨٦م) الفصل الثاني ، بغداد ، ١٩٦٩م.

(٣) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٣٥.

(٤) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص ٣٤ ، ٣٥.

(٥) دينت : مروان بن محمد (بالإنجليزية) هارفارد. عن فاروق عمر: بحوث .. ص٣٦.

ويرى الدكتور محمد عبد الحي شعبان[1] والدكتور فاروق عمر أن هدف الثورة العباسية كان دمج كل المسلمين -العرب وغير العرب- في مجتمع إسلامي واحد، لكل فرد من أبنائه حقوق متساوية. وأن العرب المستوطنين بخراسان كانوا هم العنصر الرئيسي في الثورة، حيث اندمجوا مع السكان الإيرانيين ، الذين تذمروا من وضعهم بالنسبة للعرب الحاكمين ، ووضعهم تحت سلطة الدهاقين الفرس والمسئولين عن جباية الضرائب. وإن كان هؤلاء الموالي لم يكونوا بأعداد كبيرة؛ وذلك لعدم انتشار الإسلام في تلك الديار في هذه الفترة المبكرة بكثرة.

كما يؤكد الدكتور صالح أحمد العلي علي دور عرب خراسان في الثورة العباسية[2]. مستندا في ذلك على العديد من الروايات التاريخية عن هذا الموضوع في كثير من المخطوطات العربية التي منها مخطوط «أخبار العباس وولده» (لمؤلف مجهول)، ومخطوط «النبذة من كتاب التاريخ» (لمؤلف مجهول أيضا من القرن الحادي عشر) ، ومخطوطة «أنساب الأشراف للبلاذري» ، ومخطوطة «كتاب الفتوح» لابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) (الجزء الثاني) ، و «تاريخ خليفة بن خياط» وهو من أقدم كتب الحوليات في التاريخ الإسلامي (من السنة الأولي للهجرة حتى ٢٣٢هـ) وغيرها كثير.

وهكذا أثبتت العديد من الروايات التاريخية العربية أن الدعوة العباسية كانت موجهة أصلا إلى عرب خراسان. إذ انتشر الدعاة العباسيون في قرى مرو حيث استقرت القبائل العربية ، وفي كل مدينة فيها حامية أو رابطة عربية. باعتبار أن العرب هم وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان. وإذا كان بعض الموالي والفرس قد انضموا إلى الدعوة إلا أن دورهم لا يمكن مقارنته بدور القبائل العربية من أهل خراسان [3].

كما نلاحظ أن خراسان كان لها دورها الأساسي في الثورة العباسية دون شك. حيث كان لدى العرب المستوطنين في قرى مَرْو أسبابا للتذمر، ترجع إلى حرمانهم من

---

(١) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٣٦-٣٧ ،وعنه راجع م.ع.شعبان: الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية . هارفارد ، ١٩٦٠ (بالإنجليزية).

(٢) صالح أحمد العلي : استيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب ، بغداد، ١٩٥٩ .

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال ص٣٥٥ وما بعدها ، الأزدي : تاريخ الموصل ص١٩٠ وما بعدها ومخطوطة أخبار العباس وولده ص١٣٥ وما بعدها.

الامتيازات التي يتمتع بها المقاتلة من العرب ، كما أنهم - عرب خراسان - شاركوا الموالي والفرس الشعور بالاستياء من سطوة الدهاقين وغيرهم[1].

هذا ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن المقاتلة العرب كان لهم كذلك أسباب للتذمر نوجزها فيما يلي :

١- سياسة التجمير - أي إبقاء المقاتلة مددا طويلة في خطوط القتال والبعوث.

٢- قيام الوالي الأموي بأخذ حصتهم من الفيء والغنيمة وأحيانا يأخذ أكثر من حقه منها.

٣- النزاع المستمر بين شيوخ القبائل المتنفذين والرؤساء ذوي الطموح للوصول إلى السلطة. مما أوجد بين قبائل خراسان نوعا من القلق. فوجدوا في الدعوة العباسية أملا جديدا لحياة أكثر استقرارا ويسرا. [2]

٤- هذا فضلاً عن أن اضطراب بلاد الشام - قلب الدولة الإسلامية آنذاك -، وازدياد ثورات المدن السورية ضد حكم الخليفة مروان بن محمد، واشتداد مؤامرات أمراء بني أمية ضده، مما أفسح المجال أمام الدعوات السرية للعمل الفعال من أجل إسقاط نظام بني أمية.

فنشط الهاشميون بزعامة أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، الذي أوصى بالإمامة من بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. وبهذا تحولت الدعوة المنظمة إلى عباسية صرفة ، وضاعفت من فعالياتها في خراسان حيث أعلنت الثورة سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م [3].

٣- الواجهة السياسية للدعوة العباسية:

إذا كان للدعوة العباسية منطلقات عدة ، إلا أن من الأهمية بمكان إبراز الوجه السياسي للدعوة ، لبيان دور عرب خراسان في هذه الحركة وهو دور لم ينل حقه من الإنصاف.

---

(١) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٣٧-٣٩.

(٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية ف٢، بغداد ١٩٦٩م.

(٣) فاروق عمر : الجذور التاريخية لادعاء العباسيين الخلافة (مجلة كلية الدراسات الإسلامية ، ٦٧-١٩٦٨م).

فلقد تجاهل المؤرخون المُحْدَثون دراسة سياسة بني أمية الإدارية والمالية في خراسان، وردود الفعل لدى أهلها سواء من العرب أو العجم تجاه هذه السياسة. ولا شك أن معرفة حالة خراسان قبيل الثورة سيؤدي إلى معرفة أسباب التذمر وبالتالي أسباب الثورة.

والمعروف تاريخيا أن خراسان فُتِحَتْ على يد القائد عبد الله بن عامر بين سنتي ٢٩هـ/ ٦٤٩م و ٣٥هـ/ ٦٥٥م ، وأن مرزبان مرو عقد معاهدة مع المسلمين ترك للدهاقين بموجبها تقدير الضرائب وجبايتها. واشترطت المعاهدة على الإيرانيين السماح باستيطان العرب في قراهم. وهذا إجراء ذو أهمية كبيرة ، حيث إنه كان هو الأساس الذي بنيت عليه العلاقات بين العرب المسلمين وأهل البلاد الأصليين[١].

على أن الفترة ما بين ٣٥ و ٤١هـ - عقب الفتح الإسلامي - لم تشهد خلالها خراسان استقرارا ، بسبب انعكاس آثار الصراع السياسي بين كل من علي بن أبى طالب ومعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- على الدولة الإسلامية كلها. فلما استقر الحكم لبني أمية قرروا إنشاء قواعد ثابتة للمقاتلة العرب في خراسان ، لتبدأ عملية استيطان العرب في القرى المحيطة بمرو منذ سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م [٢]. مما أوجد عوامل جديدة في الموقف السياسي والعسكري دفعت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٤م-١٢٥هـ/ ٧٤٣م)، إلى تكليف أمير خراسان بحذف أسماء المقاتلة العرب الذين يرفضون الاشتراك في الحملات العسكرية ببلاد ما وراء النهر (ترانسكسونيا) ويحرمهم من العطاء[٣] . وفي مقابل ذلك أرسل هشام مقاتلة جدد ممن يرغبون في القتال[٤].

وهكذا فإن الخليفة هشاما يعترف ضمنا بأن عملية الاستيطان والاندماج بين المسلمين العرب وغير العرب قد بدأت فعلاً ، وبدأ العرب يألفون الحياة المدنية ، والاشتغال بالمهن ، ولا يمكن للسلطة الأموية معارضة ذلك الاتجاه الجديد بالقوة [٥].

وقد اتخذت عملية الاستيطان أشكالاً مختلفة. ويبدو أن العرب الخراسانيين استقروا في مرو والقرى المحيطة بها. كما استوطن العرب القرى المحيطة ببلخ ومدنا

---

(١) فاروق عمر : بحوث ... ص٤١ وعنه راجع ابن أعثم الكوفي : الفتوح جـ١ ص٢٠.
(٢) العلي : استيطان العرب في خراسان. مجلة كلية الاداب سنة ١٩٥٩م.
(٣) فاروق عمر : المرجع السابق ص٤١.
(٤) محمد عبد الحي شعبان : الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية ص١٥٧.
(٥) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٤٢.

أخرى في بلاد ما وراء النهر ، سواء بصورة مؤقتة أو دائمة. كما أقام العرب حاميات - مسالح - كانت مواضعها تتبدل بتبدل خطة القواد العسكرية؛ ولذلك فقد كان استقرار الجند فيها وقتيا (١).

وقد انتشر الدعاة العباسيون في أماكن استقرار العرب في خراسان، حيث نقل إليها الإمام محمد بن علي العباسي الدعوة ، باعتبارها موطن المقاتلة العرب الذين عركتهم الحرب الطويلة مع تركستان وفي السند ، والذين عبَّروا عن تذمرهم من سياسة الأمويين المالية والعسكرية ، وهو ما كان يشعر به خلفاء بني أمية منذ زمن عبد الملك ابن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) (٢).

وقد أورد الدكتور فاروق عمر - نقلاً عن مخطوطة أخبار العباس ورقة ١٦٠- ما يوضح أهمية الخراسانية. حيث ذكر أن «خراسان جمجمة العرب وفرسانها ». وقد نَظَّمَ الدعاة الأوائل الدعوة تنظيما سريا محكما. فكان هناك النقباء الاثنى عشر ، ومعظمهم من العرب يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي شيخ النقباء والقائم بأمر خراسان(٣). وكان النقباء من خزاعة وتميم وطيئ وشيبان وبجيلة وحنيفة وجميعهم عرب، وإن تلقب بعضهم أو نسب إلى المدن الفارسية التي أقاموا فيها(٤).

على أن بعض المستشرقين والمؤرخين المسلمين اعتبروا- خطأ - أن اصطلاح «أهل خراسان» يعني السكان المحليين من الإيرانيين. أما الطبري والبلاذري وغيرهما من كبار المؤرخين المسلمين ، فأطلقوا عادة اصطلاح «أهل البصرة » ، و «أهل الكوفة» و«أهل الشام» للتدليل على القبائل العربية التي سكنت هذه المدن بعد تمصيرها.

وكان أتباع الدعوة يدفعون «الخُمس» للإمام ، ليعينه هذا المال على القيام بواجبه في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وكان النقباء عادة ينتهزون فرصة الحج ليلتقوا بالإمام ويسلموه المال والهدايا (٥).

وقد أشاع دعاة العباسيين بين الناس أحاديث مؤداها انحصار الخلافة في أحفاد عم الرسول إلى يوم القيامة ، وأن هناك علامات تنبئ بظهور صاحب الرايات السود في

---

(١) فاروق عمر : المرجع السابق ص٤٢.
(٢) فاروق عمر : بحوث ... ص٤٣.
(٣) أخبار العباس وولده (مخطوطة) ص١٠٣ وما بعدها وص١٩٠.
(٤) فاروق عمر : بحوث ص٤٣.
(٥) أخبار العباس ص١٠٦،١٢٥أ واليعقوبي : تاريخ ص٣٩٨، وابن قتيبه الدينوري : الإمامة والسياسة ٢١٧ وابن خلدون : ج٣ ص٢١٩-٢٢٠.

المشرق وأنه سينتصر لا محالة[1]. فلما توفي علي بن عبد الله العباسي سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م تسلم إبراهيم الإمام مسئولية الدعوة وقيادتها ، لتبدأ طورا جديدا. حيث اختار أبي مسلم الخراساني ، لينوب عنه عند إعلان الثورة العباسية في خراسان[2].

وقد أصبحت شخصية أبي مسلم الخراساني ودوره في الحركة العباسية أسطورة نُسجَتْ حولها الروايات المختلفة التي أظهرته بمظهر الدينامو والمحرك الرئيسي للسياسة العباسية. كما اعتبرته العناصر الإيرانية المتذمرة رمزاً لها ومنقذاً ، وادعت - بعد مقتله على يد المنصور سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م - أنه سيعود ليحقق الآمال و «يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورا»[3].

والحق ، فإن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى أن مسئولية الدعوة والثورة ، كانت مشتركة بين النقباء الاثنى عشر ومساعديهم ، وأن سليمان الخزاعي نقيب النقباء كان وراء كل عمل قام به أبو مسلم ، والمتكلم باسم الدعوة ، وهو المفاوض مع شيوخ القبائل ووالي خراسان نصر بن سيار ، كما كان سليمان الخزاعي هو الذي يؤم الناس في الصلاة[4].

حول وصية إبراهيم الإمام لأبي مسلم :

ويقال أن إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم - حين كلفه بالتوجه إلى خراسان- بوصية اختلف المؤرخون في نصها. وهذه الوصية كما جاءت في رواية ابن قتيبة والطبري هي[5]:

«يا عبد الرحمن إنك رجلٌ من أهل البيت احفظ وصيتي : انظر إلى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة في أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استطعت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل. وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه (تشتبه فيه) فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ (سليمان الخزاعي) ولا تعصه، وإن أشكل عليك أمر فاكتف به مني».

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (ط.١٩٢٩) والخزاعي : كتاب الفتن ص١٨.
(٢) فاروق عمر : بحوث ... ص٤٤-٤٥.
(٣) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، (ف٢ ، بغداد ، ١٩٦٩) وبحوث ص٤٥.
(٤) فاروق عمر : بحوث . . ص٤٥ والخلافة العباسية ف٢.
(٥) الطبري : نفس المصدر السابق وابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج٢ ص٢١٣.

مصداقية الوصية في الميزان :

هذه الوصية غير متفق عليها من قِبَلِ المؤرخين؛ لذلك لا يمكن قبولها دون نقد وتمحيص ، لضعف سندها وارتباك تسلسل رواتها.

ومما يؤكد الشك في هذه الوصية - كما يذكر د. فاروق عمر في كتابه (بحوث في التاريخ العباسي) أن رواية الدينوري[1] لم يرد فيها النص الذي يدل على أن إبراهيم الإمام أمر أبا مسلم الخراساني بقوله العرب دون تمييز ، إذ إن التوجيه كان بقتل كل من لا يدخل في الدعوة أو المشكوك فيهم بقوله «واقتل من شككت في أمره » وكما يقول العوفي قتل كل المدعين بالإمامة من غير العباسيين[2].

كما أن ورود الوصية تحت عنوان «سبب قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام» يدل على أنها أو بعضها وُضِعَتْ من قِبَلِ رواة أمويين لتبرير قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام. هذا فضلا عما ورد بالوصية من تناقض. فكيف يمكن قبول القول بأن إبراهيم الإمام أمر بقتل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصي أبا مسلم بالثقة بالقبائل اليمنية والربعية _(بنو ربيعة)؟. فلعل ذلك يؤكد أن الوصية أو جزءا منها على الأقل صيغ من جانب الرواة المناهضين لبني العباس لتشويه صورتهم ودعوتهم.

إعلان الثورة :

وكيفما كان الأمر ، فقد قرر مجلس النقباء إعلان الثورة في مرو حيث إن بها «خلق كثير من إخواننا ، وبها السلطان قد وَهَنَ أمره ، ومتى يقوى بها أمرنا يقوى في غيرها » ، وأرسل المجلس الدعاة ليخبروا الشيعة العباسية للتجمع في مرو يوم عيد الفطر سنة ١٢٩هـ.

وقد ساعد تدهور الوضع في خراسان، بسبب الصدام بين أنصار نصر بن سيار والي خراسان وبين أنصار جديع الكرماني شيخ الأزد اليمنية، أبا مسلم على تكثيف جهده خلال عامي ١٢٨ - ١٢٩هـ ، ولا سيما في أماكن إقامة العرب الذين أدركوا عدم جدوى هذا النزاع غير المثمر. يقول صاحب كتاب العيون والحدائق[3]: «ولما رأى الناس أن شيعة بني مروان قد وقع بينهم الخلاف وبعضهم يقتل بعضا، وأن جديعا الكرماني قد قتل الحارث بن سريج وتسلم مرو ، ثم إن نصرا قتل جديعا وأن عليا وعثمان ابني جديع مالا إلى أبي مسلم وصدقاه وحلفا له ودخل أكثر الناس في طاعته».

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص٣٥٢ وفاروق عمر : ص٤٦.

(٢) أخبار العباس ورقة ١٣٨ب.

(٣) العيون والحدائق ص١٨٨.

فهذه النصوص تدل بصورة واضحة على أن العرب من أهل خراسان كانوا هم عصب الجنود الهاشميين. مما جعل نصر بن سيار يخشى مهاجمتهم، حتى لا تنضم اليمنية بأجمعها إلى صفوف الدعوة العباسية.

وقد تعرض الشيعة العباسية لدعاية قوية من قبل نصر بن سيار والي الأمويين، الذي حاول أن يشوه من سمعتهم واصفا إياهم بالكفار الذين يعبدون الرؤوس والسنانير والرعاع وسُقَّاط العرب والموالي والسفهاء والمجوس[١]. وقد رد الدعاة العباسيون بدعاية مضادة، والاجتماع لمبايعة سليمان الخزاعي شيخ النقباء العباسية «على كتاب الله وسنة رسوله.. وإظهار العدل وإنكار الجور، ورفع الظلم عن الضعفاء، وأخذ الحق من الأقوياء»[٢].

وقد جاءت أوامر إبراهيم الإمام بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائدا لأهل خراسان الذين توجهوا إلى العراق والشام عبر فارس، ويقدرهم صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» بـ ٣٠ ألفا من اليمنية والشيعة العباسية وفرسان خراسان. وفي نيسابور خاض الجيش الخراساني معركة مع أتباع نصر بن سيار من العرب والفرس من سكان نيسابور. ثم وقعت المعركة الحاسمة في جرجان حيث وقف أهلها الفرس مع الأمويين ضد الجيش الخراساني، الذي استطاع احتلال جرجان وقتل الكثير من الإيرانيين الذين قاوموا الخراسانيين[٣].

وتعتبر معركة جرجان دليلاً آخر على أن الدعوة العباسية لم تكن ثورة فرسٍ على عرب أمويين[٤]؛ ذلك لأن الفرس من أهل جرجان وقفوا إلى جانب بني أميّة، وقاوموا الخراسانية، وأخرجوا جيش قحطبة الطائي بعد احتلاله المدينة للمرة الأولى. فكان على قحطبة أن يعاود محاولة احتلال المدينة مرة ثانية. وليس من قبيل المبالغة القول بأن الكثير من المدن الإيرانية لم تُثرها الدعوة العباسية بالدرجة التي يصورها لنا «فان فلوتن» وأمثاله من المؤرخين المحدثين[٥].

أضف إلى ذلك مساعدة القبائل العربية في العراق للجيش الخراساني. إذ دلته على أقصر الطرق وأسلمها إلى الكوفة. وقد أعلن شيوخ هذه القبائل ولاءهم لبني العباس؛ وذلك «لأن دولة بني أمية مدبرة ودولة المُسَوِّدَة مقبلة يأملون منها الخير الكثير». كما أغلقت قبائل الموصل أبواب المدينة في وجه الخليفة الأموي مروان بن محمد، مما

(١) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٤٨.
(٢) نقلاً عن فاروق عمر : نفس المرجع ص٤٩.
(٣) أخبار العباس ورقة ١٦٠ و ١٦٦ ب.
(٤) أخبار العباس ورقة ١٦٠ب وفاروق عمر : نفس المرجع ص ٥٠.
(٥) فاروق عمر : بحوث ص٥٠.

أجبره على الانسحاب للشام ، بينما فتحوا أبواب الموصل للجيش الخراساني (العباسي) حيث استقبلوه بالترحاب[1].

أما في حصار واسط ، فقد أغرى «أبو جعفر المنصور» القبائل اليمنية المعتصمة في داخل المدينة مع يزيد بن عمر بن هبيرة - والي بني أمية علي العراق - قائلاً لهم: «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم». وقد كان لذلك أثره في نفس أبي جعفر المنصور حيث قال : «.. فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا ، وقيامهم بدعوتنا ، ونهوضهم بدولتنا»[2].

كما استنجد عبد الله بن علي العباسي «قائد الجيش الخراساني» باليمنية من أهل الشام في حصار دمشق قائلاً لهم : «إنكم وإخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا»[3]. ولذلك ، فلا غرابة في أن يفتخر العرب بأنهم كانوا سند الدعوة ونقباءها وأنصارها[4].

وهكذا يتضح أن الادعاء بأن الدعوة العباسية قامت على أكتاف الفرس ادعاء غير صحيح. فحقيقة الأمر أن العنصر المحرك للدعوة كان هم العرب الخراسانية الذين كونوا غالبية أنصار بني العباس يساعده في ذلك الموالي والفرس. كما أن دور الفرس لم يكن كبيرا بحيث يمكن مقارنته بدور العرب. وعلى هذا فالثورة العباسية لم تكن ثورة عنصرية بل كان فهمها للإسلام أكثر شمولاً وأوسع نطاقاً.

٤- العباسيون ومسألة الخلافة:

مر ادعاء العباسيين بحقهم فى الخلافة بمرحلتين مختلفتين، تميزت كل منهما عن الأخرى. ففى فترة الدعوة السرية ضد الحكم الأموى رفعت الدعوة شعارات عامة مثل «حق أهل البيت» أو «بنى هاشم» فى حكم المسلمين بعد وفاة النبى ﷺ. حيث نادى الدعاة العباسيون بحق العباسيين فى الخلافة، اعتمادا على وصية أبى هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب. وبعد نجاح الثورة العباسية، وقيام الدولة الجديدة تناسى العباسيون روابطهم بأبى هاشم ومنظمته السرية «الهاشمية»، وبدأوا يؤكدون بأن حقهم فى الخلافة يرجع للعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ[5].

---

(١) الأزدي : تاريخ الموصل ص١١٥. والمقصود بالمسوّدة بنى العباس حيث اتخذوا السواد شعارا لهم.
(٢) الأزدي : تاريخ الموصل ص١٩١-١٩٤.
(٣) الأزدي : نفس المصدر ص١٢٤.
(٤) الجاحظ : رسائل الجاحظ «مناقب الترك» عن فاروق عمر.
(٥) فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسى، ص٥٢ .

ذلك أن الثورة التى قادها المختار بن أبى عبيد الثقفى (٦٦-٦٧ هـ/ ٦٨٥-٦٨٦م) فى الكوفة[١]، وشملت العراق العربى وجزءا من منطقة الجزيرة، كانت باسم محمد ابن الحنفية. حيث أعلن المختار بن أبى عبيد الثقفى، بأن محمد ابن الحنفية هو المهدى المنتظر، ثم لم يلبث المختار حتى أعلن النبوة لنفسه[٢].

وقد عرفت حركة المختار باسمين مختلفين؛ منها: الكيسانية والخشبية[٣]. غير أن وفاة محمد ابن الحنفية سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠م أدت إلى انقسام أتباعه قسمين كبيرين هما :

القسم الأول : أعلن أن محمد ابن الحنفية لم يمت وإنما اختفى فى جبل رَضْوَى، أو ربما في مكان آخر. وكان من رؤساء هذا القسم «حمزة بن عمارة»، الذي ألّه محمد ابن الحنفية، وأعلن نفسه (أي حمزة) نبيا لمحمد ابن الحنفية، وأتباعه -أى أتباع حمزة- عرفوا بالكربية.

القسم الثاني: آمنوا بوفاة محمد ابن الحنفية، لكنهم اختلفوا فيمن يخلفه فى الإمامة:

أ- فمنهم من ادعى أن الإمامة نقلت من بعده إلى على بن الحسين (زين العابدين)، وإن اختلفت الروايات فيمن انتقلت منه الإمامة إلى على بن الحسين (زين العابدين)[٤].

ب- ومنهم من قال بأن الإمامة انتقلت إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية، وأن أبا هاشم نظم أتباعه في منظمة سرية فعّاله سُمّيَتْ «بالهاشمية». وكان نشاطه مراقباً من بنى أمية وعيونهم[٥].

وكانت وفاة أبى هاشم سنة ٩٧ أو ٩٨ هـ / ٧١٥-٧١٦م دون عقب، مما شتت

---

(١) فلهاوزن، يوليوس، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، ص١٨١، ومابعدها.
(٢) فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسى، ص٥٣.
(٣) يذكر النوبختى أن التسمية بالخشبية نسبة إلى العصى والخشب وهى السلاح الذى كان بيد الموالى الذين تقرب إليهم المختار. راجع النوبختى، فرق الشيعة، ص١٩-٢٣، والقمي : الفرق والمقالات، ص٢١، ٣٥، ٣٨، الأشعرى، مقالات الإسلاميين ١/ ١٧، وابن قتيبة، المعارف، ص٦٢٢.
(٤) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص٢٨، والأشعرى، مقالات الإسلامية، ج١، ص٢٣.
(٥) النوبختى، فرق الشيعة، ص٢٧، والقمي، الفرق والمقالات، ص ٣٨-٦٩، والأشعرى، مقالات الإسلاميين، ج١-ص٢٠، وراجع فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسى، ص٥٤، ومصادره فى حاشية(٨).

أتباعه إلى أكثر من فرقة، لكل منهـا رأى فيمن يكون إماما. وكانت أخطر هذه الفرق، فرقـة تسمى «الجناحيـة» التى قادها عبـد الله بن معاوية بن عـبد الله بن جعـفر بن أبى طالب(١).

فلقد ثار عـبد الله بن معاوية فى الكوفة عـام ١٢٧ هـ (٧٤٤-٧٤٥م)، واتسعت حركته ونادت بآراء متطرفة، وانتشـرت من العراق إلى فارس، وأسس دولة فتية شملت المناطق التى امتدت إليها سلطته السياسية، وأعـانته بعض الشخصيات العباسية فى إدارة دولتـه. إلا أن جيش بنى أمـية قضـى على حركـته، وهرب عبـد الله بن معـاوية إلى خراسان حيث قَـبضَ عليه أبو مسلم الخراسانى وسـجنه مدة ثم قتله؛ وذلك لأن الدولة العباسية كانت قد اختمرت فى خراسان آنذاك(٢).

وادعى الجناحية بأن أبا هاشم كان قد أوصى إلى عـبد الله بن معاوية بالإمامة من بعده. كما تذكر المصادر وقوع مشادة كلامية بين الجناحـية والعباسية حول مصير الإمامة بعـد أبى هاشم. حـيث ادعى كل منهمـا أن أبا هاشم أوصى له بالإمـامـة، مما يعكس الانقسامات الحادة بين تلك الكتل والجماعات المختلفة حول مسألة الإمامة(٣).

على أن مـواقف المؤرخين المحـدَثين -مسلمين ومـسـتشـرقين- تبـاينت فى ذلك الموضوع. فـمنهم من يقبل مـسألة الوصيـة ويقر بصـحتهـا، ومنهم من يعتـبرها رواية أسطورية، بينما يكذب «دى خويه» رواية الوصية والسم(٤).

أما الدكتور عبد العزيز الدورى، فقد تحفظ فى بداية الأمر من قبولها، وقال(٥): «وعلى كل فيـمكننا أن نجزم بأن أبا هاشم تـوفى ولا عقب له، وبأن التفـاهم بينه وبين محمـد بن على جعل الهاشمـية ينضمون إلى محـمد ويكونون نواة الدعوة العبـاسية». ولكن الدكتور الدورى عدل عن هذا الرأى بعد اطلاعه على مخطوطة «أخبار العباس»، وأكد على أهمية الوصية وحقيقتها التاريخية.

---

(١) فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي ص ٥٤-٥٥.
(٢) فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسى، ص٥٦.
(٣) فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسى، ص٥٦.
(٤) فان فلوتن، السيادة العـربية والشيعة والإسرائيليات، ص ٩٢، ومـا بعدها، لويس، برنارد، العرب فى التاريخ، ص٧٨، دائرة المعارف الإسلامية مادة «العباسيون».
(٥) عبد العـزيز الدورى، العصر العباسى الأول، ص٢١، ضوء جـديد على الدعوة العباسيـة،(مقال بمجلة كلية الآداب والعلوم، العدد ٢ عام ١٩٥٧، ص٦٨).

كما يذكر د. حسن إبراهيم حسن أن البيتين (العلوى والعباسى) اتحدا على بنى أمية حتى انتقل حق الإمامة إلى العباسيين بنزول أبى هاشم، إقرارا منه بصحة الوصية[1].

أما البروفيسور «كلود كاهن»، فيرى أن شيعة أبى هاشم حلفوا يمين الولاء لمحمد ابن على بن عبد الله بن العباس، وأن هذا الأخير قد تصرف وكأنه إمامهم[2].

أما المؤرخون الأقدمون فالكثير منهم يؤكد أن أبا هاشم قد أوصى فعلاً لمحمد العباسى[3].

ومن المصادر المهمة التى تبحث فى الوصية مخطوطة «أخبار العباس وولده» لمؤلف مجهول. فتقول المخطوطة تحت عنوان «أخبار الإمامة»: قَدِمَ أبو هاشم...فنزل على محمد بن على العباسي فاشتكى، فأوصى إلى محمد وكان يسمى بعده الإمام. وتفَصل المخطوطة في علاقة محمد العباسى بأبيٍ هاشم، والظروف التى أدت إلى موت أبى هاشم، ولكنها لا تذكر أن أبا هاشم قد سُمَّ وإنما تقول أنه مات موتا طبيعيا[4].

ويركز الدكتور فاروق عمر على أمر هام فى موضوع الوصية فى هذه المخطوطة. وهذا الأمر هو «الصحيفة الصفراء» المنسوبة إلى محمد ابن الحنفية الذى ورثها عن أبيه على بن أبى طالب حيث أعطاه إياها أخوه الحسين بن على بن أبى طالب.

فيذكر أن تلك الصحيفة كانت عند محمد بن على ابن الحنفية، حتى إذا حضره الموت دفعها إلى ابنه عبد الله بن محمد الذى يكنى «أبا هاشم»...وظلت الصحيفة عند أبى هاشم حتى إذا حضره الموت...وقد مات فى الحميمة عند محمد بن على (بن عبد الله بن العباس) -بعد أن دفع الصحيفة إليه وأوصاه بما أحب[5].

ثم تسرد المخطوطة الوصية الشفوية التى أوصى بها أبو هاشم محمدا بها، وهى لا تختلف فى فحواها عما ذكر فى المصادر السابقة، ولو أنها تتميز بالتفصيل والشمول.

---

(١) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص١١.
(٢) فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسي، ص٥٧، نقلا عن كلود كاهن، وجهة نظر حول الثورة العباسية، ص٣١١ (بالفرنسية).
(٣) راجع البلاذرى، أنساب الأشراف ٦٨٧ أ،ب واليعقوبي، تاريخه ٣/ ٤٢ والطبرى، تاريخ الرسل (ط. ليدن)، ج٣، ص٢٤، وابن سعد، طبقات ٥/ ٢٤١ وابن قتيبة، المعارف، ص١١١، والإمامة والسياسة، ص٢٠٧-٢٠٨، والعيون والحدائق، ص١٨٠، والمسعودى، مروج٦ ص٥٨-٥٩.
(٤) مجهول، أخبار العباس وولده، ص٧٤أ إلى ٨٤ب(مخطوطة).
(٥) فاروق عمر، بحوث فى التاريخ العباسى، ص٦٠.

فتذكر أنه بعد وفاة أبى هاشم قام محمد العباسى وخطب فى الشيعة قائلاً : «لإن كنتم أُصِبْتُم بموته لقد خُصِصْت بذلك منه، وقد جمعنى وإياكم القيام بهذا الأمر، وعلمتَ منه كثيرا مما لم تعلموا، فاتقوا الله ربكم، وحافظوا على هذا الحق الذى سعيتم فى إقامته، واحفظوا ألسنتكم، فلا تطلقوها إلا فى مواضع النفع والغنا، وتَصَبَّروا للمكروه فقد قُرِنَ بكم، فإن حفظتم ذلك فأنتم شيعتى وخاصتى وأولَى الناس بى فى محياى ومماتى». فأجابه أحد كبار الأتباع قائلاً :«قد أوصى إليك صاحبنا الذى كنا نأتم به، وذكر أن هذا الأمر فيك وفى ولدك، وقد قبلنا ذاك، فمرنا بأمرك نقف عليه ولانتعداه» (١).

أما المصادر التاريخية المتأخرة فليست ذات قيمة تاريخية كبيرة بالنسبة للوصية، وإن أجمعت على تأكيدها معتمدة على هذه الرواية أو تلك. ومن هؤلاء المؤرخين «ابن عبدربه المتوفى ٣٢٨هـ / ٩٤٠م» في كتابه العقد الفريد (ج٤ ص ٤٧٦ - ٤٧٧) الذي ينقل الوصية معتمداً على الهيثم بن عدي. كما يذكر فاروق عمر(٢) أن كلا من المقدسي وابن عساكر وابن الاثير وابن خلكان وابن خلدون والمقريزي وابن تغري بردي ذكروا هذه الوصية، وإن كان بصورة مُشَوَّشة.

على أن مصادر الفرق الإسلامية تعطينا معلومات واضحة إلى حد ما عن هذه الوصية المهمة في التاريخ السياسي والعقائدي في دولة الإسلام. فالنوبختي (ت حوالي ٣٠٠هـ / ٩١٢م)، وسعد القمي(ت ٣٠١هـ / ٩١٣م)- وهما مِن أقدم مَن كتب في الطرق والعقائد-متفقان على أن «أبا هاشم أوصى إلى محمد بن علي بن عبدالله العباسي ، وأنه دفع الوصية إلى أبيه علي بن عبدالله ، وأنه مات عنده بأرض الشراة بالشام وهؤلاء غلاة الراوندية»(٣) .

أما الأشعري فيقول(٤)- حين يتكلم عن الكيسانية - «ويزعمون أن الإمام - بعد أبى هاشم- محمد العباسي(أي محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب)، وقد مات أبو هاشم بأرض الشراة مُنْصَرَفَهُ من الشام فأوصى هناك إلى محمد . .».

---

(١) مجهول، مخطوطة أخبار العباس وولده، ص١٧٤أ،٨٧ب.

(٢) فاروق عمر: بحوث في التاريخ العباسي ص ٦١ وحاشية(٣٣) ، والمقدسي : البدء والتاريخ ٦/ ٥٦ - ٦٠ وابن عساكر : تاريخ دمشق ٥/ ٤٦٠ وابن الأثير: الكامل ٥/٣٨- ٣٩ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان (ط.القاهرة ، ١٨٨٢م) ج٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ابن خلدون: العبر (ط.القاهرة) ج٣ ص١٠٠ ، والمقريزي : منتخب التذكرة (مخطوطة) ورقة ٨٠/أ-ب، الخطط ٤/ ١٧٧، وابن تغري بردي : النجوم ص٣٥٤-٣٥٥.

(٣) النوبختي : المصدر السابق ص ٢٨ ، والقمي المصدر السابق ص ٣٩.

(٤) الأشعري : المصدر السابق ١/ ٢١.

ويؤيد هذا القول كلٌ من البغدادي والشهرستاني والإسفراييني[١]. ولم يتهم هؤلاء المؤرخون الفرقة العباسية بالتطرف، بل اتهموا فرقا أخرى مثل الكيسانية وغيرها بذلك[٢]، مثل غلاة الراوندية والمقنعية والخرّمية والمُسلَّمية..،وهذه الفرق قامت في العصر العباسي الأول، بحركات انتقاض وثورات ضد بني العباس وحكمهم؛ ولذلك فرّقَ هؤلاء الكتاب بين العباسية ومؤيدي الدولة وبين الفرق المنشقة عليها ، حيث اتهموا المنشقين بالتطرف والغلوّ في الدين[٣].

فالطبري يقول أن «الراوندية» اعتنقوا مبدأ الحلول والتناسخ. حيث قالوا بحلول روح عيسى(المسيح) عليه السلام في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة واحدا بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، واستحلوا الحرمات.. فعبدوا أبا جعفر المنصور الذي حاربهم ونكل بهم[٤]. كما ورد وصفهم هذا في العديد من المصادر التاريخية الأخرى[٥].

ويذكر النوبختي - في فرق الشيعة (ص ٢٨-٢٩، ٤٦-٤٧) - وسعد القمي- في الفرق والمقالات (ص٣٩-٤٠ ، ٦٩-٧٠) - أن غلاة الراوندية قالوا بأن أبا هاشم أوصى إلى محمد العباسي حيث قال: «فهو الإمام ، وهو الله عز وجل،وهو العالِم بكل شيء ، فمن عرفه فليصنع ما شاء وهؤلاء غلاة الراوندية».

وهكذا يُلاَحَظُ أن كلا من النوبختي وسعد القمي يستدركان القول ، وينسبان الاعتقاد إلى غلاة الراوندية. كما يذكر المسعودي[٦] أن المسَلَّمية نادت بإمامة أبي مسلم بعد مقتله ١٣٧هـ / ٧٥٤م بتدبير أبي جعفر المنصور، وقالوا أنه-أي أبو مسلم-لم يمت، ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عَدْلا. لكن فعاليات الدعوة العباسية في خراسان ، وآراؤها، وجذورها الهاشمية تدل على تطرف وجهة النظر العباسية [٧]. التي جذبت كلَّ الناقمين على بني أمية وسياستهم[٨].

---

(١) البغدادي : تاريخ بغداد ص٢٣٧-٢٤٢ ، والشهرستاني ص١٣٢.. وابن حزم: ص١٨٠-١٨٥ ، والإسفراييني : التبصير بالدين (مخطوطة)، باريس ص٧٠-٧٤ ، الملطي: التنبيه والرد ص١١٨-١٢٢.

(٢) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص ٦٢.

(٣) فاروق عمر : المرجع السابق ص ٦٢.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٢٩/٣-١٣٢.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ٥٩/١ - ٦٠ ، وابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٤٢-١٤٣ وابن خلدون : العبر ٣٩٥/٣-٣٩٦.

(٦) المسعودي : مروج الذهب ج٦ ص ١٨٦-١٨٧.

(٧) فلوتن، فان : السيادة العربية ص٩٨ ، كلود كاهن: المرجع السابق ص٣٢٤ وما بعدها، ودائرة المعارف الإسلامية «مادة العباسيين» بقلم لويس، برنارد.

(٨) فاروق عمر : بحوث ص ٦٣

وهكذا تتفق المصادر الأصلية على الحقيقة التاريخية للوصية، وتذكر أنها في سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م. وفي ٩٨هـ/ ٧١٦م مات أبو هاشم وهو في طريق عودته من الشام إلى الحجاز بعد زيارته لسليمان بن عبد الملك، إما بسبب السم الذي دبره له الخليفة أو بسبب مرض طبيعي - وكان في منطقة الشراة - فأمر أصحابه بالتوجه إلى الحميمة مقر العباسيين. حيث أوصى هناك لمحمد بن علي العباسي، وجعله إماما لأنه أعلم من غيره[1].

وكيف لا ؟ وقد أخذ محمد العلم على يدي أبي هاشم نفسه. وقد حول محمد المنظمة الهاشمية إلى منظمة عباسية صِرْفة[2].

العباس بن عبد المطلب (عم الرسول):

بعد أن قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ودانت لبني العباس الأمور، حرصوا على أن يعلنوا في كل مناسبة التزامهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله. كما نددوا بالظالمين(أي بني أمية) الذين فشلوا في تطبيق مبادئ العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما عمل العباسيون على استقطاب العلماء، وبخاصة علماء الشرع، لكسب ودهم وتأييدهم للحكم الجديد. وحرصوا على التبرؤ من كل مُغَالٍ في الدين، خارجٍ عن جادة الحق، وأخذوا بشدة على يد كل منحرف أو خارج على الدين أو الطاعة.

لذلك كان لابد أن يستند العباسيون على دعامة تُثَبِّتُ سلطتهم، وتصبغ خلافتهم بالصبغة الشرعية. لاسيما بعد أن صارت الوصية(وصية أبي هاشم) غير ملائمة لهم، حيث تربطهم سياسيا بالعلويين. فأعلنوا أن حقهم في الخلافة يستند على أن العباس هو عم الرسول ﷺ وأنه وَرِثَهُ يوم وفاته، ولذلك فالإمامة في ولده[3].

على أن هذا لم يحدث فجأة، وإنما كانت هناك فترة انتقال تميزت بمرونتها وغموضها معا، وهو ما ظهر في تعليقات وخطب الساسة والخلفاء العباسيين. حيث تبين ذلك جليا في خطبة أبي العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٤م). إذ أكد العباسيون انتماءهم إلى النبي ﷺ من ناحية الآباء فقال «.. وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته»[4].

---

(١) مخطوطة أخبار العباس (المجهول) ص٧٩ب.

(٢) فاروق عمر : بحوث ... ص ٦٤.

(٣) فاروق عمر : المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٥.

(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٤٦٧-٤٦٨ والمسعودي : مروج ٦/ ٩٧ - ٩٨.

وقد هاجم الخليفة أبـو العباس العناصر المعارضة التي بدأت تتـحرك بعد تأسيس الدولة الجديدة. واتسمت خطبته -بصـفة عامة-بالمرونة السياسية حيث قـرن فيها الوعد بالوعـيد(١). ولا تختـلف خطبة داود بن علي - عم الخليـفة- عن الخطبـة الأولى من حيث مرونتها السياسية، ومحاولتها التوفيق بين العلويين والعباسيين، على الرغم من أن نبرتها كانت عباسية الطابع أكثـر من سابقتها. فداود بن علي يحمد الله ويشكره لأنه - كما قال- «أصـار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ». وفي مناقشة بين الفقـيه الأوزاعي وعبدالله ابن علي عم الخليـفة في الشام يؤكـد عبدُ الله أن الحق حق بني هاشم، ويُلَمِّحُ إلى أن العباسيين ورثوا في الشام حقَّهم في الخلافة عن طريق العلويين(٢).

ويُعْتَبرُ المنصـور، الخليفة الثاني والمؤسس الحقيقي للدولة العـباسية، أول من أبرز وجهة النظر العباسية بصورة واضحة، وهو ما اتضح من رسائله مع محمد النفس الزكية الثائر الـعلوي(الحسني) في الحجـاز. حيث يقـول : «لقـد علمتُ أنه لم يبق من بنـي عبد المطلب بعـد النبي ﷺ غيره - أي العباس بن عـبد المطلب عم النبي - فكان وارثة من عمـومتـه. ثم طلب الأمر غـيرُ واحد من بني هاشـم فلم يَنَلْه إلا ولده. فالسـقاية سقايته، وميراث النبى له، والخلافة فى ولده، فلم يبق شرف في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه»(٣).

ولقد اشتد الصراع السياسي والفكري في خلافة أبي جعفر المنصور، بين العلويين والعباسيين. فراقب المنصورُ الإمام جعفر الـصادق وابنه إسماعيل. كما سجن «عبدَ الله ابن الحسن المحض» وعـددا من العلويين، وتشدد في البحث عن مـحمد النفس الزكـية وأخيه إبراهيم، حـتى اضطرهما للظهور والثورة فقـضى عليهما، وسمى نفـسه المنصور نسبة لانتصاره على العلويين، ليبين للناس أن قيادته صحيحة (٤).

وقد لجـأ الخليفـة أبو جعفـر (المنصور) إلى ترويج الادعـاء العباسى بـكل وسيلة ممكنة. فشـجع الشعـراء والكتاب للكتابة فى هذا الاتجـاه. فكان ممن كتب فى مـوضوع الإمامة كل من عيسى بن روضة وأبو سهل الفضل بن نوبخت وغيرهما(٥).

(١) المبرد : الكامل ج٤ ص١١٠ وفاروق عمر : بحوث ص ٦٥-٦٦.

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٠.

(٣) فاروق عمر: بحوث ص ٦٦ وعنه راجع : المبرد: الكامل ٤/١١٨ والأزدي : تاريخ الموصل (مخطوط) ص ١٦١ -١٦٣ والبلاذري : أنساب الأشراف (مخطوطة) ص ٦١٥/أ باختصار.

(٤) الأصفهاني : الأغاني ١٢/ ٨٩.

(٥) فاروق عمـر : بحوث ص٦٧ وعنه راجع البلاذرى أنسـاب الأشراف ص ٧٠ ، والأصفهانـى : مقاتل الطالبيين ١٧٧ـ ١٧٨ وأخبار العباس ص٥/أ وما بعدها.

وهكذا خاض المنصور بنجاح معركة فكرية وسياسية ضد العلويين حول الإمامة. حتى إذا تسلم المهدى الخلافة سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م ـ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، اتسم عهده بالهدوء والاستقرار النسبى. وأعلن المهدى رسميا بأن حق العباسيين فى الخلافة يعود إلى أن العباس هو عم الرسول ووارثه(١).

وقد تناول هذا الموضوع العديدُ من المؤرخين المسلمين فى كتاباتهم مثل المسعودى فى مروجه(٢)، حيث يقول بأن الراوندية ادَّعُوا «بأن رسول الله ﷺ قُبض وأنَّ أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب؛ لأنه عمه ووارثه وعصبته. لقول الله ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال]، وأجازوا بيعة علي بن أبى طالب بإجازة عبد الله ابن عباس»، وذلك حين قال: «يا ابن أخى هَلمَّ إلىَّ أبايعك فلا يختلف عليك اثنان». كما يذكر الشهرستانى أن الهاشمية تفرعت إلى فروع إحداها نادت بأن «للعباسيين حق فى الخلافة لاتصال النسب، وقد توفى رسول الله وعمه العباس أَوْلَى بالوراثة»(٣).

غير أن ابن حزم(٤) يدحض قول الراوندية من أن الخلافة لا تجوز إلا فى ولد العباس بن عبد المطلب، فيقول: «إن هذا لو كان جازٍ فى المال، وأما الرتبة (الإمامة) فما جاء قط فى الديانات أنها تورث، ولقد مات النبيٌّ والعباسُ حيٌّ فما ادعى العباس لنفسه قط فى ذلك حقا». فالمصادر لا تذكر للعباس بن عبد المطلب أى طموح سياسى لنيل الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ (٥).

وإذا كانت الروايات ذات الصبغة العباسية تظهر عبدالله بن العباس بمظهر المدافع عن حق العباسيين، إلا أن المعتقد أنه كان يُلَمِّحُ أحياناً بحق الهاشميين بصورة عامة، وليس حق العباسيين بالتخصيص. وقد نفى عبد الله بن الزبير كلا من عبد الله بن العباس ومحمد ابن الحنفية إلى الطائف لعدم مبايعتهما له.

أما الطموح السياسي للبيت العباسي فبدأ بظهور علي بن عبد الله بن العباس، الذي اتخذ من الحميمة مكانا لإقامته نتيجة موقف الوليد بن عبد الملك منه(٦).

---

(١) النوبختي : المصدر السابق ص ٤٢-٤٣.
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج٦ ص ٥٤-٥٥.
(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ص ١١٢.
(٤) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ص٩٠ ـ ٩٢ وفاروق عمر: بحوث ص٦٩.
(٥) فاروق عمر : بحوث ص ٦٩- ٧٠.
(٦) البلاذري : أنساب ٤/٧٦ و ١١ / ٢٢٦، ٢٥٤، وابن سعد : الطبقات ٥/ ٢٢٩ ، وفاروق عمر: المرجع السابق ص٧٠.

على أن المعارضة الهاشـمية للأمويين كانت تظل موحدة مـا بقيت سلطة بني أمية قوية، حـتى إذا بدأت هذه السلطة في الضعف فـتبدأ القـيادات الهاشـمية المتـعددة في الظهور، مما أدى إلى تصدع وحدتها وانتقال قيادتها من العلويين للعباسيين(١).

وهكذا نرى أن المناداة «بوصـية أبي هاشم» للعبـاسيين، كانت ضـرورة سياسـية حتمتها ظروف الدعوة العباسية. وكـان مما ساعد على نجاح الدعوة العباسية هو ظهورها بأكثر من واجهـة، وبشعارات متنوعة لجذب أكبر عـدد من المعارضين لبني أمية. لكنهم غيروا نظرتهم بعد نجاح ثورتهم ودعوتهم، وبنوا حـقهم على أن العباس بن عبد المطلب هو عم الرسول ووارثه أيضا. وسعوا في سبيل ذلك إلى جذب جمهور العلماء ليدعموا دعوتهم لدولتـهم الجديدة، ولدعم جيش خـراساني قوي يتصـدى لكل خارج عن هذا التوجه، وكان ظهور أبي مسلم الخراساني نتيجة لجهود طويلة مريرة(٢).

من هو أبو مسلم الخراساني، عبد الرحمن مسلم الخراساني ؟

من الغريب أننا لا نعرف عن هذا الرجل الذي يدين له العبـاسيون بالنصر، وقبل وصوله إلى مرو، إلا النذر اليسير جدا من أخباره.

والظاهر أنه كـانت هناك خطة مـدبرة لمسح كـافـة الآثار الدالة على مـاضي هذا الرجل، لإظهاره بصـورة جديدة. ومفتـاح هذه الصورة الجديدة هو اسـمـه «أبو مسـلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني»، الذي يبدو أنه كان اسما حركيا وليس حقيقيا، قُصِد به إخفاء أصله ومنبته.

وخلاصة ترجمة اسمـه هي المسلم بن المسلم. ولهذا ليس أبلغ من اسمه وأصرح للتأكيد على المبادئ التي كانت تنادي بها الحركة العباسية، حيث يعامل كل فرد كمسلم، يتمتع بكافة الحقوق والواجبات، بغض النظر عن جنسه وأصله ونسبه(٣). ولذلك تعمد مدبروا الثـورة العبـاسيـة إرسال شخص من خـارج المنطقة ، كـان ولايزال نسبـه سرا مكتوما.

وكان النجاح المنقطع النظير الذي حققـه أبو مسلم في استغلال الصراع الدائر في مرو لصالح الثورة، وبراعته السياسـية قد غطيا على الكفاءات الأخرى العاملة في حقل الدعوة والثورة العباسية.

---

(١) اخبار العباس ص ٧٣ب و ٧٨ب و ١٨٧أ و ١٨٩.

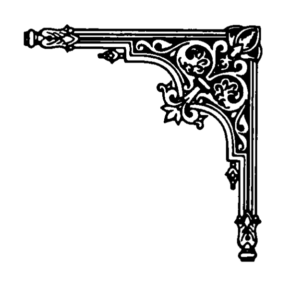
(٢) فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص٧١.

(٣) م.ع شعبان : الثـورة العباسية ص ٢٤٥، راجع السيـوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢ ، والطبري: تاريخ الرسل ج٣ ص ٢٤-٢٥.

وكانت الثورة العباسية تدعو «للرضا من آل محمد»، ويعني هذا أي فرد من آل بيت الرسول ﷺ ترضاه الجماعة. وهذا الشعار- الرضا من آل البيت - كان بمثابة نداء ودعوة لجميع الشيعة في شتى أرجاء الدولة الإسلامية.

ثم كان الشعار الثاني للثورة العباسية والدعوة العامة لكل الجماعة الإسلامية في اختيار اسم أبي مسلم نفسه، الذي ربما وضعه «أبو سلمة الخلال» نفسه ليكون شعارا حيا وواضحا للثورة العباسية(١).

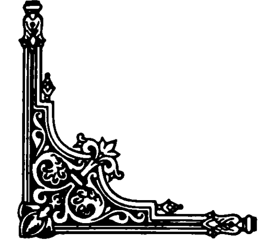
(١) م.ع شعبان : الثورة العباسية ص ٢٤٦.

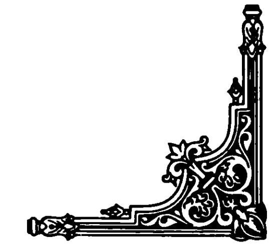


الفصل الثاني

الحركة العباسية وأخريات بني أمية

(١٠٠ - ١٢٧ هـ)(*)





(*) راجع صابر دياب : قراءة في تاريخ الدولة العباسية ص ٢١ - ٢٧ (نشر دار الثقافة للنشر ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

لقد جاب الدعاة العباسيون البلاد الخراسانية، متظاهرين بالتجارة وهم يقومون بتبليغ أمرهم إلى القائم بالكوفة، الذي كان يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة، لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجا. وكانت إقامة محمد بن علي بالحُمَيّمَة سببا آخر في انتظام المواصلات وكتم سرها.

وقد بدأ ظهور أمرهم بخراسان سنة ١٠٢هـ حين جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان «سعيد بن عبد العزيز بن الحارث ابن الحكيم بن أبي العاص» الذي يقال له «سعيد خذينة». وقال له: إن ههنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم : من أنتم ؟ قالوا : أناس من التجار؟ قال : فما هذا الذي يحكى عنكم ؟ قالوا : لا ندري ؟ قال : جئتم دعاة ؟ فقالوا : إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا. فسأل من يعرف هؤلاء، فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا : نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه. فخلى سبيلهم.

وفي سنة ١٠٥هـ عين بكير بن ماهان داعيا للعباسيين في الكوفة بعد وفاة ميسرة فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون في الطريق التي يشرعها لهم.

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاة خراسان على الشيعة. فكان لا يرحم أحدا منهم وقع في يده، ولذلك لم يكن للدعوة في أيامه أثر حتى عزل عن خراسان سنة ١٠٩هـ، فلما عاد لولايته ظل على ذلك معهم حتى مات سنة ١٢٠هـ، فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته.

على أن التطورات التي حدثت في العالم الإسلامي بعد ذلك كان لها أثرها الكبير في نجاح الشيعة، وقصور أعدائهم عن فَلِّ حَدِّهِمْ، وأهم هذه التطورات هي :

١- انشقاق البيت الأموي:

الذي تصدعت أركانه بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك. واستعان على ذلك بالقَدْحِ في الوليد واتهامه إياه بالفسوق والكفر وإحلال ما حَرَّم الله، وقد ساعده على ذلك بعض القوم.

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان، وكان مروان في ذلك الوقت أميرا للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره. ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكا

بهذا الحبل، حتى نـالها. وكان توليه الخلافه من أهم وأقوى مـظاهر الخلاف والانشقاق في البـيت الأموي، مما كـان له أثره المبـاشر في ضـعف قـوة الدولة الأموية، لدرجـة أصبحت معها لا تقوى على مصادمة عدوها.

٢- ظهور العصبية القومية والقبلية في خراسان:

وذلك أن العرب يرجعـون إلى جذمين عظيمين همـا : قحطان ونزار، وكان ملكُ العرب القـديم في اليمن. فلما جاء الإسلام تحـول إلى نزار لمكان رسول الله ﷺ وكان أمر النبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية، فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعـدائهم. فنالوا في زمن قليل ما لم تنله أمة قبلَهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم .

وبمضي الزمن وبعد الناس عن روح الإسلام ارتد الناس إلى حمأة الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين لم ينظروا إلى سوء مغبتها.

وكان بخراسان واليان مختلفان جاء أحـدهما بعد الآخر، أولهما أسد بن عبد الله القسري وهو من اليمن وقد تعصب لقومه، وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعة من قومه بخراسان، لكنه كان عفيفا مجربا عاقلاً.

وقد ظهر الانشقـاق بين النزارية واليمانية في عهد نصـر بن سيار رئيس النزارية، وكبير اليمانية جديع بن مهيب المعني المعروف بالكرماني نسبة لمولده بكرمان. وكان نصر والكرماني قبل ذلك مُـتَصَافِيَيْن، إلى أن فرقتـهما حمأة الجاهليـة. وكانت النزارية أيضا منشقة : فربـيعة في جانب، ومضر في جانـب. وكان أكثر ربيعة مع شيـبان بن سلمة الحروري الخـارج على الدولة يطلب العمل بـكتاب الله وسنة رسوله فكـانت هذه الفرق الثلاثة متعادية.

قامت الحرب بين نصر سيار والكرماني، وكانت الغلبة للكرماني وخرج نصر من مرو حاضرة خراسان، وهدم اليمنيون دور المضرية.

وفي أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي إمام الشيعة الذي يدعون إليه، وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعـلم الشيعة بذلك، فقامـوا بالدعوة إليه مكان أبيه، ولما توفي بكير بن ماهان - شيخ الشيـعة بالكوفة - حل مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخـلال - وأصله مَوْلَى لبني الحارث بن كعب - وكان صـهرا لبكير ابن ماهان - فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

في هذه الأثناء برز اسم شاب من ذوي المقدرة والعزيمة وهو «أبو مسلم الخراساني»، الذي تلقى أصول التشيع من بكير بن ماهان ثم اتصل أبو مسلم بمحمد بن علي سنة ١٢٥هـ ثم بابنه إبراهيم. وكانت الشيعة بخراسان في حاجة إلى مثله. فاختار إبراهيم أبا مسلم للعمل لإقامة ملك بني العباس وولاه على خراسان، وكتب إلى أصحابه أني قد أمرته بأمري وما غلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله:

« يا عبد الرحمن إنك رجل من أهل البيت فاحفظ وصيتي. وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحُلَّ بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم، في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر، فإنهم العدو القريب الدار. فاقتل من شككت فيه، ومن كان في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل. فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله. ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تَعْصِه وإن أُشْكِلَ عليك أمر فاكتف به مني».

وقد أمره إبراهيم الإمام بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التي كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك. ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر، فإنهم كانوا أصحاب الدولة. ومما يدل على اعتماد بني العباس على أهل خراسان دون العرب قول الإمام (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل). وقد سار أبو مسلم مزودا بهذه الوصية حتى دخل خراسان وذلك سنة ١٢٨هـ.

وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور. وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة. ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه:(إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابي، ووجه إلى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعدا للعمل.

٣- دور العمل:

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها «سفيذنج»، حيث بث دعاته في الناس، فتوافد عليه الناس، وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٠هـ. ولخمس بقين منه عقد اللواء الذي بعث به الإمام ويدعي الظل علي رمح طوله أربعة عشر ذراعا، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج]، ولبسوا السواد الذي صار شعارا للدولة العباسية، وقدم على أبي مسلم الدعاةُ من أهل مرو بمن أجاب الدعوة.

وكان أول ما فعله أبـو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقـام به هو ومن معه، ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩هـ أمر سليمـان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة ونصب له منبرا في العسكر.

أرسل أبو مسلم إلى نصر بن سـيار كتابا جاء فيه : (أمـا بعد) «فإن الله تباركت أسماؤه وتعـالى ذكره غيّر أقواما في القـرآن فقال : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]». فتعاظم نصر الكتاب، ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه، وعزم نصر على حرب أبي مسلم وقـواته، وانتهى الأمر بـهزيمة قوات نصـر بن سيار وأسـر يزيد رئيس قواته. لكن أبا مسلم أطلق سراحه بعد مداواة جراحـه، وكان لذلك أثر كبير في نفسه ونفوس كثير من الناس، حيث توافدوا على أبي مسلم للانضـمام إليه، حتى كثر عددهم لدرجة أن ضاقت عليـه سفيذنج فـرحل إلى الماخوان - وهي قرية كـبيرة من قرى مـرو كانت للعلاء بن حريث ولأبي خالد بن عثمان- فحـصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه في الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خـراسان أن ما بينهم من فـرقة وحروب تشـد من أزر عدوهم. وفي أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده، فيسـتولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر.

وبذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما بعد أن فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه، فقـام من الماخوان في جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ يريد مرو التي دخلهـا والقتال دائر بين علي بن الكرمـاني ونصر بن سيـار. فأمر الفريقـين أن يكفا وهو يتلو﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴿١٥﴾﴾ [القصص]. ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة وهرب نصر مستخفيا.

سيطر أبو مسلم على مرو، وبايع له أهلها، وكان نص البيعة هو : (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، عليكم بذلك عهـد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام وعلى إلا تسألوا رزقا ولا طعامـا حتى يبدأكم به ولاتكم، وإن كان عدو فلاتهيجوه، ألا بأمر ولاتكم). وقـبض أبو مسلم على ثقات أصحاب نصر وصناديدهم وقتل كثيرا من جنده.

هكذا صفت خراسان كلها لأبي مسلم، فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر قحطبة بن شبيب أن يتبع فلول نصر بن سيار. فطارده قحطبة. ثم مات نصر في ساوه. واستولى قحطبة على الري، وبذلك سيطر الشيعة على خراسان وبلاد الجبل ثم همذان ونهاوند، ثم أخذوا العراق، حيث دانت لهم مدينة الكوفة في شهر المحرم ١٣٢هـ بقيادة الحسن بن قحطبة. وآل الأمر إلى أبي سلمة الخلال، فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قوادا. ووجه ابن قحطبة إلى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد ابن برمك إلى دير قني. وبعث المهلبي وشراحيل إلى عين التمر. وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق، ونار الفتنة مشتعلة بالشام والحجاز.

٤- اتضاح الأمر:

مضت هذه المدة كلها وليس عند بني أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة، إذ كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد ﷺ، ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة. أما العامة فمبلغ علمهم أنها تدعو لرجل من آل البيت، حتى وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبي مسلم- جوابا على كتاب لأبي مسلم - يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان. فأرسل مروان في الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتابة إلى صاحبه بالبلقاء، أن يسير إلى الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد فيوجه به إليه. ففعل ما أمر به وقبض على إبراهيم، ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته، وأوصى إلى أخيه أبي العباس. وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبي العباس. أما إبراهيم فحبس في سجن حران، مع جماعة من أعداء مروان بن محمد، ولم يزل إبراهيم في سجنه حتى مات ميتة غامضة، اختلف فيها المؤرخون. فمنهم من قال أنه سُقِيَ سما، ومنهم من قال هُدِمَ عليه بيت فمات.

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢هـ، ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال، الذي كان يعرف في ذلك الوقت «بوزير آل محمد»، فأنزلوهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال في معسكره «بحمام أعين» خارج الكوفة. ويقال أنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي. لكن بعض القواد أحس بما يضمره أبو سلمة فأحبطوا ما أراده، وذهبوا إلى الكوفة. فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة، ودخل بعدهم أبو سلمة الكوفة ففعل، كما فعلوا، وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى.

٥- جيش الثورة العباسية:

تكون هذا الجيش من أنصار أبي مسلم. فمن هم أنصار أبي مسلم ؟ يرى يوليوس فلهاوزن[١] وبرناردلويس أن غالبية أنصار أبي مسلم كانوا من الفلاحين الإيرانيين والموالي في القرى القريبة من مرو، وبعض العرب من ذوي المكانة البارزة. وقد استفاد أبو مسلم من الخلاف القبلي في الجيش الأموي، فاستطاع أن يكسب تأييد العرب اليمانية إلى جانبه.

وحقيقة الأمر أن قلة من الموالي من أهل خراسان كانوا بين أنصار أبي مسلم، وأن غالبية أنصاره كانوا من عرب مرو وخاصة أهل التقادم منهم، وهم الذين كانوا أكثر معارضة للحكم الأموي الذي أهمل الاهتمام بمصالح أهل هذا القطاع إهمالا تاما. حيث تركوهم تحت حكم الدهاقين أيضا، وكانوا في وضع أسوأ من وضع أهل البلاد المفتوحة.

ولم تفلح جهود نصر بن سيار لإزالة أسباب الشكوى والاستياء، لأنها جاءت متأخرة فلم ينجح في كسب ولاء هذه الطبقة للحكم الأموي؛ لأن هذه الفئة وجدت أن لا سبيل للإصلاح إلا بالتغيير الشامل الكامل، لا في خراسان وحدها، بل وفي جميع أنحاء الدولة الإسلامية. وهذا الأمر لا يكون إلا بالاتجاه نحو تنفيذ شعار « الرضا من آل محمد ﷺ»، وهو ما كان أبو مسلم يدعوهم إليه. ومن المعلوم أن اسم «آل بيت رسول الله» قد اقترن دوما في أذهان المسلمين بفكرة العدالة والإنصاف. وقد زاد في تعاطف الناس وميلهم إلى آل البيت استشهاد أئمة الشيعة على أيدي بني أمية، وكان آخر هؤلاء الأئمة يحيى بن زيد الذي استشهد سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م على يد نصر بن سيار في خراسان واستغل أبو مسلم مقتله أحسن استغلال.

وعلى كل حال، فقد كان للمستوطنين العرب - أهل التقادم في مرو - أسبابهم الخاصة للثورة ضد الوجود المستمر للحكم الأموي؛ ولهذا ركزت فرقة الهاشمية دعايتها ونشاطها بين هؤلاء في مرو، حيث وجدوا فيهم مجالا خصبا ومناسبا لدعوتهم ولجمع الأنصار لبدء الثورة منها[٢].

وكان أغلب دعاة الهاشمية الذين وفدوا إلى مرو تجارا أو على الأقل ادَّعَوْا أنهم جاءوا إلى خراسان لأسباب تجارية محضة، وهو ما يصلح مبررا مقبولا لوجودهم في

---

(١) فلهاوزن : ص٣٣٢ ومحمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص٢٤٧.

(٢) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص٢٤٨، فلهوزن : ص٥١٤-٥١٥.

خراسان في حال مراقبة السلطة لهم، ويجعل اتصالاتهم أسهل وأبعد عن الشبهات. ومن الطريف أن نلاحظ أن بعض المساعدات المالية التي أرسلت من مرو إلى الإمام كانت على شكل بضائع وعروضات من متاع التجار، مما يدل على مصدرها[(١)].

وحين أعلن أبو مسلم الثورة ورفع الرايات السود جهارا، وربما كان ذلك في الأول من شهر شوال عام ١٢٩هـ/ ١٥ يونيو ٧٤٧م، فهو إنما فعل ذلك في قرية من قرى خزاعة أيضا. وبعد أقل من يومين على ظهور أبي مسلم قدم عليه حوالي ٢٢٠٠ رجل من أهل التقادم[(٢)].

وفي أقل من شهر ونصف الشهر ارتفع جيش أبي مسلم إلى سبعة آلاف رجل. فأثر أن يفتح لهم ديوان جديد بأسمائهم وأسماء آبائهم وقراهم، وهو ما يعني أنهم جميعا أصبحوا من الخراسانيين دون تمييز بينهم بسبب قبائلهم أو بسبب أصلهم العربي أو غير العربي. وبمعنى آخر فإن تمام الاندماج تم في خراسان أولاً في جيش أبي مسلم، ثم فُرِضَ على بقية أنحاء الدولة بقوة سلاح هذا الجيش بعد نجاح الثورة في مرو[(٣)].

٦- انتصار الثورة العباسية:

سعى أبو مسلم للتحالف مع جديع الكرماني وأتباعه ضد نصر بن سيار. حيث كان ولاؤهم للأمويين ضعيفا، وبالإمكان الالتقاء معهم على هدف مشترك ضد نصر بن سيار على الأقل، إن لم يكن بالإمكان كسبهم كلية إلى جانب الثورة. كما انضم بعض المستوطنين من أهل التقادم في مرو إلى جديع في خروجه علي نصر[(٤)]. مما دفع نَصْراً إلى العمل على قتل جديع قبل وقوع هذا التحالف. وقد تم له ذلك على يد حاتم بن الحارث بن سريج الذي قتل جديعا ثأرا منه لأبيه الحارث الذي قتله جديع[(٥)].

وفي هذه الأثناء ذهبت نداءات نصر إلى الحكومة المركزية بالنجدة عبثاً ودون جواب، في حين كان على جديع الكرماني أن يسعى لكسب تأييد أبي مسلم له ضد نصر. وفي صيف عام ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، وبعد أن استطاع نصر استعادة بعض الأجزاء من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٢ ص١٢٧.
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٦٣ وابن الأثير : ج٢ ص٢١٨-٢١٩.
(٣) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص٢٥٠.
(٤) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص٢١٨-٢١٩ و٢٥١.
(٥) اليعقوبي : تاريخ ج٢ ص٤٠٧.

مدينة مرو - توصل الخصمان العنيدان إلى نوع من الهدنة[1]. هذا، بينما كان أبو مسلم من جانبه مستمرا في جمع الجند لجيش الثورة، وانتقل في شهر ذي الحجة عام ١٢٩هـ/ أغسطس ٧٤٧م إلى « آلين » إحدى قرى خزاعة[2].

وقد استغل الكرماني هدنته مع نصر بن سيار وباشر سلطته الفعلية الكاملة على خراسان. وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٣٠هـ/ ديسمبر ٧٤٧م عين حليفه الجديد شيبان بن سلمة عاملا له في سَرَخْس، ولم يعترض أبو مسلم على الكرماني وعلى إجراءاته، بل وعده بالنصر والتأييد[3].

وبعد قليل تجدد القتال بين نصر بن سيار وبين الكرماني، الذي طلب النجدة من أبي مسلم. فدخل أبو مسلم مرو بجيشه وأنهى القتال بينهما[4]، وكان ذلك لتسع خَلَوْن من جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ يوم الخميس الموافق ١٤ فبراير ٧٤٨م. ولكن نصرا لم يلبث أن فر في اليوم التالي إلى نيسابور حيث قرر مواصلة القتال منها ضد الثورة العباسية رغم تقدم سنه.

هذا، ومن ناحية أخرى، دعا أبو مسلم - عند وصوله إلى مرو- أتباعه إلى البيعة لـ« الرضا من آل البيت»[5]. لكن الكرماني وأتباعه لم يجيبوا ولم يبايعوا. وتمخض الوضع عن ظهور جماعتين ثائرتين في مرو. هما جماعة أبي مسلم الذي التزم بقضية الثورة وبالهاشمية، وجماعة الكرماني الذي وإن اتفق وتعاون مع أبي مسلم إلا أنه ظل خارج الثورة. وكان اتفاق الجماعتين تكتيكيا (مرحليا) يهدف إلى الخلاص من نصر بن سيار وأتباعه فقط. وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن يستمر اتفاقهما ما دام وجوده أو وجود أحد أنصاره يمثل تهديدا خطرا لأي منهما.

أما نصر بن سيار في نيسابور فكان يحاول تجميع الأنصار والجنود لحملة ينويها على مرو غالبا. لكن خبر مقتل أربع وعشرين من قادته وقعوا في يد أبي مسلم فَتَّ في عضده[6].

---

(١) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص٢٥٢ ، وعنه راجع الطبري ج٢ ١٩٨٠-١٩٨٤ .
(٢) الطبري : نفس المصدر ج٨ ص١٩٩٦ .
(٣) محمد عبد الحي شعبان : المرجع السابق ص٢٥٢ .
(٤) الطبري : ج٨ ص١٩٨٧ .
(٥) الطبري : ج٨ ص١٩٨٩ .
(٦) الطبري : نفس المصدر ج٨ ص١٩٨٩ .

هذا بينما استمر أبو مسلم الخراساني محافظا على تحالفه مع جديع الكرماني وأتباعه لتحقيق أغراضه في خراسان. وفي نفس الوقت أرسل جيشه لمهمته الأساسية وهي الزحف نحو الكوفة بقيادة قحطبة بن شبيب الطائي[1]. وكان النصر الأول لهذا الجيش في سرخس حيث يقيم شيبان بن سلمة بأمر من الكرماني، الذي لم يحاول في الواقع إنقاذه من غضب أبى مسلم الخراساني[2].

ثم سار جيش الثورة فالتقى بجيش نصر بن سيار بقيادة ابنه تميم، حيث جرت بين الجيشين معركة قرب مدينة « طوس » انتهت بدحر جيش نصر ومقتل ابنه تميم، واحتلال المدينة. ثم ما لبث جيش قحطبة أن احتل نيسابور، فهرب منها نصر بن سيار متجها نحو الغرب حيث لاقى حتفه بعد ذلك بشهور قلائل[3].

وقد استطاعت الحكومة الأموية -التي أزعجتها أحداث خراسان - أن ترسل جيشا للقضاء على الثورة عدته عشرة آلاف جندي بقيادة نباتة بن حنظلة. لكن هذا الجيش هلك وتشتت بكامله حين التقى بجيش الثورة العباسية في مكان ما بقرب «جرجان» في ذي الحجة سنة ١٣٠ هـ / أغسطس ٧٤٨م[4].

وفي شهر رجب من عام ١٣١هـ / مارس سنة ٧٤٩م التقى جيش الثورة العباسية قرب أصفهان بجيش أموي آخر أضخم وأكثر عددا (نحو خمسين ألف مقاتل) تحت قيادة عامر بن ضبارة، لكنه هُزِمَ أمام قحطبة شر هزيمة[5].

بعد ذلك زحف الجيش العباسي إلى نهاوند، فاستسلمت المدينة له بعد حصار قصير الأمد، وأصبح الطريق إلى العراق مفتوحا. فاندفع قحطبة بجيشه نحو الكوفة، واشتبك في معركة ضارية مع يزيد بن هبيرة والي العراق لمروان بن محمد. واقتتل الفريقان وهُزِمَ جيش ابن هبيرة إلى واسط في موقعة قرب «الفلوجة» على شط الفرات في يوم الأربعاء الثامن من شهر محرم الحرام عام ١٣٢هـ / ٢٧ أغسطس ٧٤٩م [6].

---

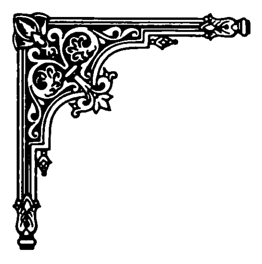
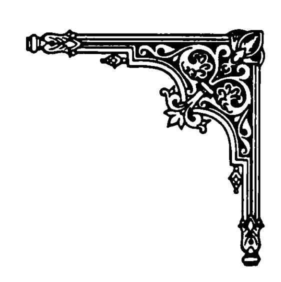
(١) الطبري : ج٨ ص١٩٥٤.
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٧١.
(٣) الطبري : ج٢ ص٢٠٠٤.
(٤) الطبري : نفس المصدر ج٢ ص٢٠١٦.
(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٧٥-٢٧٨.
(٦) الطبري: نفس المصدر ج٣ ص١٢-١٨ ، ومحمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص ٢٥٤.

وقد دفع قحطبة بن شبيب الطائي حياته ثمنا للنصر في هذه المعركة، فتولى ابنه حسن بن قحطبة من بعده قيادة جيش الثورة في زحفه إلى الكوفة، حيث دخلها دون قتال يوم الثلاثاء ١٤ محرم ١٣٢هـ / ٢سبتمبر ٧٤٩م[١]. وما إن دخل الجيش المدينة حتى اعترف بأبي سلمة الخلال وزيراً «لآل محمد»، فأخذ بيديه زمام الأمور كلها [٢].

في ذلك الوقت اهتم أبو مسلم بتقوية مركزه في خراسان وطخارستان والترمذ، ونجح في ذلك أيما نجاح بعد أن تخلص من القوى المضادة للثورة العباسية. وانتهت المواجهة بين القوتين الأموية والعباسية لصالح بني العباس. وهكذا خلا الجو لأبي مسلم وأصبح السيد الفرد والحاكم الأوحد لمرو والشرق[٣].

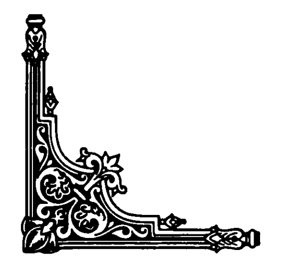
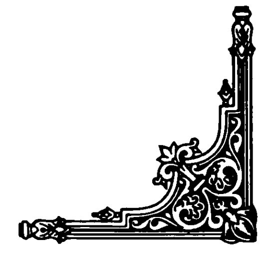
---

(١) الطبري : نفس المصدر ج٣ ص ١٢-١٨.
(٢) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص ٢٥٥، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .
(٣) الطبري : نفس المصدر ج٢ ص ١٩٩٨-٢٠٠٠، وابن الأثير ٥/ ٢٩٣ .

الفصل الثالث

بنو العباس في الطريق للحكم

توطد أمر أبي مسلم واتخذ لنفسه لقب «أمير آل محمد»، مما يعني أنه كان يعتبر أكثر من مجرد والٍ على مقاطعة، لأن أبا مسلم كان في الواقع أكبر بكثير من مجرد والٍ على خراسان والمشرق. إذ كان على اطلاع دائم ومستمر بمجريات الأمور في الكوفة عن طريق «أبي الجهم بن عطية»، الذي عينه أبو مسلم «مندوباً سياسياً» في الجيش الثوري الزاحف، وقد أقره في منصبه هذا «أبو سلمة الخلال» في الكوفة[١]. أما أبو سلمة فقد كان مسئولاً عن الكوفة بوصفة «وزير آل محمد»، وكانت مهامه في هذه الفترة أقرب ما تكون إلى مهام رئيس دولة مؤقت في حكومة ثورية جديدة، وسلطته معترفا بها من الجميع[٢].

وقد أعلنت الثورة تحت شعار «الرضا من آل محمد». ومع أن اسم «إبراهيم بن محمد» إمام الهاشمية كان هو الاسم المتداول بين رجال الثورة العباسية لإمرة المؤمنين، إلا أن تداول هذا الاسم وشيوعه سهّل على بني أمية اكتشاف الصلة بين إبراهيم بن محمد وأصحاب الثورة؛ لذلك حُبِسَ أولاً في مسكنه بالحميمة ثم نُقِلَ بعد ذلك إلى حرّان حيث مات ميتة غامضة في سجنه في شهر المحرم سنة ١٣٢هـ / أغسطس ٧٤٩م.

وتذكر المصادر التاريخية أن إبراهيم بن محمد عيَّن- قبل موته-أخاه «أبا العباس عبد الله بن محمد» خلفا له وأنه عمل على إخبار صحبه- قبل موته- باختياره هذا[٣].

ولذلك كاتب أبو سلمة الخلاَّل البارزين من آل بيت الرسول ﷺ مثل جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن وعمر بن علي بن الحسن - وكانوا بالحجاز - يعرض على كل منهم إمرة المؤمنين بشروط معينة. لكن جعفر الصادق رفض العرض رفضا قاطعا، أما عبد الله بن الحسن فتردد قليلا، ولكنه طلب شروطا أفضل لولده محمد النفس الذكية. ولم تسجل المصادر رد المرشح الثالث على هذا العرض[٤].

ولكن ما هي الشروط التي وضعها أبو سلمة الخلال لمنصب أمير المؤمنين ؟. من الواضح أن أبا سلمة كان تحت ضغط وجوب تنصيب شخص من بين آل البيت مقبول

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٣.

(٢) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص ٢٥٧.

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٤١٣، والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ - ٢٨٧، ٢٩٠، والطبري : ج٣ ص ٤٢-٤٤، ٧٢ - ٧٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٤١٨/٢ - ٤١٩، والسيوطي : نفس المصدر ص ٢٩٠.

للجميع لمنصب أمير المؤمنين. وكان رجل سياسة مسئولاً، وله مصالح كثيرة في النجاح الكامل للثورة، وكان دون شك على علم بالتيارات في الكوفة، وبرغبات الخراسانية وتصورهم لهذه السلطات، لاسيما أنهم هم الذين حملوا السلاح للإجهاز على النظام الأموي، وكانت لإمرة المؤمنين عندهم درجة من الأهمية أكثر من مجرد الاكتفاء بتغيير الحاكم فقط.

فبينما أعلنت الشيعة أن يكون أمير المؤمنين هو الإمام وله سلطات دينية ودنيوية معا، كان الخلاف في مدى سعة أو ضيق هذه السلطات.

أما الخراسانية فتصوَّرت سلطات دينية محدودة لأمير المؤمنين ولا سلطة زمنية له. وقبلوا بقيام أبي سلمة بالسلطة مؤقتا، وانتظروا شهرين كاملَيْن قبل أن يفرضوا مرشحهم لمنصب أمير المؤمنين(١).

وفي خلال هذين الشهرين كان أبو سلمة مشغولاً في تنفيذ شعار «الرضا من آل محمد»، بإقناع واحد من أعلى آل البيت منزلة، ليكون مقبولا من عامة المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم. وفي النهاية أخذت الخراسانية الأمر بيدها وفرضت مرشحها «أبا العباس عبد الله بن محمد» أميرا للمؤمنين(٢).

ولم يكن أمام أبي سلمة الخلال سوى الإذعان لما تم. كما يبدو أن أبا مسلم كان له يد في هذا الاختيار الذي تم على يدي تابع أبي مسلم وعينه على الكوفة أبي الجهم ابن عطية(٣).

ثم خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ، فصلى بالناس وخطب فيهم خطبة جاء فيها:

«إني لأرجو ألاَّ يأتيكم الجَوْرُ من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهلَ البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة : أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن عليٍّ، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا. فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح» . وبهذه الجملة الأخيرة لُقِبَ السفاح.

---

(١) محمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص ٢٥٩.

(٢) اليعقوبي : تاريخه ٢/ ٤٢٤، والطبري ٣/ ٦٦.

(٣) اليعقوبي : ٢/ ٤٢٤، والطبري ٣/ ٦٦ ومحمد عبد الحي شعبان : الثورة العباسية ص ٢٥٩.

ثم ألمَّتْ بالسفاح وعكـةٌ، فجلس على المنبر وصعد داود بن على(عَـمُّهُ)، وكان من أفصح بني العباس، فخطب خطبة جاء فـيها «إنا والله ما خرجنا في هذا الأمر لنكثُرَ لُجَيْنًا ولا عقبانا، ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضـب لنا ولبنى عمنا، ومـا كرهنا من أمـوركم وبهظنا من شئـونكم. ولقـد كانت أموركم تُرْمضُنا-أى تؤلمنا- ونحن على فرشنا، ويشتد علـينا سوء سيرة بنى أمية فيكم، وخَرَقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثـارهم بفيئكم، وصدقاتكم ومغانمكم. لكم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس -رحـمه الله- أن نحكم فيكم بما أنزله، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بِسَيْرِ رسول الله ﷺ. ثم مَنَّى أهلَ الكوفة بما يحلو فى أسـماعـهم، ومدح أهل خـراسانَ بما قـاموا به من نصـر أهل بيت النبي ﷺ وإعادة حقوقهـم. وقال في آخر خطبته (ألا وإنه ما صعد منبـركم هذا خليفة رسول الله ﷺ إلا أمير المـؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبـد الله بن محمد وأشـار بيده إلى أبى العباس، فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلِّمه إلى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه).

وبعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر، وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجـد. فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجَنَّهم الليل فدخل. ثم خرج أبو العـباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن على.

ولم يعد باقـيا بعد ذلك سوى أن يقضـوا على مروان بن محمـد والقوة العظمى التى بالجزيرة، وعلى ابن هبيرة والقوة التى معه بواسط. وهو ما تم فعلاً.

وهكذا قامـت الدولة العباسـية ودخل فى حـوزتها هذا المُلْكُ الطويـل العريض، الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومكَّنَ قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس.

وكـان أبو العبـاس فى غـاية الرضـا والسرور لـقبـول هذا المنصب على شـروط الخراسـانية، فأبقى أبا سـلمة فى وظيفـته وزيرا له، رغم ما في هذا الإجـراء من تقليل لسلطات أبى العباس الزمنية.

وهكذا - ومنذ البدايـة - افترق العبـاسيون عن العـلويين بانحرافهم عن الشـعار الذى ارتضوه معهم للإمـام أمير المؤمنين؛ ولذلك استمرت الشـيعة في تأليب الرأي العام لتحقيق أهدافها الدينية والسياسية طوال العصر العباسي، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد تفصيلاً.

ومع أن أبا العباس عرف بلقب «السفاح» فإن هذا اللقب ألصقه به بعض المؤرخين المتأخرين، لاختلاق «لقب ملكى» لأمير المؤمنين العباسي الأول على غرار الألقاب التى اصطفاها من تلاه من خلفاء بنى العباس لأنفسهم[١]. وقد قصد أبو العباس أن تبقى سلطاته فى حدود الحد الأدنى تمشياً مع ظروف مرحلة التأسيس.

ظل أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٧ هـ/ ٧٤٩-٧٥٤م) طوال فترة حكمه مشغولاً بتوطيد أركان الحكم العباسي في غرب الدولة الإسلامية. ففي جمادى الآخرة من عام ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م اشتبك فى معركته الحاسمة مع الأمويين، حيث استطاع أن يقضى على ضفاف نهر الزاب - على جيش مروان بن محمد الذي لاذ بالفرار. فتعقبه الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن على عم أبى العباس السفاح إلى حران. ولكن مروان فر منها إلى الشام، حيث لم يجد نصيرا، فلحق به جيش عباسي آخر بقيادة عم آخر لأبى العباس هو صالح بن علي. فاندحر جيش مروان بن محمد أما هو فهرب ثانية، وصالح ابن على يتعقبه حتى عثر عليه فى كنيسة فى «بوصير» -ببنى سويف- فأحاطوا به وقتلوه فى شهر ذى الحجة من عام ١٣٢ هـ/ أغسطس ٧٥٠م، ليسدل بذلك الستار نهائيا وإلى الأبد على حكم بنى أمية فى سوريا ومصر[٢].

وفى السنة التالية (١٣٣ هـ) استسلمت واسط إلى أبى جعفر المنصور، وكانت آخر قلاع بنى أمية فى العراق. وكان يزيد بن هبيرة ـ آخر ولاة بني أمية في العراق ـ قد صمد فى واسط لحصار القوات العباسية لمدة عام كامل، ثم قبل الأمان من أبى جعفر، واستسلم له، ولكنه ما لبث أن قُتِلَ غيلة وغدرا.

فلما آلت الأمور لأبى جعفر المنصور عام ١٣٦ هـ/ ٧٥٤م استُهِلَّ عهده بخروج عمه عبد الله بن على عليه. فندب أبا مسلم لقمع حركة عمه، وكان الوفاق بين أبى جعفر وأبى مسلم ما زال قائما بينهما. ولم تقع النفرة بينهما إلا بعد نجاح أبى مسلم فى حملته هذه ضد عبد الله بن على. إذ أرسل أبو جعفر لأبى مسلم يقطن بن موسى ليحصى أموال الغنائم، وهو ما رفضه أبو مسلم، معتبرا أن ذلك ليس من حق أمير المؤمنين ولا من سلطته. فى نفس الوقت الذى رأى المنصور أنه لن يكون حاكما فعليا إلا إذا أزال من طريقه، بل ومن الوجود كله أبا مسلم الخراسانى.

وفعلا تخلص أبو جعفر المنصور من أبى مسلم الخراسانى عام ١٣٧ هـ/ ٧٥٥م دون أن يثير عمله هذا أية معارضة من أحد أنصار أبى مسلم، فى وقت كان بنو العباس قد بدأوا يكتسبون هالة من الشرعية فى عيون الرعية.

---

(١) الطبرى، ٣ / ٧٩٩، ١١٣٣.

(٢) محمد عبد الحى شعبان، الثورة العباسية، ص٢٦٢

وقد ظل المنصور طيلة حكمه يزاول السلطات الزمنية على نفس أسلوب بنى أمية. فلم تزد سلطات وزير المنصور آنذاك (أبا أيوب المورياني) عن كونه مجرد حاجب لدى المنصور.

ومع كل هذا استمر مبدأ الفصل بين السلطات طيلة الحكم العباسى. وفى العصور المتأخرة من حكمهم تمكن وزراؤهم الأقوياء من السيطرة على السلطات الزمنية، بينما ظل أمير المؤمنين مجرد رمز للمظهر الديني فحسب، وهو ما سيتضح جليا في عصر ازدياد نفوذ الوزراء أو ما يسمى عصر الوزراء العظام.

وكان الإنجاز القوي والوحيد الذي حققته الثورة العباسية هو الدمج الكامل بين كل أعضاء المجتمع الإسلامي مما أدى إلى سرعة انتشار الإسلام بين غير العرب، وخاصة في القسم الشرقي للدولة الإسلامية.

وهكذا قامت هذه الدولة باسم الدين. وكان السلاح الذي استعمل فيها ـ للتأثير في العقول ـ هو إعادة الأمر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل مروان، الذين وصفهم الداعون بما شاءوا من صفات النقص والبعد عن الدين، ووضعوا في ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله ﷺ لا يعرفها رجال الفقه والحديث.

استعمل السفاح فى الوصول إلى إقامة سلطة الدولة العباسية العسف الشديد. فقد كان من الوصايا التى ألقيت إلى أبى مسلم (واقتل من شككت فيه). ولا يخفى أن حزم أبى مسلم، كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم. فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من داخله أقل شك فيه، حتى وصل إلى غرضه. وقد أتت هذه القاعدة على أكبر رجال هذه الدولة وهو أبو مسلم أيضا. وقد أحصِيَ من قتله أبو مسلم صبرا فكان ستمائة ألف. واستحقوا بذلك ما وصفهم به محمد بن على ابن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية حيث قال: «اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء وغدر، وكان قسم التحايل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة».

والحق أن قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، لم يكن مجرد بيعة تمت لخليفة دون آخر، أو انتقالا للسلطة من بيت لبيت، بقدر ما كان بمثابة ثورة فى تاريخ العالم الإسلامى؛ لأنها مثلت نقطة تحول خطيرة فى هذا العالم واستمرت أصداء هذا التحول تسرى وتنتشر بعد ذلك قرونا عديدة. فكان لها-كما يذكر د. حسن محمود. «من الأهمية ما للثورتين الفرنسية والروسية من أهمية فى تاريخ الغرب»[1].

---

(١) حسن محمود، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص١٠.

وكان السبب فى أهمية هذا التطور الخطير هو :

١- أن الدولة العباسية قامت على أساس الدعوة الدينية المنظمة بدقة كانت سببا فى نجاح العباسيين، والتمكين لهم فى الأرض.

٢- أن الدعوة العباسية استفادت من حركة انتشار الإسلام فى الأقطار غير العربية، وتوجيه سكان هذه البلاد لخدمة الدعوة وأهدافها.

٣- أن الدعوة العباسية أفادت أيضا من حالة السخط والتذمر، التى كانت سائدة وقتذاك فيما بين عامى ١٠٠هـ و ١٣٢هـ بين أوساط المسلمين من غير العرب أى «الموالى».

٤- أن الدعوة العباسية -بقدر استفادتها من العوامل السابقة- استفادت كذلك فائدة كبرى من حالة التداعى، التى كان يعانى منها البيت الأموى فى أخريات سنى حكم بنى أمية.

ولما كانت الحركة السياسية قد استنفرت -بصورة خاصة-الخراسانيين الذين انتفعوا منها -بعد ذلك-أعظم الانتفاع؛ لذلك فقد ذهب بعض المؤرخين والباحثين إلى القول بأن هذه الحركة -العباسية- المنطلقة من خراسان معادية للعرب. لكن هذا الرأي أو القول يبسط الأحداث تبسيطا شديدا. فليس غير العرب فقط هم الذين ناصروها بل ومن العرب المقيمين بخراسان وغيرها، أملاً فى كسب ود الحركة العباسية وقادتها، فيما كان سائدا وقتذاك من منازعات قبلية عربية، نشبت بين العرب المقيمين بخراسان وغيرها.

ثم إن خراسان -بحكم الفتح الإسلامي لها-كانت قد تزودت بالقوات العربية، أكثر من سواها من الولايات، وانتشر فيها الإسلام. وبالتالي كان من الممكن حشد سكانها ليناصروا قضية اصطبغت فى نهاية المطاف بطابع عربي أى ليدخلوا طرفا في نزاع عربي.

وكل ما يمكننا اعتماده -فيما نعتقد- يتلخص فى النقاط الرئيسية التالية :

أنه من العسير أن نتبين كيف ومتى تحول العباسيون من المطالبة بحق الخلافة لآل البيت -(كما يفهمه السواد الأعظم من الرأى العام الإسلامى)-، إلى المطالبة بحق خاص للعباسيين فى إمامة المسلمين. فربما كان هذا التحول أمرا مفاجئا حدث فى اللحظات الأخيرة.

والسبب المعقول الذى مهد لهذا التحول هو أن العباسيين ربما وقفوا موقفا مناقضا للعلويين والمذاهب الأخرى، التى تدور فى فلكهم. فراحـوا يؤكدون أنه لا يوجد إنسان يسمو على الطبيـعة البشرية، سواء داخل الأسرة النبـوية التى تشمل الطالبيين (وهم من نسل أبى طالب والد على وجعفر) والعباسيين، أو خارجها. بل لا يوجد سوى مطالبين بحق الإمامة، على قدم المسـاواة، ويتمتعون بطبيعة إنسـانية صِرفة، وإذا هم أخطأوا فى التدبير كان حسابهم عند الله.

مثل هذا الموقف قـمين بأن يجذب إلى العبـاسيين جميع المسلمين، الذين ضـاقوا ذرعا بنظريات الغـلاة المتطرفين. فكان على آل عبـاس أن يلتزموا سنة الرسـول قبل كل شيء، وأن يسعوا إلى الثـأر من أولئك الذين اغتصبوا مكانة آل البـيت، وألقيت عليهم تبعـة اغتيـال العديد من آل بيت الرسـول. وليس من نافلة القول التـأكيـد بأن الثأر في التقـاليد العربيـة هو النداء المشترك الوحـيد، الذي يجمع صـفوف المتذمـرين الثائرين، ويدعم حركتهم مهما تباينت آراؤهم الحزبية.

ونحن لا يمكننا أن نتوقع ماذا كان يمكن أن يحدث للحركة العباسية، لو أن الله - سبـحانه وتعالى- لم يقـيض لها ذلك المدبر العبـقري أبو مسلم الخـراسانى الذي تولى شئـونها. وهو الذي حالفه التـوفيق فى كل تحركـاته لصالح الدعوة العـباسية ودعـوتها ودولتها.

والحق أنه ليس لدينا أي خبر يقيني ثـابت من أخبار هذا الرجل الفذ، الذى طالما لهج التاريخ بذكره، ثم استولت عليه الأساطير المستقرة عبر القرون، كما أن من العسير أن نحدد مواقفه الشخصيـة. لكن بعض الأخبار المتناقلة أيام شبابه، وكذلك المكانة التى احتلها فى المعتـقدات التى انبثقت عن دعوته بصورة غير مـباشرة، كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأنه وقف موقفا يختلف عما كان أسياده يتوقعون منه.

وكل ما يمكن قـوله أن «أبا مسلم» عـمل جاهدا فى سـبيل توطيد سـلطته، ولم يتورع عن القـيام بأي عملٍ، حـتى ولو كان هذا العـمل على حساب الأنصـار القدامى للحـركة العبـاسيـة، وسخـر كل ما أتيح له من سلـطات -وبخاصـة قبل نجاح الـثورة العباسيـة- فى سبيل التمهيد لانتـصاره لسيده العباسي المباشـر -وبالوسيلة التى وجدها وقتـذاك مناسبة- دون أن يعـير لمشورة الأسرة النبـوية أو آل علىّ أي اهتمام. وتجـمعت حوله حشود ضخمة لصالح آل العباس، اعتمد عليها في الدعوة والحرب لإقامة الدولة.

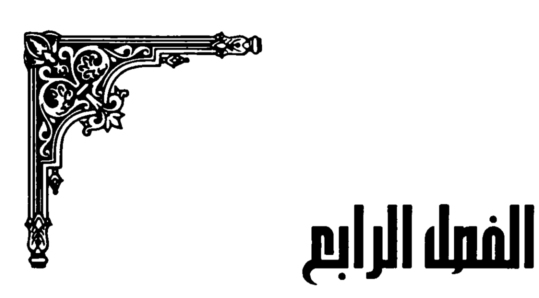
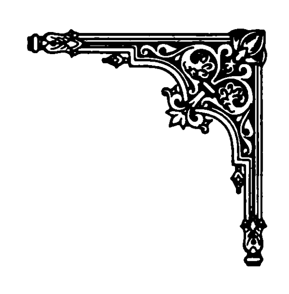
أما الأمويون، فقـد بَغتتـهم التحـولات، وعجـزوا عن إنشاء جيـش قادر على المقاومة، وجرفتهم الأحداث فى بضعة شهور، فسقطوا الواحد تلو الآخر. ولم ينج ـن

الأمـويين عـام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، سـوى عـبـد الرحمن بن مـعاوية الـثـانى المعـروف بـ «عبـد الرحمن الداخل»، الذى فـر للأندلس ليؤسس مـلك بنى أمية فـى الأندلس عام ١٣٨هـ.

يقول كلود كاهن:

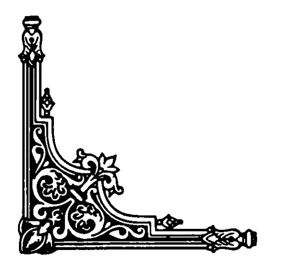
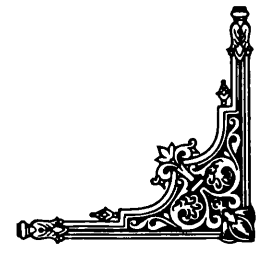
«نحن لا نرى فى الحركة العبـاسية خيانة، أى أن آل العباس لم يسـتأثروا بحركة علوية -فى أساسـها- ولم تسهم فى ثورتهم جمـاعة علوية، إذ لم يكن لآل على «من يمثلهم فى خراسـان». ومع ذلك فقد عطـف الرأي العام الإسلامي على الأسـرة النبوية الكريمة، وكان لابد أن ينهض بالحكم أحد أفرادها، وأن ينتـخب هذا الأخير بالإجماع، لكن هذا الأمـر لم يحدث. ومن هنا نشـأ الالتبـاس الذي بدأ في اغتـيال «أبى سلـمة الخلال»، الزعيم السابق للحركة فى مـدينة الكوفة والذي لقب «بوزير آل محمد»، وربما تم اغتياله بتحريض من «أبى مسلم» أو بعلـمه. ثم إن العباسيين -حين طالبوا بالثأر من بني أمية -زعـموا أنهم يفعلون ذلك نيابة عن آل البيت جـميعاً، فهم إذن قد اسـتجابوا لرغبة العلويين. وأنـكر هؤلاء أن يكونوا قد ذهبوا ضحيـة عجزهم...، وأنهم لم يتفقوا فيما بينهم».

«لقد أحـدث هذا الالتبـاس أثرا بالغا فى مـجرى التاريخ العـباسى. كـما أعلن العباسيـون بوضوح أن الخروج على الأسرة الحاكمة البغـيضة لايعنى الخروج على أسس العقيدة الإسلامية وأفـادوا مؤقتا من هذا الإعلان الصريح، الذي لم يأت بمثله آل علي. «وبالتـالي كان من الخطأ أن يتـوهم المرء أنهم بعـد انتصـارهم سوف يتناولون العـقيـدة بالتغيير، وكان هذا هو موقفهم دائما».

الفصل الرابع

الدولة العباسية ومشكلات العالم الإسلامى

مدخـــل:

لقد واكب الحـركة العباسـية دعايةٌ قويةٌ واسـعةٌ ، استنكرت تماما تصـرفات بني أمية، الذين وقعت عليهم تبعة جميع مظاهر الإفساد المادي والروحي، المنتشرة في العالم الإسلامي عامة. وبالتالي فإن السؤال الذي يطرح علينا نفـسه بعد «نجاح الثورة» مباشرة هو أن نعرف : كيف يمكن للعهد الجديـد - الذي ارتقى سِدَة الحكم والخلافة - أن يغير الحالة الراهنة فيتدارك المساوئ الثابتة ويباشر بالإصلاح؟

من المعروف أن إحـدى أهم نقاط الضعف لـدى بنى أمية، والتي سـاعدت على زوال دولتهم، كما ساعد على انقراض دول أو حكومات عديدة سواها...هي الاضطراب فى نظام الوراثة. وقـد بقى هذا الموضـوع على حـاله عند العبـاسـيين لأن فكرة الحكم الوراثي المنتقل من الأب إلى الولد البكر -أو خلاف ذلك- ظلت بعيدة عن عالم الشرق الأدنى، حتى أنها لم تتحدد بوضوح، فى دولة مجاورة كـبيزنطة المسيحية. فكان العرب يعترفـون بحقوق مشتـركة للأسرة الحاكمـة عامة، على أن يتركوا الحـرية لأفراد الأسرة الحاكمة، من حيث إجـراء الترتيبات فيما بينهم. وقد تعقـدت هذه الحرية، واستقر على مر الأيام فارق أسـاسي بين آل العباس والأسرة الأمـوية، هو أن العباسيـين قد جاهروا بمبدأ تسامى العائلة الحـاكمة على سواها من العائلات، وبالتالي تجنبـوا المصاعب الناشئة عن مصاهرتهم أفراد الرعية فراحوا يلتمسون الإماء والجواري.

وكان أغلب الخلفـاء -بدءا من أبناء هارون الرشيد- من سلالة الإمـاء مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج تؤثر بـصفاء النسل. لكن العباسيين لم يعـيروا هذا الموضوع كبير اهتمام، وبقيت مـشكلات الوراثة على حالها. هذه المشكلات تتضح لنا حين نقوم بتلخيص بعض الأحداث الشهيرة تلخيصا موجزا.

فالمعروف أن الخليفة المنصور هو ثاني الخلفاء العباسيين، من حيث ترتيب التولية. وبالتالي فـإن توليته حرمت عـمه عبد الله وابن عـمه «عيسى بن مـوسى»، الذي وعده المنصور بوراثته في المرتبـة الثانية بعد ولده المهدى. ولما كان للمـهدى ولدان هما الهادي وهارون، ولما كان الثاني أكثر نباهة وأقرب إلى قلب أمهما الخيزران، فقد قرر المهدى أن يلى هارون أخاه الهادي الوريث المباشر. ولما ارتقى الهادي سدة الحكم طلب إلى هارون أن ينسحب لصالح ابنه وحَبَسه، ثم توفى الهادي فجأة.

أما هارون فقد قسم وراثتـه بين أولاده الثلاثة، وجعل لكل منهم جزءا من الدولة يحكمه حكما محـليا. فكان للأمين -ولده الثاني- جميع الأقطار العربيـة تقريباً، وآمه

عربية حرة وزوجة شرعية، وكان للمأمون -الولد البكر-المولود من أمة فارسية -ولاية بلاد فارس، أما المعتصم -الولد الثالث- فكانت له التخوم البيزنطية. وقد تولى ثلاثتهم الحكم في الواقع ، ولكن بعد أن تسببوا في كثير من المحن والمآسي. ولرب قائل يقول: « إن مثل هذا التدبير يسمح على الأقل باختيار أكفأ الورثة لولاية العرش (الخلافة). لكن يمكن القول: إنه إذا كان العباسيون الأوائل قد اتصفوا بالرجولة والشخصية البارزة، إلا أننا سوف نرى ، في عهود لاحقة ، كيف يسعى المتنفذون بالأمر إلى أن ينَصِّبوا أشخاصا ضعافا بله الصبية ، خدمة لمصالحهم.

وإذا كانت المنازعات القبلية سببا من أسباب تدهور حكم بني أمية ، فإنها استمرت في العهد العباسي ولم تنقطع. ولما كانت القيسية تؤازر آخر الخلفاء الأمويين ، فقد وجدوا أنفسهم في صف المعارضة بالنسبة لبني العباس.

غير أن هذه المنازعات فقدت خطورتها ، بحيث لم تعد القبائل - في ظل النظام الجديد - عنصرا أساسيا، من عناصر القوات العسكرية (المؤلفة وقتئذ من أهالي خراسان). فيمكن لهذه القبائل أن تقتتل ما يطيب لها القتال ، دون أن يترتب على ذلك ما يقلق الدولة؛ لأن موضوع الخلاف بينهما أصبح لا يمس الدولة في الصميم. ومن المعلوم لدينا أن عرب العراق ، كانوا يحسدون عرب سوريا ، إبان العهد الأموي ، وأن هذا الحسد قد سبب لبني أمية مصاعب جمة ، وكانت الأسرة العباسية قد انطلقت من الكوفة واتخذتها قاعدة لها ، وراحت تستمد قواها باستمرار من الخراسانيين.

ولهذه الأسباب استقرت الأسرة العباسية في العراق لتكون على صلة وثيقة بالعالم الإيراني؛ لأن الكوفة نفسها - حيث تَجَمُّع آل علي - لا تخلو من الخطر. ثم أسس المنصور - بعد محاولات عديدة في أماكن متفرقة - مدينة بغداد عام ١٤٤هـ/ ٧٦٢م على نهر دجلة بحذاء المدائن «حاضرة آل ساسان».

غير أن إنشاء بغداد لم يقض على المنازعات الاقليمية أو يقلبها رأسا على عقب. بل إن سوريا هي التي تكفلت بمناهضة الحكم العباسي ، بينما كان العراق في العهد الأموي يتهض بهذا العبء. وحذت مصر حذو سوريا ولكن في نطاق أضيق (هذا إذا نحن أسقطنا من حسابنا بلاد الأندلس النائية عن الحكومة المركزية في بغداد).

على أن الشام ومصر كانتا آنئذ - قبل أن تبعث أهميتهما في عصر لاحق - أقل خطرا من العراق في العهد الأموي. والجدير بالذكر أن القلاقل التي أحدثها هذان القطران للنظام العباسي أيام توليه الحكم كانت أقل شأنا مما سوف ينشأ فيهما من فتن في فترة متأخرة ، وهي أيضا أدنى خطورة من المناهضة العراقية السالفة لبني أمية.

وإذا كان الفرس لم يقاوموا الحكم الأموي (العربي الصبغة) مقاومة تحمل طابعا شعوبيا حقيقيا، إلا أن العناصر الفارسية في المجتمع الإسلامي -من الموالي وسواهم- كانت تصبو إلى مكانة تتناسب مع أهميتها الفعلية المتزايدة. وذلك تطبيقا لمبدأ المساواة بين المؤمنين جميعا. ولقد أحرز الموالي بهذا الصدد نصرا مؤزرا سوف يكون له ما بعده. وبديهي أن يكون الخراسانيون - وهم الدعامة الكبرى للعهد الجديد - من أوائل المنتفعين بهذا العهد الجديد ، وأن يستمر هذا الانتفاع مدة طويلة من الزمن.

لكننا لا يجب علينا أن نغلو في الأمر ، فيشطح خيالنا إلى أن الحكم العباسي تمكن من تبديد كل الغيوم المتراكمة فورا؛ ذلك أن الغليان الفكري، الذي واكب الحركة العباسية ، كان لابد له أن يستمر ، وإلا تستجيب النتائج الفعلية إلى الأمل المعقود عليها، استجابة تامة أو فورية. ولقد ظفر الخراسانيون أو الموالي الفرس عامة بحق المساواة مع غيرهم، وزالت من الاستعمال لفظة « مَوْلَى » بالذات لأنها لم تعد تنطبق على أي واقع ملموس.

غير أن العرب ظلوا يمثلون الكثرة السائدة في أقطارهم ، كما ظلت الأسرة الحاكمة عربية المحتد. لكن إذا كان الصراع بين السيد والمسود قد زال، إلا أنه بقيت طائفتان من العرب : طائفة منتصرة قائمة ، وطائفة فقدت امتيازاتها - لا سيما العسكرية منها - وتولد في نفسها الحقد والضغينة.

هكذا تغيرت إذن أشكال المقاومة ، ولعلها انقلبت رأسا على عقب، لكنها لا تزال موجودة. أضف إلى ذلك أن الطابع الإسلامي الواضح الذي طبع به العصر العباسي ، كان لابد أن يثير بعض التخوف والقلق عند غير المسلمين (أهل الذمة) ، الذين لم يشعروا به في ظل بني أمية. وإن كان هذا التخوف لم يكن له ما يبرره، لأنه منذ قيام دولة- أيام الرسول والراشدين- وحتى العصر الأموي لم يثبت على حاكم مسلم واحد عنتا ألحقه بذمي ولا ذمية.

وإذا كان من المسلّم به أنْ تغيير الأسرة الحاكمة - مهما كان عملا ثوريا - لا يقوى وحده على حل المشاكل الاجتماعية والمالية العسيرة التي اعترضت بني أمية. فكيف عالج العباسيون هذه المشاكل ؟ كل ما نلقاه أن تبديل النظام ، ولو أنه خفف بعض الشيء من الصعوبات الاجتماعية ، إلا أنه أثار غيرها أو على الأقل لم يقضِ عليها قضاء مبرما. وكان آل البيت قد اعتمدوا على ذلك الاستياء العام الذي عم المجتمع ، فاستمدوا منه القوة الكافية ليناهضوا بني أمية من الناحيتين السياسية والدينية. كذلك أدى استمرار التذمر إلى التشدد في بعض المقاومات السياسية والدينية.

ثم إن عملية إزالة سلطان بني أمية - وإن بدت كاملة تماما - لا تعني زوال أنصارهم نهائيا، كما أن الخوارج الذين لم يقبلوا بالحكم الأموي، لم يجدوا المبرر

الكافي لقبول العهد العباسي. أما الشيعة التي بقيت خارج الحكم ، فكان يحق لها أن تنشر ضد آل العباس - وفي كل مناسبة - مبادئ المقاومة التي دعمها آل البيت دعما واسعاً ضد الأمويين.

هذه الاعتبارات جميعها هي التي تشرح لنا تلك المشكلات المتتالية من الثورات والفتن التي سوف نذكر بعضا منها.

١- مواجهة المشكلات الاقتصادية والحربية

إذا كانت هناك حاجة للإثبات بأن أسس الدولة العباسية، كما وضعها المنصور، لم تكن قوية بمقدار ما كانت تبدو، فإن ذلك الإثبات سرعان ما ظهر. فما كاد يمضى جيل واحد على وفاة الخليفة أبو جعفر المنصور، حتى كانت الدولة العباسية تخوض حربا أهلية مدمرة، دلّت بوضوح على نقاط الضعف فى هذا النظام العباسي.

فقد مضت فترة تزيد على خمس وثلاثين سنة (١٣٢ ـ ١٦٨هـ) نهج فيها ثلاثة خلفاء عباسيين السياسة التى استنها والدهم المؤسس دون تعديل يذكر. ولئن كانت قد حدثت بعض التغييرات فإنها كانت بمثابة تدابير محددة لا تتخذ إلا عندما تنشأ أوضاع تهدد الحكومة المركزية، ولقد كان ذلك هو خط السياسة العامة التى اقتصرت على تعزيز سلطة الخليفة والحكومة المركزية للدولة العباسية[١] .

والحق ، لقد فات العباسيون أن يدركوا الدروس التى كان يجب أن يتعظوا بها من سوابق مماثلة، كحل الوحدات العسكرية فى البصرة والكوفة، أو كثورة الجيش السورى على بنى مروان. وفى مدينة رئيسية تنمو بسرعة كبغداد، كان السماح لقوات الخراسانية بمشاريع تجارية مربحة سبيلا مؤكدة لانصرافهم إلى الحياة المدنية انصرافا كاملا[٢].

وإذا كان الانصهار بحد ذاته رائعاً، إلا أنه لابد من أن تلحقه تدابير من شأنها أن تؤدى إلى ترسيخه، ليتم بذلك دمج شعوب الدولة الواسعة في مجتمع واحد موحد. ولقد أفسح الهدوء النسبي في معظم أنحاء الدولة المجال لتحرك الناس بين ناحية وأخرى. مما أدى بدوره إلى نشوء تجمعات بشرية ضاغطة في مناطق توافرت فيها فرص اقتصادية استثنائية[٣].

---

(١) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية (الفاطميون) [٧٥٠ ـ ١٠٥٥م/ ١٣٢ ـ٤٤٨هـ]. نشر الأهلية للنشر والتوزيع. ٣٥.

(٢) محمد عبد الحى شعبان: نفس المرجع ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) محمد عبد الحى شعبان : نفس المرجع ص٣٦.

محاولات الإصلاح في خلافة المهدى العباسي

لما آلت الخلافة إلى المهدى العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ٧٨٥م) - وكان كل شيء مهيئا لمجيئه ـ توقع الناس أن يعم العدل ويسود الاستقرار، خاصة أنه بدأ عهده بتدبير رائع لتحقيق التسوية والتفاهم؛ وذلك بأن أطلق سراح من سجنهم أبوه[١]، ثم أنشأ ديوان المظالم، وأخذ يجلس فيه بنفسه لسماع ظلامات الناس ضد موظفي الدولة وليرى الناس أن العدالة يجب أن تأخذ مجراها الطبيعي[٢].

كما عمل أيضا على الاستفادة من مكانته كحاكم. فاتبع سياسة التوفيق والمصالحة مع فئات الشيعة المعتدلة على الأقل. وكان من بين الذين أفرج عنهم من سجون المنصور رجل يدعى يعقوب بن داود ذو ميول شيعية، وكان قد اشترك هو وأخوه في ثورة محمد النفس الذكية، مما دفع المنصور وقتها إلى الزج بهما في السجن[٣]. ولم يكتف المهدى بالإفراج عن يعقوب بن داوود، بل عينه في مركز فريد هو «الأخ بالله»، وذلك سعياً من المهدى نحو الوصول إلى التفاهم الذي ينشده مع الفئات المخالفة. وقد أطلق المهدى يد يعقوب بن داوود، وأعطاه حق تعيين أمناء له في الولايات، وجعل سلطتهم على الولاة أنفسهم[٤].

ومع كل هذه المبادرات التى قدمها الخليفة المهدى العباسى، إلا أن النتائج لم تكن إيجابية بالقدر المنشود، بسبب عمق الخلافات بين الأطراف المختلفة، فضلا عما أثاره هؤلاء المفوضون السياسيون بصلاحياتهم الواسعة من عداء لدى الولاة وأصحاب البريد الموالى، وكانت النتيجة أن عُزل يعقوب بن داوود وأعيد ثانية للسجن[٥].

لكن على الرغم من هذا الفشل، إلا أن الخليفه المهدى قرر القيام بحملة تطهيرية للقضاء على الزنادقة الذين كانوا يعارضون الخليفة المهدى فى سياسته الدينية، مما أدى إلى نشوء معارضة لها حتى بين أفراد الأسرة العباسية ذاتها[٦].

---

(١) الطبرى : جـ٣ ص٤٦١.
(٢) صابر دياب: ولاية المظالم ومجالسها.
(٣) الجهشيارى: الوزارء والكتاب ص١٥٥، والطبري ٣/٥٠٦/٥٠٧.
(٤) محمد عبد الحي شعبان الدولة العباسية ص٣٧.
(٥) الطبرى : ٣/٥٠٨ و٥١٧.
(٦) محمد عبد الحى شعبان : المرجع السابق ص٣٧ ، وعنه راجع الطبرى : ٣/٤٩٩ و٥١٧ - ٥٢٢ و٥٣٤ و٥٤٨ - ٥٥٠ و٥٥٨.

أما فى مجال إدارة الدولة، فقد أظهر المهدى العباسي قدرة طيبة، بسبب التدريب الذى تلقاه على يد والده أبى جعفر المنصور، الذي كان قد تلقى من صديقه عبد الله بن المقفع رسالة - سميت رسالة الصحابة - رسم فيها ابن المقفع للمنصور الطريق الذى يمكنه به إدارة الدولة بكفاءة(١).

وقد تضمنت هذه الرسالة - التى وضعها ابن المقفع وقدمها كدليل يسترشد به المنصور فى حكم البلاد - توجيها يؤكد ضرورة إلزام القوات العسكرية بواجباتها فقط، وعدم السماح لها بالتورط فى أمور الإدارة المدنية، وبخاصة مسألة جمع الضرائب. وقد أدرك المهدى أهمية هذا التوجيه. ولذلك عين مسئولين منفصلين، ومراقبين مستقلين لهاتين المصلحتين، لتجنب تدخل الجيش أو تورطه في شئون الضرائب(٢).

وفضلاً عن ذلك، قام المهدى - وكان أول من فعل هذا - بتنفيذ مبدأ التجنيد للعمل فى مجالات الشرطة، دون اللجوء لأخذهم من الجيش، فكان أفراد الشرطة - بناء على ذلك - يجندون من سكان المدينة المعروفين(٣). لكن هذه السياسة - للأسف الشديد - لم تدم بعد وفاة المهدى، مما أدى إلى انتكاس كبير فى أحوال وإدارة الدولة العباسية.

وكان ابن المقفع قد أوصى فى رسالة (رسالة الصحابة) للمنصور بضرورة إزالة التناقضات فى قضايا الضرائب وعطاءات الجند (رواتبهم). ولكن المهدى لم يقم بأى عمل من شأنه تصحيح الوضع بالنسبة للضرائب، كما لم يعمد إلى تصحيح عطاءات الجيش. وكانت هذه الضرائب نسبة محددة عينا أو نقدا مقدرة على أساس مساحة الأرض ونوع الإنتاج.

وقد اقترح كاتبُ الخليفة نظامَ المقاسمة، فصارت الضريبة تقدر على أساس الإنتاج الفعلى، بحيث تراوحت بين النصف والثلث بناء على طريقة الرى ونفقاتها(٤).

أما عن الأراضى المنتجة للفاكهة والخضروات، فلم يفرض عليها ضرائب فى صدر الدولة الإسلامية. واقتصرت الضرائب على الحنطة، والشعير، والتمر، والعنب، وهى المنتوجات المألوفة فى جزيرة العرب(٥). أما فى البلدان الواقعة خارج الجزيرة

---

(١) صابر دياب : نقطة التحول فى تاريخ الدولة الإسلامية (دراسة فى رسالة الصحابة لابن المقفع) منشورة ضمن كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامى، نشر دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.

(٢) صابر دياب : المرجع السابق.

(٣) الطبرى : ٣/٤٨٣ و٥٤٨ و٥٥٥ و٧٦٢ - ٧٦٣.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٢.

(٥) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية وعنه راجع : الأموال ص٤٧٤ - ٤٧٥.

العربية - كما فى بلاد الشام مثلا - حيث يشكل الزيتون إنتاجا رئيسيا، فإن العرب لم يدركوا أول الأمر أن الزيتون منتج آخر خاضع للضريبة. وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٥٦ - ٨٦هـ) صارت الضريبة دينارا واحدا تفرض على كل مئة شجرة زيتون إذا كانت لا تبعد أكثر من ميل واحد عن السوق أو على كل مئتى شجرة منها إذا كانت أبعد من ذلك[١].

فلما آلت الخلافة إلى المهدى ألغى ضريبة كانت مفروضة على بعض أشجار الفاكهة فى ولاية فارس[٢]، كما وسَّعَ نظام المقاسمة ليشمل جميع المنتجات الزراعية فى أرض السواد - (بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات) - . كما أمر الخليفة المهدى باقتطاع نفقات الزراعة قبل تحديد نصيب بيت مال الخلافة، وأُدْخِلتْ بعض التعديلات لاعتبار البعد عن الأسواق عند التقدير[٣].

أما في مصر، فكانت ضريبة الأرض نسبة محددة تدفع نقدا، وقد طلب المهدى من عامله مضاعفة هذه النسبة. كما فُرِضَتْ ضريبة على الماشية المباعة فى الأسواق للذبح فى المدن الكبيرة في الغالب[٤].

وبالنسبة للولايات الأخرى، فلم يرد ما يفيد حدوث تغييرات في ضريبة الأراضي؛ لأن هذه الولايات كانت - فى الغالب - مناطق قد عقدت معاهدات صلح مع الفاتحين المسلمين، تدفع بموجبها مبلغا متفقا عليه. وقد أمر الخليفة المهدى بفرض ضريبة جديدة على الأسواق والدكاكين المبنية حديثا بعد بغداد - كما حدث فى عهد أبى جعفر المنصور - وهى الدكاكين التى كانت خارج سور المدينة (بغداد)[٥].

أما فى المجال الحربى : فقد قرر المهدى تركيز الجهد الحربى لمواجهة البيزنطيين. فبدأ منذ عام ١٦١هـ/ ٧٧٨م سلسلة من الحملات الصيفية سرعان ما تطورت إلى حرب عامة بين الدولتين[٦].

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ط القاهرة، ١٣٠٢هـ. ص٤٤ - ٤٥.
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٥١ ، هلال الصابى : كتاب الوزراء (تحقيق H.F.Amedroz) (نشر ليدن، ١٩٠٤م) ص٣٤١.
(٣) الجهشيارى : المصدر السابق ص١٥١.
(٤) المقريزى : الخطط ١/ ١٠٣، واليعقوبى : تاريخ ٢/ ٣٩٩ ، وياقوت : معجم البلدان ٤/ ٤٤٨.
(٥) المقريزى: نفس المصدر ١/ ١٠٣ ، ومحمد عبد الحى شعبان: الدولة العباسية ص٣٩ - ٤٠.
(٦) الطبرى ٣/ ٤٨٥ - ٤٨٦ و٤٩١ - ٤٩٣.

وفى عـام ١٦٥هـ/ ٧٨١م وجـه الخليـفة المهـدى ابنَه هارون الرشـيـد على رأس جيش، وأنشـأ قاعدة جـديدة فى الرقة، حـيث قاد هارون الرشيـد حملة ناجـحة على الأراضي البيزنطية[١].

عاد المهدى إلى بغداد تـاركا ابنه هارون فى قيادة الحملات ضد العـدو البيزنطى. كما جعله مسئولاً عن جميع ولايات الدولة الإسلامية في الغرب[٢]. وصار ما يرد من هذه الولايات من إيرادات مخصصا للجهد الحربى على هذه الجبهة الهامة.

وفى نفس العام (١٦٥هـ) وجـه الرشيد جيشـا قوامه نحو أكثـر من تسعين ألف مقاتل عدا المتطـوعين. وقد بلغت هذه القوة الشاطئ المواجه للقسطنطيـنية حيث نجحت في إجبار الروم على طلب الصلح.

ثم عقدت هدنة لثـلاث سنوات قبل البيزنطيـون بموجبها أن يدفعـوا جزية قدرها سبعون ألف دينار مرتين فى السنة. وقبلوا ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بتقديم المرشدين لجيش الرشيد، كما وعدوا بإنشـاء أسواق فى طريق سيرة لشراء المؤونة اللازمة له[٣]. والواقع أن هذه الشروط كانت من أبرز الميزات الخاصة بالحروب البيزنطية ـ الإسلامية في العصر العبـاسي. ومعنى هذا أن كل جـيش من جيـشي الطرفين، كان أثناء زحـفه في أراضى العدو، يشـترى مؤونتـه اللازمة له من أسواق عـدوه. مما يدل أن الغنائم والأسلاب لم تكن هى الهدف الرئيسى فى هذه الحروب.

أما بلدان الخلافة الشرقية، فقـد شهدت بعضَ القلاقلِ التى وقعت بين الصغد فى بخـارى وكيش، وفى إمـارات الهيـاطلة حول يوشـانج وجَوزَجَـان. ولكن هذه المناطق سرعان ما أُخضِعت بمساعدة ضئيلة من قوات الحكومة المركزية[٤].

بعد ذلك وجه الخليـفة المهدى العبـاسى اهتمامه إلى الولايات الواقـعة على بحر قزوين، التى كـانت تتميز بشـدة المراس والعناد؛ ذلك أنه فى سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م وجه جيشا من القوات المرابطة فى الرقة إلى هذه المنطقة، وجعل قيادة هذا الجيش مسئولية ابنه الهادى ـ ولـى العهد ـ وفـعلا أرغـمت هذه القوات أحـدَ أمراء طبـرستان عـلى إعلان خضوعه قبل أن يُضْطَرَّ الهادى للعودة بسبب ورود نبأ وفاة أبيه المهدى[٥].

---

(١) الأزدى : تاريخ الموصل ص٢٤٥ ـ ٢٤٦، والطبرى ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٩.
(٢) الطبرى : ٣/ ٥٠٠.
(٣) الطبرى : جـ٣ ص٥٠٣ ـ ٥٠٥، والأزدى : تاريخ الموصل ص٢٤٧.
(٤) الطبرى : جـ٣ ص٤٧٠ ـ ٥١٨، واليعقوبى : تاريخ جـ٢ ص٣٩٧.
(٥) البلاذرى : فتوح ص١٦٦.

المهم، لقد ترتب على كل هذا الجهد العسكرى وتلك الحملات، أن جميع المجندين الذين جيء بهم من سوريا والعراق وإقليم الجزيرة خلال عهد أبى جعفر المنصور نُقلُوا من بغداد، إلى قاعدة الرقة الجديدة، بينما نُقِلَ بعضهم - برغبته - لكى يستقروا فى مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية، ومنحوا عطاءات نقدية[1]. وكان ذلك امتدادا لما تم منذ عهد المنصور، حيث نجد بعض أبناء قبائل الأزد وطيئ وهمدان ينتقلون من البصرة إلى أذربيجان طوعا واختيارا[2]. وقد أدى هذا النزوح، غير المنظم إلى هذه المناطق، التى لم يتنبه إليها العرب من قبل، إلى ثورة السكان المحليين بقيادة بابك الخُرَّمى. مما استلزم ضرورة النظر في إعادة تنظيم الأوضاع فى هذه المناطق ومناطق أخرى أبعد إلى الغرب على الحدود الإسلامية البيزنطية[3].

أما فى الجبهة الجنوبية من الدولة الإسلامية، فقد كُلف والى البصرة - وهو ابن عم المهدى - بالإشراف على جميع الأراضى المجاورة للخليج العربي[4]. مما أدى إلى أن تصبح مداخل تجارة المحيط الهندى (بحر العرب) تحت سلطة وسيطرة رجل واحد لإحكام قبضة الحكومة المركزية على هذه التجارة. غير أن العرب المقيمين فى الصحراء الواقعة على الساحل الغربى من الخليج، بادروا بمهاجمة القوافل المارة، الأمر الذى كان نذيرا بازدياد الخطر فى هذه المنطقة[5].

فلما آلت الخلافة إلى موسى الهادى بن المهدى (١٦٩ - ١٧٠هـ / ٧٨٥-٧٨٦م) قرر منح جميع أفراد الجيش ببغداد عطاء سنتين هبة مباشرة لهم، مما أمن ولاءهم للخليفة الجديد. كما فصل الهادى بين ما كان يعتبره دخلاً خاصا له وما هو دخل للخزانة العامة (بيت مال الدولة)[6].

وقد وقعت فى خلافة الهادى - القصيرة الأمد - ثورتان شيعيتان، إحداهما فى المدينة المنورة، لكنها أخمدت بسرعة وقتل قائدها، بينما فرَّ إدريس ابن عم القائد وأحد أنصاره إلى شمالي أفريقيا، حيث أنشأ ابنه فيما بعد دولة الأدارسة فى فاس منذ سنة ١٧٢هـ[7].

---

(١) البلاذرى : فتوح ص١٦٦.
(٢) اليعقوبى : تاريخ ٢/ ٣٧١.
(٣) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية ص٤٠ - ٤٢.
(٤) الطبرى : ٣/ ٥٠١.
(٥) محمد عبد الحى شعبان : نفس المرجع ص٤٣.
(٦) الطبرى : ٣/ ٥٤٥ - ٥٤٦ و ٥٩٠.
(٧) الطبرى : ٣/ ٥٥١ - ٥٦٨.

أما الثـورة الثانية فـجرت فى أرمـينيا وكانت أكـثر خطورة من سـابقتهـا. حيث اصطدم استمرار تدفق العرب الراغبين في الاستيطان في الثغور بمقاومة السكان الأصليين المتـحالفـين مع الذين سبـق لهم أن استـوطنوا فى هذه المناطق . وكـان من شـأن هذه الاضطرابات أن شـجـعت الخزر على اسـتـئناف هجـماتهم. وبذلـك بقيت الأوضـاع مضطربة(١). وفى هذه الأثناء أخذت الحكومة تحاول إقناع بعض القادمين الجدد للانتقال إلى أمكنة أخرى لتخفيف الضغط على الأماكن المزدحمة بالسكان(٢).

فلما تولى هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠هـ (١٧٠ ـ ١٩٣هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) تم اتباع الخطط التى سـار عليها أسـلافه. وركز جـهده نحو إيجاد صـيغة للتـفاهم مع العلويين، الذين قابلوا ذلك بالكثير من التقدير. ثم قـام ـ بُعَيْد اعتلائه كرسى الخلافة ـ بالحج وزيارة مـسجـد النبى الكريم ﷺ بالمدينة المنورة. ووزع مـبالغ كـثيـرة بين سكان المدينتين المقـدستين(٣). وبعد عـودته إلى بغداد بدأ ينظم حكومـته في ضـوء الأوضاع والظروف السائدة(٤) وقتذاك.

وكانت مناطق أرمينيا وأذربيجان أكثر المناطق اضطرابا في الدولة الإسلامية. حيث شجع الصراع الداخلي فـيهما القوى الخـارجية ـ وبخاصة الروم ـ عـلى التدخل وتقوية طرف على طرف. هذا فى الوقت الذي كانت فـيه الهدنة التى عقدت منذ عهـد الخليفة المهدى بين الروم والدولة الإسلامية، قاربت على الانـتهاء، وبدأ العدو البيزنطي يكرس جهـده لاستئـناف القتال ضـد المسلمين. وكان على الرشـيد أن يتخـذ قرارا حـيال هذا الوضع. وهو الذي كان مسئولا عن مواجهة الروم فى عهد والده. وعلى إدراك للوضع الخطر على جناحه الأيمن ولذلك تسلم قيادة الجيش بنفسه.

أما بالنسـبة للشـئون الإدارية، فقد أسندها إلى مـربيه ورفيقه يـحيى بن خالد بن برمك، حيث عـينه الرشيـد وزيراً له ومنحه سلطات تنفـيذية واسعـة. واستمـر يحيى البرمكى هذا ومعه أبناؤه فى خدمة الرشيد والدولة العـباسية بتفان وإخلاص تامَّين طوال سبعة عشر عاما، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشته المعروفة فنكبهم(٥).

(١) اليعقوبى : تاريخ ٢/٤٢٦ ـ ٤٢٨.
(٢) البلاذرى : فتوح ص١٩٠.
(٣) الطبرى : جـ٣ ص٦٠٤ ـ ٦٠٥.
(٤) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية ص٤٤.
(٥) الجهشيارى : الوزراء والكـتاب ص٨٧ ـ ٨٨ و١٧٧ ـ ١٩٠ و٢٠٤ و٢٠٧ و ٢١٠و ٢١١ ، واليعقوبى: تاريخ ص٤٢٩.

وفيما يتعلق بالمواجهة مع الروم، فقد اعتمد الرشيد خطة دفاعية فى الفترة من ١٦٩ هـ -٧٨٦م إلى ١٧٤هـ / ٧٨٩م(١). وقد تبين أن المواقع المتقدمة فى الثغور كانت غير ذات جدوى عسكريا، هذا على الرغم من ضخامة كلفة إنشائها وتحصينها وصيانتها بالنسبة لبيت مال الحكومة. ففقدت بسرعة طابعها العسكرى الذى تميزت به من قبل، وأصبح الناس يستوطنونها لدوافع تجارية بعيدة تماما عن الدفاع والجهاد. وبذلك تحولت الثغور من الحدود إلى منافذ ومراكز تجارية تتبادل المنتجات الإسلامية والبيزنطية وأية بضاعة أخرى كانت تمر فى أراضى الدولتين؛ ولذلك كانت التجارة فى هذه المناطق غير خاضعة للضرائب(٢).

والجدير بالذكر هنا أن المقاتلين شجعوا على الاستيطان في هذه الأماكن الحدودية، وأداء ما يطلب منهم من ضريبة العشور، وقرر الرشيد أن ينشئ خطا دفاعيا جديدا يمتد على المنحدرات الجنوبية بين جبال طوروس وحلب، وأصبح اسم هذه المناطق «عواصم» بدلاً من «ثغور»، وحشدها بالمقاتلين وبخاصة فى طرسوس (Tarsus) بسبب موقعها المكشوف، وعين مشرفا عليها من بنى العباس هو عبد المالك بن صالح(٣)، الذى أصبح فى عام ١٧٤هـ/ ٧٩٠م قائدا أعلى لقوات العواصم، وتحت يده ما يكفيه من قوات يستأنف بها الصوائف انطلاقا من قاعدته من منبج. كما أن التجارة التى كانت فى الثغور انتقلت إلى العواصم الجديدة، لا سيما حلب(٤).

كذلك سعى هارون الرشيد لتطعيم الوجود الإسلامى فى العواصم، وفى أرمينيا وأذربيجان، إلى إيجاد مركز وسط له فى شرقى إقليم الجزيرة(٥). كما اهتم الرشيد بحل مشكلة وجود الخراسانية فى بغداد، الذين صاروا يعرفون بـ«أبناء الدولة» أو الدعوة أو بـ «الأبناء» فقط؛ وذلك نظرا لما كان لهم من مكانة محترمة فى ذلك العصر. وقد اندمج الخراسانية فى حياة بغداد التجارية مستغلين مكانتهم لزيادة ثرواتهم(٦)؛ ولأنه

---

(١) الطبرى : ٣/ ٥٢١ و٥٦٨ و٦٠٥ و٦١٠.

(٢) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية ص٤٤-٤٦

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص١٦٥، والبلاذرى : فتوح البلدان ص١٦٩ ـ ١٧٠ والمسعودى : مروج (ط . باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧) جـ٦ ص٤٣٧.

(٤) الطبرى : جـ٣ ص٦١٠ ـ ٦١٢ و٦٢٩ و٦٣٧ و٦٤٥.

(٥) الأزدى : تاريخ الموصل ص٢٩٠.

(٦) الطبرى : جـ٣ ص٨٢٦ و٨٢٧ و٨٢٩.

كان من الصعب السيطرة عليهم بسبب وضعهم العسكرى، فقد فضّل الرشيد البقاء بعيدا عن عاصمته (بغداد) تجنبا لأى احتكاك قد يحدث بينه وبين أولئك الأبناء[1].

ومن ناحية أخرى، فقد سيطرت القوات العباسية - السورية والعراقية - على الجبهة الشامية، وأصبحت قادرة على مواجهة التحركات البيزنطية. وكأى مجتمع بشرى، فقد نشأت بعض الخلافات بين أهالي بلاد الشام، لا سيما فى دمشق، وبعض العائدين من الثغور، لكنها سرعان ما سُوِّيت لتعود الحالة هادئة كما كانت قبل.

إلا أن اضطراب الأحوال فى كل من أرمينيا وأذربيجان وبلاد المغرب استلزم من الدولة العباسية اتخاذ بعض الإجراءات. فتم حشد قوات عسكرية لمواجهة هذه الاضطرابات وما تمثله من أخطار. مما جعل الرشيد يستعين بالبرامكة. فأرسل الفضل إلى خراسان للقيام بهذه المهمة الخطرة سياسيا وعسكريا. وقد نجح الفضل فى مهمته بفضل حنكته وحزمه وما تيسر له من قوات بلغ عددها نحو نصف مليون مقاتل، أرسل منهم نحو عشرين ألفا إلى الجبهة البيزنطية كانوا بقيادة الفضل البرمكى نفسه[2].

وفى سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦م انتقل الرشيد إلى الرقة لمتابعة النشاط البيزنطى المتزايد على الحدود. وأقيمت معاقل جديدة رابط فيها عدد من الجنود[3]. وقام الرشيد بنفسه بقيادة حملة صائفة فى سنة ١٨١هـ فى عمق الأراضى البيزنطية[4]. وراح الرشيد يواصل ضغطه على البيزنطيين خلال العقد التالى، حتى بلغت جهوده ذروتها بحملة كبيرة قادها سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٥م، انتهت بعقد صلح وهدنة مع البيزنطيين، ترتب عليه قيام الرشيد بإعمار مواقع الثغور المهملة عبر جبال طوروس. كما تم تبادل الأسرى والهدايا بين الطرفين. وبناء على هذا الصلح سادت فترة سلام غير مألوف بين الدولتين، استمر رغم ما وقع من اضطرابات داخل الدولة الإسلامية[5].

وحتى يتفرغ الرشيد لمتابعة الوضع مع الروم، فإنه أسند مسئولية تصريف الشئون الداخلية للدولة إلى أسرة البرامكة. فتولى يحيى وولداه الفضل وجعفر مسئولية مطلقة للإشراف على تصريف الشئون الداخلية عامة. وهى مسئولية قام بها البرامكة خير قيام باسم الخليفة هارون الرشيد وتحت لواء طاعته[6]، مما جعلهم مقصدا لطلاب الحاجات،

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٢٥٢، وابن الأثير الكامل جـ٦ ص٨٦-٩١.
(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٢٨٩ - ٢٩٠
(٣) البلاذرى : فتوح ص ١٧١
(٤) الطبرى : تاريخ جـ٣ ص٦٤٦
(٥) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية ص٤٩.
(٦) محمد عبد الحى شعبان : الدولة العباسية ص ٤٩، وراجع الطبرى ٣ص ٤٦٤ و٧٠٨ - ٧١١و٧١٢.

وصارت سيرتهم على كل لسان، مما أهاج مشاعر الحاقدين عليهم وتسبب فيما بعد في نكبتهم، بيد من أوْلاَهُم بنفسه هذه الثقة.

والواقع، لقد عمل الرشيد على خلق نوع من التوازن بين الأعباء الخارجية ـ أعباء المواجهة مع الروم ـ والمشاكل الداخلية، في محاولة منه لتحقيق الاستقرار في أنحاء الدولة الإسلامية. لكن ـ للأسف ـ أدت جهوده تلك ـ على غير قصد منه ـ إلى الإسراع في تدهور الأوضاع. فكان انشغاله بالحرب مع البيزنطيين جهدا لا جدوى منه، بسبب انشغاله بالحرب مع البيزنطيين، التي حاول البرامكة دعمه فيها بتجنيد قوات من الأقاليم المشرقية. لكن وصول هذه القوات أثار القوات السورية ـ العراقية معا ، كما اعترض على ذلك عبد الملك بن صالح مما حمل الرشيد على اعتقاله وزجّ به في السجن(١).

٢- العباسيون وموقفهم من العلويين

استقرت قواعد الحكم لبني العباس وحصروا الخلافة فيهم وحدهم دون العلويين (شيعة آل البيت أبناء الإمام محمد النفس الذكية).

وكان المتشيعون لأهل البيت ثلاث فرق :

١- **فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة**: وهؤلاء شيعة إمامية، وكان وليهم إلى عهد أبي جعفر المنصور هو «جعفر بن محمد المعروف بالصادق».

٢- **وفرقة ترى أن إمام المسلمين يكون من بني فاطمة**: وهو معين بالوصف لا بالاسم، وهؤلاء إمامية زيدية، يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بني فاطمة، متى كان على الصفات المعروفة في الإمام من زهد وقوة، وهم أنصار زيد بن علي وابنه يحيى.

٣- **وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير ارتباط ببني فاطمة** : وهم الذين ناصروا بني العباس.

وقد انتشرت الفرقتان الأوليان في كثير من البلاد العربية والفارسية.

---

(١) الطبري : ٣/ ٦٨٨ ـ ٦٩٤، واليعقوبي جـ٢ ص٤٢٥، محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص٥٠-٥٧.

فلما انفرد العباسيون بالخلافة، أنكر عليهم بَنُو عَمّهم العلويون هذا التصرف، ووصفوه بالأنانية المطلقة، واعتبروا العباسيين مغتصبين للخلافة، وهم بذلك صاروا مثل بنى أمية.

وكان أبرزهم كما ذكرنا رجلان هما : جعفر الصادق «إمام الإمامية»، الذى لم يجد بدا من التسليم بالواقع، فلم يحرك ساكنا، بل آثر الخلود إلى السكينة، لأنه لم يجد ما يشجعه على العناد والمقاومة.

وثانيهما : محمد بن عبد الله «الذي انتخبته الفرقة للرئاسة عند تشكيلها ولم يبايع للعباس ولا للمنصور. وانتقل محمد هذا بأبيه عبد الله وأخيه «إبراهيم» - إلى المدينة المنورة التى أقاموا بها. وكان أهل المدينة ميالين إليهم، ومؤيدين لدعوتهم.

وعندما حج المنصور فى عهد أخيه العباس خف بنو هاشم جميعا إلى مبايعته واستقباله إلا عبد الله وابنيه (محمد وإبراهيم) فتغاضى ولَزِمَ الصمت؛ لذلك قرر أبو جعفر المنصور سنة ١٤٠هـ أن يحج، وعزم على معالجة الموقف مع عبد الله وولديه، وكلف بذلك «عقبة الأزدى».

خرج المنصور للحج، حتى إذا كان على مشارف مكة تلقاه بنو الحسن فأجلس عبدَ الله إلى جانبه وقربه إليه لَحْظَة، ثم أمر عقبةَ الأزدى فحبسه، ثم بث المنصور عيونه، وشدد فى طلب محمد وإبراهيم اللذين اختفيا، إلى أن تمكن واليه على المدينة «رباح بن عثمان بن حيان»، من القبض على بنى الحسن (١٢ رجلاً) وحَبَسهم، إلى أن حج المنصور عام ١٤٤هـ، فأحضرهم وسألهم عن محمد وإبراهيم، فلم يعطوه جوابا بمكانهما «فأمر بهم فسيقوا إلى بغداد حُفاةً مقيَّدين بالأغلال، حيث حُبِسوا بقصر «ابن هبيرة» شرقى الكوفة، مما يلى بغداد، حيث عوملوا معاملة قاسية جدا.

ثم ظهر محمد بالمدينة، وخاطب أهلها. فلما علم بذلك «رباح» تجهز للقبض عليه، لكن محمدا ومن معه (٢٥٠رجلا)، توجهوا وأطلقوا المحبوسين بسجن المدينة، وأيده أهل المدينة، وخذلوا رباحا، ثم صعد محمد المنبر، وقال: «أيها الناس، إنه كان من أمرنا وأمرُ الطاغية عدوِّ الله أبى جعفر المنصور مالم يَخْفَ عليكم، من بنائه القبةَ الخضراء، التى بناها معاندا الله فى ملكه، ومُصَغِّرا للكعبةِ الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال (أنا ربكم الأعلى)، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناءُ المهاجرين الأولين والأنصار المواسين. اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك، وأمَّنوا من أخَفْتَ، وأخافوا من أمَّنْتَ. اللهم فأحصهم عددا، واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا».

ثم قال : «أيها الناس إنى والله ما خرجت بين أظهركم، وأنتم عندى لا أهل قوة ولا شدة، ولكني اخترتكم لنفسى، والله ما جئت . . وفى الأرض مصر (يعنى بلد) يعبد الله إلا وقدم لىَ فيه البيعة».

على أن المنصور نجح بحيلته ودهائه فى دفع محمد للظهور أمام الناس، حيث أوعز إلى بعض قواده بإعلان البيعة لمحمد، فظن أنهم تخلوا عن المنصور وانضموا . . تحت كنفه ولوائه، فاحتسبهم محمد قوةً تسانده سيقهر بها المنصور. هذا فضلا عن أن محمدا كان قد اتفق مع أخيه إبراهيم على أن يظهر محمد بالمدينة وإبراهيم بالبصرة - فى وقت واحد - فيشكلان قوة تخيف المنصورَ وتهدده، غير أنه مرض فى اليوم المعين واعتكف مرغما، فلم يظهر.

والواقع أن أهل المدينة كانوا يحبون محمدا لنبالة خلقه وعدله، وخاصة أن الإمام مالك بن أنس» - إمام دار الهجرة - أفتى أهل المدينة بما يستندون عليه فى التحلل من بيعتهم للمنصور العباسى. إذ قال لهم «إنما بايعتم مكْرَهين، وليس على مكْرَه يمين». فلما علم المنصور ذلك - وكان مشغولا ببناء بغداد - سار إلى الكوفة يُرغِّب أهلَها حتى لا ينضموا إلى محمد. ثم كتب إلى محمد يقول له :

«بسم الله الرحمن الرحيم» - من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أمام بعد». ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة]. ذلك عهد الله وميثاقه وحقُّ نبيه محمد ﷺ إن تُبْتَ من قبل أن أقدر عليك، أن أؤمنك على نَفْسكَ وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيك ألف ألف (مليون) درهم، وأن أنزلك من البلاد حيث شئت، وأقضى لك ما شئتَ من الحاجات، وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتْبِعُ أحدا منهم بمكروه، فإن تتوثق لنفسك، فوجه إلىَّ من يأخذ لك الميثاق والعهد والأمان ما أحببت، والسلام).

فأجابه محمد بكتاب جاء فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم» من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن محمد. أما بعد : ﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص]. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى، وقد تعلم أن الحقَّ حقَّنا وأنكم إنما طلبتموه منا، ونهضتم فيه بشيعتنا، وخطبتموه بفضلنا، وأن أبانا عليا عليه السلام، كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ..؟ وإنَّا بنو أم رسول الله ﷺ، فاطمة بنت عمر فى الجاهلية دونكم، وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام من بينكم، فإنا أوسط بنى هاشم نسبا، وأوسطهم أما وأبا. لم تلدنى العجم، ولم تَعرقْ فِىَّ (لم تلد مثلى) أمهات الأولاد ... فقد علمت ... فأنا أوفى بالعهد منك، وأحرى لقبول الأمان».

فبعث له المنصور ردا جاء فيه « ... فإذا جل فخرك بالنساء، لتُضلَّ به الجُفَاةَ، والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، والآباء كالعصبة والأولياء..» ولقد حضر أبوك وفاة الرسول ﷺ، فأمر بالصلاة غيره، ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذ أباك فيهم، ثم كان فى أصحاب الشورى. فالكل دفعه عنها.. وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلَّمه إلى معاوية بخرق ودراهم.. وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله مالاً من غير حِلِّه، فإن كان لَكُم شيء فقد بعتموه..».

وبعد هذه المكاتبات التى لم تكشف إلا العيوب وتبعث على إيغار الصدور وازدياد النفور، لم يبق بد من انتضاء السيوف.

والحق، أن الخليفة المنصور كان يخشى أن تصل دعوة محمد بن عبد الله إلى خراسان فتثيرُ أهلها وتُهيِّجهم، وهم الذين لبوا الدعوة فى مستهلها على أنها رد اعتبار لآل البيت جميعا، وكانوا يعطفون عليهم ويميلون إلى أولاد الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه، لأنهم قُتِلُوا شهداء، فعمل المنصور على رقابة الطريق، وتعمية الأخبار وتهوينها.

واستدعى المنصور «عيسى بن موسى» وطلب منه السير إلى المدينة لقتال محمد، فراجعه عيسى فى الأمر، فقال المنصور: إما أن تخرج إليه وأقم أنا أمدك بالجيوش، وإما أن تكفينى ما أخلف ورائى، وأخرج أنا إليه. فخرج عيسى بن موسى من الكوفة بأربعة آلاف فارس وألفى راجل، ثم أتبعه بمحمد بن قحطبة فى جيش كثيف ونزل عيسى على المدينة سنة ١٤٥هـ.

دعا عيسى بن موسى محمدا للاستسلام فرفض، فبعث عيسى فصيلة من جنده لحراسة طريق مكة للحيلولة دون هروب محمد. وقامت الحرب بين الفريقين، واستمات

فيها محمد، بشجاعة فائقة، لكن جيشه هزم، وسقط محمد مضرجا بدمائه فى ساحة الوغى. بينما كان إبراهيم ـ أخو محمد ـ يدعو سرا لأخيه فى جنوب شرقى البصرة. فالتف حوله عدد كبير من العرب، وحاصر المنصور البصرة، وسد ما بينها وبين الكوفة، لكيلا يكون أمام إبراهيم فرصة للخروج بجيشه واللحاق بأخيه فى المدينة. فلما علم إبراهيم بمصرع أخيه فت ذلك فى عضده. فانطلق عيسى بن موسى إلى البصرة، للقضاء على أنصار إبراهيم، فلم يَلْقَ مقاومة، وفرَّ إبراهيم مجندلا، وبهذا ختمت حياة الأخوين بعد أبيهما، حيث فاز المكر والدهاء والتكتيك الحربى الذى لم يكن لهما به قِبَل. وعاد الموقف من العلويين. كما كان أيام بنى أمية بين المطاردة والاغتيال.

ظل من بقى من العلويين مشردا، مختفيا، طيلة أيام الدولة العباسية، فلم يهادنهم إلا المأمون والمهتدى بالله. وكاد المأمون أن يسند الخلافة بعده إلى على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، اعتقادا منه (أى المأمون) بأن على الرضا أحق بالخلافة، فكادت تكون فتنة لولا أن عالجها المأمون بالحسنى والحكمة، أما المهتدى بالله فقد صرفه صلاحه وزهده عن الإضرار بالعلويين، فأمَّنهم بعد خوف لكنه لقى مصرعه على يدى مواليه.

ومما لا جدال فيه أن بقاء المأمون فى خراسان، واتخاذه «مرو» عاصمة له، وإطلاقه يد الفضل بن سهل فى تدبير أمور الدولة، كان من نتيجته أن اضطربت أمور الدولة فى العراق، فقام العلويون بعدة ثورات، وأظهر بنو هاشم سُخْطَهم على المأمون، واستخفوا بالحسن بن سهل، الذى عجز عن ترويض بلاد العراق بالحزم، وكانت النتيجة أن تألب عليه الجند لتأخره فى صرف الرواتب والأرزاق لهم، وأقاموا المنصور بن المهدى أميرا عليهم، بعد أن تنحى عن قبول الخلافة، وولى الحسن بن سهل هاربا إلى مدينة «واسط» سنة ٢٠١ هـ.

ظلت الأمور مضطربة فى إقليم العراق، دون أن يكون هناك من يعمل على تلافى هذه الحال الغير مستقرة، بل إن المأمون نفسه كان غافلا عما يجرى فى ذلك الإقليم، وزاد النار اشتعالا بأن أقدم على مبايعة «على الرضا بن موسى الكاظم» وتوليته عهد الخلافة بعد المأمون، مما أدى إلى ثورة العباسيين عليه. فلم يجدوا ردا على فعله إلا خلعه من الخلافة، ومبايعة «إبراهيم بن المهدى».

استمر المأمون فى خراسان، لا يدرى بما تم فى العراق حتى أخبره بذلك «على الرضا» سنة ٢٠٢ هـ. وأفاق المأمون من غفوته، عزم على السير إلى بغداد. وبينما هو فى طريقه إلى هذه المدينة، وقع حادثان برهنا على ما طرأ من تحول فى شخصية

المأمون، التى أصبحت شخصية رجل سياسى لا يقيم وزنا لشيء سوى المحافظة على كرسى السلطة. هذان الحادثان هما:

وفاة الفضل بن سهل، وعلي الرضا. وكان الفضل بن سهل مستبدا بالأمر دون المأمون، حتى بدأ المأمون يفكر فى طريقة للتخلص منه؛ ولذلك حامت الشبهات حول المأمون فى وفاة الفضل بن سهل بمدينة «سرخس» (بين نيسابور ومرو) «بخراسان» : أما وفاة على الرضا، فتمت فى مدينة «طوس»، وهذه يمكن أن نقول عنها ـ فى ضوء حوادث ذلك العهد ـ أنها تَمتٌ بِصلةٍ إلى بيعة ولاية العهد، وهذه أيضاً اتُّهِم فيها المأمون، وقيل أنه فعل ذلك إرضَاء للعبّاسيين فى بغداد، وهم الذين نقموا عليه لمحاولته نقل الخلافة للعلويين.

فلما توفى «على الرضا»، كتب المأمون إلى الحسن بن سهل يخبره بوفاته وحزنه عليه، كما بعث إلى أهل بغداد وبنى العباس يقول لهم أن على الرضا ـ الذى كانت بيعته سببا فى نقمتهم عليه ـ قد توفى، وسألهم الدخول فى طاعته. وبعد قليل تابع المأمون سيره إلى بغداد، فلما اقترب منها هرب كل من إبراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع، واستقبله أهل بغداد، وقوداه فى «النهروان» ثم دخل حاضرة ملكه، وأخذ يلبس السواد شعار العباسيين بعد ثمانية أيام من قدومه كان يلبس فيها الملابس الخضراء، وبدأ عمله بأن أعلن التزامه بالعمل على رعاية العدل، والعفو، وإنصاف المظلوم.

صدى البيعة[١] :

لم يكن ما قام به الخليفة المأمون فى أمر البيعة أمرا يسيرا؛ وذلك لأنه قلب السياسة العباسية السابقة رأسا على عقب، مما كان له صداه فى الأقاليم المختلفة. وكان من الطبيعى أن يطيع ولاة الأقاليم أوامر الخليفة ويذعنوا لها وكان من بينهم الحسن بن سهل والى بغداد، إلا والى البصرة إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى، فقد رفض البيعة قائلا «هذا نقض لله وله (الخليفة)» وقد اعتقل ونفى إلى جرجان[٢].

وقد هلل أهل «قم» ـ وهم فى غالبيتهم من شيعة العلويين ـ للقرار[٣]. ولكن أهل بغداد لم يرضهم هذا القرار. وقالوا «.. لا نبايع ولانلبس الخضرة ولا نُخْرِجُ هذا

---

(١) هذا الصدى نقل نصا بحواشيه من كتاب بحوث فى التاريخ العباسى لمؤلّفه د/ فاروق عمر ص١٤٢ ـ ١٤٧.

(٢) اليعقوبى تاريخ جـ ٢ ص٥٤٥.

(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٨ ص٢٩.

من ولد العباس»[1]. ورغم أن المأمون قد جعل مقره «مرو» فإن الكثير من العباسيين كانوا يعيشون فى بغداد عاصمة المنصور المهجورة كما كان فيها كتلة كبيرة مؤيدة للعباسيين. وبدأت حركة المعارضة للبيعة فى بغداد بإلقاء اللوم على آل سهل، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى شخص الخليفة حيث رشحوا خليفة جديد هو (المنصور بن المهدى) الذى رفض تقلد الخلافة ـ ربما خوفا أو ولاء للمأمون ـ بل اعتبر نفسه ممثلا للخليفة الشرعى[2]. لكن الأمر كان أخطر من ذلك، فالبيعة كانت تعنى نقل السلطة إلى بيت آخر، وبكلمة أخرى فإن هذا الإجراء مس طموح العباسيين وهدد مصالحهم للخطر. وفى يوم الجمعة أعلن الناس فى المسجد الجامع بيعتهم (لإبراهيم بن المهدى) خليفة وتلقب بلقب (المبارك) فى ٥ محرم سنة ٢١٢ هـ / ٨١٧ م وبَايَعَهُ كلُّ الأمراء العباسيين وأهلُ بغداد. وهكذا فقد قطع أهل بغداد كلَّ علاقة بالمأمون وإدارته. ويشير الطبرى إلى أنهم إنما فعلوا ذلك :

«غضبا منهم على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد على ولترك لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة»[3].

فقد ترك إبراهيم بن المهدى بغداد إلى المدائن حيث معسكر الجند لإعداده للحرب المقبلة وللدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة، وقد أعطى الجند عطاءً نقديا إضافة إلى مقادير عينية من الحنطة والشعير. أما فى بغداد فبقى العباس وإسحق بن موسى الهادى. وقد استمرت المقاومة فى بغداد حتى ٢٠٣هـ، على أن شعار الدولة كان فى هذه المرة الأخضر بينما كان شعار المعارضة الأسود. ورغم أن الكوفة سقطت فى يد الجيش الموالى للمأمون وأصبح العباس بن موسى بن جعفر واليا عليها، ودعا أهلَ الكوفة للانضمام إليه والبيعة للمأمون وعلى الرضا، ولكنهم لم يتقبلوا دعواه ودعوه إلى الدعوة لنفسه أو لعلوى آخر[4]. وبينما كانت الكوفة على هذا الحال تقدم جند إبراهيم بن المهدى رافعين شعار «إبراهيم يا منصور لا طاعة للمأمون» واستطاعوا احتلال الكوفة وهرب العباس منها.

على أن الثوار لم يستطيعوا احتلال واسط واندحروا منسحبين إلى بغداد التى بقيت تحت سيطرتهم حتى سقطت على يد المأمون.

---

(١) الأزدى، تاريخ الموصل ص٣٤٢. تاريخ خليفة بن خياط (ط. بغداد) ص٥٠٨.

(٢) العيون والحدائق، ص٣٥٢ ـ الطبرى، جـ٣ ص ١٠٠٥ فما بعد.

(٣) الطبرى op, cit, ـ الأزدى : تاريخ الموصل، ص ٣٤٢، وكان يسمى ابن شكله، انظر: الأزدى Ibid، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١ ص١٠ (طبعة مصر ١٨٥٨م).

(٤) الطبرى، جـ٣ ص١٠١٧، ١٠٢٠.

إن أهم ظاهرة تلفت النظر فى حوادث بغداد خلال هذه الفترة هى حركة المتطوعة[1] التى نظمها سهل بن سلامة سنة ٢٠٢هـ، وهدفها فى بداية الأمر لم يكن سياسيا بل لحفظ النظام والآداب والأمن العام فى بغداد. وقد برزت هذه الحركة كنتيجة لفقدان سلطة الحكومة بعد قرار المأمون البقاء فى مرو. وقد زاد نفوذها تدريجيا حتى أصبحت سلطة داخل سلطة. يقول الطبرى : «فكان كل من أجابه (سهل بن سلامة) قد عمل على باب داره بُرْجًا وآجر ونصب عليه السلاح والمصاحف حتى بلغوا قرب باب الشام سوى من أجابه من أهل الكرخِ وسائر الناس» ولكن هذه الحركة ضُربَتْ حيث اعتقِل زعيمها وتبعثر أنصارها وسُجِنَ بعضهم بأمر من إبراهيم بن المهدى.

وفى أوائل سنة ٢٠٣ هـ كان العباسيون وأهل بغداد لا يزالون صامدين أمام سلطة المأمون، رغم أن الخليفة بعث إليهم برسالة يدعوهم فيها إلى المصالحة والسلم فإنهم رفضوا ذلك مما دعا الخليفة إلى التحرك نحو بغداد. وكان على رأس الجند حميد الطوسى وعلى بن هشام اللذان حاصرا بغداد حتى استسلمت فى ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣هـ، بعد سنة و١١ شهرا من التحدى لسلطة الخليفة العباسى، وهرب إبراهيم بن المهدى مع بعض أعوانه. على أن عاصمة المنصور حققت هدفها الرئيسى فعادت عاصمة للمأمون وعاد العراق إقليما مركزيا للدولة.

والواقع أنه من الصعب علينا أن نضع مسئولية البيعة لعلى الرضا بولاية العهد على عاتق الفضل بن سهل أو على عاتق الخليفة المأمون. إن كثرة الروايات المتيسرة لدينا، وتناقضها، وقدم الزمن بيننا وبين الشخصيات التى لعبت دورها فى هذه الحوادث، يزيد المشكلة تعقيدا. فنحن بما لدينا من روايات لا نستقرئ إلا بقدر محدود ما يختلج فى نفوس وعقول الخليفة والمحيطين به. على أننا نستطيع أن نقرر بأنه لولا رغبة المأمون وتعاطفه لما حصلت البيعة، وأنه هو لا الفضل بن سهل لعب الدور الأول والرئيسى فيها. وقد جاءت هذه السياسة موافقة لخطط الفضل فى السيطرة وازدياد النفوذ والقضاء على المنافسَيْن طاهرَ بن الحسين وهرثمةَ بن أعين وغيرهما فأيدها وحببها إلى المأمون ولكنه ما لبَث أن وقع هو ضحية لها.

إن واقع الحوادث وشخصية المأمون لا يمكن أن تسمح للوزير الفضل بن سهل باتخاذ قرار خطير كهذا. ونحن نعتقد بأن سقوطه واغتياله جعل الرواة يضعون على عاتقه كل مساوئ سياسة المأمون.

---

(١) الطبرى . جـ٣ ص١٠٢٣.

إن الفضل بن سهل اعتقد بأن تأييد سياسة المأمون سيحفظ له منصبه كوزير ونفوذه على المشرق. كما وأنه أمل بأن أخاه الحسن سيستطيع بسهولة إخماد الثورة فى العراق والقضاء على القادة الطموحين والأمراء العباسيين المتمردين دون أن يكون هناك حاجة لإخبار الخليفة بذلك. وهكذا تبقى السلطة بيد آل سهل وهو هدف الفضل الأول. على أن الذى أربك خطط الفضل بن سهل هو على الرضا نفسه. فإن تقاه وورعه وقلة طموحه جعله على طرفى نقيض مع الفضل. وكان الرضا بسبب وازع من ضميره، أو بتأثير رجالات البلاط المعادين للفضل، الذين أدركوا أن الرضا هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يخبر الخليفة عن حقيقة الوضع فى العراق، هو الذى فتح عيون الخليفة على الاضطرابات وعدم الاستقرار فى الدولة. وقد فوجئ المأمون واستفسر من رجالات بلاطه مثل يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وعلى بن أبى سعيد وخلف المصرى، ولكنهم جميعا رفضوا الإفصاح بشيء قبل أن يعطيهم الخليفة ضمانا خطيا على محافظته عليهم من عقاب ذى الرئاستين (الفضل)[1]. وعندئذ أكدوا للمأمون ما ذكره ولى العهد الرضا من سوء الحالة فى العراق وتفاقم الاضطرابات، ونددوا بسياسة العزلة التى اتبعها الفضل بن سهل، وأشاروا إلى اغتيال القائد هرثمة بن أعين الذى لم يرتكب ذنبا سوى محاولته حماية الدولة والخليفة من سوء تدبير الفضل. وانتقدوا نفى طاهر بن الحسين فى الرقة، فى الوقت الذى كان بالإمكان الاستفادة من خبرته فى تهدئة الحالة فى العراق، وخاصة أنه يتمتع بمقدرة عسكرية وكفاءة إدارية تفوق خبرة الحسن بن سهل وكفاءته. كما أنهم حرضوا الخليفة بصورة غير مباشرة على التخلى عن الفضل وقتله.

لقد قرر المأمون العودة إلى العراق بعد سماعه بالموقف واستطاع التخلص من الفضل بن سهل حيث قتل فى الحمام عن عمر يناهز السبعين. ولكن الخليفة أظهر امتعاضه من قتل الفضل[2] ،وقَرَّبَ أخاه الحسن وجعله وزيرا ليغطى حادثة قتله كما أنه تزوج ابنة الحسن بن سهل. ورغم أن الفضل بن سهل أثار الكثير من الكراهية بسبب حبه للسلطة وتدابيره، إلا أن وفاته أثارت شجون بعض الشعراء أمثال دعبل الخزاعى ومسلم بن الوليد.

وكانت سفرة المأمون إلى بغداد سفرة بطيئة. حيث كان يتوقف كثيرا فى المدن التى على الطريق، ويحاول التعرف على أحوالها، وتخفيف الخراج عنها ليكسب رضى

(١) الطبرى : جـ٣ ص١٠٢٦ ، اليعقوبى : جـ٢ ص٥٤٩.

(٢) رغم أن المأمون دبر خطة قتل الفضل بن سهل إلا أنه أمر بالقبض على قتلته الذين فروا وجعل لمن يحضرهم عشرة آلاف دينار وحين أحضِروا قالوا له : «أنت أمرتنا بقتله» فضرب أعناقهم. انظر الطبرى op. cit. ـ الأزدى، ص٣٤٣.

الناس. وحين توقف فى طوس تخلص من على الرضا حيث مات على الأكثر بالسم[1]، ودفن قرب قبر هارون الرشيد وفى ذلك قال شاعر علوى :

قبران فى طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العبر ما ينفع

الرجس من قرب الزكى ولاعلى الزكى بقرب الرجس من ضرر

وقد دعا المأمون الأمراءَ العباسيين وأهل بغداد بعد وفاة الرضا إلى الطاعة ولكنهم لم يجيبوه إلى ذلك. ولكنه حين وصل حلوان وصلته الأنباء عن اختفاء إبراهيم بن المهدى وعودة الأحوال إلى طبيعتها فى بغداد، وخاصة أنه لم يعد هناك دافع للمقاومة بعد أن قتل الفضل بن سهل أولا، وانتهى أمر البيعة للرضا ثانيا، وعاد المأمون إلى العاصمة العباسية بغداد ثالثا. ومع ذلك فإن كبرياء الخليفة واعتداده بنفسه وكرامته لم تسمح له بالتراجع عن سياسته بصورة كلية، فقد بقى الأخضر شعار العباسيين بعد دخول المأمون بغداد فى ٢٢ صفر سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م.

إن عطف المأمون تجاه العلويين لم ينته كليا، فقد أصدر منشورا سنة ٢١٢ هـ ذكر فيه الإمام على رضي الله عنه مشيراً إلى أنه «خير خلفاء الله بعد رسول الله ﷺ وأولَى بالخلافة»[2]. كما أنه عزم على ذم معاوية وأصدر منشورا كاد أن يوزعه على الأقاليم ذكر فيه «برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قَدَّمه على أصحاب رسول الله ﷺ»[3].

إن بيعة المأمون بولاية العهد لعلى الرضا ستبقى ظاهرة سياسية فريدة فى تاريخ العصر العباسى الأول. كما وأن هذه الظاهرة تعكس شخصية المأمون ذاتها والتناقض الواضح فيها بين سلوكه وأخلاقياته... سلوكه الذى يهدف إلى ضمان مصلحته ومصلحة العباسيين، وأخلاقه وعواطفه الميالة إلى إنصاف العلويين. وسواء كانت رواية الصفدى[4] موثوقة أم موضوعة فإنها تعبر بصدق عن الموقف حين تشير إلى آخر حديث بين المأمون والرضا حيث قال الأول للثانى : ما توصينى ؟؟

فأجابه : أوصيك أن لا تعطى أحدا ما تندم عليه.

---

(١) اليعقوبى : جـ٢ ص٥٥١ - يقول ابن الأثير : وقيل اسمه المأمون وهذا عندى بعيد (الكامل، جـ٦ ص٢٤٨).

(٢) انظر : الطبرى، جـ٣ ص١٠٩٩ «علىُّ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ». قارن : ابن عبد ربه، العقد الفريد، (طبعة القاهرة ١٢٩٣) جـ٣ ص٤٢ فما بعد.

(٣) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص٩١. المسعودى، مروج الذهب، جـ ٧ ص ٩٠ - ٩٣.

(٤) الصفدى . مخطوطة فى المتحف البريطانى (الوافى بالوفيات) رقم or 6587 ص٢١٥ أ.

٣- العباسيون وموقفهم من العرب والفرس

بنى الأمويون سياستهم ـ كما سبق القول ـ على أساس العصبية العربية. فصارت كلمة عربى فى أيامهم تعنى كل صفة أو شيء طيب من نبل وشجاعة وحسب ونسب، وكلمة «أعجمى» أو مَوْلى «توحى بالذلة والاستهانة والضعف، وبذلك انقسم المسلمون إلى «عرب» و«عجم». وقد أثارت تلك السياسةُ المتعصبة للعرب، العناصرَ غير العربية فى الدولة الإسلامية فوقف الموالى من بنى أمية موقف العداء، وساعدوا العباسيين فى الوصول إلى دست الخلافة.

أما العباسيون، فقامت سياستهم على أساس الدين مضافا إليه القوة المادية والعسكرية. وعلى الرغم من أن ميولهم كانت أعجمية إلا أن سياستهم كانت تتمشى مع الفكرة الأصلية والجوهرية للدين الإسلامى الحنيف. وهى المساواة بين جماهير المسلمين إذ «لافضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى»، وأن «كل الناس سواسية كأسنان المشط»؛ لذلك فكل العناصر الناقمة على السلطة أيام بنى أمية مدت يدها للعباسيين وانتعشت، وعاد إليها بريق الأمل، واستردت نفوذها وكيانها فى العهد الجديد.

وكان أول ما عمد إليه العباسيون لتوطيد حكمهم هو نقلهم حاضرة خلافتهم إلى العراق، ليبتعدوا عن بلاد الشام التى كان بها بنو أمية وأتباعهم المخلصون من العرب. هذا فضلا عن بعد دمشق عن خراسان مقر الدعوة العباسية. ولا شك أن اختيارهم للعراق.. كان يحقق غرضهم» لأنه على مقربة من البلاد التى اتخذوها قاعدةً لنشر دعوتهم، والتى كان يسكنها الموالى، الذين قامت على أكتافهم الدولة العباسية. وهو ـ العراق ـ إلى جانب ذلك يمثل نقطة اتصال بين الفرس والأمم الساميّة الأخرى. وكان للانتقال من دمشق بلاد الشام، إلى بغداد ببلاد العراق، أثره الكبير والواضح فى صبغ الدولة العباسية بالصبغة الفارسية؛ ذلك أن مدنية الفرس كانت هى الغالبة على إقليم العراق. فآل ساسان أصلهم فارسى، وهم آخر من دخل هذه البلاد قبل الإسلام، وظلت فى أيديهم زمنا طويلا إلى أن فتح المسلمون هذه البلاد فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولم يتوان العباسيون لحظة واحدة فى تولية الفرس ـ الذين اعتمدوا عليهم فى إقامة الدولة العباسية ـ أرقى المناصب فى دولتهم الجديدة، فعينوا «أبا سلمة الخلال» ـ وهو أحد الموالى الفرس ـ وزيرا لهم، كما عين الخليفة أبو جعفر المنصور «أبا أيوب الموريانى» وزيرا له. وهو ـ كما يدل اسمه ـ من موريان إحدى قرى الأهواز. وكان

أبو أيوب المورياني كثير الحذر والتخوف من الخليفة المنصور؛ ولذلك صرف كلَّ همه إلى جمع المال الذى يمكن أن يتقرب به إلى المنصور، حين يُحس شره. ثم مالبث أن طَمِع فى أموال الخليفة ذاتها، مما أحنق عليه المنصور الذى أمر بقتله ومصادرةِ أمواله.

كذلك كان «يعقوب بن داود» ـ وهو مولى فارسى ـ وزيرا للخليفة المهدى وقد علا شأن هذا الوزير فى أيام بنى العباس، وانحاز إلى الزيدية، فولاهم بعض أمور الرياسة فى الشرق والغرب الإسلاميين. وقد كثر حساد يعقوب بن داود لِبَسْطَة نفوذه، فوشوا به لدى الخليفة المهدى، فتغير عليه قلبه، وحبسه وظل حبيسا إلى أن أطلقه «هارون الرشيد» فاقدَ البصر.

وكانت أسرةُ البرامكة النموذج الواضح والقوى، لازدياد قوة النفوذ الفارسى أيام العباسيين. والبرامكة ينسبون إلى «برمك» الذى كان يخدم فى أحد معابد المجوسية، المعروف باسم «النوبهار»، فى بلدة «بَلْخ» بخراسان. وكان سادن (أى خادم) هذا المعبد يسمى برمكا (فهذا الاسم إذن يدل على وظيفة وليس اسما أسريا).

ولقد عاصر برمك، هذا، الخليفة ـ هشام بن عبد الملك، ويقال: إنه أسلم أواخر أيامه.

وكان لبرمك ولد اسمه «خالد»، تربى تربية إسلامية، وساهم فى نشر الدعوة العباسية، حتى صار من أكبر دعاتها فى خراسان. ثم استوزره الخليفة «أبو العباس السفاح»، بعد مقتل «أبى سلمة الخلال»، وظل حتى ولى المنصور الخلافة، فجعله مستشارا له، ورفض خالد لقب وزير نظرا لما حل بأبى سلمة الخلال. «فكان يَعمل عمل الوزراء، ولا يسمى وزيرا». ولم تطل أيامه فى الوزارة، إذ أسند إليه المنصور ولاية الموصل سنة ١٥٨هـ، فساس أهلها بالحسنى، وطَهَّرها من المفسدين من الأكراد، وصار «خالد» مهيب الجانب فى ولاية الموصل. فلما ولى المهدى الخلافة، عينه واليا على فارس والكوفة سنة ١٦٣هـ.

وكان لخالد بن برمك ولد يسمى «يحيى» ولاه المنصور ولاية أذربيجان، ثم جعله مربيا لـ«هارون». وبذلك أتيح ليحيى بن خالد بن برمك، القيامِ بتلقين «هارون الرشيد» الآداب الفارسية، فنشأ هارون متأثرا بها حتى صار بلاطه فارسىَّ الصبغة.

ثم أسند الخليفة المهدى إلى يحيى بن خالد شئون الجيش، الذى بعث به مع هارون سنة ١٦٢ لمحاربة الروم، وأشرف على دواوين هارون الرشيد، حين ولاه أبوه المهدى سنة ١٦٢هـ بلادَ المغرب (من الأنبار إلى أفريقيا). وظل يحيى فى هذا المنصب

إلى أن مات المهدى، فأبقاه ابنه الهادى مع هارون حتى إذا ما حاول الهادى خلع أخيه هارون وتولية ابنه جعفر بن الهادى، اعترض عليه يحيى، محذرا إياه من مغبة هذا العمل، لكنه لم يسمع لرأيه، وسمع لبعض قواده وحبس الهادى وزيره يحيى بن خالد البرمكى، لكنه لم يلبث فى سجنه أكثر من ليلة إذ مات الهادى. فأطلقت الخيزران (أم الهادى) سراح يحيى، الذى ذهب من فوره إلى هارون الرشيد، وهنأه بالخلافة، وكان ذلك سنة ١٧٠هـ.

كان من الطبيعي، وقد أظهرت الأحداث إخلاص يحيى بن خالد بن برمك لهارون الرشيد، أن يتعاظم نفوذ يحيى فى خلافه الرشيد، لنجاحه فى الاحتفاظ له ـ أى لهارون ـ بمنصب الخلافة، والحيلولة بين الهادى وبين إتمام ما كان قد عقد عليه العزم من تولية «جعفر بن الهادى» الخلافة، بدلا من الرشيد (أخو الهادى)؛ لذلك حرص الرشيد على احترام يحيى البرمكى، وأصبح معترفا بفضله عليه فى تولية الخلافة. وبالتالي صار قريبا إلى قلب الخليفة الجديد «هارون الرشيد» (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ). كما أصبح هو صاحب الكلمة المسموعة والنصيحة المحترمة فى الدولة العباسية عامة.

ولقد استعان يحيى ببنيه فى تصريف أمور الدولة، فكان هو وابناه (الفضل وجعفر) يجلسون للناس كل يوم، يقضون في حاجتهم وينظرون فى أمور الرعية. وكان هارون الرشيد، قد أسند إلى يحيى إدارة الدواوين إلى جانب الوزارة، وذلك عدا «ديوان الخاتم» الذى تولاه «أبو العباس الطوسى»، و«ديوان النفقات» الذى عهد به يحيى إلى «الفضل بن الربيع» عام ١٧٢ هـ.

وكان يحيى بن خالد يميل إلى ابنه الفضل، بينما الرشيد يأنس بجعفر لحسن خلقه ويؤثره على الفضل، فقلده أقاليم غرب الدولة العباسية، وأسند إلى الفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك بما فى ذلك إقليم خراسان.

وهكذا أصبحت الإدارة العباسية فى السنوات الأولى من خلافة هارون الرشيد، فى يد البرامكة. والحقيقة أن البرامكة كانوا إداريين من الطراز الأول، فكانوا يديرون أمور البلاد بكفاءة عالية ومنقطعة النظير. ولا غرو، فقد عُرِفَ عن هذه الأسرة حسن الاستعداد الإدارى قبل توليتهم أمور الدولة العباسية. وهاكم وصية يحيى البرمكى إلى أولاده يقول فيها ناصحا لهم: «لابد لكم من كُتَّاب وعمال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسفلَة الناس، فإن النعمة على الأشراف أبقى، وهى بهم أحسن، وللمعروف أشهر، والشكر منهم أكثر».

لقد نهض يحيى بأعباء الدولة أكمل وأتم وأكفا نهوض، ونظم دواوينها وإدارتها. وصارت الرسائل التى تخرج من ديوان الخراج ممهورة باسمه، بعد أن كان الخليفة هو الذى يمهرها بتوقيعه. كما أن يحيى البرمكى كان سخيا جوادا على رجال الدين والأدب، وأجرى الكثير من المرتبات (الأرزاق) على كبار رجال الدولة ووجوهها، سواء بعاصمة الخلافة أو بالأقطار الخاضعة للعباسيين. كما أمد أهلَ الحرمين الشريفين بحاجتهم اللازمة من القمح الوارد من مصر (مخزن الغلال آنذاك). كما أن نفوذ وعظمة الفضل بن يحيى فى الشرق الإسلامى، كانت كعظمة ونفوذ «أبى مسلم الخرسانى». فقد استطاع الفضل، بحسن سياسته ودهائه وسعة أفقه، أن يقضى على فتنة «يحيى بن عبد الله العلوى» «ببلاد الشام» ويستميله للصلح ويؤمنه بأمان الخليفة. كما أصلح شئون خراسان، وأمر بهدم بيت النوبهار (المعبد المجوسى)، وأقام مكانه مسجدا وزاد عدد الجند والقواد . وعلى الجملة لقد كان كريما معطاءً على الوافدين عليه وعلى الكتاب والفقهاء ورجال الفكر.

إذن ليس من الغريب بعد ذلك أن نرى الرشيد يثق وثوقا شديدا وبلا حدود بأسرة البرامكة، حتى تكاثر الناس إليهم وتوافدوا عليهم، من كل صَوْب وحدب. وفى نفس الوقت لم يكن الرشيد غافلاً عن أن هذه الثقة المطلقة الممنوحة للبرامكة، سيكون أهم نتائجها تعاظمَ نفوذهم، وما يترتب عليها من تعاظم للنفوذ الفارسى فى العصر العباسى. ومن جهة أخرى، لم يكن الرشيد غافلا عما كان يعتمل فى صدور العرب من مرارات، بسبب تعاظم النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية؛ ولذلك عمل على استجلاب محبة ورضاء الشعب، وحرص على فعل كل ما من شأنه أن يعلى مكانته بين المسلمين. وهو فى سبيل ذلك عدة سبل.

فقد اتصل الرشيد بالمسلمين عن طريق الحج المستمر، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة. وكان خلال رحلته للحج -كثيرا ما يغدق العطايا والمنح، على أهالى المناطق التى يمر بها موكبه، إلى أن يصل إلى مكة، ثم إلى المدينة. كما اكتسب محبة المسلمين بغزواته ضد الروم التى كان النصر حليفه فى أغلبها؛ لذلك لهج الناس بالثناء عليه ومدحه الشعراء والكتاب والأدباء. كذلك أحاط نفسه بأهل العلم والأدب والفلسفة وغيرها من فنون المعرفة، مما كان له أكبر الأثر فى ازدهار الحضارة الإسلامية فى عهده.

ولقد نجح الرشيد فى العمل على إرضاء كل من الحزبين الفارسى والعربى. ففى سنة ١٧٥هـ ولى ابنه محمد (الأمين) ولاية العهد من بعده (وكان محمد هذا آنذاك ابن

خمس سنوات). وقد أقدم الرشيد على هذا العمل إرضاءً لزوجته «زبيدة» العربية الأصل، فجدها أبو جعفر المنصور العربى الهاشمى، وعلى هذا فتولية ابنها «محمد» (الأمين)، ولاية العهد، فيها ترضية للعنصر العربى. ويروى الطبرى سببا سياسيا دفع هارون الرشيد إلى أخذ البيعة لابنه «محمد الأمين»، وهو خوفه من خروج الأمر من أولاده إلى غيرهم من بنى العباس فيقول «وكانت جماعة من بنى العباس قد مَدُّوا أعناقهم إلى الخلافة، بعد الرشيد، لأنه لم يكن له ولى للعهد، فلما بايع له أنكروا بيعته لصغر سنه».

وبعد نحو سبع سنوات من البيعة للأمين، عهد الرشيد إلى ابنه «عبد الله المأمون» بولاية العهد بعد أخيه الأمين، وذلك تنفيذا لوصية ومشورة ورأى «جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك» وتمت البيعة. ثم ولاه الرشيد بلاد المشرق، وولى الأمين بلاد العراق والشام ومصر وبلاد المغرب. وبايع لابنه أبى القاسم (ابن الرشيد) بولاية العهد بعد المأمون، تنفيذا لنصيحة مربيه عبد الملك بن صالح العباسى ولقبه «المؤتمن»، وأسند إليه ولاية أقاليم الجزيرة والثغور (البلاد الممتدة من أعالى الجزيرة إلى جبال آسيا الصغرى) والعواصم (البلاد الممتدة من الإسكندرية إلى منبج بالقرب من الفرات). وبهذا قسم الرشيد إدارة الدولة بين أبنائه الثلاثة (الأمين، والمأمون، والمؤتمن)، وكتب ثلاثة كتب، لكل من أبنائه كتاب، خاص بولاية العهد. وقد أودع الاثنين الأوليان داخل الكعبة، تعبيرا عن حرصه على وجوب تنفيذهما، وأرسل الثالث إلى العمال والولاة بالأقاليم ورجال الدولة.

ولما عاد الرشيد إلى العراق، ونزل «الأنبار» أوائل سنة ٢٧٨هـ، أمر بقتل «جعفر ابن يحيى البرمكى، واعتقال يحيى بن خالد البرمكى، وأبنائه الآخرين، ثم أمر بمصادرة أموال وثروة البرامكة. ونفذت هذه الأوامر جميعا فقتل جعفر بن يحيى البرمكى ونصبت جثته على سور بغداد. أما يحيى بن خالد البرمكى فأبقاه الرشيد فى بيته أى (حدد إقامته)، ووضع عليه حارسا ليحول دون هروبه وحبس أبناءه وخصص لهم حاجتهم من المأكل والمشرب والملبس، وظلوا فى الحبس حتى توفوا جميعا.

ومُعَاشِر السلطانِ شبه سفينةٍ فى البحر ترجف دائما من خَوْفه
إن أدخلت من مائه فى جوفها يغتالها من مائها فى جَوْفِه

لقد أحاط الرشيد هذا الانقلاب المفاجئ على البرامكة بالسرية التامة. فلم يصرح لأحد من خاصته بمكنون نفسه وطوايا صدره نحوهم، وإن كان موقفه منهم فى السنوات

القليلة السابقة لنكبتهم، يدلنا على ملامح ما كان يعتمل فى داخل ذهن الرشيد تجاه البرامكة، وأنه أصبح مهيأ نفسيا، للتخلص منهم. فعزل «محمد بن خالد بن برمك» عن حجابته، وقلدها للفضل بن الربيع سنة ١٧٩هـ، وصرف الفضل بن يحيى عن الأعمال التى كان يتولاها، كما أصبح الرشيد لا يثق بيحى، تلك الثقة التى أولاه إياها حين آلت الخلافة للرشيد. ولقد أحس يحيى البرمكى بفتور إحساس ومشاعر الرشيد تجاهه وتجاه أسرته. فسبحان من بيده مفاتيح القلوب . هكذا تثبت لنا نكبة البرامكة صحة المثل القائل: «البعيد عن السلطان سلطان».

فهاهم البرامكة كانوا بالأمس القريب ملء سمع الدنيا وبصرها، وكانت تشد إلى أبوابهم الرحال، وتهفوا إليهم القلوب، سواء من أصحاب الحاجات، أو من ملتمس حاجة من الخليفة، فأتوا للبرامكة يوسطونهم فى هذا الأمر لدى الخليفة، لما شعر به الناس من مكانة للبرامكة فى نفس الرشيد. ولكن دوام الحال من المحال. فلقد قلب الحظ ظهر المجَنّ لتلك الأسرة السعيدة والمنكوبة معا بين عشية وضحاها. وإذ البرامكة أهلَ الحَظوة بالأمس، يصبحون محل مطاردات، وتقتيل وعنَتٍ شديد، ينزل بهم من ذات اليد التى أنعمت إليهم من قبل.

والحق أن المؤرخين والمحللين اختلفوا فى تعليل الأسباب التى حملت الرشيد على الفتك بالبرامكة ذلك الفتك الذريع. فمن قائل أنهم كانوا يضمرون التشيع ويعملون سرا على نقل الخلافة للعلويين، وهو ما ثبت للرشيد بعض ملامحه، حين أطلق جعفر سراح يحيى بن عبد الله العلوى. وربما كان جعفر في عمله هذا، إنما يكون قد فعله كنوع من تأليف القلوب النافرة ليس أكثر. لكن المعروف أن أى عمل ـ وإن كان بريئا ـ من الممكن أن يُقَيَّمَ على غير حقيقة وهدف صاحبه، إذا ما شاب النفوس أو عكَّرها شيء من نميمة أو شك أو وشاية. إلا أن الذين يقولون بالسبب العلوي لنكبة البرامكة يستشهدون برواية الطبرى عن هذا الموضوع إذ قال: «أن أبا محمد اليزيدى ـ وكان من أعلم الناس بأخبار البرامكة ـ قال : من قال أن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله فلا تصدقه».

وربما كانت شهرة البرامكة واستفحال نفوذهم، ونبوغهم الفَذُّ فى إدارة الدولة، وكرمهم الزائد للأدباء والعلماء، الذين طفقوا يلهجون لهم بالثناء والدعاء الذى استوى فيه خاصة الناس وعامتهم، مما جعل الرشيد يحقد عليهم وضعهم المميز هذا. وما هو فى الحقيقة إلا من صنع يده، بما منحه لهم من ثقة وسلطات آنست الناس بهم وآنستهم بالناس، واكتظت أبواب قصورهم بالوافدين وطلاب الحاجات، بينما باب الخليفة ينعى الوحدة والانفراد، مما جعله يتغير عليهم.

ومما لا شك فيه أيضا أن علو مكانة وشأن البرامكة -وهم يمثلون العنصر الفارسي- كان له صدى سيئا فى نفوس أعدائهم، من زعماء الحزب أو الجناح العربى فى الدولة العباسية برئاسة «الفضل بن الربيع»، والسيدة زبيدة زوجة الرشيد وابنها محمد «الأمين». وبهذا وجد الرشيد نفسه أمام تنازع، من نوع عرقى شعوبى، يمثله حزبان أحدهما عربى والآخر فارسى. وصار الرشيد محل شد وجذب بين هَذَيْن الحزبيْن. وقد انتهز الفضل بن الربيع، فرصة حادثة الإفراج عن يحيى بن عبد الله العلوى، فبدأ يطعن فى البرامكة أمام الرشيد، وفى حضرته، وبالذات فى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى، الذى كان يحظى بكراهية مكثفة فى قلب السيدة زبيدة زوجة الرشيد، لأنها نقمت عليه سعيه فى بيعة المأمون بعد ابنها الأمين، لأنها كانت تخشى أن يؤدى ذلك إلى الإيقاع بين الأخَويْن، عقب وفاة الرشيد، فصارت توغر قلب زوجها (الرشيد) على جعفر البرمكى كلما حانت أمامها فرصة مواتية.

كذلك أخذ الجانب العربى يوضح للرشيد أن إطلاق جعفر لسراح يحيى بن عبد الله العلوى، يدل على إيثاره العلويين ومصلحتهم، على الرشيد ومصلحة الدولة العباسية. بل ذهب زعماء الحزب العربى فى إثارة الرشيد ضد البرامكة إلى حد بعيد. فقالوا له: إنهم يعدون لتدبير انقلاب سياسى خطير فى خراسان على السلطة السياسية العباسية.

وهكذا زال سلطان البرامكة ونفوذهم عن الدولة العباسية، دون أن يصحب ذلك أو يعقبه أية قلاقل أو ثورات على الرشيد أو دولته. وهذا وحده، دليل على أن الرشيد كان قد أعد لهذا العمل الخطير إعدادا جيدا، واستطاع أن يلقى فى رَوْع الجميع أنه على حق فى إيقاعه بالبرامكة، دون تصريح واضح بالسبب الذى دعاه إلى ذلك.

ولا شك أن اختفاء نجم البرامكة من سماء الحياة السياسية العباسية كان خسارة فادحة على هذه الدولة. إذ اختلت أمور البلاد بعدهم، مما دفع الرشيد إلى أن يتولى هو بنفسه تدبير أمور الدولة. وأصبح ينتقل بين أطرافها، ويحارب الروم والثائرين عليه فى خراسان وفارس. واتخذ الفضل بن الربيع وزيرا له «ابنَ يونس بن محمد بن كيسان مَوْلى ابن عفان».

على أن الرشيد لم يطل به الاستمتاع بالهدوء المخضب بدماء البرامكة طويلا. إذ ثارت فى خراسان فتنة، فتوجه الرشيد بنفسه إليها بعد عجز واليها «على بن عيسى» بن

إخمادها. فسار الرشيد وخلَّف وراءه ابنه وولى عهده «محمد الأمين» على بغداد، وسار على رأس جيش إلى خراسان ومعه وزيره «الفضل بن الربيع»، وبعض أبنائه من بينهم المأمون، وكاتبه «الفضل بن سهل». واستمر الرشيد فى سيره حتى وصل إلى «طوس»، فى شهر صفر ١٩٣هـ، بينما سبقه المأمون إلى مرو. لكن المرض اشتدت وطأته على الرشيد فى «طوس»، فجدد البيعة للمأمون على القواد الذين بصحبته، وطلب منهم تسليم المأمون جميع ما فى معسكره من جند ومال ومتاع وخيل ورقيق إذا ما حدث به حادث الموت.

حرب الأخوين (١٩٣ـ١٩٨هـ):

عندما علم الأمين بخبر مرض والده الرشيد، أرسل إلى خراسان عدة كتب منها كتاب للفضل بن الربيع، يأمره فيه بالعودة إلى بغداد مع الجند إذا ما توفى الرشيد. وكتاب آخر إلى أخيه المأمون لم يشر فيه إلى موقفه من جند الرشيد بطوس، بل اكتفى بأن دعاه فى حالة وفاة أبيه إلى أخذ البيعة له ولنفسه ولأخيه القاسم، وفق الشروط التى أقرها الرشيد.

وفى عام ١٩٣ هـ آلت الخلافة ـ عقب وفاة الرشيد ـ إلى الأمين، وكان ذلك ببغداد. أما المأمون فظل فى مرو عاصمة خراسان، ينتظر تنفيذ وصية والده. لكن الفضل بن الربيع أجاب الدعوة التى وجهها إليه الأمين فى كتابه. فأغرى الجند بالعودة إلى بغداد، وتقديم فروض الولاء والطاعة للأمين، ثم قدم إلى حاضرة العباسيين على رأس الجيش، ومعه الأموال التى آثر أن يسلمها إلى الأمين، ولايسلمها إلى المأمون، فرحب الأمين بمثل هذا التصرف، وقلده منصب الوزارة.

وإزاء هذا التصرف من جانب «الفضل بن الربيع»، فقد قرر المأمون عقابه على أساس أن هذا التصرف يمثل خيانة من جانب الفضل للمأمون.

لكن الفضل بن سهل أبدى عدم ارتياحه لما قر عليه عزم المأمون، وحذَّره من عاقبة الفشل فى تلك المحاولة، وهوَّن على المأمون مسألة رحيل الجند ـ جند الرشيد ـ إلى بغداد، وأشار عليه بدعوة الفقهاء إلى إقرار الحق والعدل، والعمل به وإحياء السنة، وأن يقوم المأمون بنفسه بردِّ المظالم، ليكسب بذلك حبَّ الرعية.

وبعد أن قرر المأمون الإقامة بخراسان، استطاع أن يحصل على معاونة الفضل بن سهل ـ ذلك الرجل الفارسى، واسع الحيلة، شديد الذكاء، والدهاء، وأحد أولاد ملوك

الفرس الذين يدينون بالمجوسية - الذى اتصل بالبرامكة، وقام على خدمة بعض أبناء يحيى بن خالد البرمكى، ورأى يحيى البرمكى فى مواهب الفضل بن سهل وذكائه ما جعله يعرض عليه الدخول فى الإسلام، ليقلده بعض الأمور. وقد رحب الفضل بن سهل بذلك، وحرص يحيى على أن يكون إسلامه على يد «عبد الله المأمون» ذاته، ثم أجرى عليه الأرزاق، ومن ذلك يتضح أمران:

١- بداية تعرف المأمون على الفضل بن سهل.

٢- سياسة البرامكة فى الاستعانة ببنى جنسهم من الفرس، لتوثيق صلتهم بالبيت العباسى، وليضمنوا الاحتفاظ بالسيادة لهم فى الدولة العباسية.

وكان الفضل بن سهل - حين أحس بقرب اعتلاء المأمون عرشَ الخلافة - قد لزم جانب المأمون، وعاونه فى تدبير بعض أموره. كما كان «الفضل بن سهل» ذا أطماع كبيرة، لا تقل عما عُرِفَ عن البرامكة. فعوَّل - منذ اتصاله بالمأمون - على تعرف سياسته، إذا ما آلت إليه الخلافة. وذلك ليتيسر للفضل بن سهل تحديد موقفه نحوه، واتخاذ الحيطة والحذر، مع إعداد الخطة التى تمهد له استئثاره بالسلطة دون المأمون. كما حرص على عدم إفلات الخلافة من المأمون، وعاونه فى هذا الصدد معاونة كبيرة وصادقة، لعله يصل من وراء ذلك إلى حظ كبير من السلطان، وخاصة إذا علمنا أنه بين عشيرته من أهل إقليم خراسان.

والحق أن المأمون كان ذو سيرة حسنة بين الخراسانيين، حتى أنهم أحبوه لإحسانه إليهم، ولقرابته منهم، فأمه «مراجل» فارسية الأصل. ومما زاد فى احترامهم للمأمون، أنه لم يبادئ أخاه «محمد الأمين» بالعداء، بل سلك معه طريقا وديا فى بادئ الأمر، فكان يراسله بكتب تتضمن احترامه، كما بعث إليه الهدايا من طرائف خراسان من المتاع والمسك والدواب والسلاح.

أما عن موقف الأمين من أخيه المأمون، فإنه بعد توليه الخلافة، واستحواذه على جيش أبيه «الرشيد» وأمواله، أصبح واثقا من ثبات ملكه. ولم يفكر - فى البداية - فى معاداة المأمون، ولا نقض البيعة له بولاية العهد. لكن الفضل بن الربيع خشى بعد قدومه على محمد الأمين ببغداد، عاقبة نكثه العهود التى كان الرشيد قد أخذها عليهما لابنه عبد الله المأمون. ورأى أن الخلافة لو آلت إلى المأمون لقضى عليه؛ ولذلك سعى في إغراء الأمين بالمأمون ودفعه إلى خلع أخيه من ولاية العهد، ونقلها إلى ابنه موسى ابن محمد الأمين. لكن حكمة الأمين ووفائه بالعهد لأخيه المأمون، جعله يأبى الإقدام على مثل ذلك العمل الانقلابى فى بداية الأمر، إلا أنه ما لبث أن تغير فى موقفه من أخويه : عبد الله (المأمون)، والقاسم (المؤتمن).

وهكذا نجح مسعى الفضل بن الربيع فى دفع الأمين إلى العمل على نقل الخلافة بعيدا عن المأمون. وشرع الأمين فى تنفيذ ما زينه له الفضل بن الربيع. فخلع أخاه القاسم (المؤتمن) من ولاية بعض الأقاليم. وقد فطن المأمون إلى ما يزمع الأمين الإقدام عليه. فمنع إرسال البريد إليه، وحذف اسم الأمين من الطرز (القراطيس التى كان يكتب عليها عبارات إسلامية). فكان هذا العمل من المأمون إيذانا باتساع شقة الخلافة بين الأخوين.

وعندما توترت الحالة بين الأمين والمأمون، خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وبايع لابنه «موسى بن الأمين» من بعده، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٥هـ، وسماه «الناطق بالحق»، وأمر بعدم ذكر اسم المأمون والمؤتمن أو النداء لهما على منابر البلاد. وبعث إلى مكة المكرمة من أتاه بالكتابين اللذين وضعهما الرشيد داخل الكعبة، ثم مزقهما الفضل ابن الربيع.

لما علم المأمون بما أقدم عليه أخوه الأمين، كلف «طاهر بن الحسين» بمهمة محاربة «محمد الأمين»، وحشد على حدود ولايته خراسان، وأمرهم بمنع أى فرد من العراق، من الدخول إليه بخراسان دون استجوابه، وذلك خوفا من الدعايات السيئة، التى قد تثير الخراسانيين، وتدفعهم للثورة والتمرد. أما الأمين فقد أخذ للأمر عدته. فأعد حملة بقيادة «على بن عيسى بن ماهان»، بعث بها إلى الرى. وهناك التقت هذه الحملة بقوات المأمون ودارت بين الفريقين معارك انهزم في نهايتها جيش الأمين، وقتل قائد قوات الأمين (على بن عيسى بن ماهان).

لما رأى الأمين تدهور الموقف، عمل على أن يبعث عدة جيوش من بغداد، الواحد تلو الآخر، إلا أنها جميعا لم يكتب لها التوفيق أو النصر على قوات المأمون. واستطاع «طاهر بن الحسين» الاستيلاء على فارس وواسط والمدائن، وأنفذ الولاة إلى اليمامة والبحرين وعُمَان، ثم تقدم إلى بغداد نفسها، وحاصرها من ثلاث جهات لعدة أشهر، حتى نفذ ما كان لدى الأمين من مال، وضاق ذرعا، مما اضطره إلى بيع كل ما فى خزائنه من متاع، وحول ما كان لديه من آنية الذهب والفضة إلى دراهم ودنانير، ليوزعها على جنوده وأعوانه.

وبالطبع كان لابد لبغداد أن تصاب من مضار الحصار المضروب عليها من كلا الفريقين المتصارعين، خاصة بعد أن انضم إلى قوات الأمين المسجونون والرعاع (الزعر والشطار)، الذين عاثوا في المدينة سلبا، ونهبا، وفسادا، وحاربوا «طاهر بن الحسين»

بحماس شديد. أما بقية الجند فكانوا قد حل بهم الإعياء ودب بينهم شعور بالقنوط واليأس، فتقاعسوا عن مواصلة القتال مع الأمين. وكان سريان هذه الحالة النفسية المتدهورة بين قوات الأمين، مما ساعد على ترجيح كفة قوات المأمون على قوات الأمين، وبدأ في رسم الصورة التي سيتمخض عنها الصراع بين الأخوين؛ ذلك أن «طاهر بن الحسين» لم يهدأ ولم يكل عن مواصلة الحرب ضد الأمين وقواته، على الرغم مما تكبده وقواته من خسائر. فأمر بهدم وإحراق دور من يخالفه، ومنع الاشتغال بالتجارة في الأماكن التي سيطر عليها بقواته، وحوّل سفن البصرة وواسط إلى الفرات.

ولذلك كله ساءت أحوال بغداد «لغلاء السعر، وضاقوا ذرعا بهذا الحصار، ورأى تجار الكرخ - إنقاذا لموقفهم - أن يبعثوا لطاهر بن الحسين برسالة أوضحوا فيها محبتهم له وترحيبهم بالدخول فى طاعته، «لماَ بلغهم عنه من إيثار لطاعة الله والعمل بالحق». وهي فى الواقع دعوة حق أُرِيدَ بها بَاطل.

غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر فى إنقاذهم من ويلات الحصار. فظل «طاهر ابن الحسين» يحارب أتباع محمد الأمين ويتعقبهم، ونادى مناديه بالأمان لكل من لَزِمَ داره. واشتد الحصار حول الأمين، فمنع عنه الدقيق والماء، ولما رأى قواد «محمد الأمين»، أنه لا قبل لهم بمقاومة الحصار، وخشوا وقوعهم فى يد «طاهر بن الحسين»، أشاروا على الأمين بالانتقال إلى منطقة الجزيرة (الجزء الأعلى من بلاد العراق والشام)، ليقيم هناك دولة جديدة، وليكون قريبا من أنصاره العرب.

وقد استحسن الأمين رأى قواده، وعزم على تنفيذه، لكنه أقلع عن ذلك العزم، بتأثير فريق من قواده وكبار رجال بغداد، الذين هددهم طاهر بن الحسين بمصادرة كل ممتلكاتهم وثروتهم، إذا ما أفلت الأمين أو هرب من بغداد. فاضطر الأمين - وقد تحرّج موقفه بشدة، بسبب قسوة الحصار المضروب حوله - إلى طلب الأمان، وخرج لمقابلة طاهر بن الحسين، لكن بعض أتباع طاهر رشقوا سفينة الأمين في نهر دجلة - وهو بها - بالسهام والحجارة فغرقت السفينة وقفز الأمين في الماء، واستمر يسبح حتى وصل إلى البر الشرقى، ثم لحق به بعض الفرس في الدار التى آوى إليها وقتلوه أوائل سنة ١٩٨هـ. وبذلك انتهت خلافة الأمين، وأصبحت بغداد فى قبضة جيوش وأتباع المأمون.

والحق، أن انتصار المأمون، يراه البعض نصرا للعنصر الفارسي على الجانب العربى ،وهو رأى نتحفظ عليه حيث إن نفوذ العنصر الفارسي انتهى في بداية عصر

المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ)، الذي استعان في إدارة الدولة العباسية بعنصر جديد، وهو العنصر التركي، ونحّى جانبا كلا من الفرس والعرب.

المأمون «خليفة» (١٩٨-٢١٨ هـ):

تمت البيعة للمأمون (عبد الله بن هارون الرشيد) وذلك عقب مقتل أخيه «محمد الأمين». وكان المأمون وقتها لا يزال يقيم فى «الرى»، ثم انتقل إلى مرو عاصمة خراسان. وظل الفضل بن سهل وزيرا له، ولقب «ذى الرياستين» (أى رياسة الحرب ورياسة تدبير أمور الدولة داخليا). وكان من الطبيعي ـ وللفضل كل هذه السلطة ـ أن يستأثر بالنفوذ دون المأمون في خراسان، بينما أسند إلى أخيه الحسن بن سهل أمر إقليم العراق. وبذلك أصبح المأمون في وسط فارسى صرف، فأهل خراسان من الفرس، وبنو سهل الذين يتولون إدارة أمور البلاد هم أيضا فرس. أما المأمون فقد انصرف للبحث والاطلاع. وبذلك عادت الأمور إلى مثل ما كانت عليه أوائل عهد «هارون الرشيد» وذلك حين استحوذ البرامكة على السلطة.

ثورة العنصر العربى:

لقد ترتب على تمكن الفرس من إدارة الدولة العباسية، أن ثار العرب، بقيادة «نصر بن سيار بن شبث العقيلى، الذى قام بثورته فى شمال مدينة حلب (ببلاد الشام) أواخر سنة ١٩٨ هـ. وتغلب هذا الثائر على ما جاوره من بلدان. وتعد ثورته فى الواقع، تعبيرا واضحا عن ثورة العنصر العربى وغضبه، لما أصابه من هوان على يد الفرس، وحُزنا على مصرع «محمد الأمين».

وكان أمر إطفاء ثورة نصر بن سيار، من المسئوليات التى أسندت إلى «طاهر بن الحسين» الذى تولى مهمة إنهاء الصراع بين الأمين والمأمون، لصالح الأخير. فأرسل طاهر إلى «نصر بن سيار» ـ في بادئ الأمر ـ يدعوه للإذعان، ونبذ الخلاف. لكن نصرا رفض هذه الدعوة، فاندلع القتال بين الجانبين، وانتصر فيه نصر على طاهر، الذى أعاده إلى الرقة (على نهر الفرات)، وبذلك ازداد نفوذ «نصر بن سيار»، الذى التف حوله الكثير من العرب، وأتاه نفر من العلويين، عرضوا عليه، «أن يبايع بعض آل على بن أبى طالب، فأظهر عدم ارتياحه إليهم، فطلبوا منه أن يبايع لبعض بنى أمية، فقال: «قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبدا، وإنما هواى فى بنى العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون العجم». وانتهى أمر هذه الثورة بالاندحار على يد طاهر بن الحسين، ووقع نصر في الأسر واقتيد سنة ٢١٠هـ إلى بغداد، حيث قُتِلَ هناك.

وهكذا وصلت الخصومة إلى أشدها بين العرب والعجم فى خلافة المأمون، حيث خسر الفريقان فى هذا العداء الكثير من المهج والأموال. وكانت النتيجة استمرار احتفاظ الفرس بمكانتهم ونفوذهم فى الدولة، بفضل انحياز المأمون إلى جانبهم، واختياره بعض رجاله من الفرس، مما أطمعهم فى الاستئثار بالسلطة والنفوذ، والعمل على المحافظة على المرتبة الرفيعة التى وصلوا إليها. لكن هذه الحال لم تستمر طويلا. وهكذا الأيام (يوم لك ويوم عليك) و(من سره زمن ساءته أزمان). وتلك سنة الحياة يعيش فيها الإنسان بين إقبال من الأمر وإدبار. فسبحان من يزيل ولا يزول، وسبحان من يغيِّر ولا يتغير؛ ذلك أن عصرا جديدا قد لاحت ملامحه، وأن عنصرا جديدا قد بدأ يصعد فى سماء الحياة السياسية العباسية ألا وهو العنصر التركى، اعتبارا من عصر المعتصم.

كما أن بقاء المأمون فى خراسان، واتخاذه مرو عاصمة له، وإطلاق يد الفضل بن سهل فى شئون الدولة، كل ذلك أدى إلى اضطراب الحال فى بلاد العراق. فقام العلويون بثورات عديدة أهمها ثورة «أبو السرايا» فى مدينة الكوفة، وثورة محمد بن إبراهيم الإمام بالبصرة. كما تذمر بنو هاشم من سياسة المأمون، واستخفوا بالحسن بن سهل، لعجزه عن سياسة أمور بلاد العراق بالحزم. فتألب عليه الجند لتأخر الرواتب عليهم، وأقاموا المنصور بن المهدى، أميرا عليهم، بعد أن تنحى عن قبول الخلافة، بينما ولى الحسن بن سهل هاربا إلى مدينة «واسط» سنة ٢٠١ هـ.

هكذا استمرت الأحوال مضطربة فى بلاد العراق، دون محاولة جادة تُبْذَل من أحد لتلافى هذه الحال. بل إن المأمون كان غافلا عما يجرى فى ذلك القطر، وكان إقدامه على مبايعة «على الرضا بن موسى الكاظم» ولاية عهده، مما أدى إلى إثارة العباسيين عليه، فلم يجدوا ردا على فعله إلا خلعه من الخلافة ومبايعة «إبراهيم بن المهدى». ولم يكن المأمون يدرى عن كل هذه التطورات شيئا، لولا أن أخبره بها «على الرضا» فتنبه المأمون وأفاق من غفوته، وقر قراره على التوجه إلى بغداد.

وبينما كان المأمون فى طريقه إلى العراق، ورد إليه خبر وفاة الفضل بن سهل، ثم خبر آخر بوفاة على الرضا. والحق أن الفضل بن سهل كان رجلا مستبدا بالسلطة دون المأمون. حتى أنه (أى المأمون) كان قد بدأ يفكر فى كيفية التخلص من الفضل بن سهل؛ ولذلك حامت الشبهات حول المأمون فى موتهما معا، وفى هذه الفترة بالذات. إذ يقال أن المأمون أوعزَ بقتل على الرضا، إرضاء للعباسيين الناقمين على المأمون نقله ولاية العهد إلى على الرضا. أما حادث وفاة الفضل بن سهل، فيرجعه البعض إلى ما

كان قد وصل إليه العنصر الفارسى من نفوذ، ممثلا فى تسلط ابن سهل واستبداده، وهو ما أثار العنصر العربى على المأمون، ولذلك أراد المأمون، إرضاء العنصر العربى بقتل الفضل بن سهل. فكأن وفاة الرضا كانت بمثابة ترضية للعباسيين، مثلما كان مقتل ابن سهل ترضية للعنصر العربى الناقم من استئثار الفرس بالسلطة دونهم. ونسى العرب أو تناسوا أنهم إنما يشربون من نفس الكأس التى جرعوا غيرهم مرّها المترع علقما. ونعتقد ببراءة المأمون من دم هاتين الشخصيتين الكبيرتين. والجدير بالذكر أن المأمون حزِنَ حزنا شديدا لوفاة على الرضا.

ولما استقرت الأمور للمأمون فى بغداد، وصار سيد الدولة العباسية الفعلى، سعى إلى إبعاد الشخصية التى كان لها يد فى قتل أخيه. فولى طاهر بن الحسين إقليم خراسان، مما ساعد على قيام «الدولة الطاهرية» بهذا الإقليم الذى صار مستقلا استقلالا ذاتيا، واستمرت هذه الأسرة فى حكم خراسان، حتى سقطت على يد «يعقوب بن الليث الصفار». وهذا يشبه ما حدث فى إفريقية (تونس وما حولها) حيث قامت «دولة الأغالبة» فى خلافة هارون الرشيد (١٨٤هـ)، وذلك بعد أن أسند إليهم ولاية هذه البلاد، وعهد بها إلى أحد أفراد الأسرة - مؤسس الدولة الأغلبية «إبراهيم بن الأغلب» سنة ١٨٤ هـ - واستمر أبناؤه يتوارثون الحكم من بعده على منطقة إفريقية (تونس وما حولها) إلى أن قضى على حكمهم «أبو عبد الله الشيعى» سنة ٢٩٥/٢٩٦هـ، ليقيم على أنقاضه حكم الفواطم ببلاد المغرب منذ ذلك التاريخ (أواخر القرن الثالث الهجرى).

عين المأمون - بعد أن وطد أموره فى بغداد - «الحسن بن سهل» وزيرا له وطلب منه الزواج من كريمته «بوران بنت المأمون» فرحب الوزير بذلك الزواج، وأنفق فى تجهيز عرسها والاحتفال به الكثير من المال، وبقى الحسن بن سهل فى الوزارة إلى أن مرِضَ، فتقلدها بدلا منه «أحمد بن أبى خالد»، وإن كان ذلك لم يمنع من قيام المأمون بالتشاور الدائم مع الحسن بن سهل، فى أمور البلاد، حتى وهو على فراش المرض، ليستأنس برأيه.

وهكذا نلاحظ أن المأمون لم يعهد بمنصب الوزارة - بعد قدومه إلى بغداد - إلى شخصية عربية، بل استمر يوليها للشخصيات الفارسية، بفارق واضح، هو أنه لم يعد يترك لهم العنان فى تصريف أمور البلاد والعباد، مثلما تركه للفضل بن سهل وهو فى مرو، وإنما صار يلى ويباشر أموره وأعماله بنفسه دون أن يدع لأحد سلطانا عليه.

٤- ظهور «الترك» على مسرح السياسة العباسية

«استشار المأمون قادته من أصحاب التجارب والمراس والمعاناة فى صناعات الحرب فقال لهم : ليـقل أيما أحب إلى كل قائد منكم، إذا كان فى عهدته من صحـبه وثقاته : أن يلقى مـائة تركى أو مـائة خارجـى؟ فقـال القوم جميعا : مـائة تركى؛ إلا حميد بن عبد الحميد الطوسى حيث قال :

«بل ألقى مائة خارجى أحب إلىّ لأننى وجدت الخـصال التى يفضل بها الخارجى جميع المقـاتلة غير تامة فى الخارجى، ووجـدتها تامة فى التركى. فـفضل التركى على الخارجى بقـدر فضل الخارجى على سـائر المقاتلة. ثم بان التركى على الخـارجى بأمور ليس فيها للخارجى دعوة ولا متعلق. . ».

(الجاحظ : رسائل، ص٤٠ -٤١)

«إن من عوائق الملك حصول الترف وانغمـاس القبيل فى النعيم، وسبب ذلك أن القبـيل إذا غلبت بعصبيـتها بعض الغلب اسـتولت على النعمة بمقـداره، وشاركت أهل النعم والخصب فى نـعمتهـم وخصبـهم. . فتذهب خـشونة البداوة وتضـعف العصبـية والبسالة، ويتنعمون بما آتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك، من الترفع عن خدمة أنفـسهم وولاية حاجاتهم، ويستكفون عن سـائر الأمور الضرورية فى العصبية، حتى يصير ذلك خلقا لهم، وسجيـة عصبيتهم وبسالتهم فى الأجيال بعدهم، بتعاقبها، إلى أن تنقرض العصبيـة فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاء عن الملك.

(مقدمة ابن خلدون، ص١٤٠ - ١٤١)

لقد تميـز العصر العبـاسى الثانى باعتمـاد الخلافة على الترك وعناصـر أخرى فى الجيش والبلاط، ثم بازدياد نفوذهم وسيطرتهم على مـقاليد الحكم. إلا أن ظهور الترك لم يكن ظهـورا فجائيـا أو مصطنعا. فـلقد عرف العـرب الفاتحون التـرك حين فتـحوا خراسان فى عهد الخليفة الراشدى عثمان بن عفان. وكان الأتراك نوعين :

المستقرون المستوطنون الذين تأثروا بالثقافة الإيرانية أولا. والبدو الأشداء المتنقلون الذين لم ينفكوا يهاجمون القرى والمدن على حـدود خراسان وحتى المناطق المجاورة لمرو ونيسابور ثانيا.

ثم توغل العرب شرقـا فى بلاد ما وراء النهر، فزاد اختلاطهم بالتـرك فى العصر الأموى حينما فتح هذه البلاد قتيـبة بن مسلم الباهلى وغيره من القادة المسلمين العرب.

وكانت الحروب مستمرة بين الترك وبين العرب المسلمين. ولم يستطع العرب أن يحققوا انتصارهم الحاسم والنهائى على أتراك هذه المنطقة إلا فى أواخر عهد الأمويين، وقبل ربع قرن من الانتصار العباسى سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م.

ولم يكن اصطلاح «الترك» اصطلاحا عنصريا فى تلك الفترة المبكرة بقدر ما هو اصطلاح سياسى ولُغوى؛ ولذلك فإن بعض المناطق التى سكنها الترك فى خراسان أخذت تتكلم التركية بمرور الزمن، وعلى هذا اعتبر سكانها أتراكا.

كما اعتبر أغلب المؤرخين العرب أن كلمة «ترك» تعنى كل الأتراك، مهما تنوعت أنماط حياتهم المعيشية. لكنهم اختلفوا فى تحديد مناطق سكناهم. فيقول البلاذرى : «يسكن الترك البلاد الواقعة وراء الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش». ولا يعتبر «المسعودى» سكان خراسان وفرغانة وأشروسنة من الترك؛ لأنهم كانوا مستقرين منذ مدة طويلة، وتأثروا إلى حد كبير بعد الفتح العربى بالإسلام والعروبة. أما «اليعقوبى» و«الطبرى» فاعتبرا أن هذا الاصطلاح «الترك» ـ يشمل سكان الأقاليم الشرقية، الذين استخدمتهم الخلافة العباسية فى عهد المعتصم وقال عنهم أنهم «علوج» و«عجم».

أما ابن الأثير الذى كتب فى الفترة السلجوقية وابن خلدون فى عهد المماليك فهما لا يذكران كلمة «ترك»، بل يذكران العناصر والمناطق التى جاء منها الترك وهى مثلا : الفراغنة من سمرقند.

بينما اعتبر الجاحظ كل من استقدمتهم الخلافة العباسية من الأقاليم الشرقية «خراسانية»، وأن الفرق الوحيد بين الخراسانية والترك هو الفرق الحضارى بين المستقرين والبدو.

على أنه من الضرورى التمييز بين الترك الذين جلبهم الخلفاء العباسيون لاستخدامهم فى الجيش، وبين الترك المستقرين فى خراسان وما وراء النهر، الذين تأثروا بالإسلام وثقافته، واعتُبِروا جزءا من العالم الإسلامى. وهذا التمييز بين المجموعتين من الترك، يظهر جليا فى كتابات الجاحظ الذى يعقد مقارنة هامة بين الترك وفرقة الخوارج، وهى تشير إلى أن خطر الترك فى تلك الفترة لا يقل عن خطر الخوارج فى تهديد الخلافة العباسية. وخاصة أن عملية جَلْبِهم واستخدامهم فى الدولة العباسية تمت بصورة سريعة ودون خطة عملية مسبقة، فى وقت كانت الإدارة العباسية بحاجة إلى الرجال الأكفاء والتخطيط السليم المبنى على سياسة حكيمة.

وقد ازداد خطر هؤلاء البدو الترك بسبب اعتمـاد الخليفة عليهم فى مواجهة ذوى النزاعات الإقليمية، حتى أصبح خطر قواتهم يهدد مركز الخليفة نفسه، وحياته أيضا.

ويرى بعض الباحثين أن العناصر التركيـة فى بلاد ما وراء النهر وخراسان كان لها دورها فى الثورة العباسية. فيقول المستشرق أرمنيوس فامبرى عن أبى مسلم الخراسانى : «أنه نجح نجـاحا مـذهلا فى أن يكسب إلى صـفه فى وقـت قصـير أتراك بلاد مـا وراء النهر...».

ويستطرد فامبرى : بأنه عثـر على مخطوط يؤكد بأن الجيش الذى هزم به قحطبة الطائى الأمويين كان أكثره من الترك !!...

فإذا صح هذا الرأى، فمعنى ذلك أن انبســاط النفوذ الفارسى قلص الدور التركى بعد قيام الدولة العباسية إلى حين.

والواقع أنه، بعد تأسيس الدولة العباسية، لوحظ تواجد الأتراك على شكل أفراد أو جماعـات فى البلاد والإدارة، وهؤلاء أتوا من: الحروب والشراء، وكنتيـجة للدخول فى الإسلام، والهجرة.

كما تشيـر روايات تاريخية عديدة إلى وجود الأتراك فى البـلاط منذ زمن الخليفة أبى جعـفر المنصـور، إذ كان جزء من الضـريبة التى كـان يرسلها إصـبهبـذ طبرسـتان للمنصور عبـارة عن عدد من الغلمان الأتراك. كما روى «البلاذرى»«أن الخليـفة المنصور كان يشرف بنفسه على تدريب هؤلاء على أعمال الحـرب والقتال». فهذه الرواية إضافة إلى وصف المنصور لهم «أن هؤلاء لم يتعلموا بعد، آداب الخـلافة وأصول التصرف فى حضرة الخليفـة»، دليل على وجود العنصر التركى فى البلاط العباسى والإدارة العـباسية منذ عصر المنصور العباسى، وليس منذ عصر المعتصم كما هو شائع.

ويذكر «خليفة بن خياط» : أن الجند الترك فى الجيش العباسى لعبوا دورا هاما فى القضاء على مقاومة الخوارج، الذين ثاروا بقيـادة عبد السلام اليشكرى فى عهد المهدى، حيث أمطروا الخوارج بالسهام فشتتوهم. ويبين الجاحظ دور الجند الترك فى القضاء على ثورة الوليد الشارى فى عهد الرشيد، ويعقد مقارنة طريفة بين الترك والخوارج من حيث الجرأة «والتكتيك»، وينتـهى بأن يُفَضِّل الترك. وكان الأتراك من العناصـر التى ساعدت رافع بن الليث فى ثورتـه ضد الرشـيـد، وليس ذلك بغريـب، فإن الأتراك سـبق وأن ساعدوا ثوارا آخرين على الدولة الأموية كالحارث بن سريج المرجئ.

وفى عهد المأمون أهدى عامل بخارى إلى الخليفة غلمانا أتراكا منهم غلام اسمه طولون. ويقول المقريزى : إن المأمون اتخذ الأتراك للخدمة فكان يشترى الغلام من الأتراك بمائة ألف. وقد استعان بهم المأمون - فضلا عما كان معه وقتذاك من الفرس وبعض العرب - فى نزاعه ضد الأمين.

لقد أصبحت خراسان لأول مرة فى عهد المأمون، مركزا لخليفة عباسى بعد أن كانت أحد أقاليم الدولة الإسلامية التابعة لبغداد. وقد شجعت هذه الفترة الميول الإقليمية وإمكانيات انفصال خراسان عن جسم الدولة الإسلامية،على أنه لا يمكن اعتبار انتصار المأمون انتصارا لعنصر معين أو تفسيره تفسيرا «قوميا» كما يحلو للبعض تسميته؛ لأن هذا النصر اشترك فى تحقيقه من سموا «بالخراسانية» الذين كانوا خليطا من الفرس والعرب والترك، هذا فضلا عن عرب الحجاز - قلب العالم الإسلامى -، حيث يقال أن قبيلة «خزَاعة» تفتخر بكونها اشتركت فى قتل الأمين.

وقد ازداد اهتمام الخلفاء بالترك، إلى أن جاء المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) فتوسع فى استعمال الترك لما تميزوا به من البأس والجرأة والشجاعة والإقدام، إلى جانب أجناس أخرى فى الجيش كالعرب (اليمانية والقيسية) الذين استوطنوا فى بلاد المغرب (الشمال الأفريقى) بعد الفتح الإسلامى. وكان بينهم كذلك أقوام وعناصر غير تركية وجاءت من بلاد ما وراء النهر وتركستان.

وعلى هذا، فلم يقتصر الجيش العباسى فى عهد المعتصم على الترك دون غيرهم. وبالتالى فليس من الصحيح تعليل كل المصائب والأزمات التى حلت بالخلافة العباسية وإرجاعها الى تدخل الأتراك فى السياسة والحكم، بقدر ما كان راجعا أيضا إلى عوامل أخرى كذلك. وعليه لا يمكن تحميل الترك وحدهم مسئولية تصدع الخلافة العباسية، إذ لم يزد وضعهم عن كونهم أحد اثنين:

أولهما : طبقة من المماليك خدمت الخلافة العباسية وتدرج بعض أفرادها حتى وصلوا إلى أرفع المناصب، مثلهم مثل الفرس من قبلهم أمثال البرامكة وآل سهل. وقد تحكم بعض الترك فى الحكم فأساءوا إلى الخلافة والسلطة.

وثانيهما : كان الأتراك مُنقذى الخلافة العباسية من الديالمة، الذين جاء بهم البويهيون، والدخلاء، ومن البيزنطيين والصليبيين، ونخص هنا بالذكر السلاجقة ومن تبعهم من الأتابكة. ولعل الصورة التى رسمها لنا

المؤرخون العرب المحدثون وتسمية العصر بعصر النفوذ التركى، يعد أمرا غير مقبول على إطلاقه وبخاصة فى العصر العباسى الثانى.

ذلك أن الظروف التى مرت بها الخلافة العباسية ـ منذ الحرب الأهلية بين المأمون والأمين وحتى خلافة المتوكل ـ (١٩٣-٢٣٢هـ) ـ هى التى أدت لاستخدام العنصر «التركى» الجديد؛ لأن حياة الاستقرار والازدهار الاقتصادي النسبى، عَوَّدتِ الناس على حياة التحضر والترف والدعة، حيث لم يعد سكان العراق عنصرا محاربا يعتمد عليه، مما حدا بالعباسيين إلى البحث عن عنصر جديد قوى ومحارب. فوجدوا فى سكان بلاد ما وراء النهر وتركستان ضالتهم.

ولقد تعرف العرب على المقدرة القتالية لسكان ما وراء النهر وتركستان وشجاعتهم، حين أشركوهم معهم فى عمليات الفتوح والدفاع عن حدود الدولة الإسلامية.

وكان المعتصم أول من استكثر من استخدام الأتراك فى الجيش والبلاط. حيث استقدم سنة ٢٢٠هـ، قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها، حتى بلغوا عشرات الألوف. كما ضم جيش المعتصم فرقا أخرى: كالمغاربة والعرب والخراسانية المختلطين، والأبناء المولَّدين. وكان مما دعا المعتصم إلى الاعتماد على الأتراك، عدم التوافق والانسجام بين المعتصم وأهل بغداد، إذ كان شديدا غليظ الطباع، يحترف العسكرية والفروسية ويعتد بقوة الجسد، وهى صفات لم تكن متوافرة لدى المجتمع البغدادى المتحضر المرَفَّه. مما أدى إلى تباعد نفسى وخلقى، ما لبث أن تطور إلى اضطرابات أثارها أهلُ بغداد والأبناء فى وجهه.

هذا فضلا عن وجود العباس بن المأمون الذى نقم على الموالى من الفرس، والعرب الناقمين على استكثار المعتصم من الترك. مما دفع المعتصم إلى عدم الثقة بالجند القديم والاستعانة بعنصر جديد.

ولكن الأتراك أساءوا السيرة، مما أدى إلى ثورة أهل بغداد واضطرابهم حتى أنهم أنذروا المعتصم «إما أن تخرُجُ من بغداد، فإن الناس قد تَأذَّوْا بعسكرك أو نحاربك...» فاضطر المعتصم للانتقال لموقع سامراء، سنة ٢٢١هـ. ومنذئذ صارت سامراء عاصمةً للعباسيين، حتى تحوّل المعتضد بالله إلى بغداد ثانيةً سنة ٢٨٩هـ.

وكان من الطبيعى أن يمتعض العرب من سياسة المعتصم، مما دفع القائد العربى «عجيف بن عنبسة» إلى الاتفاق مع العباس بن المأمون على اغتيال المعتصم وتولية

العباس السلطة أثناء غزوة عمورية. ولكن المؤامرة فشلت وسُجِنَ العباس حتى مات عطشا، وقُتِلَ كل المشتركين فيها. وحدث بعد ذلك أن أمر المعتصم بمنع فيء العرب في مصر، وتبع ذلك أن أسقط من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم، فثارت قبائل لَخْم وجُذام في مصر بقيادة «يحيى ابن الوزير الجروي»، لأن الخليفة - كما قالوا - «منعنا حقَّنا وفيأنا». ولكن الثورة فشلت، كما ثار ضده «أبو حرب المبرقع اليماني» في الأردن، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ادعى أنه أموي فكثُر أتباعه، ولكن حركته فشلت كذلك، بعد أن عبرت عن تذمر أهل الشام.

وفضلا عن ذلك فلقد لقيت سياسة المعتصم معارضةً من بعض العباسيين أنفسهم. يدلنا على ذلك تلك المحاورة التي جرت بينه وبين إسحق بن إبراهيم، قال الأخير للخليفة واصفا القادة الأتراك - الأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف - أنهم (فروع لا أصول لها).

وفي خلافة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م) وصل الأتراك إلى بعض المناصب القيادية، ولاغرو. فقد سار هذا الخليفة سيرة أبيه في الاعتماد عليهم، حتى أنه - كما يروى السيوطي - استخلف أشناس التركي على السلطة وألبسه تاجا؛ لذلك لم يكُف العرب عن إظهار غضبهم، فثاروا في الحجاز والشام، إلا أن حركتهم قَضَى عليها «بغا الكبير» القائد التركي للجيش العباسي وأسر من العرب الكثير، وجَلَدهم بالسياط، وقيدهم بالأغلال وأذلَّهم.

ولما مات الواثق دون تعيين من يلي الخلافة بعده، تولى المتوكل (٢٣٢هـ- ٨٤٧م) السلطة بترشيح ومساندة القادة الأتراك. ولكن لأنه أحس بخطر تدخل الأتراك الذي جاوز الحدود، فإنه أخذ يختط لنفسه سياسةً جديدة، ويربط نفسه بتكتلات جديدة لينقذ نفسه والخلافة من الأزمة.

والحق أن المتوكل وعلاقته بالأتراك كانت الباعث الرئيسي إلى الكثير من المواقف السياسية التي اتخذها. فكان تأييده «أهلَ السنة والجماعة، والقضاء على فتنة المعتزلة يهدف إلى الحصول على تأييد عامة الرعية، والفقهاء - لما لهم من تأثير على الناس - وعلى الأتراك وقادتهم الطامحين، إلى الاستئثار بالسلطة، دون حدود - منذ عهد المعتصم، حتى لقد انبسط نفوذ أشناس زمن المتوكل فصار قائدا للجيش العباسي، وحاجبا للخليفة، ومسئولا عن دار الخلافة.

وقد سن هؤلاء الزعماء الأتراك سنَّةً جديدة في الإدارة، بتعيين وكلاء لهم، حين يعين أحدهم على ولاية خارج العراق. فكانوا يعينون وكلاء لهم لإدارة شئونها، ليبقوا

هم لمراقبة الأوضاع عن كثب؛ لأن القائد التركى كان يدرك أن بعده وإبعاده عن جنده يعنى انتهاء نفوذه السياسى. حيث كان كل فريق من الجند الترك يتعصب لقائد معين.

وقد حاول الخليفة المتوكل بكل وسيلة أن يحد من تزايد نفوذ الأتراك، فقسم الدولة بين أولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد، لتوطيد النفوذ العباسى على أجزاء الدولة، وحَصْر السلطة بيد العباسيين. فكان الجناح الغربى للمنتصر، والجناح الشرقى للمعتز، بينما خصّ المؤيد بأقاليم الشام، لكن هذه المحاولة فشلت فى الحد من نفوذ الأتراك.

على أن المتوكل نجح فى إبعاد «أيتاخ التركى» عن سامراء ثم قتله، وأسند الحجابة إلى قائد تركى آخر وهو «وصيف»، مما يوضح تعاظم النفوذ التركى لدرجة لم يستطع معها الخليفة التخلص منهم، بل الاعتماد على قسم منهم لضرب القسم الآخر، وقد أدى ذلك إلى كثير من الشغب؛ وذلك لأن الجند الترك ـ كما ذكرنا ـ لم يكونوا على وفاق دائما بل كان كل فريق يتعصب لقائد معين كما ذكرنا آنفا.

كذلك حاول المتوكل ـ سَعْيا للتخلص من سيطرة قادة الترك عليه دون جدوى ـ أن ينقل العاصمة من سامراء إلى دمشق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م ليكون هناك بين العرب، لكنه فشل حيث أجبره الأتراك على الرجوع إلى سامراء.

ومما ساعد على تأزم الموقف تمردُ جندُ الشام عليه ومطالبتهم إياه بالعطاء ورَمْيه بالنشاب. وكان تفضيل المتوكل لابنه المعتز على المنتصر ضمن جهوده لتقليص نفوذ الأتراك الذين وقفوا إلى جانب المنتصر فى محنته. وقد أضاف المتوكل خزائن الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب إلى المعتز وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم سنة ٢٤٠هـ.

وقد نجح المتوكل فى مصادرة ضياع القائد وصيف فى أصفهان دون أن يستطيع هذا أن يحرك ساكنا. والحق لقد حاول المتوكل إعادة الهيبة إلى الدولة وبسط سيطرة الخليفة. ولكن الأتراك ضاقوا ذرعا بإجراءاته، وقد انكشف تآمرهم حين حاول أيتاخ سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م اغتيال الخليفة فى مجلس شراب، وكانت هذه الحادثة بدايةَ التناحر الذى تطور إلى عداء سافر. حيث عزم الخليفة على قتل وصيف وبغا وأتباعهما، وكذلك قتل المنتصر الذى يشايعهم، ولكن الأتراك كانوا أسرع منه، حيث قتلته مجموعة منهم برئاسة «بغا» الصغير بمساعدة «باغر» حارس المتوكل، ثم قتلوا وزيره ونديمه الفتح ابن خاقان، وبايعوا لابنه المنتصر سنة ٢٤٧هـ.

والحق لقد كان قتل المتوكل بداية النهاية لسلطة الخليفة وقوة الخلافة العباسية. حيث أصبح اختيار الخليفة وعزله من الأمور التى يقوم بها القادة العسكريون الأتراك، بقوة سيوفهم وبرماح جندهم. وكان اغتيال المتوكل ٢٤٧هـ/ ٨٦١م أول مؤامرة قَتْلٍ دبرت على خليفة عباسي، إذ لم يُعْتَدَ على خليفة منهم قبل ذلك.

٥- «الأحوال السياسية فى سامراء» (٢٤٧-٢٥٦هـ / ٨٦١ - ٨٧٠م)

الفوضى السياسية والإدارية:

اتفق المنتصر مع القادة الأتراك على قتل أبيه المتوكل وعزل أخويه المعتز والمؤيد عن حقهما فى الخلافة، وذلك بتوجيه من الأتراك. يقول الطبرى أنه فعل ذلك خوفا من قتل الأتراك لهما إذا لم يفعل ما أشاروا به عليه من أمرهما.

لكن حظ المنتصر مع الأتراك لم يكن أحسن من حظ أخويه، لأنه عُزِلَ من الخلافة بعد ستة أشهر، بعد أن جرّده القادة الترك من كل شيء، فسخط عليهم وانتهى أمره ـ حسب رواية المسعودى - بدس السم له بمعرفة طبيبه الطيفورى مُعَجِّلين بالتخلص منه قبل أن يلتفت إليهم.

وقد برز فى أعقاب اغتيال الخليفة ثلاثة قادة عسكريون أتراك هم : بغا الكبير، وبغا الصغير وأوتامش، ومدنى واحد هو أحمد بن الخصيب، الذى كان وزيرا للمنتصر، وكان متعاونا مع القادة العسكريين ومنفذا لرغباتهم حيث دبر أمر الاجتماع بعد مقتل المنتصر.

ولكن القادة الثلاثة لم يتفقوا على شخص الخليفة الجديد، وانتهى الأمر بتغلب رأى القائد بغا الكبير، الذى أصر على اختيار أحمد بن المنتصر قائلاً: «نجيء بمن نهابه»، فنبقى وإن جئنا بمن يخافنا، حسدْنا بعضنَا وقتلْنا أنفسنا». وهكذا بويع أحمد بن المنتصر ـ ولقب بالمستعين بالله ـ بالخلافة سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م، وجعل أوتامش وزيرا له. وبذلك أصبح منصب الوزارة بيد قائد عسكرى بعد أن كان بيد أحد المدنيين.

صراع القادة:

إذا كان القائد بغا الكبير أصر على تولية خليفة قوى ـ حفاظا على مصلحة الأتراك ووحدتهم ـ إلا أن المستعين لم يكن تلك الشخصية القوية، بل العكس، كان ضعيفا يخضع لتأثير أمه. وقد قدم أوتامشَ وشاهكَ الخادم على سائر الناس. مما أدى إلى أن أصبح وصيف وبغا ضد أوتامش، وانتهى الصراع بقتل أوتامش ونهب داره بموافقة المستعين.

لم يسترجع المستعين سلطته بقتل أوتامش، وإنما حل مكانه القائد التركى باغر، الذى شارك فى التآمر ضد الخلافة، حيث كان ضالعا فى المؤامرة ضد المتوكل. ولكن كتلة وصيف وبغا استطاعت أيضا أن تتخلص من باغر بقتله.

وكان لتصرف قادة الترك هذا أثره السيئ فى نفوس أهل بغداد، الذين ثاروا للمطالبة باحترام الخليفة ونادوا بالنفير. وقد أراد أهل بغداد ـ من وراء هذه الانتفاضة ـ أن تعود مدينتهم دارا للخلافة، بعد أن نقلها المعتصم إلى سامراء، ولكنهم فشلوا وأُخْمِدَتْ ثورتهُم.

على أن الخليفة المستعين، بعد أن أَيِسَ من استرداد نفوذه، هرب إلى بغداد سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م، بأنصاره من الأتراك وعلى رأسهم بغا. وقد حاول قادة الأتراك إعادتَه ـ إلى سامراء ـ لكى يكسب حكمهم بالعاصمة الشرعية اللازمة آنذاك، فلما رفض بايعوا ابن عمه «المعتز بالله».

وبذلك أصبحت بغداد وتوابعها، إلى جانب المستعين، وسامراء مع المعتز، وقامت الحرب بين الطرفين. ولكن المستعين لم يصمد للأزمة بسبب تخلى أمير العراق «محمد بن عبد الله بن طاهر» عنه، بسبب نزاعه مع القائد بغا. هذا فضلا عن الحصار الشديد الذى ضربه جند سامراء على بغداد، مما اضطر المستعين إلى أن يخلع نفسه سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م، ويرحل إلى واسط حيث قتل بعدئذ بتدبير من قادة سامراء وأحمد بن طولون الذى وعدوه بولاية واسط.

والحق، إن المستعين بذل جهودا مخلصة للتصدى للقادة الترك. وذلك بتحصين أسوار بغداد، وحفر الخنادق حولها، وفتحه السدود باتجاه سامراء لمنع وصول الجند إلى بغداد، كما أصدر أوامره بحصار سامراء اقتصاديا، ونظم المدافعين عن المدينة من أهل بغداد، وبعض الخراسانية والعيارين. ولكن الخلاف بين بغا وابن طاهر، وإحساس ابن طاهر بقوة كتلة المعتز، دنعه إلى إجبار الخليفة المستعين على قبول الصلح، والتنازل عن الخلافة طائعا أو مكرها.

أصبح المعتز خليفة سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦م والتف حوله القادة الترك، لأنهم رأوا فيه الشخص المناسب لهم فى الظروف الحالية، فجاءوا به إلى السلطة، وسيطر بايكباك (زعيم الأتراك) على الأمور، مستندا إلى خبرة الحسن بن مخلد بن الجراح.

كما وصلت سطوة وصيف وبغا حدا كبيرا من الإعانات للخليفة، لدرجة أن المعتز كان يتمنى التخلص من بغا والقادة الترك، ولذلك قام بدعم فرق المغاربة والفرغانيين. وقد نجح المعتز فى التخلص من بغا بقتله وحرق جثته ومصادرة أمواله.

ولكن حاجة المعتز إلى المال، وقفت حائلا بين الخليفة المعتز وبين كسب الجند والأتباع، وذلك لخلو خزائن الدولة وقتذاك. وهذا الإفلاس المالى الذى عانته الدولة، يعد نتيجة طبيعية لانشغال القادة العسكريين بتثبيت مراكزهم السياسية، وتنازع الفرق العسكرية. مما أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية حتى قلّتْ واردات الدولة. ولما ثار الجند مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر، أرسل الخليفة وصيفا لتهدئتهم، فنشبت معهم مشادة انتهت بقتله.

وكانت نهاية الخليفة المعتز المؤلمة خير دليل على طغيان الجند وقادتهم وسوء أدبهم وسلوكهم، حيث سُحِلَ من رجله وضُرِب بالدبابيس، حتى تمزقت ثيابه، وأوقف فى الشمس، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر. ثم تنازل عن الخلافة بعد أن ضربوه ولطموه، وسُجِنَ ومات فى السجن. كما استطاع الأتراك قتل الوزير أحمد بن إسرائيل، كما قتل زعيمى فرقة المغاربة: محمد بن راشد، ونصر بن سعيد.

محاولة جدية للإصلاح:

لم يقبل المهتدى بالله أن يَلِىَ منصبَ الخلافة إلا بعد أن يتنازل المعتز علنا، مما يدل على احترام الخليفة الجديد لهيبة الخلافة وشرعية السلطة. كما أراد المهتدى أن لا يكون للقادة الأتراك فضل فى تنصيبه. مما يبين أنه خطط لجعل الخلافة قوة فعالة، غير واقعة تحت نفوذ الطغمة العسكرية التركية.

فلقد أدرك المهتدى بأن ضعف مؤسسة الخلافة يكمن فى وجود حفنة من القادة العسكريين الطموحين الذين يمثلون كتلا عسكرية متنازعة؛ ولذلك عمل المهتدى بالله جاهدا على تخليص الخلافة وإدارة الدولة من طغيان القادة الترك، مستغلا حقد الجند وصغار الضباط على القادة الكبار، الذين كانوا يستغلونهم للحصول على امتيازات وأموال دونهم. وقد ثار الجند فى سامراء وبغداد؛ مما أتاح فرصة طيبة لكى يضرب الخليفة ضربته، ويتخلص من القادة، ويستعيد مكانته؛ مطمئنا إلى تعهد هؤلاء الجند بحماية الخليفة وقتل كل من يعترض على إجراءاته.

وقد رأى المهتدى أن من الأصوب ضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض. فاتصل بالقائد بايكباك وأغراه بالامتيازات إن هو قتل موسى بن بغا ومفلحا وغيرهم. ولكن بايكباك أدرك نوايا الخليفة وأخبر جماعته بالأمر، ولذلك عجل الخليفة بقتل بايكباك متخلصا من خطره. وعمل على التقرب من رجال الدين ليقَوِّى مركزه بهم، فى صراعه ضد القادة العسكريين، كما اهتم بتقوية فرقة (الأبناء) وجمع حوله فرق المغاربة والفراغنة، وبعض الجند الأتراك المتذمرين.

واستمرارا من المهتدى فى سياسته لاسترداد هيبة الخلافة، نرى - كما روى اليعقوبى - أنه: «جلس للمظالم ووقّع بخطه، وقَرَّبَ الفقهاء، وكان يقول: (يا بنى هاشم دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز، فأكون عليكم مثله فى بنى أمية)، وتقلل من اللباس والفرش».

كما واجه المهتدى شغب الأتراك بكل قوة، وقد تبين ذلك في حديثه الشديد اللهجة لموسى بن بغا وأصحابه، الذى جاء فيه :

«والله لئن سقط من شعرى شعرة ليهلكن بدلها منكم، أو ليذهبن بها أكثركم. أمَا دين؟ أمَا حياة ؟ أمَا تستحيون ؟ كم هذا الإقدام على الخلفاء والجرأة على الله عز وجل وأنتم لا تبصرون؟».

فلما لم يرتدع الأتراك وتطاير شرهم، أعلن الخليفة إباحة دماء الأتراك وأموالهم قائلاً: «يا معشر الناس انصروا خليفتكم». لكن خوفَ العامة من الجند، وتخاذلهم عن القتال بجانبه، وانسحاب الجند الأتراك من جانبه وانضمامهم إلى أصحابهم، أدى إلى هزيمة المهتدى، وخلعه قبل موته، ومبايعة أحمد بن المتوكل الذى لقب بالمعتمد على الله سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠م.

تقييم سياسة المهتدى بالله :

والحق أن المهتدى بالله سعى بجهد جهيد لاستعادة هيبة الخلافة ومركزها. وألزم نفسه سُلوكا جادا، بعيدا عن اللهو والبذخ. ولكن الطغمة العسكرية، وتطورات الأحداث التى لم يتوقعها، وقفت حائلا دون مبتغاه. إذ تَحزَّب عليه الترك، كما وقعت في العراق العربي ثورةُ الزنج سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م، وقامت حركات الخوارج فى الجزيرة، وثارت قبائل الشام وامتنعت عن دفع الضريبة للخليفة، مما حال بين الخليفة وبين ما يرجوه من إنهاء سيطرة العسكريين الأتراك.

ورغم فشل المهتدى فى مواجهة عبث القادة الطامحين، إلا أن محاولاته هذه، نبهت الأذهان إلى خطورة الوضع. وأصبحت النفوس مهيئة لسماع الدعوة لإصلاح الحال.

استطاع الأمير العباسى أبو أحمد الموفق، فيما بعد، أن يسيطر على قيادة الجيش، فعادت القيادة مرة أخرى للعباسيين ودعا الأمير الأتراك - كما سنرى - ليكونوا موالى ومصطنعين للخلافة، كما كانوا فى عهد المأمون والمعتصم والواثق.

انتقل مركز الخلافة إلى بغداد، وتعاقب على الحكم خلفاء أصبحوا بحق يحكمون ويديرون مؤسسات الدولة، ويموتون مَوْتا طبيعيا، بعيدا عن الاضطهاد والتآمر. حيث أعقبت فترة التسع سنوات الحرجة (٢٤٧ - ٢٥٦هـ)، فترة ازدهرت فيها الخلافة، وانبسط نفوذها على إدارتها وأقاليمها واستمر الحال كذلك نحو أربعين سنة حكم فيها ثلاثة خلفاء فقط.

مآخذ على الأتراك:

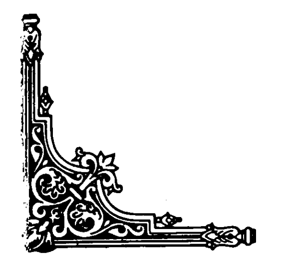
مما يؤخذ على الأتراك، الذين ظهروا أواخر العصر العباسى الأول أنهم لم يعملوا على تأليف قلوب الناس، وجمعهم على محبتهم، بالتودد إليهم، وحُسْنَ معاملتهم. بل سلكوا مسلكا مغايرا. ففر منهم الناس، وانفضت القلوب من حولهم وهى حانقةٌ عليهم، وشُحِنَتْ النفوس ضدهم بالمرارة والثورة على تصرفاتهم فى البلاد؛ لأن الأتراك اغتروا بقوتهم وتعالوا على الناس، واستهانوا بحقوق الرعايا فى ولايات الدولة وأقطارها. وكان من الطبيعى ـ والحال هكذا ـ أن تقوم الثورات وتكثر القلاقل والفتن.

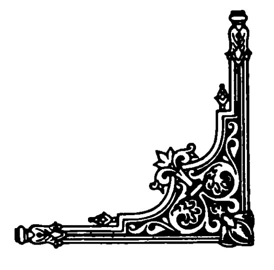
والخلاصة أن سياسة الاستعانة بالأتراك فى الجيش، وتفضيلهم فى المناصب العالية فى الدولة، حملت العرب على الانصراف عن تأييد العباسيين، وخاصة بعد أن تدهور شأنهم، وحرموا من الأرزاق التى كانت لهم، ولم يعد لدى هؤلاء العرب القوة التى يستطيعون بها استعادة سلطانهم، لتفرقهم. فعرب الشام وعرب مضر وعرب بلاد المغرب، كل من هؤلاء كان حريصا على العمل لمصلحته الخاصة دون غيره، مما أدى إلى ضياع القضية التى كانوا يدافعون عنها. كما أن بقاء الأتراك على استبدادهم بالسلطة، كان نذيرا ـ إلى جانب عوامل أخرى ـ بظهور أعراض الضعف على الخلافة العباسية.



الفصل الخامس

الحياة الدينية وتياراتها في العصر العباسي





أولاً : موقف المعتزلة من الحركة العباسية قبل عصر المأمون :

فى سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠م استطاعت قوى الثورة العباسية القادمة من خراسان أن تحتل العراق والشام وتطيح بالدولة الأموية. والملاحظ فى تاريخ أغلب الثورات التى قام بها بنوهاشم أو دعاتهم فى الفترة الأموية، أنهـا كانت ثورات ذات شعارات عامة، منها الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه، والدعوة إلى الرضا مـن أهل البيت أو إلى «المنصور» الذى سيكون على يدية نهاية «أهل الجَوْر». وقد اتصفت الدعوة العباسية[١] بنفس الخصائص السالفة الذكر، فلم تبح باسم الإمام الذى تعمل من أجله، وهو تكتيك فوت على حكام بنى أمية الكثير من الفرص، إذ رفعت شعارات مختلفة فواجهت كل جبهة بالواجهة التى تلائمها. وبذلك جذبت إليها الكثير من المتذمرين من شيوخ القبائل العربية، والمستائين من العرب من أهل خراسان ومن السكان الأصليين، سواء كانوا ذوى ميول عباسية أم علوية أم خارجية[٢].

ومن المعروف أن الدولة العباسية اتخذت الاعتزال مذهبا رسميا للدولة منذ عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م). والحقيقة أن السنوات الأولى من الحكم العباسى شهدت تناقضات واضحة فى السياسة الدينية، بالرغم من أن الخليفة أبا العباس أظهر نفسه بأنه حامى الإسلام والحريص عليه، وأن داود بن على العباسى خاطَبَ جمعاً غفيرا بالكوفة قائلاً:

«لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس -رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ»[٣]. وإن المنصور أضفى على الخلافة أبهة دينية وأظهر نفسه بمظهر «سلطان الله فى أرضه»[٤].

---

(١) عن الدعوة العباسبة انظر : الطبرى تاريخ الرسل والملوك ، القسم الثانى ، الجزء الثالث (طبعة ليدن) ص١٩٣٨ وما بعدها. المؤلف المجهول نبذة من كتاب التاريخ ، (طبعة ليدن) ص ٢٥٠ وما بعدها ، اليعقوبى التاريخ ، (طبعة ليدن) ، ج٢ ، ص ٤٠٠ وما بعدها ، الدكتور فاروق عمر - الخلافة العباسية ١٣٢-١٧٠هـ (بالإنجليزية) الفصل الثانى.

(٢) فاروق، بحوث فى التاريخ العباسى ص ٧٣.

(٣) الطبرى ، نفس المصدر : ج١ ص ٣٢-٣٣ ، المسعودى - مروج الذهب (الطبعة الاوربية) ج ٦ ص٩٩.

(٤) الطبرى نفس المصدر ، ج١ ص١٠٧ ، ٤٢٦-٤٢٧ ، الأصفهانى ، الأغانى ج ١٨، ص ٥٢ ، المسعودى - مروج ج ٦ ص ٢٤٠ ، ابن عساكر - التاريخ الكبير ، ج ٢ ص ٣٢٠ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٤ ، ص ٩٩.

إلا أن العباسيين بعـد تجارب وتفاعلات مع آراء دينية مختـلفة قرروا تبنى مذهب أهل السنة والجماعـة، إذا صح لنا استعمال هذه الاصطلاحـات فى تلك الفترة المبكرة، وحاولوا كسب عدد كبير من أصحـاب الحديث والعلماء إلى جانبهم. وكان من الطبيعى أن يكون هناك رد فعل وأن تظهـر تكتلات دينية - سـياسيـة تعارض مجيء العبـاسيين للحكم من جهة أو تعارض سياساتهم الدينية من جهة أخرى. وسرعان ما تطورت هذه المعـارضـة[1] إلى فرق دينية متـبنيةً آراءَ ومصالحَ لفئات مخـتلفة. فثارت الراوندية فى خراسان والعراق، وثار مؤيدو العلويين فى خراسان والحجاز والعراق، وثار الخوارج فى خراسان وسجستان والجزيرة وعُمَان.

وهكذا كان على السلطة العباسية أن تتخذ إجراءات جديدة مناسبة لتحديد انتشار حركة المعارضة هذه. فزادت السلطةُ من تشبثها بمذهب «أهل السنة» مستعملة إياه سلاحا قويا ضد أعدائها وخاصة العلويين منهم، كما كرَّسَت محاولاتها لكسب الفقهاء والعلماء لتُثَبِّتَ مركزها الدينى فى نظر الناس.

فعلى الصـعيد الدينى حـاول العباسـيون بناء رأى عام إسـلامى يقف ضد الآراء الدينية الأخرى. وعلى الصعيد السياسى تميز هؤلاء الخلفاء الأوائل بسياستهم العنيفة تجاه العلويين والزنادقة؛ ولذلـك فيمكننا القـول بأن سياسة العـباسيين الدينيـة كانت تتمـيز بصفتين متداخلتين:

الأولـى : مساندة مذهب « أهل السنة » أو أصحـاب الحديث فى محاولة تثبيت أنفسهم أمام التيارات الدينية المتعارضة.

الثانـية : أن هذه المساندة الرسمية تعكس بصورة واضحة اهتمام الخليفة بالمحافظة على الكيان السيـاسى للخلافة العباسـية، وضمان استـمرار بقائه بأيدى العباسيين، وعدم خروجـه منهم إلى العلويين مثلا. خاصة إذا علمنا أن الكثير من العناصر فى هذه الفترة المبكرة من الحكم العباسى، سواء التى عارضت السياسة الدينية للعباسيين، أو عارضت السلالة العباسية نفسها، كانت إما علوية أو رفعت شعارات علوية من أجل تحقيق أغراضها.

والذى يهمنا هنا هو موقف من يُسَمَّوْنَ برواد حركة الاعتزال أى أصحاب «واصل ابن عطاء الغزال» و«عمرو بن عبـيد» من الثورة العباسية والسلطة العباسـية حتى خلافة المأمون (١٩٨هـ).

---

(١) عن حركة المعارضـة فى العصر العباسى الأول. انظر الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام ج ٣ ص٨٥ فما بعد، الدكتور عبد العزيز الدورى - العصر العباسى الأول ص ٧٧ فما بعد، الدكتور فاروق عمر - الخلافة العباسية (بالإنكليزية) الفصل الرابع

فلقد اتصل المعتـزلة بالعباسيين وعملوا لهم دعاةً ممهـدين لثورتهم. وبذلك كانت المعتزلة هى الواجهـة الدينية للحركة السياسيـة العباسية. ولكننا إذا رجعنا فـتعقبنا تاريخ حركة المعتزلة نجد أنها لم تكن متبلورة حتى تلك الفترة - نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى الهجـرى - كفرقة فلسفيـة دينية، وإنما كان الاعتزال فى بدايته عـبارة عن موقف سياسى محايد(١)، وقفهُ جماعة من المسلمين من تلك الحروب والفتن الأهلية الأولى فى تاريخ دولة الإسلام، وقـد تطور هذا المبدأ إلى ما يسمـى بمبدأ «المنزلة بين المنزلتين» وأن منزلة الشخص تعتـمد على مقدار عمله وسلوكه فى المجـتمع، وهذا بالتالى يؤهله لأى منصب من مناصب الدولة حتى منصب الخليفة(٢).

وبناء على هذا القـياس قَدَّر المعـتزلة مدى صـلاحية أى نظام مـن أنظمة الحكم. «فالسلطة تطاع إذا اتبـعت كتاب الله وسنة نبـيه وكانت عادلة، وتُقَـاوَم إذا فعلت عكس ذلك. والخروج على الحاكم والثورة عليه - فى رأى المعتزلة - مشروطٌ بتقدير الثوار بأن النجاح سيكون حليـفَهم لا محالة. فلا يجوز - فى رأى المعـتزلة- الخروج على الإمام الجائر إلا لجـماعة لهم من القـوة والمنعة ما يكفى لإزالة الجَـوْرِ، ولا يصلح إلا مع إمام عادل»(٣).

ولذلك يمكن القول أن المعتزلة كانوا يوافقون المعـتدلين من الشيعة العلوية وخاصة الزيدية وكذلك الخـوارج فى معـارضتهم للأمـويين. فالعبـاسيون هـم أنسب المرشحين إليهم؛ لأن العبـاسيين هاشميون، وأنهـم على الأقل قبل الخلافة لمَ يدَّعوا قـدسية ولا صفـات خارقة، ولهـذا يرى بعض المؤرخين أن المعتزلة هى الواجـهة العقـائدية للدعوة العباسية(٤).

وهناك من يرى بأن المعـتزلة استـغلوا الخلافة العـباسيـة لتحقـيق أهدافهم وليس العكس. أما البـروفيسور مـونتجومرى وات فـيرى(٥) «أن المعتزلة ربما رحـبوا بالدعوة العباسية حـينما سمعوا بها، بالرغم من أنه غير المحتـمِل أن يكونوا دعاة عباسيين وذلك لاختلافهم فى الرأى مع ما بثه أبو مسلم».

---

(١) نللينو : بحوث فى المعتزلة ترجمة عبد الرحمن بدوى، ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٧٦.

(٣) الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ٤ ص ٤٤٦ ومابعدها.

(٤) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٧٧.

(5)Watt . The Palitical Attitudes for Muitazilah (J.R.A.S.) 1963 , P.54.

أما البروفيسور كلودكاهن (Cahen, Claude) فيرى فى الدعوة العباسية «رغبة عميقة إلى تطبيق الاسلام . . واندحار الفكرة القائلة بارتباط الإسلام بجنس متحكم واحد هو (الجنس العربى)»[1].

وعلى الرغم من أن البروفيسور كلود كاهن يعترف بوجود متطرفين فى الحركة العباسية، إلا أنه يقول بأن عقيدتهم لم تكن هى القوة المحركة للثورة .

أما الجذور التاريخية لاصطلاح المعتزلة فتدل على موقفهم الحيادى من الفتن الأهلية. فلقد كان واصل بن عطاء[2] «أول من أظهر القول «بالمنزلة بين المنزلتين»، وهو أن الفاسق ليس بمؤمن ولا بكافر»[3]. واعتزل حلقه درس الحسن البصرى فقال عنه: «اعتزلَنا واصل» فسُمِّىَ هو وصحبة بالمعتزلة.

وقد أطلقت كلمة المعتزلة لأول مرة سنة ٣٥هـ على جماعة من الناس لم تر مبايعة على بن أبى طالب، ولم توافق على خلافة عثمان بن عفان -رضى الله عنهما، ومنذ ذلك التاريخ عُرِفَ الاعتزال فى المجال السياسى والفكرى والكلامى.

وفى إعلانه القول «بالمنزلة بين المنزلتين» يقرر أن أحد الفريقين المتنازعين فى معركة الجمل مخطئ دون أن يعينه. كما لم يتخذ قرارا فى الفتنة التى أدت إلى مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث أشكل عليه أمره فأرجاه إلى عالمه .

وهكذا فقد أوضح واصل بن عطاء وجهة نظره الحيادية فى المعترك السياسى وتفرغ للعلم والعبادة مع أصحابه، «وهذه هى سبيل أهل الورع من العلماء أن يقفوا عند الشبهات»[4]. ولما استقر واصل فى البصرة، وكَوَّنَ حلقته المشهورة بدأ يرسل البعثات والدعاة إلى أرجاء العالم الإسلامى، للدفاع عن مبادئ الإسلام ضد الدهرية والمانوية وغيرها.

والمعروف عن واصل نفسه أنه قبل أن ينضم إلى حلقة الإمام الحسن البصرى كان تلميذا لأبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية، كما اتصل بمحمد الباقر كذلك.

---

(١) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٧٨-٧٩.

(٢) واصل بن عطاء هو أكبر شيوخ المعتزلة ، ورائد من رواد علم الكلام. ولد فى المدينة المنورة سنة ٨١هـ، ودرس على يد أحد علمائها ، ثم انتقل إلى البصرة وتردد على مجالس الإمام الحسن البصرى وحضر عليه إلى أن اختلف معه فى مسألة مرتكب الكبيرة، وقال واصل بالمنزلة بين المنزلتين. ومن كتبه : الخطب فى العدل والتوحيد ، والسبيل إلى معرفة الحق ، وكتاب معانى القرآن ، وكتابه المنزلة بين المنزلتين. وقد توفى سنة ١٣١هـ/٧٤٨م.

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥٢.

(٤) النوبختى : فرق الشيعة ص ١١، والخياط : الانتصار ص ٩٧ ومابعدها، والشهرستانى : الملل والنحل ١/ ٦٥.

والمعروف أن العباسيين كانوا يقربون الفقهاء والمحَدِّثين ليكسبوهم إلى جانبهم، بدلا من أن ينحازوا إلى جانب الذعوة العلوية أو غيرها أولاً، ثم ليؤكدوا الصبغة الدينية الشرعية للخلافة العباسية ثانيا[١].

فلقد حاول الخليفة أبو جعفر المنصور أكثر من مرة أن يغرى أو يقنع عمرو بن عبيد - أحد علماء العصر الأتقياء - بإشراكه في إدارة الدولة. ولكن عمرو بن عبيد رفض بإصرار قائلاً للخليفة المنصور : «ارفع عَلَمَ الحق يتبعك أهله»، وكان تعليق المنصور على ذلك بقوله: «شُغِلَ والله الرجل بما هو فيه عما نحن فيه» يدل على اهتمام عمرو بن عبيد بالمسائل الفقهية أكثر من السياسية. كما أن هناك روايات أخرى تبين المواعظ الشديدة اللهجة التى كان يوجهها عمرو بن عبيد للخليفة أبو جعفر المنصور، كلما استدعاه للبلاط أو التقى به فى إحدى زياراته للبصرة[٢].

على أن موقف عمرو بن عبيد من المنصور لا يمكن وصفه بأنه موقف داع عباسى من نظام حكم عَمِلَ من أجل إقامته. وحينما كان المنصور يجابه تَحَدى محمد النفس الذكية شك فى ميول عمرو بن عبيد إلى الثائر العلوى[٣]، فأراد أن يعرف رأيه فأجابه عمرو: «لو قلدتنى الأمة أن أختار لها رجلا ما وجدته».

ثم سأله الخليفة المنصور ثانية عن رسالة تسلمها من العلويين فأجابه عمرو بن عبيد بأنه تسلم رسالة من العلويين ولكنه لا يرى الثورة على السلطان. فقال المنصور «أجل ولكن تحلف لى ليطمئن قلبى» قال عمرو «لئن كذبتك تَقَية لأحلفن لك تَقِية». واستمرت الصلة بين الخليفة المنصور وعمرو بن عبيد حتى توفى عمرو فحزِنَ عليه المنصور حزنا شديدا ورثاه[٤].

ولكن إذا كان المنصور حاول أن يكسب عمرو بن عبيد فإنه عمل مثل ذلك مع غيره من المحَدِّثين وأهل الدين والعلماء، مثل مالك بن أنس، والليث بن سعد، والأوزاعى، وأبى حنيفة، والإمام جعفر الصادق وغيرهم كثيرون، وقد نجح فى كسب بعضهم وفشل مع البعض الآخر[٥].

---

(١) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٨٢-٨٣.

(٢) عن هذه اللقاءات انظر البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٥٤٦، الطبرى : تاريخ الرسل (ط. ليدن) ٣/ ٢٠٨ ، المسعودى : مروج ٦/ ٢٠٧ ، وابن قتيبة : عيون الأخبار ١/ ٥٦ والقزوينى : آثار البلاد.

(٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار ١/ ٢٠٩ ، وابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/ ٨٥ ، والخطيب : تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٦-١٦٩ جـ ٣ ص ٢٠٨.

(٤) ابن خلكان : وفيات ٢/ ١٠١ ، وياقوت : المعجم / ٤٧٩٤.

(٥) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٨٥.

ولما أصبح الراوندية خطرا على الدولة قابلهم المنصور بالقوة، وهذا يؤكد استمرار ميزة المرونة السياسية عند المنصور فى النواحى الدينية[1].

ولقد استمر الخلفاء العباسيون بعد المنصور، فى اتباع نفس السياسة الدينية محاولين تأكيد الصبغة الشرعية للخلافة العباسية. فلم يتهاون «الخليفة المهدى» العباسى (١٥٨ -١٦٩هـ) فى مطاردة الملاحدة والمرتزقة والدهريين والمانوية، كما لم يتهاون مع المعتزلة والقَدَرية[2] . ومع ذلك اتُّهِمَ زورا وبهتانا بالقدرية وهو الأمر الذى نفاه الخطيب البغدادي[3]، الذى علم من مصدر يثق به أن الخليفة لم يتكلم بالقَدَرِ أبدا.

وفى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) قُتِلَ أو هُدِّدَ بالقتل أشخاص متعددون نظرا لآرائهم حول خلق القرآن[4]. ويذكر الجهشيارى[5] أن العتابى - هو كاتب معتزلى- هرب إلى اليمن خوفا من الرشيد. كما سجن الرشيد بشر بن المعتمر، ومنع الجدل وحدد نشاطات المتكلمين فيه. وفى البصرة قُطِعَتْ يد الزاهد المعروف باسم عيسى الطبرى، بأمر من الوالى محمد بن سليمان العباسى [6]. وكل هذه الحوادث التاريخية تؤكد أن الخلفاء العباسيين لم يكونوا معتزلة، وأن الثورة العباسية لم تكن هى الواجهة السياسية لحركة كانت المعتزلة واجهتها الدينية [7].

وصفوة القول أن هناك حقائق هامة من الضرورى التأكيد عليها وهى[8]:

أولاً: أن تاريخ المعتزلة - كباقى الفرق الإسلامية الأخرى - تأثر بالخصومات السياسية والعقائدية على نفس الطريق التى تأثر بها تاريخ الإسلام السياسى فى صدره الأول.

ثانيا: أن موقف المعتزلة السياسى موقفٌ غامض؛ ولذلك اختلف المؤرخون المحدَثون فى تفسير منشأ حركة الاعتزال. كما أن الروايات التاريخية عن موقفهم السياسى قليلة ومرتبكة أحيانا.

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل جـ٧ ص ٥٠٥ (ط دار المعارف ، ١٩٦٦).

(٢) الطبرى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٣٤ (ط. ليدن) والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٢ ص٣٠١.

(٣) الخطيب البغدادى تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٣٠١.

(٤) الخطيب البغدادى : نفس المصدر جـ ٧ ص ٥٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ص٢١٥، والسيوطى: تاريخ الخلفاء ص ١٨٨.

(٥) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٩٠.

(٦) ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ص٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦.

(٧) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٨٦.

(٨) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٨٦-٨٧ وحواشيه.

ثالثـــا : أن الثورة العباسـية كانت حدثا كبيرا فى تاريخ الإسـلام سبَّبتْ أزمة فى الفكر السياسى الإسـلامى. فقد كان على الفرق المخـتلفة إعادة النظر فى موقفها السياسى بعد هذه الثورة . فإما أن تؤيدَ النظام الجديد أو تعارضَه. وفيما يتعلق بالمعـتزلة فإنها فى هذه الفترة لم تكن فرقة لهـا كيانها الخاص بها، بل وآراؤهـا المتبلورة المعـروفة بها، وإنما كـانت تعبـيرا عن الشـعور السـياسى لفـئة مـن فئـات المجتـمع الإسلامـي . وقد مـثَّل هذه الكتلة شخصيات سياسة ودينية مخـتلفة وقفت على الحياد فى المعترك السياسي، وجـاهدت من أجل إعلاء كـلمة الإسـلام، ودحض أعـدائه فى المعتـرك الدينى(١).

وأخيـرا فإن قلة المعلومات الموجـودة فى مصادرنا وتفـرقها يجـعل دراسة الموقف السياسى للمعتزلة الأوائل أمرا شاقا غامضا غير متكامل.

ثانيا: المعتـزلة وأثرهم فى الحيـاة السيـاسيـة منذ عصر المأمون حتى نهاية عصر المتوكل: (١٩٨-٢٤٧هـ):

لم يكن الخليفة المأمون فى الواقع (١٩٨-٢١٨هـ)، صاحبَ مذهب الاعتزال، إذ نشأ هذا المذهب كما ذكرنا على يد عدد كبير من المتكلمين فى البصرة وبغداد منذ زمن.

لذلك كان من الطبيعى أن ينهض جمهور من العلماء لمناهضة فكر الجَبْرية، القائل بأن الإنسان مـجبر فى أفـعاله وتصرفاته ولا اخـتيار له فـيها. نظرا لما يدعـو إليه ذلك المذهب من الركون وترك العمل، مادام كل شـيء بأمر الله، ولادخل للإرادة الإنسانية فيـه، هذا فضـلاً عن مبـالغاتهم فى تأويل بعض آيات الـقرآن، التى تتـحدث عن الله وصفـاته سبحانه. ثم ضـعفت هذه الطائفة، وظهر عـلى أثرها طائفة المعتزلة، بعـقائد تجمع فكر كل من القدرية والجبرية. فوافقت الطائفة الأولى (القَدَرية) فيما قالته من أن الإنسان حـرٌ فيما يفعل، كما أخذت برأى الطائفة الثانية (الجَبْرية) فى نفى الصفات عن الله وفى القول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى عياناً لأن ذلك يدل على التجسيم.

وقد انتظمت أصول الاعتزال فى صدر العصر العباسى الأول . حيث أخذ الخلفاء يناصرون الحـركة العلمية. لـكن شأن المعتزلة لم يرتـفع إلا فى عهود المأمون والمعـتصم والواثق العباسيين (من ١٩٨إلى ٢٣٢هـ).

---

(١) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ٨٦-٨٧.

والحق أن الخليفة المأمون كان محبا للعلم ومجالسه، وكان يميل إلى الحرية فى التفكير فى إطار الدين؛ لذلك كان مذهب الاعتزال قريبا إلى نفس المأمون العباسى، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل. فقربهم منه حتى صاروا ذوى نفوذ فى عصره. وقد تناول مسألة شيوع مذهب الاعتزال بين الناس فريقان: أحدهما: رأى يقول أن الناس أحرار فى اعتقاد ما يرون، والدولة لا شأن لها بذلك، وعلى رأس هذا الفريق «يحيى بن أكثم»، قاضى القضاة، الذى قال للمأمون حينما لعن«معاوية»:«الرأىُ أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تُظْهِر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق، فإن ذلك أصلح فى السياسة».

والفريق الآخر : رأىَ حملَ الناس على اعتناق ما ثبت صحته عندهم. وقد أدى بهم هذا الرأى إلى أن تتخذ الدولة الاعتزال مذهبا لها، كما أن الإسلام دينها الرسمى، وعلى رأس هذا الفريق «أحمد بن داود»، الذى وَلِىَ منصب قاضى القضاة بعد عزل «يحيى بن أكثم» سنة ٢١٧هـ. وكان ذلك مما ساعد على رجحان رأيه وضعف حجة الفريق الأول.

وقد تأثر المأمون برأى المحيطين به وأبرزهم ثمامة بن أشرس[(١)] على الرغم من قوة شخصيته، فضلاً عن أنه كان يميل إلى إرغام الناس، على الأخذ بما يعتقد هو أنه الحق فى مسائل الدين، وقد شجعه على ذلك المعتزلة الذين تغالوا فى القول : «بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ورأى كثير منهم أن المؤمنين هم فقط معتنقوا المذهب المعتزلى . فلما انحصر الجدل فى عهده فى مسألة « خَلْق القرآن »، القائمة على أقوى عقائد المعتزلة، وعن التوحيد، وعدم تعدد صفات الله، ورأى المأمون أن هذه مسألة مهمة كل الأهمية فى الإسلام، ومن ثم تمسك بوجوب القول « بخلق القرآن».

صار المأمون يتكلم فى مسألة « خلق القرآن » فى مجالسه الخاصة حتى سنة ٢١٧هـ التى ظهر خلالها القول « بخلق القرآن » للناس. وظل الحال كذلك حتى غير خطته سنة ٢١٨هـ، بأن عمد إلى القوة ليحمل الناس على ذلك، واعتبره فرضا عليه. فأرسل - وهو فى مدينة الرقه على نهر الفرات - لواليه على بغداد « إسحق بن إبراهيم ابن مصعب » يطلب منه امتحان الناس وبصفة خاصة القضاة والمَحدِّثين، فى مسألة القرآن، كما أمره أن يأخذ على القضاة عهدا بألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن.

---

(١) سنفرد له حديثا لأهميته وتأثيره الشديد على المأمون العباسى .

كذلك أمر المأمون واليه على بغداد، أن يطلب بعض مشاهير العلماء والفقهاء، فلما قدموا عليه، وكان منهم أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، أُرسِلُوا مُقَيَّدين بالإغلال إلى المأمون وهو فى طرسوس، بجنوب آسيا الصغرى، حيث كان المأمون يتأهب وقتها لغزو الروم، لكن والى الرقه ما لبث أن أمر بإعادتهما إلى بغداد حين بلغه نبأ وفاة المأمون. وأثناء عودتهما مات « محمد بن نوح » فانفرد « أحمد بن حنبل » برفع لواء المعارضة ولم يخل سبيله.

ثمامة بن أشرس المعتزلى

كان أبو معن ثمامة بن أشرس النميرى [1] وراء إقناع الخليفة عبد الله المأمون بالفكر المعتزلى، عندما كان واليا لأبيه على خراسان، وبهذا يكون ثمامة قد نجح بالتمهيد إلى الانقلاب الفكرى الذى تبوأت به أفكارُ الاعتزال الصدارة حتى نهاية خلافة الواثق، وتعرض ما يخالفها من أفكار إلى المساءلة والملاحقة فى بعض الأحيان. واستفاد الاعتزال من هذه الصدارة فى أن يلعب دورا مؤثرا فى التمهيد لظهور فلسفة وعلوم متأثرة فى الإسلام بالعراق، وفى أصقاع الدولة العباسية البعيدة. ومن الأمور الخطيرة الأخرى التى تروى عن ثمامة، ويتفق عليها المؤرخون كافة، إنه كان مستشار المأمون الخاص، يعود إليه بالاستشارة فى تعيين أو عزل الوزراء والولاة، بينما كان يرفض هو نفسه منصب الوزارة الذى اختاره له المأمون. ولم يكن موقف ثمامة الرافض لمنصب الوزارة أو غيره من المناصب جديدا على شيوخ الاعتزال، فقد سبق أن رفض « عمرو ابن عبيد الباب » طلبَ المنصور فى توليه الوزارة، قائلاً له : « ارفع علم الحق يتبعك أهله » كذلك كان عمرو بن عبيد قد رفض أن يكون مستشارا خاصا للمنصور، الذى خلع خاتمه وقال له : « ولِّ ما شئت، واعزل من شئت » لكن الذى رفضه عمرو عن قناعة قبله ثمامة عن محبة فى القرب من السلطة، أو لغاية ترتيب أمور تقديم الاعتزال على المذاهب الكلامية الأخرى.

أما رفضه لمنصب الوزير فله معان عدة، منها أن الاستشارة والمنادمة منصب خَفِىٌّ ودائم، بعيدا عن الانقلاب على وزير أو قاضى قضاة، وأخطاء الدولة لا تُحْسبْ على مستشار أو نديم، مثلما تحسب على مراكز السلطة العليا. فمصير الوزراء البرامكة وآل

---

(١) راجع مقال رشيد الخيون الباحث العراقى وعنوانه : ثمامة بن أشرس المعتزلى وأثره فى تحول المأمون العباسى والدولة من تحريم الكلام إلى مذهب الاعتزال ، منشور بجريدة الحياة اللندنية ، العددين ١٢٣٤٦ أو ١٢٣٤٧ بتاريخ ١٤ و ١٥/١٢/١٩٩٦م.

سهل كان ماثلا أمام ثمامة، وهو يعلم أيضا بأن هيبة المنصب الحكومى مأخوذة لا معطاة من قِبَلِ الناس فما معنى أن يكون وزيرا وهو الذى يُنَصِّبُ ويعزل الوزراء؟. وليس بالضرورة أن يكون ثمامة زاهدا فى المنصب كما هى حال عمرو بن عبيد أو الإمام أبى حنيفة النعمان، لمخافتهما من عدم تحقيق العدل، ومحاولة الدولة فى أن تحتمى بهما وتجعلهما واجهة نقية لها.

عند البحث فى تاريخ حياة وفكر ثمامة بن أشرس، نجد أن ذاكرة المؤرخين أسهبت فى تسجيل تفاصيل حياته وشَحَّتْ فى تسجيل فكره وفلسفته. والسبب أنه كان ظِلَّ المأمون الذى لا يفارقه. وعدم اتصال ثمامة بالناس أدى إلى قلة فكره المبثوث بينهم، كونهم موضع التحفيز على إنتاج الأفكار وتداولها فى الطريق أو السوق أو المسجد الجامع. وكان من الذين اتسموا بغزارة أفكارهم، ويصف القاضى عبد الجبار حالة ثمامة الفكرية هذه بقوله: «وله مذاهب لم تنتشر لقلة اختلاطه بالعامة»[1].

ينحدر ثمامة بن أشرس من البصرة، التى فارقها إلى خراسان، ثم إلى بغداد، يتبع المأمون أينما حل وأقام. وقد توقف البلخي وغيره فى أمره بين أن يكون مَوْلى أو عربى الأصل بقوله « نُميرِى لا أدرى مَوْلَى أو صَلْبية » [2].

ويصف عبد القاهر البغدادي ثمامة بأرذل الأوصاف ويقول فيه:

«وَلَدُ زنا لأنه كان من الموالى، وكانت أمه مسْبية، وَوَطْءُ من لا يجوز سبيها على حكم السبى حرام (إشارة إلى تحريم ثمامَة لسبْى النساء والذرارى)»[3]. ويذكر الخطيب البغدادي أصله البصري وسعيه إلى الخلفاء قبل المأمون فيقول عنه أنه« أحد المعتزلة البصريين ورد بغداد، واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء»[4].

كذلك اختلف المؤرخون حول شخصية ثمامة بين مادح وذام. فقد وصفه الشهرستانى فى «الملل والنحل» بأنه كان «خليع النفس»، ووصفه العسقلانى فى «لسان الميزان» بأنه «من رؤوس الضلال وينتقص من الإسلام ويستهزئ به»، ويقول عنه الإسفراييني فى «التبصير» (أنه كان ملحدا). أما شمس الدين الذهبى فى « تاريخ الإسلام » فيصفه بأنه (آفة على السنة وأهلها). ويرد ثمامة ساخرا من المثالب التى طالته فى حياته وبعد مماته فيقول: «الشهرة بالشر خير من أن لا أعرف بخير ولا شر»[5].

---

(١) فضل الاعتزال وطبقات المعتزله تحقيق فؤاد السيد، (الدار التونسية) ص ٢٧٥.

(٢) فؤاد السيد (محقق) : المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٣) الفرق بين الفرق (دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧) ص ١٥٨

(٤) البغدادي : تاريخ بغداد (دار الكتاب العربى، بيروت) جـ ٧ ص ١٤٦.

(٥) الجاحظ : الحيوان (مكتبة البابى الحلبى، مصر) جـ ٢ ص ٩٠.

أما الذين أحسنوا القول فيه فَجلُّهم من المعتزلة من معاصريه ومن الطبقات التى تلته. فعن بلاغته يقول معاصره الجاحظ: « كان أبلغ من حَسَّنَ الأفهام مع قلة عدد الحروف، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك»[1].

وقال النديم فى حقه: « من جلة المتكلمين من المعتزلة، كاتب بليغ بلَغ من المأمون منزلة جليلة، وأراده على الوزارة فامتنع» [2].

ويقول القاضى عبد الجبار مبررا التصاق ثمامة بمجالس الخلفاء[3].

اتصل ثمامة بهارون الرشيد، ويُرجع بعضُ المؤرخين سبب هذا الوصل إلى تأثره بما أصاب أحد المتكلمين البصريين ويدعى عيسى الطبرى، من قِبَلِ والي البصرة محمد ابن سليمان (من عهد المنصور إلى عهد الرشيد)، وكان قد بتر يده . وقد أقسم ثمامة على الإطاحة بهذا الوالى على رغم قرابته من الرشيد، وذلك بقوله : « قتلنى الله إن لم أقْتُلْه » وفعلا تمكن من ذلك، فكانت نهاية الوالى على يده، بعد أن ملأ « أذنه (الرشيد) علما وأدبا وظرفا. لكن هذه العلاقة التى بدأت بروح المؤامرة والانتقام انتهت بحبس ثمامة حبسا انفراديا حيث يقول: «كنت فى الحبس وحدى» سنة (١٨٦هـ).

ويعزى الطبرى سببَ ذلك إلى « كذبه فى أمر أحمد بن عيسى بن زيد»[4]، فسجنه عند سلام بن أبرش (مسرور الخادم سجان الرشيد المعروف). وقد أمره أن يضيق عليه، ويدخله بيتا ويطين عليه، ويترك فيه ثقبا. لكن السجان تواطأ مع ثمامة، فلم ينفذ الأوامر كاملة. وبعد تصحيح ثمامة لآية كان مسرور قرأها خطأ من المصحف، وهو على باب السجن، غضب منه ونَفَّذَ الأوامر كما هى قائلاً له : « قد قيل لى إنك زنديق ولم أقبل » ووصف ثمامة هذا الحادث للمأمون فى ما بعد بقوله: «جَهدُ البلاء عالم يجرى عليه حكم جاهل ». ومن يوميات سجن ثمامة يروى الجاحظ عنه: «كان فى الحبس جحر فأر وتلقاه جحر آخر، فيرى لكل واحد منهما وعيدا وصياحا ووثوبا . . حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلى سبيلى» وقد كتب للرشيد شعرا يستعطفه فيه :

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٨) جـ١ ص ١٠٦.

(٢) ابن النديم : الفهرست ، دار المسيرة ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) فضل الاعتزال ص ٢٧٥.

(٤) الطبرى : تاريخ الملوك والأمم ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، جـ ٦ ص ٤٧٣، ووالده هوعيسى بن زيد بن على ابن الحسين ، الذى ثار فى خلافة المهدي ومات مختفيا، وقد عاش أحمد وأخوه فى دار المهدى ، و بعد سنوات ثار فى خلافة الرشيد فطلبه.

ولـم تزل طاعتى بالغيب حاضرة

مـا شـأنها سـاعة غش ولا غـير

فـإن عفَوْتَ فشيء كنتُ أعـهـده

أو انتصرت فمن مـولاك تنتصـر

ومع أن رواية الطبرى تشير إلى أن سجنه كان بتهـمة سياسية، إلا أن المعروف أن الرشيد جرد حملة كبيرة شملت معظم المتكلمين من المعتزلة وغيرهم، مع بداية الانقلاب على البـرامكة، الذين كانوا يفـتحون مـجالسـهم للمناظرات الكلاميـة. وأن المتكلمين والمثقفين بشكل عـام يُعَدُّون من خاصتهم. والأمـر قد لا يعنى البرامكة سياسـيا فقط، بقدر ما يعنى الحد من الجدل والاختلال الفقهى والكلامى.

فالأسـباب التى أوردها المؤرخـون فى أمر البرامـكة لم تَبْد مقنعـة، لكن أيا من هؤلاء المؤرخين، السابقين أو المعاصرين منهم، لم يجعل للجانب الفكرى والفقهى دورا فى الأمر . أما علاقة سجن ثمامة بأمر البرامكة فتؤكده رواية النديم التى تفيد بأن سجنه كان « من أجل البرامكة » فهو أحد المقربين من جعفر بن يحيى، وكان قد مدحه بقوله: « كان جعفر أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتـمهل والجزالة والحلاوة، إفهاما يغنيه عن الإعادة»[1].

أما صـلته بالمأمـون فقـد جرى الحـديث عنها بشكل عـام، ونسـتـزيد من بعض التفاصيل التى تؤكد مركز ثمامة الكبـير وغير الرسمى فى الدولة، فَيُذكر أنه كان شاهدا على ولاية العهد للإمـام على بن موسى الرضا (لم يكن اسم ثمامة بين أسـماء الموقعين على محـضر ولاية العهد، كـما ورد عند القلقشندى فى صـبح الأعشى ج ٩/ ٣٩٢). وقد استشاره المأمـون فى الكبائر والصغائر من أمور دولته، منها استـشاراته فى أمر عمه إبراهيم بن المهدى «وأقـبل على ثمامة، قائلاً : إن من الكلام مـا يفوق الدرر، ويغلب السحر، وكلام عمى منه. .»[2] . وهو الذى أشار فى تعيين الوزير أحمد بن أبى خالد خلفا للأخوين سـهل، وأورد أحد الباحثين المعاصرين رواية دون الإشـارة إلى مصدرها التاريخى تقول : « قال أحمد بن (أبى) خـالد وزير المأمون لثمامة «كل واحد فى هذه الدار له معنى، إلا أنت لا معنى لك »، فتدخل المأمون قائلا : « إن له معنى فى الدار،

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ف ١٠٦.

(٢) القاضى التنوخى : الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجى ، (دار صادر بيروت) جـ ٣ ص ٣٣٤.

والحاجة إليه بينة، أشاوره فى مثلك هل تصلح أو لا تصلح»[1] . كذلك يؤكد الطبرى فى أحداث (٢٠٩هـ) دور ثمامة فى التعيين فى المناصب الخطيـرة : « قال المأمون لثمامة ألا تدلنى على رجل من أهل الجزيرة، له عقل وبيان ومعرفة، يؤدى عنى ما أوجهه إلى نصر بن شـبث (من المتمـردين فى عهده) «وحظوة ثـمامة الكبـيرة فى الدولة يعكســها خطاب أحد طلاب الحاجات بقوله له: «أنت إن شئت قضى فلان حاجتى»[2].

ويعلق ثمامـة على ذلك بقوله: « أنا قدرى ولم تبلغ قدريتى هـذا كله». وأخيرا نكتفى برواية الجاحظ فى كتابه «البخـلاء» التى تشير إلى احـتفال الناس بثمامة كمسئول من مسئولي الدولة الرسميين الكبار تُطلَبُ منهم الحاجات : « وكان ثمامة يفطر أيام كان فى الفساطيط ناس، فكثروا عليه، وأتوه بالرقاع والشفاعات».

ومن الملفت للنظر أن مـعظم المؤلفين المعـاصرين فى الخـلافة والوزارة العـباسـية تجاهلوا الروايات الكثيرة التى أفادت فى الكشف عن دور ثمامة المهم فى تحريك السياسة فى عهـد المأمون على رغم اعـتمـادها من معـاصرين للأحـداث كالجاحـظ، ومؤرخين معـروفين كالطبرى والمسـعودى والخطيب البـغدادى وغيـرهم، إضافة إلى دلالتـها على أحداث تدخل فى صلب الموضوعات التى بحثوا فيها.

ومن مهام ثمامة الاستشارية الأخرى خارج أحوال الدولة السياسية، استشارته فى أحوال المفكرين والأدباء، وتحديد من يستحق ومن لا يستحق منهم الحضور إلى مجالس المناظرات الخاصة، فـبواسطته عرَف أبو الهذيل العلاف طريقـه إلى المأمون وأمَّنَ له راتبا مناسبا، ومن أمثلة تزكيته للأدباء وأهل الاختصاص يذكر ابن خلكان فى ترجمته للُّغَوِيِّ أبى زكريا الفراء قولا لثـمامة جاء فيه : « فدخلت فأعلمت أميـر المؤمنين المأمون، فأمر بإحضاره لوقته، وكان سبب اتصاله به »[3].

وكان ثمامـة موفقا إلى حد كبـير فى مهمة التعـريف بالأعلام من المفكرين، فلم يتأخر صاحب إبداع عن مـجالس الدولة الفكرية. والروايات - على حد اطلاعنا - لم تفد بإهمال مـفكر أو متكلم ما، سواء كان متـفقا مع الاعتزال أو مخـتلفا، وتحديداً فى حياة ثمامة، أى قبل إعلان ما عرف بمحنة القرآن. كما وجدنا من الروايات ما يشير إلى

---

(١) عبد الحليم الجندى : أحمد بن حنبل ، إمام أهل السنة ، ص ٣٧٣.
(٢) البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٧ ص ١٤٧.
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان (تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت) جـ ٢ ص ٤١٩.

أن الطرف المناهض للاعتزال كان يرفض الجلوس فى المناظرات، بإفتاء من ممثليه بأن ذلك من الإلحاد.

ولكن على رغم مكانة ثمامة الكبيرة عند المأمون وبين أهل الفكر، فإن روايةً وردت فى «العقد الفريد» تفيد بأنه كان يتجاوز فى بعض الأحيان إلى أمور لا يسر المأمونُ تدخلَه فيها، وربما كانت مجالسته المفيدة والمريحة للمأمون جعلته فى مأمن من ضيقه ومَلله منه، تقول هذه الرواية: «عندما وافت المأمون الأموال كتب إلى ثمامة بن أشرس بثلاثمائة ألف، لتركه ما لا يعنيه».

أما أخبار ثمامة الأخرى كَنُكَتِه وخلْطه بين الجد والهزل ومداعباته لمدعى النبوة، تجعلنا نميل إلى تصديق الرواية المذكورة أو ما يشبهها، والتى أفادت بأنه كان يخرج عن الحدود إلى ما تعتبره مراسيم الخلافة وأخلاق الملوك تطفلاً.

ولا شك أن المنزلة الكبيرة التى حظى بها ثمامة من قِبَلِ رأس الدولة، أثارت حَسَدَ الآخَرين، فأخذت التقولاتُ طريقَها إلى آذان الخليفة. وبرواية أحد الوزراء أن المأمون وجه له لوما يُحَذِّره فيه من تجاوز الحدود حيث قال له: «بلغنى أنك تَنْتَحِلُنى أو تَتَبجَّحُ بى»(١).

وهذا الأمر قد يولد فينا الفضول إلى الحديث عن هؤلاء الحاسدين لثمامة على منزلته العالية عند المأمون، وبعضهم كان من أكابر العهد المأمونى. كقاضى القضاة يحيى بن أكثم، ورئيس الشرطة طاهر بن الحسين، والشاعر المشهور أبى العتاهية. فقد ذكرت الروايات أن ابن أكثم كان لا يود الدخول على المأمون وفى مجلسه ثمامة أو أى شيخ آخر من شيوخ الاعتزال. كذلك حصل أن عاب ثمامة على كلام ابن أكثم فى العشق عندما وصفه للمأمون، قائلاً له: « يا يحيى أنت بمسائل الفقه أبصر منك بين ثمامة ويحيى بن أكثم بهذا الباب، إنما عليك أن تجيب فى مسألة طلاق أو عن مُحرِمٍ يصطاد ظبيا، وأما هذه فمسألتنا» (٢). تعنى اعتبار أن ذلك يدخل فى اختصاص أهل الكلام والبلاغة، والفارق واضح بين وصف ابن أكثم المباشر للعشق بأنه: «سوانح تسنح للعاشق يُؤْثِرُها ويهتم بها، تُسمىً عِشْقا» وبين وصف ثمامةُ له بأنه: « إذا

---

(١) فصل الاعتزال ص ٢٧٣.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء، (تحقيق مرجليوث، مصر ١٩٢٧)، جـ ٥ ص ٢٧٠ وتاريخ بغداد جـ٧ ص١٤٧ (وردت مناظرة العشق فى مروج الذهب للمسعودى، بأنها حصلت فى مجالس الوزير يحيى بن خالد البرمكى، وليس فى مجلس المأمون، وكانت من دون مشاركة قاضى القضاة آنذاك يحيى بن أكثم.

امتـزجت جواهر النفوس بوصل المشاكلة نـتجت لُمَحُ نور ساطع، يستـضيء به بواصر العقل، وتهتز لإشراقه طبائع الحـياة، ويتصور من ذلك اللمح نور خاص بالنفس متصل بجوهـرها يُسَمّى عـشقا» . وكـان ثمامـة بليغـا فى وصفـه، فقـد غاص إلى أعـماق الموصوف، مسـتخدما لغة فلسـفية، بينما ظل ابن أكثم خـارج الموصوف، وكأنه يصف شيئا لا روح فيه ولا عاطفة. وقد كان المأمون متباهيا بثمامة وإجابته عندما قال له: «هذا وأبيك الجواب».

كذلك كانت علاقة طاهر بن الحسين (قائد جيش المأمون فى حربه مع الأمين، وقائد شرطتـه ثم واليه على خراسان) مع ثمـامة على غير وئام. فـثمامة يتعـمد تجاهل طاهر فى مجلس المأمون، وقد اضطر هذا إلى الشكاية من ثمـامة بقوله: «رفعنى أمير المؤمنين، وقد نَغَصَ علىَّ هـذا النُّمَيْرىُّ» وعندمـا استفسـر المأمون من ثمامـة عن سبب تجاهله لطاهر أجابه: «إنى لا أقوم لمخالف» ولعله يعنى بالمخـالفة مخالفة الاعتزال، أو أمراً آخر فى نفس ثمامـة وجماعته عليه، أما عن سـر إجلاله لأبى الهذيل العلاّف، الذى لاحظه المأمون، فقال عنه ثمامة: «إنه أستاذى منذ ثلاثين عاما».

وتلمذة ثمامة عند العـلاف لا تمنع فى أن يكون تلميذا لدى إبراهيم النَّظَّام أيضا، كما ورد فى «تبصرة الأدلة ١/ ٢٦١». أما علاقته بأبى العتاهية فكانت تشير إلى موقف عام اتخـذه الأخير من الاعـتزال، ولا تخص ثمـامة كشـخص أو كمنزلة خـاصة عند المأمون. وقد حدث أن انتقص أبو العتاهية المعـتزلةَ فى مجلس المأمون، عندما قال: «ما فى الناس أجهـل من القَدَرية». فرده المأمـون بقوله: «أنت ببـضاعتك أبْـصَر»، ويعنى بذلك باعه فى الشعر وقصورَهُ فى علم الكلام[1].

لقد كان ثمامـة مُقلا فى إبداعه الفكرى، منصرفا إلى استشـارة يطلبها المأمون أو نكتـة يشـرح بها صـدره. وقـد تمكن مؤرخـو الملل والنحل من لملمـة شـمل أفكاره، وصياغتها فى فرقة أطلقوا عليها اسم: «الفرقة الثمامية أو النُّمَيْرِية».

ومن أهم المسائل الكلاميـة والفلسفية التى انفرد فـيها ثمامة عن غيـره من شيوخ الاعتزال هى رأيه الخاص فى خلق الكون أو علاقة الكون بالذات الإلهية، وقوله فى «أن المتولدات أفعال لا فاعلَ لها، والمعرفة بالضرورة».

فيذكر ابن الراوندي في «فـضيحة المعتزلة» عن ثمـامة أنه كان يزعم أن «الله فعل العالم بطبـاع» وتعليق ابن الراوندي على هذا الرأي بقوله: «وهذا كفر لأن قـائله جعل

---

(١) تاريخ بغـداد جـ ٧ ص ١٤٦، وفضل الاعـتزال ص ٢٧٤، والعـقـد الفريد لابن عـبد ربه، (القـاهرة ١٩٤٠)، جـ٢ ص ٣٨٢.

ربه مطبوعا والمطبوع مُحدثٌ لا ينفك من أفعاله التي طبع عليها » لكن الشهرستاني يشير إلى أن ثمامة جعل الكون قديما بقدم الله[1].

ومن تفسير الشهرستانى لرأى ثمامة نفهم أن الأخير شذ عن الاعتزال فى هذه المسألة الرئيسية، فقد جعل ثمامةُ الكونَ واجبَ الوجود بغيره؛ لأنه يستمد هذا الوجوب من وجوب وجود الذات الإلهية، كونه مخلوقاً من طباعها.

وكانت وفاة ثمامة بن أشرس موضع خلاف بين المؤرخين. فالبغدادي فى« الفَرْق بين الفرَق»، (وعنه يروى ابن الجوزى فى «المنتظم»)، يقول أنه مات مقتولا فى سنة ٢١٣هـ أى قبل إعلان ما عُرِفَ بمحنة خلق القرآن بخمس سنوات، وكان قتله أثناء حجيجه إلى بيت الله الحرام بين الصفا والمروة، من قِبَلَ جماعة من بنى خزاعة، ثأرا لأحمد بن نصر الخزاعى الذى سعى فيه ثمامة عند الخليفة الواثق، وقُتِلَ فى محنة خلق القرآن.

وقد ترك ثمامة عددا من الكتب يذكر ابن النديم عناوينها فى الفهرست، وهى : كتاب الحُجَّة، الخصوص، العموم فى الوعيد، المعارف، جميع من قال بالمخلوق، الرد على المشبِّهة، المخلوق على المجبرة، نعيم أهل الجنة، والسنن.

أحمد بن حنبل وموقفه من فكر المعتزلة : سبقت الإشارة إلى أن الخليفة المأمون أمر واليه على بغداد، أن يطلب بعض مشاهير العلماء والفقهاء، فلما قَدمُوا عليه، وكان فيهم أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، أُرسِلُوا مقَيَّدين بالأغلال إلى المأمون وهو فى طرسوس، «بجنوب آسيا»، وكان المأمون وقتها يتأهب لغزو الروم. لكن والى الرقة مالبث أن أمر بإعادتهما إلى بغداد حين بلغه خبر وفاة المأمون. وأثناء عودتهما مات «محمد بن نوح» فانفرد «أحمد بن حنبل» برفع لواء المعارضة ولم يُخْلَ سبيله.

من هو أحمد بن حنبل ؟

هو أحمد بن حنبل بن هلال، الإمام أبو عبد الله الشيبانى الذُّهَلِى، ولد فى ربيع الأول سنة ١٦٤هـ، فى بغداد، وتوفى أبوه شابا، فتولته أمه[2]. ونَسبه عربى، وهو شَيْبانى فى نسبه لأبيه وأمه، وقد عرفت هذه القبيلة بالهمة والشجاعة والإباء وشدة الشكيمة والصلابة، وكان منها المثنى بن حارثة الشيبانى، القائد الإسلامى الفذ المعروف.

---

(١) الملل والنحل تحقيق محمد سيد كيلانى، (دار المعرفة، بيروت) جـ ١ ص ٧١.
(٢) الحافظ الذهبى، تاريخ الإسلام، ص١٠، ترجمة الإمام أحمد بن حنبل.

وقد ترك والدُ أحمد بن حنبل له عقارا ببغداد لا يقوم بأوَدِ الأسرة، فنشأ على الصبر والقناعة والكفاف.

وقد حفظ أحمد بن حنبل القرآن فى صباه وتعلم القراءة والكتابة، ثم اتجه إلى الديوان يُمَرِّنُ نفسه على تحرير الرسائل، ويقول عن نفسه: «كنت وأنا غُلَيِّم أختلف إلى الكتّاب ثم اختلفت إلى الديوان، وأنا ابن أربع عشرة سنة». وكانت نشأته تظهر فيها آثار النبوغ والرشَد حتى قال بعض الآباء: «وأنا أنفق على ولدى وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا، فما أراهم يُفْلِحونْ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم. فانظروا كيف!» وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته[1] وعندما بلغ أحمد بن حنبل الأربعين جلس للفتيا، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيما، فقد ذُكِرَ أن عددَ من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف، وأن من كان يكتب فيهم نحو خمسمائة[2].

وكانت حياة ابن حنبل حياة زهد وقناعة وتوكل، وكان على قدم السلف الصالح، ومن أصحاب العزيمة، وكان لا يقبل هدايا الحكام، وكان يأكل من كسب يده، وكان يؤجر نفسه أحيانا للحَمْل فى الطريق، وهو إمام المسلمين يومئذ.

ولما وَلِىَ المعتصم الخلافةَ سنة ٢١٨هـ، استمر على نهج وطريقة المأمون فى إجبار الناس على القول بخلق القرآن. مع أنه لم يكن لديه من قوة العلم والمعرفة وغزارتها ما يجعله يُدْلِى فى هذه المسألة برأى خاص. وكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة، حتى أُهمِلَتْ مجالسُ المَناظرةُ فى عهده، ولم يمتحن المعتصمُ الناسَ إلا تنفيذا للوصية التى أوصاه بها المأمون فى عهده له بولاية العهد، الذى صار به المعتصم خليفة. وقد قال فيه: «وخذ بسيرة أخيك فى القرآن» وكان المعتصم أكثر تعسفا من أخيه المأمون، فى التمسك بهذه المسألة. فأمر بتعليم الصبيان فى الولايات هذه المسألة.

وقد ظل أحمد بن حنبل ممتنعا عن القول بخلق القرآن مما جعل الناس ـ عامة وخاصة ـ يَعجبون من صلابته وبعض المسلمين معه. ورفض رجاء من طلبوا منه التلفظ بخَلْقِ القرآن قائلا لهم: «إذا ذاب العالم تَقِيَّة، والجاهل بجهل فمتى يظهر الحق». وهكذا ثبت أحمد بن حنبل على صلابته وعفافه حتى أطلقه المتوكل العباسى، وأرسل إليه مالاً يستعين به على أمور الدنيا، فردَّه وقال مالى به حاجة، ثم قبلها بعد إلحاح مَنْ حولَه ورسول الخليفة.

---

(١) محمد أبو زهرة، أحمد بن حنبل، ص١٨.

(٢) ابن الجوزى، المناقب، ص٣١٠.

والجدير بالذكر أن أحمد بن حنبل ابتلى فى هذه المحنة بلاءا شديدا، فتحمل ذلك صابرا، محتسبا ما يلاقيه من عنت عند الله، ثابتا كالطود على موقفه، نائيا بنفسه ودينه عن الشبهات. وقد تعرض فى سبيل ذلك للجلْد والضرب بالسياط أيام المعتصم سنة ٢٢٠هـ. فضرب ـ كما يقول المسعودى ـ ثمانية وثلاثين سوطا، حتى سال منه الدم، وتعددت فيه الجراحات، ثم أُرسِلَ إلى بعض الأطباء ليداوى جراحه. ثم أُخلِىَ سبيله بعد ذلك أيام المتوكل.

وكان «أحمد بن حنبل» يصرح بأن «الله قديم وليس كمثله شىء»، لكنه لا يقول بخلق القرآن؛ لأن الله لم يَقُلْه، كما أن رسوله الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- لم يقله. وهنا نقف وقفة قصيرة ونتساءل فنقول: لماذا كان هذا التشدد من أحمد بن حنبل؟ ولماذا هذه الصلابة فى الرأى بطريقة رآها البعض مُبَالَغٌ فيها؟ وأقول: إنه لولا هذا الصلابة، ولولا هذا التدقيق فى الزهد، والعزوف عن أموال السلطان، ولولا هذه المحافظات الشديدة على منهج الحياة، الذى التزمه أحمد بن حنبل، لما استطاع أن يستعصى على هذه الدولة القوية بسلطاتها العاتية، ولما استطاع أن يمثل هذا الدورَ الرائع فى تاريخ الإصلاح والتجديد والدفاع عن الدين، ليؤثِّر فى عقول الناس وقلوبهم هذا التأثير، ويقف طَوْدا شامخا، وجبلا راسيا، فى مواجهة هذه التيارات التى تجرف الرجال وتحرك الجبال.

ثم إن أحمد بن حنبل، بهذا الزهد والتوكل على الله، استفاد قوة روحية، وصلة عميقة بالله، وإنابة إليه، استحق بها النصر، وتغلب على نزوات النفس وشهواتها. وقد رأينا الزهد والتجديد مترافِقَين فى تاريخ الإسلام، فلا أحد، ممن قَلَبَ التيارَ، وغيَّر مجرى التاريخ، وخلَّفَ تراثاً خالداً فى العالم والفكر والدين، وظل قرونا يؤثر فى الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب، إلا وله نزعةٌ فى الزهد، وتغلب على الشهوات، وسيطرة على المادة ورجالها. ولعل السر فى ذلك أن الزهد يُكْسِبُ الإنسانَ قوة المقاومة والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة، وبصَرْعَى الشهوات، وأسرى المعدَة وعبدةَ أصنام السلطة؛ ولذلك نرى كثيرا من العباقرة والنوابغ فى الأمم، كانوا زهاداً فى الحياة، متمردين على الشهوات، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء فى زمانهم؛ ولأن الزهد يثير فى النفس كوامنِ القوة، ويشعل المواهب، ويلهب الروح. بينما الدعة تُوَلِّدُ الرخاوة وتبلد الحس. وتُنِيمُ النفس، وتميت القلب. رحمك الله يا ابن حنبل بما قدَّمْتَ للإسلام والمسلمين من نموذج وضَّاء وقوى وساطع فى الوقوف بجانب الحق، والبعد عن الباطل وما والاه من شبهات. وجزاك الله عن أمة

الإسلام خير الجزاء. وكان انتقاله إلى جوار ربه سنة ٢٤١هـ. لقد كان «أحمد بن حنبل» كما يقـول بعض معاصريه «أدخل الكيـر فخرج ذهبا أحمـر»، وتواضعت القلوب على حبه، الذى أصبح شعار أهل السنة والصلاح.

وليس سر عظمة «أحمد بن حنبل» وعبقـريته فى دفاعه هذا الدفاع المستميت عن عقيدة الإسلام بصفائها ونقائها وسماحتها وبساطتها، وانتصاره لها - وفضله فى ذلك لا ينكر - ولكن مآثره الكبـرى التى أكسبتـه منصب التجديد، هو أنه وقف سدا منـيعا فى اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسـفى المتهوِّر، الذى لو سيطر على هذه الأمة، لانقطعت صلتها بالتـدريج عن منابع الدين الأولى، وعن النبوة المحمدية، وخضـعت للفلسفات، وأصبحت عرضـة للآراء والقياسات، وانتصرت الحكومة على الشـعب، والسياسة على الدين، انتصارا مؤيدا، وسُلِبتَ حرية الرأى والعقيدة. ولا شك أن ذلك لو حدث لكان رزيئة كبرى للإسلام والمسلمين. لكن ثبات أحـمد بن حنبل وصلابة موقفه، قضى على هذه الفتنة الكبرى وهى فـى عنفوانها وأوْجها، وحَفظَ الديـن من عبث العابثين، وتحكم السلطة والأهواء فيه، وحفظَ الأمة من أن تَكون فى حـضانة الملوك الشبان، السائرين بما جُبِلوا عليه من تهور، وماَ حولهم من حاشية يفرضون عليهم عقائدهم وأهواءهم فرض الجِبايات، ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغَنَم والبقرات. وهو أيضا بموقفه الخالد رد إلى العقيدة الإسلامـية كرامتها وأصالتها، وإلى الأمـة حريتها وشخصيتـها، فاستحق بذلك تقدير الإنسانية وثناء المسلمين، واعتراف الأجيال، وإجلال التاريخ وإكباره له. وكان من المجددين الكبار فى الإسلام.

وفى «خلافة الواثق» - الذى تولى سنة ٢٢٧ هـ بعد وفاة والده المعتصم - نرى أن هذا الخليفـة حرص على الوقوف على آراء العلماء والحكمـاء، حتى لقد سمـاه الكتاب «المأمون الصغيـر»، بل فضله بعضهم على المأمون؛ لأن «الواثق» كان أكـثر رواية للشعر من المأمـون؛ لذلك لا نتـعـجب إذا رأيناه يتـعـصب لمسـألة «خلق القـرآن» - عن علم وعقيدة. وكان الواثق على نفس منهج والده المعـتصم، بل تشدد فى فرض آرائه الدينية على الناس، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد، فتآمـروا عليه. وكان «أحمد بن نصر ابن مالك بن الهـيثم الخزاعى» هو رأس هؤلاء المتـآمرين الساخطين، وكان يدعـو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأجـاز الخروج على الحكومة إذا حـادت عن طريق الشرع والحق. وقـد تَبِعَـه كثـير من الأتبـاع، وبدأت حركـته فى بغـداد أيام كان المأمـون فى خراسان. فلمـاَ قدم المأمونُ بغداد، اختـفى« أحمد بن نصر»، ثم عاد للظهـور فى عهد الواثق، وعزم هو وأتباعه على الثورة، فأنكروا القول بخلق القرآن، وحملوا على الواثق

حملة شعواء، فقضى عليهم والى بغداد، وسيقوا إلى الخليفة الواثق «بسامراء» قاعدة الخلافة، حيث عقَدَ لهم مجلسا للمناظرة، وطرحت مسألة الشغب والخروج على الخلافة جانبا.

تناظر الخليفة الواثق مع «أحمد بن نصر» فى مسألة خلق القرآن «إلى درجة أنه عندما اتفق الواثق مع الإمبراطور، «ميخائيل ثيوفيلس» على فداء الأسرى سنة ٢٣١هـ، بعث من يمتحن الأسرى المسلمين لدى الروم فى هذه المسالة. فلا يُفدَى أحدٌ إلا بعد الاعتراف بخلق القرآن، ومن لا يعترف بذلك يبقى أسيرا فى بلاد الروم. وكان هذا التشدد المتعنت، فى غير موضعه، مما أثار على الواثق السخط من الأهالى، سواء فى بغداد أو الولايات الإسلامية، التى جرى فيها مثلما جرى فى دار الخلافة والحكومة المركزية.

وهكذا كان «المعتزلة» مصدر ابتلاء وامتحان للأمة الإسلامية بواسطة الخلفاء فى الدولة العباسية، ابتداءً من المأمون فالمعتصم فالواثق، مع أنهم - أى المعتزلة - يَدْعُون إلى حرية الفكر، وينادون بسلطة العقل. ولكن لم يَبْدُر منهم ما يُشْعِر بتسامحهم فى العقيدة، بل عسفوا بالناس وبالمحَدِّثين والفقهاء، وحاولوا فرضَ رأيهم على العامة فرْضا، مما جعل الناس ينقمون عليهم. وزادت كراهتهم لهم حين رأَوْا بعض خلفاء بنى العباس يتشددون فى إحسان معاملة القائلين بخلق القرآن، وكان عامة الناس وجمهورهم يرون أن القول بخلق القرآن لا يتفق والدين، فضلا عن أن علماء الدين المحَدِّثين رأَوْا فى هذا الأمر بدعة.

ثم بدأ أمر المعتزلة يضعف منذ بويع بالخلافة للمتوكل على الله العباسى (٢٣٢-٢٤٧هـ)، لأنه لم يحمل الناس أو يُجبِرهم على القول بخلق القرآن. بل كتب سنة ٢٣٤هـ إلى الأمصار الإسلامية، يطلب عدم إكراه أحد على القول بخلق القرآن. وأبطل هذه المحنة، ونهى الناس عن الجدال فى القرآن. وكان لمسلكه هذا أثر طيب فى نفوس المسلمين. الذين أولُوه احترامهم وعَظَّموه، ومدحه الشعراء وبالغوا فى مدحه حتى قال قائلهم :

«الخلفاء ثلاثة : أبو بكر يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز فى رده مظالم بنى أمية، والمتوكل فى إحياء السنة». وكان الذي دفع المتوكل إلى إبطال هذه المحنة، هو ما أحسه من آلام عانى منها الناس بسبب هذه المحنة.

بل إن المتوكل وجه اهتمامه بعد ذلك إلى القضاء على نفوذ المعتزلة. فقبض على «أحمد بن أبى دؤاد» رئيس هذه الفرقة بالعراق، وصادر أمواله، وكاد يحل بالجاحظ ما

حل بغيره من المعتزلة لولا اتصاله «بالفتح بن خاقان» التركى، وزير الخليفة المتوكل، ورسالته التى قدمها فى مناقب الأتراك.

لقد مال المتوكل إلى السنة ونصر أهلها: كأحمد بن حنبل، وأظهر الميل للمحَدثين، وأعلى من شأنهم وأطلق حريتهم. فجلس فى أيامه «أبو بكر بن أبى شَيْبة»، فى جامع الرصافة (ببغداد)، يحدِّث الناس، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألفا، وجلس أخوه «عثمان» فى جامع المنصورة ببغداد، فاجتمع إليه كثير من المسلمين.

ترتب على سياسة المتوكل المناهضة لنمو المعتزلة، أن بدأ أفول نجمهم، وزالت ـ تبعا ذلك ـ محنة خلق القرآن، التى تجلى فيها انزلاق الخلفاء العباسيين، المعروفين بسعة الأفق والذهن، إلى ميدان التعصب الدينى وتسخيرهم قوة الدولة فى حملة معارضيهم على اعتناق رأى ليس له أى اتصال بالسياسة العامة للدولة.

ونتج عن ذلك أيضا أن صار ينظر للفقيه والمحدث نظرة تقدير واحترام، أكثر مما ينظر إلى الفيلسوف والمفكر. واحترام العِلْم والعالم الملم بالنصوص الدينية واللغوية، أكثر من احترام قليل الحفظ والمجتهد؛ ذلك أن المعتزلة كانوا يدْعون إلى التفلسف وتحرير العقل من كثير من القيود بعد الإيمان بالله ورسوله، والإيمان بالقرآن، وحصر الحديث فى دائرة ضيقة، وإشعار الناس بالمسئولية عن أعمال صادرة عنهم.

ومما لاشك فيه أن الأتراك فى ذلك العصر، كان لهم تأثير كبير فى تأييد حركة اضطهاد المعتزلة، ونصرة المحَدثين وأهلَ السنة. فطبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الكلامى، ولا كثرة المذاهب الدينية. فالأتراك فى جميع عصورهم قل أن ترى منهم مذهبا فى الأصول غير مذهب أهل السنة، وفى الفروع غير مذهب «أبى حنيفة النعمان»، وقل أن ترى بين علمائهم خصومة، مثلما وقع فى المذاهب التى قامت فى العراق من خوارج، وشيعة، ومعتزلة، وغير ذلك.

هزيمة مذهب المعتزلة:

ترتب على مجيء المتوكل إلى الخلافة العباسية سلسلة من التغيرات السياسية والدينية. كما اعتبرت خلافته على النطاق العقائدى انتصارا لمذهب «أهل السنة والجماعة» على مذهب المعتزلة.

ومع أن مذهب المعتزلة فقَدَ صفته الرسمية باعتباره مذهب الدولة قبل عهد المتوكل، إلا أنه استمر فى تطوره على يد أبى الهذيل العلاَّف (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٠م) وقد

ابتعد تأثير الاعتزال عن السياسة العباسية، وعاد سيرته الأولى باعتباره مدرسة فكرية فقط.

والحقيقة أن رجالات المعتزلة ساهموا بنجاح، فى الدفاع عن الإسلام ضد مفتريات الزنادقة والدهرية، كما ناقشوا أهل المذاهب المختلفة وأرسلوا الدعاة لإظهار وجهة نظرهم فى السبيل الصحيح للدفاع عن الإسلام.

أما أهم أسباب سقوطهم سياسيا وفكريا، فترجع إلى اتباعهم سياسة الشدة والعنف تجاه الأعداء أو المخالفين فى الرأى. وهو ما رأينا نموذجا له فى معاملتهم للإمام مستغلين ما كان فى أيديهم منْ سلطة أيام المأمون ومَن جاء بعده من الخلفاء، حتى المتوكل الذى أبطل الجدل والمباحثة، وأمر الناس المحَدِّثِينَ بإظهار السنة. وقد تناقض سلوك المعتزلة فى فكرهم، حين عنفوا مع مخالفيهم؛ لأنهم دعوا إلى إعمال المنهج العقلى. فكيف يستقيم ذلك مع عنفهم هذا ؟. وبذلك كانت آراء المعتزلة تختلف فى النظرية عنها فى التطبيق.

انتصار مذهب أهل السنة :

لقد شجعت عدة عوامل على بروز مذهب أهل السنة، أهمها: الصمود العنيد الذى وقفه رجالات السنة أمثال أحمد بن حنبل فى الرد على المعتزلة، وشجاعتهم أمام محنة المعتزلة. ثم مساندة الدولة ـ أيام المتوكل ـ لمذهب أهل السنة والجماعة، ومعاضدتها لفقهائه ومفكريه. وقد استطاع أبو الحسن الأشعرى أن يملأ الهوة التى نشأت بعد تدهور الاعتزال وانتهاء سيطرته الفكرية والسياسية. وعلى الرغم من أن الأشعرى كان معتزليا، إلا أنه عاد ورفض الاعتزال وحاربه بنفس الحجج العقلية والمنطقية التى يستعملها هؤلاء. ومن هنا، فى الواقع، جاءت أهمية الأشعرى حيث أقام للاستدلال العقلى مكانة فى دائرة الفكر الدينى، فكان بذلك من رواد علم الكلام السنِّى.

ثالثاً: فرق إسلامية أخرى:

(١) الحشوية :

لم يتفق المؤرخون على تعريف واضح لاصطلاح الحشوية.... فيقول دوزى: أن الحشوية أو (أهل الحشو) تعتبر من الفرق الإسلامية، ولكنه يضيف بأن الغموض لا يزال يسود أوساط المؤرخين حول أصل الفرقة وآرائها. ويعرف (قاموس المصطلحات الفنية) الحَشْوية أو الحَشَوَية بأنهم هم الذين يتمسكون بالمعانى الحرفية، ويعتقدون بالتجسيم والتجسيد وينتمون إلى فرقٍ مخالِفة لروح الإسلام. أما اشتقاق الاسم فيشير نفس

المصدر إلى أنه يدعو إلى حَشْو، بمعنى: (جسم أو جسد). وهذا يخالف رأى السبكى (طبقات الشافعية) الذى يرى بأن الاشتقاق من حشو بمعنى: (قبول الغث والثمين ضمن الصحيح).

ويشير رأى آخر إلى أن الحشوية هم الذين يكرهون البحث والتعمق فى تفسير الآيات القرآنية الغامضة، ويتركون تفسيرها لله وحده. ولكن السبكى يعترض على هذا التعريف للحشوية، لأنه يشمل المحدثين والفقهاء من السلف الأول. أما المستشرق دى خويه، فيتفق مع الرواية التى تشير بأن الحشو يعنى التشبيه، وأن الحَشْوية أو الحَشَوِية أو أهل الحَشْوَ أسماء لمسميات واحدة تعنى المشبِّهة.

ولكن المستشرق هوتسما «Houtsma» يعترض على رأى «دى خويه»، ويقول: بأن الحشو لا يعنى التشبيه فى أية رواية من الروايات التاريخية، ولكن بعض الحشوية اعتقدوا بالتشبيه، وهنا تسميهم المصادر (المشَبِّهة الحَشْوية) أو (مشبهة الحشوية). ومعنى ذلك أنه ليس كل الحشوية مشبهة.

وقد عالج المستشرق فان فلوتن موضوع (الحشوية)، وأثبت أن «الحشوية» تعنى (المحَدِّثين)، مع أنه أظهر ميلا إلى قبول رأى «دى خويه» حول الموضوع ذاته، وحاول أن يشتق اصطلاح حشوية مّن (حشو) بمعنى العوام والدهماء، حيث يقول : «لقد سمت المعتزلةُ المحَدثين الذين يتعاطفون مع العوام ويشاركونهم آراءهم فى التشبيه بالحشوية».

ويؤكد ذلك ابن قتيبة حيث يقول : إن الحشوية نَعْتٌ غير لائق وَصَفَ به المعتزلةُ أهلَ الحديث (أصحاب الحديث). ولم يقتصر وصفهم بذلك بل لقبوهم بالحشوية، والنابتة، والمجبرة، وربما قالوا الجَبْرِية وسموهم الغُثَاَء والغَثْو.

ويقول هوتسما عن الحشوية ما يلى :

«الحشوية هم الذين يروون الأحاديثَ المحشوةَ التى حشاها الزنادقة فى أخبار رسول الله ﷺ ويقبلونها ولا يَتأوَّلونَها. وهم يصفون أنفسهم بأنهم أصحاب الحديث وأهل السنة والجماعة».

ويستطرد ابن المرتضى مؤلف «المُنيَةَ والأمل» قائلا:

«إن الحشوية لا مذهب معين لهم، ولكنهم يتميزون جميعا من حيث العقيدة بالتشبيه والجبر والقول بأزلية القرآن. وإلى هؤلاء ينتمى أحمد بن حنبل، وداود بن محمد الأصفهانى، والكرابيسى وغيرهم. فالحنابلة كما هو معروف يقبلون الأحاديث النبوية، ويتمسكون بحرفيتها ويطبقونها، ولذلك يعتبرون من أصحاب الحديث ويسميهم

أعداؤهم «بالحنابلة الحشوية». وعلى ذلك فيمكننا أن نعتبر الحشوية جماعة المحَدِّثين من أهل السنة، الذين بسبب تبجيلهم للأحاديث، يخلطون بين الصحيح والموضوع منها.

وقد أشار الكثير من الكتاب المسلمين إلى ما قام به الزنادقة من وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول ﷺ. وقد ذكر ابن حزم وياقوت وابن قتيبة عمليات الوضع هذه والذين قاموا بها أمثال: عبد الكريم بن أبى العوجاء وصالح بن عبد القدوس.

إلا أنه يصعب علينا أن ننعت الحشوية بالتشبيه والجَبْرِ المطلق، حيث لا يعترفون به هم أنفسهم. وحين استعمله الكُتَّاب أهل المذهب السُّنِّي قصدوا به غلاة المجسمة.

(٢) الكرَّامية:

وهو مذهب نشأ فى خراسان على يد أبى عبد الله محمد بن كرام السُّجَّزِى النيسابورى (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩هـ). الذى ولد فى سجستان من أصل عربى. واتسمت حياته بالزهد والورع.

أما تعاليمه فقد اتهمه خصومه بالتشبيه أو التجسيم. وكان أغلب الذين انجذبوا إليه من الفلاحين والعوام.

وقد تعرض للاضطهاد، واعتقله الطاهريون فى نيسابور، وسجنوه ثمانى سنوات. على أن آراءه صادفت قبولا فى المشرق الإسلامى. وقد ظهرت هذه الفرقة كمذهب دينى ومدرسة فقهية.

ورغم معارضة هذا المذهب لأهل السنة والشيعة معا، إلا أن صدامه مع الشيعة كان عنيفا.

المتصوفة:

معنى التصوف: التصوف نظام تدَيّنى موغل فى القدم، وُجِدَ فى قريش واليمن قبل ظهور الإسلام بزمن كبير تحت نفس الاسم والغاية والطرق، كالزهد والتنسك وتقديم القرابين لخدمة الكعبة. وفى الإسلام آمن المتصوفة بأن «لا فاعل فى كل شيء إلا الله»، وتعاليم التصوف تقوم على الغوص فى شتى العلوم . فاقتنعوا بفكرة الحلول والإشراق وغيرها، وأيدوا بأقوالهم وأشعارهم أن المعرفة فى الإسلام مرتبطة بالنشاط الذهنى والتفكير المعرفى بأسرار الوجود . واكتشف الصوفيون العشق الإلهى طريقا إلى معرفة الأسرار[١].

---

(١) سمير السعيدى : الحسين بن منصور الحلاج مراجعة وسيم الأحمر (دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦م) منشور بجريدة الحياة اللندنية عدد يوم الجمعة ٩/ ٥/ ١٩٩٧ العدد ١٢٤٨٨ ص٢١.

ويذكر القشيرى أن سبب ظهور التصوف هو تفشى البدع وتصارع الفرق حتى صار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يقولون أن فيهم زهادا . . وعلى ذلك نستطيع القول أن أسباب ظهور نزعة التصوف هى :

أولا : الصراع السياسى بين الحكام والولاة والقادة العسكريين من أجل المناصب والمصالح المادية.

ثانيا : النزاع العنيف بين الفرق الدينية والمذهبية.

ثالثا : ميل الناس - حكاما ومحكومين - نحو حياة والبذخ والاستمتاع بملاذ الحياة.

وعلى ذلك فحركة الزهد والتصوف تعتبر رد فعل لهذه الظواهر الثلاثة، حيث «حاول أصحاب النفوس الأكثر صفاءً وعمقا، الفرار بأنفسهم من صخب المنازعات السياسية والمذهبية إلى طمأنينة المشاهدة». وقد تعددت المذاهب الصوفية، فكانت أفكار بعضها ملتزمة بقواعد الدين. بينما خرج البعض الآخر عليها؛ لأنهم نادوا بالحلول والكثير من الآراء الفلسفية.

ويُعتبر ذو النون المصرى (٢٤٦هـ/ ٨٦٠م)، أول من بلور نظرية التصوف وأوضحها. وحاول الصوفية إبراز المثل الأعلى لكمال النفس الإنسانية وبلوغ درجة التجرد الكامل والفناء فى الذات الإلهية. وقد أوقفتهم آراؤهم، وأحيانا أوقعهم إهمالهم لشعائر الإسلام، فى نزاع مع الفقهاء من أهل السنة، الذين اتهموهم بالزندقة، وترتب على ذلك أن اضطهد الكثير من مشاهير الصوفية. ويقول جولد تسهير: (أن فى كلمة (الجُنَيْد) أحد كبار صوفيى المدرسة القديمة - التى يقول فيها : (لا يصل امرؤ إلى مرتبة الحقيقة مالم يعامله ألف صديق له كأنه زنديق) لَدلاَلَةٌ قوية على روح هذا العصر، فإذا أحد المتصوفة وصل إلى أبعد من هذا المدى، فى نتائج الاتحاد بالذات الإلهية، فمصيره حتما إلى الجَلاَّد كما حدث للحلاج والشلمغانى).

وأبو القاسم الجنيد، يعتبر من أعمق صوفيي القرنين الثالث والرابع الهِجْرِيَّين كلاما عن التوحيد والفناء فيه؛ ولذلك يلقب بـ(شيخ الطائفة) وقد وصفه القشيرى فى الرسالة بأنه (سيد هذه الطائفة وإمامُهم).

ويقول عنه السلمى فى الطبقات : (وأصل الجنيد من نهاوند، ومولده ونشأته بالعراق، وكان فقيها على مذهب أبى ثور، وصحب خاله السَّرِىَّ السقْطِى كما صحب

الحارث بن أسد المحاسبى، وتوفى سنة ٢٩٧هـ). ويمثل الجنيد فى تصوف عصره اتجاها معتدلا، وإن شئتَ قلتَ : يمثل تصوف الفقهاء المستند إلى الكتاب والسنة بشكل ظاهر.

يقول الجنيد (من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يُقْتَدى به فى التصوف).

ويقول أيضا :(الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسولﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه». ويقول الجنيد أيضا: (أن العقل عاجز عن إدراك التوحيد، لأنه: إذا تناهت عقول العقلاء فى التوحيد، تناهت إلى الحَيْرة). وكان يقول كذلك: (أشرف كلمة فى التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته).

* **ظهور الحلاَّج** : هو أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج، وهو أهم شخصية متصوفة تواجهنا فى هذا العصر الذى ندرسه، وهو تلميذ أبي القاسم الجنيد. وكان الحلاّج صوفيا حرا بَشّر بضرورة الرجعة إلى الله، وقال بالاتحاد بالإرادة الإلهية عن طريق الإقبال على الألم، والوصول إلى الروح الإلهى بواسطة التقشف والزهد.

والحلاج هوَ أول من استخدم مبدأ الفكر الشمولى فى الطرق الصوفية، ثم واصله من بعده ابن عربى والسهْروَرْدى وابن الفارض. وقد تميزت صوفيةُ الحلاج بخصوصية رؤيته إلى الوجود واكتشافه المصطلحات الصوفية وإيجاد تفسير مرادف لها.

وقد ولد الحلاج سنة ٢٤٤هـ فى واسط بالعراق، وتصوف وعمره ستة عشر عاما. وسمى بالحلاج - حسب روايات عدة أكثرها تكرارا ذكرها ماسينيون فى كتابه «أخبار الحلاج» حيث يقول : «دخل الحلاج واسط إذ كان له شغل، وأول حانوت استقبله للقطان، فكلفه الحلاج بإصلاح شغله وكان لصاحب الحانوت بيت مملوء قطنا، فقال له الحسين بن منصور الحلاج: «اذهب لإنجاز شغلى وأعينك على عملك، ولما رجع الرجل رأى كل قطنه محلوجاً فسمى الحسين بن منصور حلاجا» وثمة قصة أخرى تعلل تسميته بأنه مطلع على سر القلوب، ويستخرج لُبَّ الكلام كما يستخرج الحلاج لُبَّ القطن. وإضافة لهذا اللقب أطلق عليه تلامذته ألقابا عدة كالزاهد، والمغيث وحلاج الأسرار، والمميَّز (١).

---

(١) سمير السعيدي : الحسين بن منصور الحلاج (الحياة اللندنية).

وقد جاب الحلاج البلاد واتصل بكبار العلماء ورجال الفكر والسياسة أحيانا. وزاد عدد تلاميذه حين استقر فى بغداد وبدا خطرا على المذهب السنى، وعلى تعاليم بعض الفقهاء، التى تدعوا أحياناً إلى التقليد والاتباع والتسليم دون النظر والعقل.

ويعتبر الحلاج قدوة فكرية وسياسية لإشغال مساحة الخلل بين سخط العامة الباحثة عن البديل، والسلطة الجائرة المتحللة فى عصر الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ). وكان كثيرون من رجال البلاط يتحينون الفرص لقتل الحلاج، وعلى رأسهم الوزير «حامد بن العباس». بينما انصرف الحلاج للتعمق بالظواهر الإيمانية فى الدين والعلوم والفلسفة. وقد تصارعت أفكاره مع أفكار معاصرين له من المتصوفة، لكنه أخلص بتأدية الالتزامات الدينية وشعائرها، واستغرق فى العبادة وأداء الفرائض والنوافل. وسعى إلى بلوغ أعلى مراتب الحرية الصوفية، حيث يفقد الإنسان علاقات وصفات الكائن المحدود، ويسبح فى إرادة الحق سبحانه وتعالى . واستنتج أن كل شيء مقدمة لشيء آخر متصل به فى الوجود، وهذا الاتصال والانتماء دليل الوحدة الكلية التى تعنى بالتسليم للقدرة الإلهية[١] .

وقد اتسعت شعبية الحلاج لفرادة آرائه، حتى تحلق حوله الناس، وبات يشكل تهديدا خطيرا لذوى السلطة والنفوذ فى العصر العباسى، فَسَعَوْا للإيقاع به ومحاكمته وقتله . فأودعه الوزير «حامد بن العباس» السجن عام ٣٠١هـ، وقيد رجليه بقيود كثيرة، وكان ينقله من سجن إلى آخر حتى لا يستميل الحراس والمساجين إليه .

وقد أعد الوزير حامد بن العباس قائمةَ الاتهام ووضع خطته لتنفيذها باسم القضاء وحدد لذلك مجلسا يوم السبت ٢١ ذى القعدة سنة ٣٠٩هـ، دعا إليه القاضى أبو عمر محمد بن يوسف وجيء بالحلاج، وبتعليق للقاضى على أحد أقواله قال له: من أين لك هذا ؟ قال الحلاج : من كتاب الإخلاص للحسن البصري . فقال القاضي: «كذبت ياحلاَل الدم». وألحَّ الوزير على القاضى ليكتب ذلك على ورقة ففعل. وكتب من حضر خطوطهم فيها وأنفذها الوزير للخليفة المقتدر . . .وكان الحلاج يقول لهم :«ظهرى حمى ودمى حرام » ولايلتفتون إليه. ورُدَّ إلى محبسه، وتأخر جواب المقتدر العباسي ثلاثة أيام. فأرسل له الوزير حامد بن العباس. يقول :« إن أمر الحلاج اشتهر، ولم يختلف فيه اثنان، وافتتن كثير من الناس به» . فجاء الجواب بتسليم الحلاج إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة، فضُرب ألف سَوْط، ثم قطعت يداه

---

(١) سمير السعيدي : نفس المرجع (الحياة اللندنية).

ورجلاه وهو ساكت ما نطق بكلمة ولم يتغير لونه، وصُلِبَ على الجزع وأُحْرِقَتْ جثته، وأُلقِيَ رمادها فى نهر دجلة . وكان آخر ماقالة قبل أن يُحَزَّ رأسه : «حسب الواجد إفراد الواحد له» وسئل عن التصوف وهو مصلوب فقال «هو كما ترى».

ويصف سمير السعيدى أشعار الحلاج بأنها كحياته وتجربته الصوفية «عارمة، حارة، متضاربة، مُحَيِّرة ومتناقضة أحيانا يكتفنها الرمزى والدلالى المباشر والملتبس . . . وكان من السهل على السلطات العباسية اعتماد أشعاره وأقواله لاتهامه بالزندقة والإلحاد، على الرغم من صعوبة إيجاد دلالة مؤكدة فى قصائده». وقد بلغت كتب الحلاج نحو ٤٩ كتابا، اثنان منها فى السياسة وهو «الساسة والخلفاء والأمراء» الذى وجدت نسخته عند الوزير على بن عيسى . لكن لم يبق من كتبه سوى «كتاب الطواسين» الذى ألَّفه فى فترة سجنه قبل إعدامه، وكذلك الديوان الذى تم جمعه من كتب الأدب القديمة . وقد أُخذَ عهد من الورَّاقين بعدم تداول كتبه وبيعها، وطاردت الدولة أنصاره لمدة ٣ سنوات وقَتلت عدداً منهم(١) ؟

ثم انتدب الإمام أبي حامد الغزالى -بعد ذلك- للدفاع عن الحلاج وتفنيد المآخذ عليه. ثم تلاه الشيخ عبد القادر الجيلى الحنبلى وكثير غيره . وبذلك تحول الحلاج إلى شهيد، وانتشر حديثه حتى تخطى العالم الإسلامى كله منذ القرن الخامس إلى يومنا هذا. وصار الحلاج رمزا للشهيد الحر والنموذج الرفيع للرجل الذى يبذل حياته من أجل مبادئه، وما أكثرهم فى تاريخنا الإسلامي وحياتنا المعاصرة .

ويتهم جولد تسيهر أهل السنة بالتحريض على إعدامه والتخلص من خطر آرائه. كما يؤكد د/ الشيبى علاقة الحلاج بالشيعة وأنه عمل من أجل المذهب الشيعى، ويذكر الشيبى وثائق تثبت صلة الحَلاَّج بالإسماعيلية أوالقرامطة. ويذكر ابن العماد الحنبلى أن الحلاج أُدْخِلَ بغداد سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م وطِيفَ به فيها مخفورا ومشهورا على جمل ونودى عليه « هذا أحد القرامطة فاعرفوه».

والواقع أن ظهور الحلاج فى العصر العباسي تزامن مع وجود صعوبات واجهت الخلافة العباسية فى محاولة القضاء على القرامطة الذين استفحلوا فى البحرين وبادية الشام. بينما كان الفاطميون فى المغرب يشنون هجمات متكررة على مصر. وقد حاولت أم المقتدر إنقاذ الحلاج. لكن هذا الاهتمام نفسه جلب عليه نقمة الوزير

---

(١) الحلاج : دراسة عن ديوان الحلاج وكتاب الطواسين (دار الجمل ، ألمانيا، ١٩٩٧م) مراجعة سمير رزق الله (منشورة بجريدة الحياة اللندنية العدد ١٢٥١٥ بتاريخ ٥/٦/١٩٩٧ (٣٠/1/1418هـ) ص٢١.

حامد بن العباس. وبعد محاكمة دامت سبعة أشهر أصدر القضاةُ قرارا بإعدامه، فَصُلِبَ فى سنة ٣١٠/ ٩٢٢م، ثم أحْرِقت جثته. ولكن اتباعه ظلوا متمسكين بذكراه وآرائه، واعتبره بعضهم «المهديَّ المنتظر»، وأنه لابد سيعود ليحقق آمالهم وينقذهم.

ولم يكن مصير الشلمغانى بأفضل من مصير الحلاج، فقد ادعى أن روح الإله فيه وسمى نفسه (روح القُدُس). فاتهمه البغدادى بالخروج عن الإسلام. وقد تأثر بتعاليمه بعض رجالات الدولة العباسية أمثال: الحسن من آل الفرات، وناصر الدولة الحمدانى، والحسين من آل وهب وزير المقتدر. ولكن السلطة العباسية قبضت على الشلمغانى فى عهد الراضى. وقد أنكر بعضُ أتباعه أنه يدين بآراء شيعية متطرفة (الغلاة) وقد صلب فى سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م وأُحْرِقَ بالنار.

هذه صورة سريعة لبعض مظاهر حركة التصوف فى القرن الثالث الهجرى. على أننا نود التأكيد بأن موقف الفقهاء ورجال الدين المتميز بالريبة والشك تجاه التصوف، قد أدى إلى إعاقة الحركة الفكرية وخمودها فى الأقاليم المركزية، بينما ازدهرت هذه الحركة مع ازدهار التصوف فى أقاليم أخرى بعيدة، مثل إيران.

٤- حركات وفرق الخوارج:

الخوارج فى إيران:

لعل أول ما يلاحظه المؤرخ أن الخوارج في إيران فى العصر الأموى والعصر العباسى الأول كانوا فى الغالب عربا نزحوا من العراق والجزيرة، ولكن فرق الخوارج جذبت إليها - بمرور الزمن - سكان إيران المحليين بسبب عقيدتها المبنية على الانتخاب ولأنها حركة معارضة للعباسيين، حيث انضم إليهم الإيرانيون المتذمرون للتنفيس عما يختلج فى نفوسهم من آمال ومطامح.

على أن الخوارج تفرقت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة، كما تقطعت حركتهم الثورية. ما أدى إلى تشتيت قواهم وبعثرة جموعهم فى خراسان، وفارس، وكرمان، والأهواز، وسجستان، وبعض مناطق ما وراء النهر. والواضح أن تحركات الخوارج فى هذه المناطق لم تكن دائمة، كما أنهم لم يبسطوا سيطرتهم على كل المدن والقرى بصورة محكمة وفعالة.

وقد انضم إلى الحركة الخارجية - باعتبارها حركة معارضة ضد كل الفرس - المستاؤون من الحكم العباسى وزاد حجمها، وساء وجهُها حين ضمت فى صفوفها اللصوص والفقراء، الذين جاءوا حُبًّا فى الغنيمة والسلب. وهذا التطور فى الحركة

الخارجية وما رافقه من نتائج عصفت بالأمن والاستقرار، أدى إلى نشوء فرق (المُطَّوِّعَة) من السكان المحليين، الذين قاموا لمجابهة الخوارج والتصدى لهم وخاصة فى سجستان. وكـان من أبرز رؤساء المطوعـة يعـقوب بن الليـث الصفـار وعبـد الرحـمن بن عمـار المطوعى.

وكان قـتال الخـوارج من أهم ما تـفرغ له الطَّاهريون، حـيث هزمهم طلحـة بن طاهر، وكـسر شـوكتـهم فى سجـستـان، وإن لم يقض عليـهم، فى كل من نيسـابور وسجستان سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠ م .

وقد لعـبت الظروفُ التى رافقـت ظهورَ الخوارج فى الأقـاليم الشرقـية وخـاصة سجستـان، وما نتج عنها من اضطراب وفقدان الأمن، دورا رئيـسيا فى الحياة السـياسية أثناء العصر العبـاسى الثانى . إذ اتخذ القادة ذوو الطموح - أمثـال يعقوب بن الليث - من ذلك حجة لتثبـيت سلطته، حيث استطاع فى مدة وجيزة أن يوجد له كيـانا سياسيا ثابتا فى سجستان، بعد أن أحرز النصر على الخوارج سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣ م .

الخوارج فى الجزيرة :

بقيت الكثير من القبائل العربية فى الموصل والجـزيرة الفراتية على موقفها المعادى لبنى العبـاس، بسبب تسلط ولاة العبـاسيين وسياسـتهم التعـسفية والمتـشددة فى طلب الخراج . مما جعل هذه المنطقة أرضا خصبة ومأوى آمن - كما كانت فى العصر العباسى الأول - للخوارج الثائـرين ضد الدولة . أمثال الخارجى. . . « مُسَاور بن عبد الحـميد البجلى الموصلى»، الذى ثار سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٨ م، واستولى على قرى الموصل، بعد أن هزم الجيش العباسى، ثم نزح إلى الحُـدَيِّثَة واتَّخَذَها مستقرا له. وقد سـاعد على نجاحه فى مواجـهة السلطات العباسـية، انشغالهـا باضطراب الزّنج، مما أدى إلى بسط سلطانه على تكريت والحُدَيثَة والموصل وسنجار حتى حدود الخـابور. لكن وفاة مساور الفجائية سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٧ م أدت إلى الانشقاق فى صفوف أتباعـه الذين انقسموا إلى قسمين: الأول: بقيادة هارون بن عبد الله البجلى الشارى، والثانى : بقيادة محمد بن خُرَّازاد .

وقد كـان النصر حليف هارون الشاري الذى كـان على جانب كبـير من الدهاء، نَزَّاعا للحياة الدنيا. ويعـزو الدكتور فيصل السامر أسبـاب هزيمة ابن خرازاد إلى استعانة هارون ببنى تغلب، فـضلا عن لينه وحـسن معـاملته لأعـوانه الذين عمل علـى تحسين أوضاعهم المعاشية. على حين كان ابن خرازاد متشددا فى تقشفه . . . كما أن الكثير من العرب اتحـدوا ضد ابن خـرازاد . إضافـة إلى أن بنى تغلب - وهم عـرب - والأكراد اتحدوا ضده .

هكذا أصبح الخوارجُ قوة لايُسْتَهانُ بها تحت قيادة هارون البجلى، وبخاصة بعد مساندة حمدان بن حمدون وبنى تغلب له، وذلك فى تحالف استمر من سنة ٢٦٧ هـ حتى ٢٧٢ هـ.

ولم تستطع الخلافة أيام المعتمد أن تفعل شيئا، بسبب انشغالها بحرب الزنج وتحركات الصفّاريين والطولونيين . فلما اعتلى المعتضد دست الخلافة، ركز جهوده فى حرب الخوارج. فقضى على حمدان بن حمدون، وطارد هارون الشارى الذى رفض الإذعان للخلافة، واستطاع المعتضد - بمساعدة الحسين بن حمدان- أن يأسر هارون بن عبد الله البجلى الشارى سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦ هـ ويصلبه وهو يردد بأعلى صوته : «لاحكم إلا لله ولو كره المشركون» .

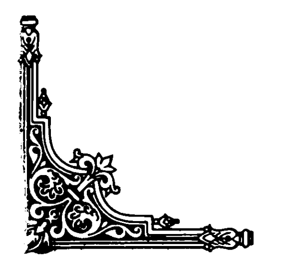
وفى هذه الأثناء ظهر خارجى آخر هو « محمد بن عبادة » المعروف بأبى جَوْزَه الذى تبعه كثير من الأعراب وسيطر على سنجار وتحصن بها، ولكن حركته أخمدها هارون الخارجى، واضطره للجوء إلى آمد، حيث سلمه عاملها العباسى إلى الخليفة المعتضد، الذى أمر بقتله وسلخ جلده كما تسلخ الشاة.

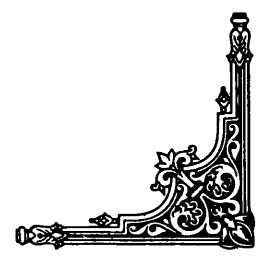
كذلك استمرت الحركة الخارجية فى عُمان واليمن، دون أن تستطيع السلطة العباسية أن تدبِّر من أمرها شيئا .



الفصل السادس

ثورات بلاد الشام على العباسيين





قامت فى بلاد الشام فتن كثيرة، فى جبل لبنان سنة ٢٣١هـ، وفى حمص سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م . كما وثب أهل دمشق سنة ٢٤٠هـ على عاملهم العسوف سيئ السيرة، وقتلوا جماعة من الأشراف، كما قتلوه على باب الخضراء، وقتلوا من قدروا عليه من رجاله. وقد غضب المتوكل لمقتل عامله وقال : مَنْ لدمشق ولْيكُن فى صَولَة الحَجّاج ؟ فأشير إليه أن يولى «أفريدون التركى»، ولكن هذا تَوفى قبلَ أن يصل إلى دمشق .

وحين أراد المتوكل - بعد ثلاث سنين - أن يتخذ دمشق مقرا له لم يطل بها مقامه، حيث عاد إلى سامراء. ويقول عنه ابن عساكر : «وكان من طغاة الملوك، يجرى فى أحكامه على غير المعقول، ويتلون فى مشربه».

وفى سنة ٢٤٨هـ، قام أهل حمص ثانية باضطرابات وقلاقل على عاملهم. فعين الخليفه واليا جديدا، حيث أبعد مِئَةً من زعمائهم إلى العراق، وقتل الكثير من مثيرى الاضطرابات .

ولكن أهل حمص لم يذعنوا طويلا فثاروا سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤ م، وقتلوا الوالى العباسى، فأرسل المستعين جيشا أحرق المدينة، وقتل بعض أهليها من مسلمين ونصارى ويهود. وكان المتوكل قد أمر بإخراج النصارى من حمص لأنهم كانوا يُعِينون الثوار، وقد استمرت حمص تنتفض على ولاتها وتقتلهم، وسيطر على المدينة «العطيف بن نعمة الكلبى» فى خلق عظيم من عشيرته وغيرهم.

وفى فلسطين قام الأهالي بثورة على الوالى العباسى، هزمها القائد «مزاحم بن خاقان التركى»، وشتت الثوار وأجلاهم عن فلسطين . كما انفرد عيسى بن الشيخ الشيبانى سنة ٢٥٢هـ ومابعدها، بالرملة،وجميع أنحاء فلسطين، ودمشق، وامتنع عن إرسال الخراج إلى العراق . ولكن ثورته انتهت سنة ٢٥٦هـ، بعد أن أرسلت السلطة المركزية فى مصر القائد أماجور لتأديبه. ثم سيطر أحمد بن طولون على الشام بعد أن ثبت مركزه في مصر، واستمرت المشاكل القبلية فى بلاد الشام أيام الطولونيين وخاصة تلك التى وقعت سنة ٢٥٧ هـ، بين لخم وجذام فى فلسطين .

ظلت الشام تموج بالحركات المعادية للعباسيين،سواء كانت عرقية أو مذهبية، واختلطت بحركات دينية فى أواخر القرن الثالث الهجرى، حيث تزايد النشاط القرمطى فى بادية الشام منذ سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م . وأصبحت هذه البلاد مسرحا للنزاع بين كل من الولاة العباسيين والأمراء الإخشيديين (٢٩٢-٣٢٢هـ) ـ الذين أعقبوا الطولونيين فى

حكم مصر والشام - ثم بين الحمدانيين الموالين للعباسيين وبين الإخشيديين، ثم الفاطميين ابتداءً من سنة ٣٦٢ هـ .

١- النابتة والولاء للأمويين:

تعتبر النابته شيعة معاوية والأمويين فى القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى - وهم الجيل الجديد المعادى للعباسيين وسياستهم، والعلويين وآرائهم، وللمعتزلة ومذهبهم، وقد اتخذوا من الولاء لبني أمية رمزا لمعارضتهم.

وقد وصف الجاحظ وغيره النابتةَ بالمروق، وقارنهم بالرافضة (الشيعة العلوية)، وفنَّد آراءهم السياسية والدينية، إلا أن بعض المؤرخين- الأوائل والمُحْدَثين - عملوا على تبيان حسنات الأمويين بتحليل موضوعى فيه الكثير من الإنصاف للحقيقة التاريخية التى تُظْهِرُ مالهم وماعليهم . والغريب أن هذا الولاء لبنى أمية لم يقتصر على سوريا - معقل الولاء الأموى - بل إنه انتشر فى العراق، مما دعا المأمون، وبعده المعتضد، إلى الأمر بِلَعْن معاوية والأمويين على المنابر .

وقد أسلفنا القول أن الحركة الموالية للأمويين اتخذت شكْلَيْنِ متميزيْن :

الأول: حركات سياسية يقوم بها رؤساء القبائل الموالين للأمويين .

الثاني: حركات دينية - سياسية تقوم أساسا على فكرة السفيانى، وهو المنقذ المنتظر للقبائل العربية السورية الذى سيعيد لبلاد الشام مجدها السالف ويقيم سلطانا أمويا جديدا .

وقد استمرت هذه الحركة الموالية للأمويين فى القرن الثالث الهجرى، مع ظهور حركات جديدة أظهرت ميلا للأمويين، واتخذت من معاوية مثالا ورمزا للتبجيل والاحترام، وذلك للتقليل من شأن أعدائهم سواء من المعتزلة أوشيعة العباسيين أو شيعة العلويين، وكأن عملهم هذا كان معناه مقابلة التطرف بتطرف مثله. فكلما رأوا تطرفاً من المعتزلة أو شيعة العلويين أو شيعة العباسيين تطرفوا هم أنفسهم فى مذهبهم للإعلاء من شأن الأمويين، ونشر فضائلهم وذكراهم بين الناس، وكان من هذه الحركات : النابتة، والكُرَّامية، وفئة من الحنابلة.

لكن السلطة العباسية عدلَتْ عن ذلك خوفا من مغبة الأمر، وما يجره ذلك من شغب بين شيعة الأمويين، من العامة ومَنْ وراءهم من الفقهاء . فى نفس الوقت اتخذت إجراءات رادعة أخرى . حيث مُنِعَ القُصَّاص من التحدث عن الأمويين

وفضائلهم، ومُنِعَ السقاؤون من « الترحم على معاوية »، في أغانيهم الفلكلورية، التى كانوا يتَغَنَّون بها أثناء عملهم اليومى. وهو مـا كان يلقى صدى واسعا لدى عامة الناس ويَمَسُّ مشاعرهم وأحاسيسهم بعمق، لأنه كان يعبر عما يعتمل فى صدور هذه الفئة من الشعب، المعارِضة لآراء العباسيين ومذاهب العلويين .

وقد ذكرت لنا كـتب التراجم أسماء بعض هؤلاء القصاصين والشـعراء والمَحدِّثين من القرن الرابع الهـجرى أمثـال: موسى بن عبـيد الله بن خاقـان، الذى نقل أحاديث عديدة فى مـدح معاوية، ثم يحيى بن غـالب، وأبى عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب (المتوفى ٣٤٥هـ/ ٩٥٧ م) .

والحق، فإن التطرف فى الولاء لمعـاوية ويزيد والأمويين، يعتـبر رد فعل حـتمي للتطرف فى ولاء الشيعة العباسية للعباسيين، والشيعة العلوية للعلويين، وتَمَسُّك المعتزلة بعقيدتهم لدرجة تـطبيق المحنة والتشدد ضد مخالفيهم . وقـد كان لذلك النزاع ما يبرره فى ذلك العصـر، وهو التنافس من أجل الوصول إلى السلطة والتشـبث بزمام الحكم . ولذا استـمر هذا الولاء بأشكاله المختـلفة، طالما ظلت مسـتلزمات وجوده على مسـرح الأحداث دينيا وسياسيا . ويشّبِّهُ الجاحظُ النابتةَ بالرافضة وبالحشوية، ويسميهم (الحشوية الجديدة) أو (نابتـة الحشويّة) . ولعل السبب فـى ذلك يعود إلى استعـمالهم (الكلام)، للدفاع عن مذهبهم ضد المعتزلة أولا، وباعتقـادهم بالتشبيه ثانيا، ورفضهم القول بخلق القرآن ثالثا، هذا من الناحية الدينية . أما من الناحيـة السياسية فتمثل اتجاههم فى الولاء للأمويين .

وعلى كل حـال، فإن هذه المذاهب والفـرق السنية التى اعـتمـدت المنطق وعلم الكلام . حاولت جاهدة التقليل من أثر المعتزلة الفكرى بعد سقوطهم السياسى، وجَذْب جمهور واسع من العامة؛ ولذلك لم يصبح النزاع، كما كان من قبل، نزاعا بين الفقهاء والمحَدِّثين التقليديين والمعتزلة، بل أصبح نزاعا بين المتكلمين من المعتزلة، والمتكلمين من أعداء المعتزلة .

وحين كتب الجاحظ عن خـطر النابتة على الدولة والمجتمع العـباسى، كانت هذه الفئةُ قد استـفحلت فى بداية القرن الثالث الهجرى، وكانت تمثل جـيلا جديدا بدأ ينمو وينبت فى المجـتمع الإسلامى، كـرد فعل للمظاهر السـياسـية والفكرية والاجتـماعـية السائدة.

فمن الناحية السيـاسية سيطرت العناصر التركية، فى القـرن الثالث الهجرى على زمام السلطة . وبالنسـبة للجانب الفكرى والاجتمـاعي فقد سادت النظم الفـارسية فى

البلاط، والتقاليد الفارسية والأفكار الشعوبية فى المجتمع. فكان ذلك كله مما جعل الجاحظ يشعر بالمرارة لهذه التطورات، ويحاول جاهدا المحافظة على الخلافة ومجتمع العباسيين فى العراق فى صيغة عربية خالصة وأن يحافظ على سيادة العرب فى الدولة العباسية، وخاصة فى بغداد، والعراق قلب الدولة الإسلامية .

ولكى يدلل الجاحظُ على مروق النابتة، نراه يستعرض الحالة فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الأوائل، ويصفها بالمثالية لخلوّها من النزاع والشقاق فى المجتمع الإسلامى . ثم يعرض لما وقع فى عهد عثمان من أحداث وفتن، ويذكر أن الأمويين اغتصبوا الخلافة اغتصابا، وابتزوا الحكم من أصحابه الشرعيين، واقترفوا كل أنواع المظالم، وأظهروا العداوة للعلويين. وهكذا تبلورت فى القرن الثالث الهجري ثلاث فرق رئيسية:

أولا: المعتزلة: وهم الفئة المثقفة من المجتمع التى ساندت العباسيين وهاجمت الأمويين دائما، ونَدَدتْ بالعلويين حيث تتعارض مبادؤهم مع العباسيين.

الثانية : العلويون: الذين يعتقدون بأحقية آل على فى الخلافة .

الثالثة : النابتة : وهم فئة سنية تظهر وكأن علاقتها قوية مع المذهب الحنبلى، هذا مع إدراكنا للفرق فى الآراء والأصول الدينية.

فالمعروف أن «أحمد بن حنبل» عانى الكثير من المحنة التى أحدثها العباسيون منذ خلافة المأمون بمساندة المعتزلة. كما أن مذهبه لم يكن مقربا إلى السلطة العباسية، حتى بعد أن أسقط المتوكل المعتزلة وتبنى مذهب السنة والجماعة.

وقد انتشرت النابتة والفئات المُتَشَيَعةُ للأمويين فى بلاد فارس، وتطور مذهبهم حتى صار يقدس معاوية ويزيد . على أن هذا التطرف الأخير كان يعد مرحلة وصل إليها التشيع الأموى فى وقت متأخر، أى ليس فى الزمن الذى كتب فيه الجاحظ رسالته في « النابتة ». ولم يكن اختيار النابتة لمعاوية والأمويين بسبب تميزه بفضائل وأخلاق فاقت غيره من الخلفاء، ولكنهم اعتبروه خليفة معترفا به، ومَمثِّلاً لأهل السنة والجماعة»، كما وأن معاوية يعتبر مثالا فريدا وحساسا، يمكن أن تختاره فئة معارضة للعباسيين من أجل أن تقلل من شأنهم وتشعرهم بقلة احترامها لهم .

والحق أن النابتة - كما تظهرهم رسالة الجاحظ - شكلوا خطرا كبيرا على السلطة العباسية، مما دفع خلفاء كثيرين إلى اتخاذ إجراءات فكرية وسياسية رادعة ضدهم. فقد

حاولوا الدعاية للأمويين ومآثرهم، والدفاع عنهم ضد العباسيين والعلويين والمعتزلة. وقد نبه الجاحظ - ببعذ نظره - السلطة العباسية إلى خطر النابتة كما زودها بالحجج الفكرية والسياسية فى نضالها ضدهم.

ومن هنا بالذات تأتى أهمية رسالة الجاحظ فى النابتة .

٢- العلاقة بين الأمويين واليزيدية:

لم تختلف الحركة الموالية للأمويين عن باقي الحركات الدينية - السياسية، فى تبنى فئة من أتباعها للتطرف والغلو فى العقيدة . وإذا صحت رؤية المستشرق «جويدى» فإن الولاء للأمويين ظهر بشكل متطرف في فرقة اليزيدية التي تدين بالولاء ليزيد بن معاوية خاصة، وبنى أمية بصفه عامة. وقد استمر هذا الولاء فى القرن الثالث الهجرى، وما بعده .

إذ ثار فى سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧ م، أخو أبى السرايا بالكوفة مؤيدا الأمويين، كما حفلت رسائل الجاحظ بالأخبار عن الحركة الموالية للأمويين، فرسالته فى النابتة والعثمانية وإمامة المروانية من الأمثلة على ذلك . ويكفى للتدليل على قوة حركة الموالين لبنى أمية، أن المعتضد حين أمر بلعن معاوية على منابر البلاد لم ينفذ أمره .

ويصف المستشرق «جويدى » أفكار اليزيدية بالغلو، ويعتبرهم فى تطرفهم مثل الغلاة والباطنية أهل العقائد الثنوية الإيرانية . فإذا صحت هذه الفرضية، وإذا صحت علاقة اليزيدية بالأمويين، فلابد أن تكون اليزيدية هى الواجهة الدينية المتطرفة للشيعة الأموية، مثلما اعتبرت الراوندية الواجهة المتطرفة للشيعة العباسية .

٣- فرق الشيعة العلوية:

يعتبر ظهور جعفر الصادق بداية لمرحلة هامة فى الحركة الشيعية العلوية . إذ تبلور التشيع العلوى ووضحت معالمه، على يد جعفر الصادق، الذى عاش بمعزل عن الحركات السياسية والثورية التى كان يعج بها عصره . ويؤكد كتاب الفَرْق بين الفِرَق هذه النزعة السِّلْمِيَة لدى جعفر الصادق، فيقول عنه الشهرستانى : «وهو ذو علم غزير فى الدين، وأدب كامل، فى الحكمة. . . . . دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع أحدا فى الخلافة، ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط. . . » . وقد نجح جعفر الصادق فى تكوين مدرسة فكرية فى المدينة، تبحث فى العلوم الدينية، وصفها « دونالدسون» أنها «مدرسة شبه سقراطية » .

وقد برزت شخصية جعفر الصادق بنتيجة عدة عوامل أهمها:

١- تضاؤل نفوذ بعض الشيعة المنافسة لشيعة جعفر الصادق، حيث اندمجت الكَيْسانَية بالعباسية، وعملت على ظهور الخلافة العباسية، وبهذا لم يعد لمحمد ابن الحنفية وابنه أبى هاشم شيعة يعملون من أجلهما .

٢- مقتل الكثير من آل الحسن على يد العباسيين، وقد كان من نتائج ذلك خلو المسرح لآل الحسين، أى جعفر الصادق ومن جاء بعده .

٣- الدور الهام الذى لعبته شخصية جعفر الصادق - وأبيه من قبله - فى بلورة فكر فرقة الشيعة الإمامية، وتجمع الأتباع حول زعامة الصادق الدينية. ويعتقد «هدسون» (Hudson) بأن هناك ثلاثة مبادئ رئيسية ساهمت فى قوة مذهب الصادق.

أولها : فكرة (النص) ومفادها أن الإمامة بالنص من الله ورسوله، وأن الأئمة من آل الحسين منصوص عليهم .

وثانيها: فكرة (العلم) التى تعنى أن الأئمة محيطون بالعلوم الإلهية، وهذا يضفى على الإمام قدسية خاصة،حيث يُتَوارث العلم من إمام إلى إمام. كما وأن معرفته أهلَّته أمام أتباعه لكى يقرر فيما إذا كان الوقت مناسبا لإعلان الإمامة الشيعية ومناهضة العباسيين بالسلاح؟ وهل من الضرورى له أن يصبح خليفة ذا سلطة دنيوية إضافة إلى إمامته الدينية؟ .

أما المبدأ الثالث: الذى ساعد فى تثبيت إمامة الصادق، فهو إيثاره العلم وتكوين حلقة من تلاميذه الذين أخذوا عنه، وانتشار صيته فى جميع البلدان، وبالتالى تزايد عدد أتباعه .

وإذا كان بعض الأتباع ذوى الجرأة والإقدام من شيعة الصادق، قد مَلُّوا الانتظار وخابت آمالهم، نتيجة تأجيل الصادق للثورة ضد العباسيين، فانشقوا عليه وكونوا فرقا أخرى، فإن سياسة جعفر الصادق السلمية لعبت دورا فى تزايد شيعته الذين يفضلون السلام، وعدم التورط فى فتنة مع العباسيين لاتبقى ولا تذر. وفي عام (١٤٨هـ/ ٧٦٥م) مات جعفر الصادق. وبعد وفاته حدث انشقاق بين أتباعه التقليديين: الإسماعيلية (الإمامية السبعية)، والإمامية الاثنا عشرية .

الإمامية الاثنا عشرية :

آلت الإمامة الاثنا عشرية إلى موسى الكاظم، بعد وفاة والده جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م، واستمر إماما حتى سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م . وتؤكد شيعته إمامته بعد أبيه، بنصوص عن جعفر الصادق نفسه، وبذلك تُبْعِد إمامة إسماعيل أو ابنه محمد وإمامة عبد الله بن جعفر. ونتيجة تشدد السلطة العباسية وحذر العلويين أنفسهم، دخلت الإمامة الشيعية دور التكتم .

ولم يكن موسى الكاظم فعالا على النطاق السياسى، كما أن دوره فى عقائد الشيعة الكلامية كان ضعيفا لايقارن بدور أبيه وجده ومع ذلك راقبه المهدى، ثم الرشيد الذى سجنه وظل فى حبسه حتى مات . وقد كان موسى الكاظم صبورا على احتمال الشدائد ولذلك سمى بالكاظم . على أن بعض شيعته، قالوا: إنه لن يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جَوْرا، وأنه هو القائم المهدى باعتباره الإمام السابع عندهم . وسمى هؤلاء «بالواقفة» .

وقد أمر الرشيد بعرض جثته على الجسر عارية ليحقق هدفين :

الأول : دحض دعوى الواقفة التى تنكر وفاته،وتدعى غيبته، وتنتظر عودته وتقول أنه القائم المهدى .

الثانى : إظهار براءة السلطة العباسية من شبهة اغتيال موسى الكاظم، ليشاهدوا خلوها من أى أثر للصدمات والكدمات أو غير ذلك. مما يدل على القتل أو الخنق، كما شهد فقهاء وهاشميون أن الكاظم مات ميتة طبيعية .

وقد اعترفت غالبية أتباع موسى الكاظم بإمامة ابنه على الرضا من بعده، لنص أبيه عليه، ولفضله على جماعة إخوته وظهور علمه . وقد اختاره المأمون العباسى وليا لعهده، لدوافع لاتزال بعض أسبابها غير واضحة تماما ثم قتل الرضا فى ظروف غامضة، وعادت ولاية العهد إلى البيت العباسى. وكان محمد الجواد بن على الرضا - حين مات والده - فى السابعة من عمره، فادعت كتب الشيعة أن له معجزات وكرامات، وأنه أخذ علمه عن أبيه الإمام، وأكدوا علمه وعصمته رغم حداثة سنه!!، وقد اختلفت الشيعة فى هذا مع أتباعه، حتى صارت العصمة مبدأ أساسيا من مبادئ الشيعة الإمامية.

وقد مات محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م، ولما يناهز عمره ٢٥ سنة . فبويع لابنه «على» الذى لقب «الهادى» وعاش فى خلافة المتوكل (٢٣٢هـ/ ٢٤٧م) المعروف بتشدده تجاه الشيعة العلوية . وقد هَدَمَ قبر الحسين وحاول إخفاءه، واتخذ مع الإمام «على الهادى» موقف المنصور مع الإمام الصادق. فكان يستدعيه من المدينة «لسؤاله وإحراجه»، وكان يرسل إليه من يفتش داره بحثا عن السلاح والمال .

فلما توفى على الهادى سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م - فى خلافة المعتز بالله العباسى - خلفه فى الإمامة الحسن العسكرى، الذى مات سنة ٢٦٠هـ، وهو ابن ٢٩ سنة من عمره . ويقال أن «الخليفة المعتضد العباسى قد سَمَّه . لكن شيعته قالوا بأنه غاب وسيعود إلى الأرض ليملأها عدلا،ولقبوه بالحى، وصاحب الزمان، والمهدى».

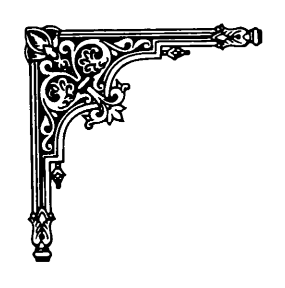
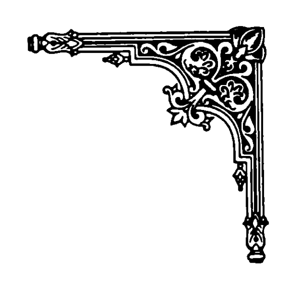
وقد تناول الكثير من الباحثين المحدثين الدعوة الإسماعيلية وواجهتها السياسية والدينية، وماتفرع منها ، واتصل بها من فرق باطنية وقرمطية بالبحث والتحليل،ومن هؤلاء : إيفانوف، وبرنارد لويس، وستيرن، وعبد العزيز الدورى، والنشار، وفاتيكيوتس، وغيرهم كثير .

وقد قارن الدكتور عبد العزيز الدورى بين رأى كل من برنارد لويس وإيفانوف حول أصول الإسماعيلية . إذ يؤكد «برنارد لويس» أن ميمون القداح كان من أتباع الصادق، وأنه ترأس الدعوة الإسماعيلية بعد أبى الخطاب الأسدى، وتعهد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بالتنقيب على المذهب الباطنى. وأن سلسلة من الأئمة المستورين (المستقرين) بين محمد بن إسماعيل ومحمد القائم، ظهرت بسبب الظروف السياسية وملاحقة السلطة العباسية . وكان يعمل نيابة عنهم دعاتهم المدْعُوون (بالأئمة المستودعين) . فالإمام المستقر هو الإمام الحقيقى الذى تنتقل الخلافة فى نسله، أما الإمام المستودع فهو داعية وحجة، يعمل من أجل نشر الدعوة، ولا تنتقل الإمامة فى نسله، ومن هؤلاء : ميمون القداح، وابنه ذكرويه وغيرهم .

ويستنتج «برنارد لويس» أن عبيد الله المهدى، كان آخر الأئمة المستودعين وكان قد أحياها، وبعد وفاته سلمها لابنه أبو القاسم محمد القائم بأمر الله الفاطمى.

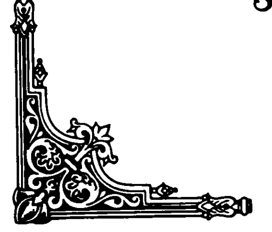
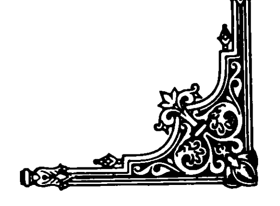
أما إيفانوف، فينكر أن يكون ميمون القداح وابنه «أئمة مستودعين» وذلك لأن هذا النظام لم يعرف إلا فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، كما وأن الصغيرغير البالغ لايمكن أن يكون إماما إسماعيليا، ولا يجوز انتقال لغير فاطمي، تنتقل إلى

القداحين بألقابها ووظائفها. ولا يعترف بأى دور للقداح فى أحداث الحركة الإسماعيلية؟، ويسمى ماذكر عنه من روايات «أسطورة القداح» وينفى القول: «بأن القداح أراد أن يهدم الإسلام، باستغلاله التشيع، وابتداعه المذهب الباطنى القرمطى، وتبشيره باسم إسماعيل بن جعفر لقيادة حركة قوية، نقلت السلطة إلى أحد أحفاده باسم «المهدى» . وأما الدكتور الدورى فيؤيد رأى برنارد لويس، ويعتبره رأيا يعتمد على قرائن تاريخية مقبولة.

الفصل السابع

النزاعات الإقليمية والحركات الانفصالية في العصر العباسي

شهدت الدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حركات عديدة دينية وسياسية، ففى أوائل هذا القرن تمرد « بابك الْخرَّمِى» وهدد الدولة العباسية بعد تحالفه مع البيزنطيين. وفى النصف الثانى من القرن نفسه عَام (٢٥٥هـ) انفجرت انتفاضة الزنج، وقامت حركة القرامطة الإسماعيلية . ولم تستطع الدولة أن تقضى على هذه الحركات أو تسيطر عليها بسهولة، مما يدل على مدى الضعف الذى كانت عليه هذه الدولة المترامية الأطراف آنذاك.

وسنعرض هنا لحركتين هامتين هما : انتفاضة الزنج؛ وبدايات الحركة الْقُرمِطيَّة، محاولين تفسير دوافعهما وأحداثهما، تفسيرا علميا منهجيا ينطلق من وقائع ثابتة صحيحة .

١- حركة الزنج:

الزنج جماعات من العبيد السود الذين جُلِبُوا؛ بطرق متنوعة وفى أوقات مختلفة؛ من أفريقيا الشرقية :من الحبشة والصومال وزنجبار؛ واستُخدِمُوا فى أعمال أهمها استصلاح أراضى السواد.

وإذا كان الإسلام قد دعا منذ البداية إلى حسن معاملتهم وبَشَّر من يعتقهم بالثواب - كما رُوِىَ عن الرسول «ﷺ» قوله: « شر الناس من باع الناس» ، كما أطلق الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه نداءه المشهور:« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ». إلا أن الحال تغير فى القرن الثانى الهجرى ، واقتنى الناس العبيد والمماليك، واستخدموهم فى البيت، والحقل ، والأعمال المختلفة كاستخراج الدبس من التمر، واستصلاح الأراضي. فكانت نتيجة ذلك أن عانى العبيد من التمييز الاجتماعي والاقتصادي ، وأصبحنا نقرأ فى الأمثال المتداولة نبرة احتقار للزنوج كالمثل الذى يقول «الزنجى إن جاع سرق وإن شَبِعَ زنا».

ويعود هذا التغيير فى موقف المجتمع الإسلامى من العبيد إلى عوامل، منها:

١ - الفتوحات التى كونت من الدولة الإسلامية دولة واسعة ضمت شعوبا متنوعة من أجناس مختلفة . حيث ظهر تدريجيا نوع من التمييز الاجتماعي والاقتصادي بين الكتلة الحاكمة والجماعات المحكومة بغض النظر عن العنصر .

٢ - لقد زادت الفتوحات من تجارب العرب، ووَسَّعت معارفهم عن الأقالِم. فلم تكن معرفتهم بأفريقيا معرفة واسعة، بل كانوا لا يعرفون غير الحبشة، وهى بلاد

ذات حضارة راقية نسبيا. إلا أن الفتوحات دفعتهم فى عمق أفريقيا وكشفت لهم مناطق جديدة منها، وعرفتهم على شعوب سوداء بدائية جديدة .

٣ - نشاط تجارة الرقيق من أفريقيا إلى العالم الإسلامي . ولم تكن تجارة الرقيق فى حقيقتها تجارة جديدة؛ ذلك لأن المصريين فى عهد الفراعنة جلبوا العبيد من أفريقيا، كما استخدم اليونان والرومان العبيد على نطاق أضيق. وقد احتاج المجتمع الإسلامى المتقدم المترف إلى العبيد فى الزراعة ، والأعمال العامة، والخدمة فى الدور، كما تكون منهم فرقة من فرق المشاة فى الجيش العباسى، ولم يتعرف المسلمون على الأفارقة فحسب بل إنهم اتصلوا بالبرابرة فى الشمال، مثل السلاف والترك من أواسط آسيا والقفقاس وغيرها .

وقد عالج المؤرخون والجغرافيون الرواد موضوع الأفارقة السود فيما كتبوه فى العصور الوسطى ، وتشير أقدم الروايات إلى الأفارقة السود وتسميهم: إما (حَبَش) أو (سودان). ومن الواضح أن الاصطلاح الأول يعنى الأحباش سكان بلاد الحبشة والمناطق المجاورة لها .أما الاصطلاح الثانى فيعنى الجنس الأسود عموما جنوبى الصحراء الأفريقية الكبرى . وقد ظهرت اصطلاحات جديدة بعد توغل العرب فى أفريقيا. فظهر اصطلاح (النوبة) ليعنى سكان النوبة على ساحل النيل جنوبى مصر. أما (البِجَة) فهم السكان المحليون بين النيل والبحر الأحمر .

كما ظهر اصطلاح الزنج ليشمل بصورة خاصة سكان أفريقيا الشرقية جنوبى الحبشة والذين يتكلمون لغة البانتو . على أن كلمة «الزنج» تستعمل أحيانا لتعنى الأفارقة السود عامة. والمعروف أن هؤلاء الزنج هم أقل أصناف العبيد احتراما. على عكس الحبش الذين يعتبرون أكثر الأصناف منزلة وتقديرا .

وفى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى، كانت تجارة الرقيق الأسود متداولة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى إلى الجزيرة العربية والعراق، وعبر النيل إلى مصر، وعبر الصحراء الكبرى إلى شمالى أفريقيا وغربها.

وقد عالج الجاحظ فى مقالة له عنوانها : «فخر السودان على البيضان» موضوعَ العبيد وخاصة الزنج ومكانتهم فى المجتمع ، مدافعا عنهم مبرزا فضائلهم ، مؤكدا أن لون بشرتهم ليس نتيجة للأحوال الطبيعية التى يعيشون فيها.

ولم تكن حركة الزنج العارمة التى أعلنت سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م واستمرت حتى ٢٧٠هـ / ٨٨٣م، هى أولى حركات الزنوج فى المجتمع الإسلامى، إذ قامت قبلها

انتفاضات محدودة، منها : ما حدث فى أيام مصعب بن الزبير سنة ٧٠هـ/ ٦٨٩م حيث عصى الزنج بفرات البصرة، كما خرج الزنج كذلك في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م، فى المنطقة نفسها. وتمرّد الزنج فى البصرة وحواليها فى خلافة المنصور العباسى.

أما حركة الزنج سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، فقد قام بها الرقيق المستخدمون فى استصلاح الأراضى، وتهيئتها للزراعة، بكسح السباخ والأملاح المجتمعة فى بطائح العراق الجنوبى، وانضم إليهم العبيد من القرى والمدن المجاورة.

وكان عدد هؤلاء العبيد كبيرا يعد بالألوف، ويعملون على شكل جماعات دون أجور يومية، بينما لا يتعدى قوت يومهم قليلا من الطحين والتمر والسويق. وقد أدرك على بن محمد - الذى لم يكن عبدا أسود - سوء أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك حين خاطبهم منّاهم بالأموال والدور والعبيد وأن يرفع من مكانتهم.

وقد حاول بعض المؤرخين المحْدَثين أن يصبغ الحركة صبغة معاصرة بتسميتها بالاشتراكية وأعطاها برنامجا ثوريا منظما، وهذا غير صحيح. إذ لم تكن الحركة ثورة ضد العبودية والرق عامة، بل إنها كانت لفائدة مجموعة من العبيد الزنوج الذين ـ كما ذكرنا ـ كان على بن محمد قد منّاهم بالتحرر وتملك الرقيق.

ولما كان المجتمع الإسلامى مجتمعا دينيا، لذلك لبس صاحب الزنج مسوح الدين ليسر طريقه بين الجماعات المتذمرة. فقد ادعى هذا الرجل العلم بالغيب وصفات النبوة، وأعلن أنه مرسل من الله لإنقاذ العبيد البائسين والمحرومين، والبلوغ بهم إلى أعلى المراتب. وادعى الانتساب إلى على بن أبى طالب، حيث قال : إنه ينتسب إلى أحمد ابن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن علي بن أبى طالب. وقد دحض المؤرخون هذا النسب، ولذلك يذكرونه دائما بأنه: «دَعِيّ آل أبى طالب»، ونسبوه إلى قبيلة عبد القيس، وقال آخرون : أنه فارسى الأصل.

ويعلل أحمد علبى ـ فى كتابه «ثورة الزنج وقائدها على بن محمد» (ط. بيروت ١٩٦١) ـ سبب انتحاله العلوية، إلى أن العصر كان مؤاتيا للعلويين، حيث قامت بعض الدويلات الشيعية العلوية المستقلة، منها : الصفارية فى خراسان، والزيدية في طبرستان . ولكن يلاحظ أن صاحب الزنج لم يدع إلى خلافة علوية ولا تبنى آراء شيعية، بل على العكس فقد دَعى إلى آراء أقرب ما تكون إلى آراء الخوارج؛ ولذلك يمكن القول بأن «انتحاله العلوية كان يهدف إلى كسب عطف العامة من الناس إ ».

حيث كانت القضية العلوية تستقطب المعارضة للحكم القائم، ولكنه لم يبشر بالآراء الشيعية، التى تؤكد على الوراثة ولا تخلو من التعقيد، الذى ينفر منه هؤلاء الزنوج، بل اعتبر الخلافة مؤسسة يتقلدها أفضل المسلمين، بغض النظر عن عنصره، وهو رأى الخوارج».

ومما لا شك فيه أن بساطة هذا المبدأ وخلوه من التعقيدات التى لا تناسب الزنج، وخاصة أن إلمامهم بالعربية لم يكن إلماما جيدا، ثم إن البصرة نفسها لم تكن معروفة بميولها العلوية، كل ذلك دعاه إلى هذا الموقف. ولعل قسوته تجاه أعدائه، ووضعه السيف فى رقابهم، واسترقاق نسائهم هو الذى جعل بعض المؤرخين يصنفونه فى عداد الأزارقة من الخوارج.

ولعل هذا التناقض هو الذى جعل الأستاذ الدكتور الدورى يصفها بالتَّلَوُّن، حسب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية. كما وأن أحمد علبى يعتقد بأن صاحب الزنج لم يكن علويا ولا خارجيا، بل إنه أخذ عن التيارات السياسية السائدة فى عصره، فادعى شيئا من مبادئ الخوارج، ونَسباً علويا، ويستطرد علبى فيقول :

«ونحن نرى أن أى إنسان يطمح إلى السلطة، شأن على بن محمد، كان لابد له من الاستعانة بالقاموس السياسى لعصره. وكان الدين ومصطلحاته يشكلان القاموس السياسى لتلك الأيام، ذلك أن الدين فى ذلك العصر كان مختلطا بالدولة ولم يكن من سبيل إلى فصلهما».

وتطبيقا لذلك رفع على بن محمد، شعارا له هو الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ... ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة].

وقد أَوَّلَ صاحب الزنج هذه الآية تأويلا سياسيا، حيث قال: إن المؤمنين (هم أصحابه) وقد اشتَرَوْا أنفسهم فلم يعودوا بعدُ عرضة للرق والعبودية. كما وُصِمَ صاحب الزنج بصفات تدل على خروجه عن الدين مثل :

«الفاسق، وعدو الله، والخائن، والخبيث .... إلخ» ودُعِيَ إلى «التوبة والإنابة إلى الله».

مراحل الحركة :

انضم إلى صاحب الزنج فى حركته، رغم التناقض الواضح فى آرائه، الآلاف من العبيد الذين كانوا يتوقون إلى التحرر والانعتاق، حيث استهوتهم دعوته وكثر أتباعه، وانضم إليه ـ عدا الزنج ـ عبيد القرى والمدن، والجنود السود فى جيش الخلافة، وحتى الأعراب، والخارجون على الدولة.

وبذلك استطاع صاحب الزنج فى الفترة بين سنتى ٢٥٥هـ و٢٦١هـ، أن يسيطر على البصرة وما حولها. ثم امتد نفوذه إلى الأهواز وعبادان والأُبُلَّة وواسط.. وكانت سياسته تتسم بالعنف والإرهاب؛ ولذلك فقد ضرب المدن التى احتلها، وقتل الكثير من أهلها. ويشير المسعودي إلى ذلك فيقول: ـ أنه ـ أي على بن محمدَ: «أفنى من الناس مالا يدركه العدد ولا يقع فى الإحصاء»، .. وقد حاول المهتدى بالله العباسى أن يصد خطرهم، الذى بات يهدد بغداد حاضرة الدولة. ثم تولى المعتمد الخلافة، فأرسل القائد التركى موسى بن بغا دون أن يحقق انتصارا يذكر، وعندئذ تسلم القيادة أبو أحمد الموفق، وفى ذلك يقول الطبرى :

«فلما رأى موسى بن بغا شدة الأمر وكثرة المتغلبين على نواحى المشرق وأنه لا قوام له بهم، سأل أن يُعْفَى من أعمال المشرق، فأُعفِيَ منها، وضم ذلك إلى أبى أحمد ....».

وقد صمم الموفق على إعادة هيبة الخلافة فى المشرق والمغرب. وشجع بعض قواد صاحب ـ الزنج على الانضمام إليه حين سمعوا عن معاملته الحسنة، وهباته للأسرى من الزنج، الذين يقعون فى يده. وقد استطاع الموفق أن يحتل مدينة الزنج الأولى ـ (المنيعة) ـ على مقربة من واسط ـ بعد أن هزم جيش على بن محمد، وحرر أسرى العرب المسلمين وأسيراتهم. وقبل أن يتقدم نحو مدينة الزنج الثانية (المنصورة)، أمَّنَ خطوط مواصلاته وتأكد من سلامة سفنه، وإمكانية وصول المؤن إلى جيشه داخل الأهواز (المستنقعات وأحراشها). وعندئذ لم يجد الموفق صعوبة فى اقتحام المنصورة، رغم أن صاحب الزنج بنى حولها خمسة أسوار وأمام كل سور خندق زيادة فى التحصين.

بعد ذلك اتجه الموفق إلى تحرير الأهواز من صنائع على بن محمد، وقد نجح فى ذلك. ثم ركز جهوده لاقتحام عاصمة الزنج (المختارة). وبعد أن أرسل الموفق رسالة إلى صاحب الزنج يدعوه فيها إلى التوبة، وبسط له الأمان دون جدوى، قرر الموفق الهجوم

على المدينة، حيث دارت معارك عنيفة استسلم خلالها بعض قواد الزنج مع أتباعهم، مما أضعف مركز على بن محمد، حتى انتهت الثورة باحتلال «المختارة» وتدميرها ومقتل صاحب الزنج.

والحق أن «الموفق» أبدى صبرا ومطاولة قبل أن يتمكن من القضاء على حركة الزنج، مما اضطره إلى المكوث طويلا إزاء المختارة، وبناء معسكر دائم له ولجيشه، تحول - فيما بعد - إلى مدينة سماها (الموفقية). كما كان عليه أن يؤمِّن خطوط مواصلاته ليكفل وصول المؤن إليه، وأن يدرب جيشه على حرب العصابات فى وسط صعب تكثر فيه المستنقعات والأحراش المائية، ويجهز بالسفن والزوارق الخفيفة. كما كان عليه أن يضرب حصارا اقتصاديا على المختارة وحواليها ليمنع وصول الأغذية إلى الزنج.

وقد واجه الموفق مشاكل عديدة أعاقته فى حربه مع الزنج، ولكنها لم تثْنه عن هدفه. وكان مما ساعد على فشل الحركة ونجاح الخلافة العباسية فى القضاء عليها، ما يلى :

(١) تدابير الموفق وطريقة معالجته للحركة، باستعماله القوة والدبلوماسية والإغراء، مما جعل بعض أصحاب على بن محمد ينضمون إليه، ويساعدونه فى التعرف على مسالك الزنج وتحصيناتهم وأماكن مؤنهم.

(٢) تطوع الكثير من الأقاليم المختلفة للجهاد فى جيش الخلافة ضد الزنج. فساعده مثلاً: جيش عامل الأهواز، وجيش لؤلؤ قائد الشام الذى انفصل عن أحمد بن طولون.

(٣) فشل محاولة للاتفاق بين الزنج والقرامطة؛ لأن مذهب القرامطة مذهب إسماعيلى شيعى متطرف، بينما لم يعلن على بن محمد أية مبادئ شيعية، بل تظاهر بالدعوة إلى المذهب الخارجى.

(٤) رفض يعقوب بن الليث الصفار الاتفاق مع صاحب الزنج على حرب جيش الخلافة؛ لأن الصفاريين اعتبروا الزنج مارقين.

وبعد القضاء على الحركة أصدر الموفق منشورا يعلن انتهاء الاضطراب والفوضى فى جنوبى العراق، ويدعو سكان هذه المناطق للرجوع إلى مدنهم وقراهم، والدخول في الطاعة.

وهكذا استطاعت الخلافة العباسية، وهى تمر بأضعف أدوارها، أن تقضى على حركة عنيفة، مما يدل على الإمكانيات الكبيرة التى كانت ولازالت كامنة فى مؤسسة الخلافة، والتى يمكن أن تستغل إذا وُجِدَ الخليفة المناسب القدير.

٢- الحركة القرمطية:

اختلف المؤرخون فى تفسير مصطلح «القرامطة» ويغلب على الظن أن كلمة «قرمط» كانت لقبا لحمدان بن الأشعث زعيم قرامطة العراق الجنوبى ومعناها فى أصلها النبطى «أحمرُ العينين».

وترتبط الحركة القرمطية بالحركة الإسماعيلية، فى تنظيمها وعقيدتها. ويعتبرها بعض المؤرخين جزءا من الحركة الإسماعيلية، فى تنظيمها وعقيدتها. فقد استطاع إسماعيل بن جعفر الصادق أن يجمع حوله الأتباع، وحين توفى انقسم أتباعه إلى جماعتين : الأولى : قالت بغيبته وأنه لم يمت وهو القائم. والثانية: نقلت الإمامة من بعده إلى ابنه محمد، وهذه هى المباركية نسبة إلى المبارك مَوْلَى إسماعيل. وقد انبثق القرامطة من هذه الفرقة المباركية.

وقد استطاع عبد الله بن ميمون القداح ـ أحد رؤوس الدعاة الإسماعيلية حيث كان أبوه من تلاميذ أبى الخطاب مؤسس الحركة الإسماعيلية الملتفة حول إسماعيل بن جعفر الصادق ـ أن يكسب إليه حمدان بن الأشعث المسمى «قرمط»، من أهالى القرى المجاروة للكوفة. فأخذ حمدان «قُرْمط» يدعو الناس إلى الحركة، وكان أكثر من أجابه هم الفلاحون فى منطقة السواد، ولذلك لم تَعْنُف الدولة على حركة القرامطة، خوفاً من هرب أو إبادة الفلاحين، الذين تعتمد عليهم الزراعةُ وبعضُ الصناعات اليدوية.

ويرى الإمام أبي حامد «الغزالى»: أن المبادئ الباطنية وجدت لها أرضا خصبة بين العوام والجهلة من الناس الذين لا يفهمون الشريعة، والمحرومين من الفلاحين والعمال. كما انضمت إلى الحركة القرمطية قبائل العراق (السواد)، وبادية الشام. وقد نادى القرامطة بأن «الأمراء والحكام ورجال الدين هم سبب فاقة الجماهير وحرمانهم»، ورفعوا شعارات الخلاص، وإنقاذهم من وضعهم السيئ ووضع ثروة أسيادهم بيدهم.

ويقول ابن الجوزى على لسان أحد دعاتهم :

«أمرت أن أدعو أهل (هذه القرية) من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، وأستنقذَهم من ورطات الذل والفقر وأُملّكَهُمْ مالاً يستغنون به من التعب والكد».

وقد دعى «حمدان قـرمط» إلى نوع من شيوعية المال. وتظاهرت الحركـة بالتشيع للعلويين باعتـبار المعارضـة العلوية حركـة معارضة للـنظام العباسى الذى يمثل الخـلافة الإسلامية. ولكن غـاية القرامطة النهائية كانت هى الخـروج على النظام السائد وإحلال نظام جديد بدله.

وقد شملت الحركة القرمطية أجزاء عديدة من الدولة فى المنطقة من جنوبى العراق إلى بادية الشام، وامـتدت إلى اليمن سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م، على يد ابن حوشب، وإلى جنوبى فارس والبحرين على يد أبى سعيد الجَنَّابى.

وحين بدأت الحـركة القرمطـية فى العراق فـى عهد المعـتمـد، كان العـباسـيون منشغلين، بمواجهة تمرد يعقوب بن الليث الصـفّار، وأحمد بن طولون، فلم يواجهوهما المواجهـة الواجبـة. وقد بدأت القرامطة بـالتسلح ابتداء من سـنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م حيث كانت أخبار تحركاتهم المسلحة وصداماتهم الإرهابية تصل إلى مسامع السلطة.

ولما حاول «حمدان» وصهره «عبدان» الانفصال عن الإسماعيلية قُتلاَ، وبرز زعيم جديد يدعى (زكرويه) الذى أبدى ولاءً كبيرا للإسماعيلية. وثار القرامطة عدة مرات فى عهـود كل من المعتضـد والمكتفى والمقتـدر فى العراق والشام والبـحرين. وقد هاجـموا القرى وقـوافل الحجـاج والمساجد، كـما هاجـموا الكعـبة ونهبـوا الحجـر الأسود سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م، ونقلوه إلى عُـمَان. وقـد برز من القرامطة أبو سـعيـد الجنَّابى، الذى استطاع أن يؤسس دولة طبَّق فيها مبادئ القرامطة.

ولما أدرك الخليفـة العباسى المعـتضد بالله امـتداد خطر القرامـطة الذى بدأ يشمل سواحل الخليج العربى، وأنهم صـاروا مصدر تهديد لإقليم الحجـاز، حيث قطعوا طرق مواصلاته مع العراق والبحرين. أرسل الخليـفة قائدا من قواده ـ هو «العباس الغنوى» ـ وعيَّنه واليـا على البحـرين، وكَلَّفَه بحرب القـرامطة. وفى نفس الوقت حصَّن الخليـفةُ البصـرةَ وعزَّز إمكانيـاتها العـسكرية. وقد اصطدم الجـيش العبـاسى بالقرامطة وخـسر المعركـة، وقُتِل وأُسِرَ العـديد من أفراده. ولكن الجنابى لم يقـتل قائد الجـيش بل أطلقه ومعه رسالة يتـهدد فيها المعتضـد، الذى صمم على الاستمرار فى المجابهـة حيث تشير رواية تاريخية أنه قال:

«والله لئن طال بىَ العمر لأشْخصَنَّ بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى، ولأُجَهِّزن إليه جيشا كثيفا، فإن هزمهم وإلا خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه حتى يحكم الله بينى وبينه».

وقد تنبأ الخليفة قبيل وفاته أن «قلاقلَ واضطراباتٍ ستأتى من ناحية الخليج العربى». فكان يُذَكِّر قواده وحاشيته بأنه كان مصمما علىٰ تأديب العصاة واستتباب الأمن فى البحرين ويحذرهم قائلاً :

«..... وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة»..

استمر نشاط القرامطة فى بادية الشام حيث هاجموا مدينة الرصافة سنة ٢٩٠هـ، وحاصروا دمشق وأخذوا الضرائب من أهلها، واستولوا على حمص وضواحيها، وكانوا يفتكون بالناس دون تمييز. وقد استنجد سكان الشام بالعباسيين بعد أن تخاذل عنهم الطولونيون. فقاد الخليفة المكتفى بالله جيشا وعسكر بالرقة، وأرسل قواته بقيادة «أبى الأغر» إلى حلب، وفى معركة قرب حلب انتصر القرامطة، مما اضطر الخليفة إلى إرسال إمدادات جديدة، استطاعت تشتيت شمل القرامطة فتراجعوا إلى الصحراء.

لم يكن القرامطة كما رأينا، على وفاق دائم مع الإسماعيلية، لتطلعهم إلى الزعامة، والنزعة الفردية، وميلهم إلى العنف والقوة. أما الإسماعيلية فأرادوا أن يطبقوا سياسة المرونة والمساومة بدلا من سياسة القوة. وحين زاد الخلاف وتَأَزَّمَت الحالة حاول الحسن الأعصم القرمطى أن يستنجد بالخليفة المطيع العباسى، ضد النفوذ الفاطمى المتوسع فرفض المطيع ذلك قائلاً :

«كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما «الفاطميون» فأماتوا السنة وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء فقتلوا الحُجَّاج وقلعوا الحجر الأسود».

هذا ،ورغم أن بعضَ كُتَّاب الفرق اعتبر القرامطة فرقة تسعى إلى القضاء على السلطان العربى وإرجاع سلطة الفرس السياسية، إلا أننا لا نستطيع أن نتفق معهم. فالحركة القرمطية تختلف عن الحركة المقَنَّعية أو البابكية الخرمية فى أهدافها، رغم اشتراكها معهما فى بعض مبادئها العقائدية والاجتماعية؛ ذلك أن «الحركة القرمطية» ضمت إلى صفوفها المحرومين من العرب، والنبط، وانضم إليها البدو من قبائل عربية عراقية وسورية، وكانت الأرستقراطية الإيرانية معارضة للقرامطة. كما أن «الحركة القرمطية» لم يكتب لها النجاح فى إيران حيث لم تتركز فى أقاليم خاصة هناك، ولم تجذب إليها الأتباع.

ويقول الأستاذ عارف تامر :

«إن أنصار هذه الدعوة (القرمطية) كانوا أقلية إسماعيلية تعيش فى وسط أكثرية ساحقة من السنِّيين، أو ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلى. ولهذا لم تستطع الدعوة أن تنجب دعاة محاربين، يتصفون بصفات الدعاة الذين أنجبتهم الدعوة فى العراق وسوريا واليمن والمغرب. بل كانت هذه الحركة تتجه إلى أساليب الإقناع العقلى والتأثير العلمى على المستجيبين عن طريق العلم والثقافة».

والحركة القرمطية حركة ذات طابع اجتماعي، وآراؤها خليط من عقائد مختلفة. وقد اتشحت بوشاح الدين من أجل ضرب النظام العباسى، الذى يستند على الإسلام، وإنشاء نظام اجتماعى اقتصادى يحقق - على حد زعمهم - المساواة الاجتماعية والرفاه المادى، وهذا ما سماه قرامطةُ السواد «نظام الأُلْفَة». حيث تُجْمع أموال المجتمع بيد الداعى، ليشترك كل أفراد المجتمع فى التمتع بها. وتسد حاجات الأفراد بحيث لا يبقى بينهم محتاج. ولم يكن الشخص يمتلك أكثر من سلاحه فهو غنى عن المال؛ لأن المفروض نظريا على الأقل أن تكون الأرض له، وحاجاته يوفرها له المجتمع كذلك.

وكان لجماعة القرامطة تنظيمات خاصة بها، غايتها تحقيق أهداف الحركة بفاعلية ونجاح.

وكان الدعاة على مرتبتين : الأولى «المستجيب»، والثانية «المُكَاسر». فالداعى المستجيب وجب أن يكون ذكيا، حَسِنَ المظهر، قادرا على التأثير وجذب الأتباع. فإذا ما تمرس في الأمر وأظهر كفاءة ومقدرة تحول إلى مرتبة «المكاسر»، أى الذى يستطيع أن يكاسر حُجَجَ خصومه؛ ولذا وجب أن يكون عالما بالدعوة، متبحرا، قادراً على منازلة شيوخ المذاهب الأخرى ومحاججتهم.

٣- العيَّارون والشطار:

وهم جماعات من العوام نَظَّمت نفسها على شكل تكتلات يرأسها رؤساؤها ومتقدموها، وقد دفعهم إلى هذا التكتل الوضع السياسى المتدهور للدولة العباسية وسوء الحالة الاقتصادية. وقد ظهرت بداياته فى هذه الفترة وقبلها بقليل، حيث نشطوا فى حصار بغداد أثناء فتنة الأمين والمأمون، ثم بعد ذلك فى حصار بغداد سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م. كما استعان بهم ابن شيرزاد لمحاربة البويهيين الغزاة سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م. إلا أن حركتهم لم تنتظم وتتبلور إلا فى القرن الربع الهجرى/ العاشر الميلادى، أى فى العصر البويهى، حين زادت الفوضى السياسية، واتسعت الهوة بين الأثرياء والفقراء لسوء الحالة المعيشية.

ويشير الدكتور الدورى: بأن العيّارين يمثلون تكتل طائفة من الطبقة العامة، نتيجة التباين الاقتصادى الطبقى، وأن حركتهم كانت بمثابة ثورة ضد الأسياد السياسيين وأسياد المال؛ ولذلك نرى بأنهم عادوا الأثرياء والتجار الموسرين وأشراف الناس.

وفى مناسبة أخرى يشـير الأستاذ الدورى بأنه: «قد حصل ارتبـاك سياسى وسوء إدارة نتيجة تسلط الأتراك فى القـرن الثالث الهجري. فأربك الحياة الاقـتصادية، وأضرّ بأهل الصنايع بصـورة مباشرة.. وظـهرت تيـارات اجتـماعـية تدعـو - باسم الدين - للإصلاح، وتؤكد، بـصورة خاصة، على تحسين الـوضع المالى والاجتماعى كـما فعل صاحب الزنج والقرامطة وإخوان الصفا.

هذه العوامل أثرت علـى وضع «العامة»، وبينهم أرباب الصنـايع والمهن بصورة خاصـة، وأوجدت لـديهم روح التذمـر والتمـرد، وجعلتـهم يساهمـون فى الحـركات الاجتماعـية بصورة فعالة، بل وكـونت بينهم جبهة ثورية، تتمثل بوضـوح في حركات العيّارين والشطار، منذ القـرن الثالث الهجرى، حتى سقوط بغـداد، وكانت العامة فى المدن الكبيرة خليطا من مختلف الشعـوب والألوان والعقائد، جاءوا للعمل والبحث عن الرزق.

والمهم أن نؤكد بأن «النهج الذى اتخذه العيـارون والشطار كان ثوريا، كما كانت حركتهم عنيفة ضد السلطة القائمـة وأصحاب الثراء . وهم بهذا يختلفون عن الحركات الأخرى المعادية للسلطة كالصوفية مثلا» وقد هاجم ابن الجوزى هذا العدل الذي اتصفوا به فقال :

«.... فإنهم يسـمون بالفتـيان ويقولون : الفـتى لا يزنى ولا يكذب، ويحفظ الحرم، ولا يهتـك ستر امرأة، ومع هذا لا يتـحاشون من أخذ أموال النـاس، ويسمون طريقتهم الفتوة، ويجعلون لباس السراويل للدخـول فى مذهبهم كَلِباَسِ الصوفية المرقعة للمريد».

أما هم فقد دافعوا عن وجهة نظرهم قائلين :

«بأن هؤلاء التجـار وأصحاب الثـروة والسيـادة، لم يدفعوا زكـاة أموالهم، وأن العيارين فقراء يستحقون ذلك؛ ولـذا فإن أخذ أموال التجار مسموح به»؛ لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم - (العيارون) - مستحقون للزكاة شاء أرباب المال أم كرهوا».

وكان للعيارين تنظيمات خاصة بهم وتدرج فى الرئاسة والقِدَم.

بابك ومزيار:

حفلت فتـرة حكم الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) بالكثـير من القلاقل. لذلك ركز جهـوده فى الدفاع عن الإسلام، على طريقـته الخاصة، فى المجال العـقائدى، فى نفس الوقت الذى رأى ضـرورة الدفـاع عن نظامـه بقوة السـلاح. ولا غـرو فقـد أثار الخوارج الفتن فى خراسـان، بعد أن غادرها المأمون، وكذلك فى شمـال الرافدين. كما خرج بعض العلويين فى بلاد اليـمن، فى حين أخذ القيـسيون واليمنيـون يتناحرون فى مصر، مما شـجع نصارى مصر على التـمرد بسبب الضرائب. وقـد أتاح ذلك الشغب، لجماعة من عرب الأندلس المبـعدين عن ديارهم ـ وهم الذين عرفوا باسم «أهل الربض» أن يستولوا على الإسكندرية بالذات طوال أحد عشر عاما (١٩٨ ـ ٢١٢هـ). وكان ذلك التمرد يمثل تحديا خطيرا، لسلطة الوالى العباسى على مصر آنذاك. مما جعل المأمون يقرر توجيـه أفضل قـواده، وهو «عبـد الله بن طاهر بن الحسين» لـيعالج الأمـر. ثم تدخل المعتصم أخو الخليفة، وأخيرا، المأمون نفـسه ليضع حدا ـ وبصورة دامية ـ لتلك الثورات والفتن.

أما بالنسبة لبـلاد المغرب، فلم تهتم بها الخلافة العبـاسية بل تركت أموره فى يد حكامه المحليين كالأغالبة فى تونس والقـيروان منذ ١٨٤هـ، هذا فضلا عن أن الأدارسة كانوا قد استقلوا بجزء منه، وتمركزوا فى عاصمتهم فاس منذ ١٧٢هـ، هذا من جهة.

ومن جهـة ثانية، كـان لابد من رفع راية الإسلام ضـد البيـزنطيين، فقـد أغفل الأمـويون الأواخر، وكـذلك أوائل العـباسـيين هذا الأمـر ـ لانصرافـهم إلى مـعالجـة موضوعات داخلية ملحة ـ أمرَ هؤلاء الروم وخطرهم على بلاد الإسلام، فاقتصروا على الغزوات الدورية المعروفة بالصوائف والشواتى، التى كان يشنها سكان التخوم على آسيا الصغرى.

والمعروف أن هارون الرشيد حرص ـ قبل غيره من الخلفاء ـ على معاودة الحملات العسكرية، كـما وضع تنظيمـا ثابتا للحدود في منطقـة الجزيرة، وأنشأ المقـاطعات التى سميت باسم «الثغور أو الثيمـات» ـ أى القلاع والأماكن الحصينة ـ والعواصم ـ أى التى تعصم مـن الخطر. كما أراد المأمـون أن يكون له أيضا شـأن بارز فى مضـمار الجـهاد، ووهب الإسـلام مقـاطعة جـديدة، ولو بصورة غـير مـباشـرة، حين طرد أهل الربض «الأندلسـيين» من الإسكندرية. فانتـزعوا من الروم جـزيرة «اقريطش أو كـريت»، التى تعاقب على حكمـها المسلمون حـتى منتصف القرن الرابع الهـجرى، وبينما كـان يقوم

بحملة فى آسيا الصغرى فاجأته المنية. وقد خلفه أخوه «المعتصم» الذى قاد آخر حملة من حملات الخلفاء التى سجلها التاريخ فى الأراضى البيزنطية عام ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م.

على أن العدو الداخلي اللدود ـ الذى توجب على المأمون أن يناهضه فى أواخر عهده، «وكذلك المعتصم» ـ كان هو «بابك الخرمى»، وربما أضفنا إليه «مازيار» أيضاً. ذلك أنه عقب موت أبى مسلم قامت حركات دينية واسعة متباينة، تنتمى إليه فى خراسان وفى آسيا الوسطى، بينما ظلت باقى الأقاليم الإيرانية هادئة إجمالاً، ما عدا أذربيجان، حيث انتشر أتباع «مزدك» بأعداد وفيرة فى الولايات الواقعة إلى الجنوب من بحر قزوين «Caspian Sea» ولم ينتشر فيها الإسلام انتشارا واسعا.

ففى هذه الأقطار وقعت اضطرابات خطيرة فى عهد المنصور، اقتضته إرسال ابنه «المهدى» بالذات فيما بين سنتي ١٣٩ ـ ١٤٠هـ / ٧٥٩ ـ ٧٦٠م لإخمادها. ثم ذكرت الروايات قيام فتن جديدة عام ١٩٤هـ/ ٨١٠م، وقت ظهور بابك المسمى بـ «الخرمى». وكان «بابك» فى حقيقة أمره من أتباع «مزدك»، أو لعله كان ينتمى إلى عائلة مزدكية متوسطة الحال. وقد ساعد وقوع أحداث وظروف ـ لم تصلنا أخبارها بصورة متيقنة ـ على تنصيبه زعيما لإخوانه فى العقيدة فى مقاطعة«البه» الجبلية بالقرب من «زنجان». وقد حاول بابك استغلال الظروف الاجتماعية من سُخْط الفلاحين على حفنة من الملاك العرب المسلمين، فحرض هؤلاء الفلاحين على الثَورة عام ٢٠١ هـ/ ٨١٦م، واستمرت ثورتهم حتى عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، فأغاروا على كبار الملاك، وعلى جميع القرى والضياع التى قاومتهم.

كما خرجت أذربيجان على الدولة العباسية، بعد أن أصابها الذعر، وانتشرت الفوضى، حتى مقاطعة «كردستان»، وأبيد عدد عديد من عسكر الخلفاء. وعَهِدَ المعتصم بقيادة الحملة إلى «الأفشين» ـ وهو أمير تركى ـ الذى أخذ يسترد السيطرة العباسية على البلاد تدريجيا، ويعيد بناء القلاع، ليتمكن من التغلغل فى البلاد. كما راح يبث العيون «الجواسيس» ويستدعى المتطوعين للجهاد، حتى تمكن من تطويق مدينة «البيذ». وفر بابك فطارده أحد أمراء الأرمن وقبض عليه، وكان هذا الأمير الأرمنى من اتباع بابك ذاته، وتم تسليم المتمرد الباغى «بابك الخرمى» للقائد العباسى «الأفشين»، الذى سلمه للخليفة المعتصم فأمر بإعدامه.

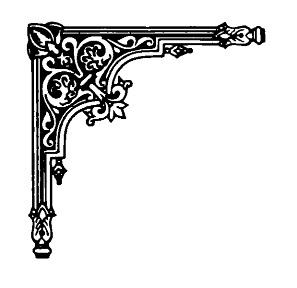
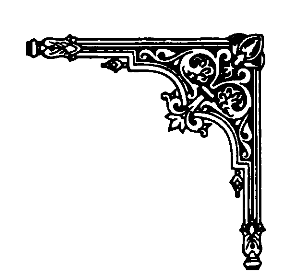
وقد انتشرت الخُرَّميَّه فى إيران قاطبة زهاء قرنين أو ثلاثة، بعد وفاته، وعرفت باسم «المحَمِّرة» ـ نسبة للون الذى اتخذته ـ وتناقلت مآثر أو صفات «بابك» قصص

شعبية إيرانية كثيرة. وقد تعاصرت حركة.بابك مع حركة مماثلة لها فى كثير من الوجوه، قام بها أتباع «بولس ساموزات» فى الإمبراطورية البيزنطية. فهل قيام هاتين الحركتين فى وقت واحد كان نتيجة تنسيق بينهما من عدمه؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عليه بصورة قاطعة.

على كل حال لم تكد فتنة بابك تخمد، حتى اندلعت فتنة فى مقاطعة «طبرستان» المجاورة، التى كانت قد استقرت فى بعض حواضره، منذ عهد المهدى، حاميات إسلامية إلى جانب الأسر العديدة، التى ضمت أمراء البلاد، ممن اعتنقوا المذهب المزدكى ومن أشهرها أسرة «قارين». وقد تملك بعض أعيان المسلمين هناك أملاكاً واسعة، لكنهم كثيرا ما تعرضوا لعمليات نهب وتمرد قام بها الفلاحون ـ وبخاصة فى المناطق الجبلية ـ الذين كانوا يهتبلون أقل فرصة سانحة للتمرد على هؤلاء الأعيان.

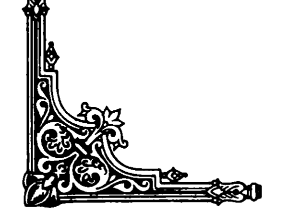
وينتمى مازيار إلى عائلة قارين، وقد اضطرته منازعات عائلية إلى اللجوء للمأمون، فاعتنق الإسلام فى الظاهر، وَوَلِىَ إدارة بلاده، على أن تشاركه فى الحكم إدارة عباسية ظلت قائمة فى ذلك الإقليم. وبعد عودته إلى طبرستان سلك مازيار سياسة لا تعادى الإسلام بطريقة مباشرة. بل تناوئ ـ على الأقل ـ كلا من المسلمين من العرب، والإيرانيين، الذين وفدوا إلى تلك البلاد، والسكان المحليين الذين اعتنقوا الإسلام، والحاكم العباسى نفسه. ثم إنه كان خصما للطاهريين ولاة خراسان، الذين كانوا يؤدون له نصيبه من الضرائب. والطاهريون يمثلون العنصر الإيرانى الذى اندمج فى المجتمع الإسلامى اندماجا تاما. وقد عجزت الدولة العباسية عن مقاومة «مازيار»، لانشغال قواتها الرئيسية بمحاربة بابك الخرمى.

والراجح أن بابك تلقى مساعدة من مازيار. وبعد القضاء على الأول (بابك)، توجه عبد الله بن طاهر للقضاء على «مازيار». واتسمت هذه الحرب بسمة اجتماعية واضحة على نحو ما تروى الأخبار التى بقيت بين أيدينا. فكان الفلاحون يغيرون على كبار الملاك، ويبيدونهم عن بكرة أبيهم. وأخيراً هُزِمَ «مازيار» وحُكِمَ عليه بالموت، لكن الهدوء لم يستتب فى مقاطعة طبرستان. فأما الأفشين»، فقد اتهم بمساعدة مازيار فى وقت ما؛ لأنه كان يحسد أسرة «طاهر بن الحسين» ولأنه لم يكن مسلما منذ نشأته الأولى (إذ كان بوذيا) وأعدم هو الآخر.

الفصل الثامن

نشاط البحرية الإسلامية من بداية العصر العباسى حتى آخر القرن الثالث الهجرى(*)



---

* صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ص٤٢-٩١ .

١ - نشاط القوات البحرية بالشام ومصر في البحر المتوسط:

أدى قيـام الخلافة العـباسية، وانتـقال حاضـرة الدولة الإسلاميـة من دمشق إلى بغداد، إلى تضاؤل عدد الحملات البحرية، التى كانت تخرج من سورية ومصر لمهاجمة القسطنطينية. وأضحت حروب الدولة العباسية ضد الروم يغلب عليها الطابع البرى.

وقد سـار العباسـيون على نفس النهج، الـذى سلكه قبلهم بنو أمـية. فوجـهوا اهتمـامهم إلى تدعيم التـعاون بين أساطيل الشام ومـصر، فضـلا عن شمال أفريقـية. واستطاعوا بفضل الخطـة البحرية التى ورثوها عن بنى أمية، حمايـة سواحلهم وموانيهم الواقعـة فى حوض البـحر المتوسط. فـأصبـحت شواطئ هذا البحـر تذخر بالشـعوب الإسلامـية وتعج بأساطيل المسلمين. وعلى الرغم من انصـراف العباسيين عن الاهتـمام المباشـر بشواطئ البحـر المتوسط. إلا أن مصـر ظلت مركزا لصناعـة السفن الإسلامـية الحربية والتجارية. كما احتفظ أهل الشام بتفوقهم في أمور البحر. حتى فاقت أساطيلهم أساطيل البـيزنطيين، وحالت بينهم وبين اسـتعادة مركـزهم في الحوض الشرقي للبـحر المتوسط.

لم تتـوقف حمـلات الأسطول الإسلامي بـين مصـر والشام، بعـد قيـام الدولة العبـاسيـة، على جزيرة قـبرس، حتى نهـاية القرن الثـالث الهجـرى. إذ قام الأسطول الإسلامي فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ)، من موانيه بالشام، وبقيادة ثمامة ابن وقاص بمهاجمة قبرس سنة ١٥٧هـ/ ٧٣٣م.

كما هاجم ثمامة بأسطوله ـ فى نفس السنة ـ إقليم «أيسورة» بآسيا الصغرى. لكن الأسطول البيـزنطى تمكن من احتلال الميـاه الإقليمية لشـاطئ أيسوره عند مدينة سـييس وقطع الاتصـال بين ثمامـة وبين سفن الشـام التى أبحرت مـعه، كـما حـاصر الجـيشُ البيزنطى قوات ثمامة البرية.

وفى خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) هوجمت جزيرة قبرس سنة ١٧٤هـ / ٧٩٠م، انتـقـامـا لما أحدثـه البيـزنطيـون وأسطولهم بـالمسلمين، الذين اختُطِفُوا، وهم فى عرض البـحر فى طريقهم إلى سوريا وبعد أن أنهت الحملة مهـمتها فى قبرس سارت إلى آسيا الصغرى.

واصلت القوات البحرية الإسلامية من مصـر والشام نشاطها فى البحر المتوسط، وبخاصة ضد قبـرس، وذلك بعد هدوء استمر نحو عشرين عامـا. فقامت حملة بحرية بقيادة والى سوريا «حميد بن معروف الهمذانى» فى سنة ١٩٠هـ لغزو قبرس. ويبدو أن

سبب هذه الحملة ـ كما يروى البلاذرى ـ هو تمرد القبارسة ونقضهم لما كان بينهم وبين المسلمين من عهد سنة ١٨٧هـ، وكان يتضمن وقوفهم على الحياد فى النزاع بين المسلمين والبيزنطيين، وكانوا قد التزموا به منذ خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ).

وكانت نتيجة هذه الحملة هى عودة القبارسة إلى سابق عهدهم، فى الالتزام بمبدأ الحياد الذى قطعوه على أنفسهم. وظلوا بذلك يعترفون بالسيادة الإسلامية عليهم، ويرسلون نصف خراجهم للمسلمين، والنصف الآخر للبيزنطيين حتى سنة ٢٩١هـ. ففى هذا العام عاود القبارسة خروجهم على مبدأ الحياد، وانحازوا إلى جانب الروم أعداء المسلمين. فجرد عليهم العباسيون حملة سنة ٢٩١هـ قادها شخص يدعى «غلام ظرافة»، - (وهو المعروف عند المؤرخين الأوربيين باسم «ليو الطرابلسى») ـ وقد استطاع هذا القائد أن يخضع أهل قبرس ـ المتمردين ـ لسيطرة المسلمين.

استمر النشاط البحرى لأسطولي مصر والشام فى العصر العباسى. ففى سنة ٢٢٧هـ (٨٤٢م) ، سار «أبو دينار» على رأس حملة كبيرة مكونة من ٤٠٠ مركب حربى ـ ما بين ناقلة للجنود والعتاد، ومقاتلة، من موانئ سوريا ـ قاصدا الهجوم على بيزنطة نفسها، التى كان سكانها قد أخذوا حذرهم للأمر. وفى هذا الوقت توفى الخليفة المعتصم العباسى سنة ٢٢٧هـ، كما تعرض الأسطول السورى لعدة كوارث بفعل العواصف البحرية.

رأى البيزنطيون ـ إزاء ما تعرضت له جزرهم وبلدانهم من هجمات الوحدات البحرية الإسلامية، التى قامت بها من قواعدها فى الشام ومصر ـ أن يقوموا بحركة هجومية مضادة فى أعقاب فشل حملة أبى دينار سنة ٢٢٧هـ ، منتهزين فرصة ضعف الروح المعنوية، وتحطيم القوات البحرية التى هاجمت بيزنطة، وكان هدفهم من ذلك هو إضعاف البحرية الإسلامية؛ ولذلك قاموا بعدة حملات على المدن الساحلية المصرية المطلة على البحر المتوسط. وكانوا قد هاجموا من قبل، فى التسع سنوات الأولى من القرن الثالث الهجرى، كلا من دمياط وتنيس منتهزين فرصة النزاع الذى نشب بين الأمين والمأمون، وما نتج عن ذلك من اضطرابات وفتن، فأعدوا عدتهم آنذاك لتوجيه الحملة إلى مصر.

ولم تكن هذه الحملة ـ وهى ثالثة الحملات البيزنطية على دمياط ـ آخر تلك الحملات؛ ذلك أن البيزنطيين قاموا بحملة رابعة فى ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م، هاجموا فيها هذه المدينة. ومما شجعهم على مداومة الإغارة عليها، أن موقع المدينة يسهل عليهم مهاجمته

من البحر. فدمياط تقع على قطعة من الأرض مستطيلة تمتد من مصب فرع دمياط والبحر المتوسط، بحيث لا يفصلها عن البحر سوى سبعة أميال، فهى بذلك متصلة مباشرة بالبحر. وكان هدف الروم من حملة سنة ٢٣٨هـ على دمياط هو الحيلولة دون وصول إمدادات مصر إلى مسلمى كريت. فلما شرعوا فى مهاجمتها وجدوها خالية من أى حامية تدفع عنها خطرهم.

وقد أعمل الروم النهب والتخريب والحرق فى دمياط، حتى لقد بلغ ما أحرقوه من منازلها ١٤٠٠ منزل، فضلا عما استولوا عليه من العتاد، الذى كان معدا لإرساله إلى مسلمى كريت، لمساعدتهم ضد الروم.

يقول المقريزى، فى وصف هذه الحملة البيزنطية على دمياط: «ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله (٢٣٢ -٢٤٧هـ/ ٨٤٧ -٨٦١م) وأمير مصر يومئذ هو عنبسة بن إسحق الضبى، نزل الروم دمياط، وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين. وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة، فنفر إليهم عنبسة بن إسحق يوم النحر، فى جيشه ونفر كثير من الناس إليهم، فلم يدركوهم، ومضى الروم، إلى تنيس فأقاموا بأشتومها، فلم يتبعهم عنبسة».

رحل البيزنطيون عن دمياط، فى اليوم الحادى عشر من ذى الحجة عام ٢٣٨هـ/ ٢٤ مايو عام ٨٥٣، بعد أن مكثوا بالمدينة ثلاثة أيام، محمَّلين بالغنائم والأسرى، حيث اتجهوا صوب تنيس. وقاموا بإحراق كل آلات الحرب، التى صادفوها فى هجومهم على دمياط، ثم عادوا أدراجهم من تلك الحملة التى حالفهم النصر فيها.

أدرك الخليفة العباسى «المتوكل على الله» (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) - بعد ما وقف على أحداث حملة الروم على كل من دمياط وتنيس سنة ٢٣٨هـ- أن أسوار هاتين المدينتين ليست مدعمة. ورأى أن الأمر يستلزم بذل عناية خاصة فى إنشاء الأساطيل؛ لأن الروم لا يفدون عليها إلا من جهة البحر المتوسط؛ لذلك أمر واليه على مصر ـ عنبسة بن إسحق الضبى ـ أن يعنى بإنشاء الأساطيل، واهتم العباسيون منذ ذلك الوقت ببناء الحصون والمحارس على سواحل البحر المتوسط الإسلامية، وبالذات فى مدينتى الفرما وتنيس.

ومما يجدر ذكره، أن العناية بتحصين دمياط برا وبحرا فى خلافة المتوكل، كان لها آثرها، فى درء الأخطار عن المدينة. حيث بقيت ـ بفضل ما أقيم فيها من حصون وحاميات بحرية وأساطيل، ترد غارات المعتدين.

وفى سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م)، أمر الخليفة العباسى «المتوكل على الله»، بأن ترابط السفن الحربية على طول الساحل وأن تشحن بالمقاتلة، توقُّعا لصد هجوم بيزنطى، ثم مالبث أن هاجم البيزنطيون دمياط ثانية فى نحو مائتى مركب، فظلوا يعيثون فسادا فى السواحل شهرا. وكان الروم فى غزوهم البلاد المصرية وسواحلها، يختارون الفترة التى تكون فيها الأمور غير مستقرة، فى مصر، أو فى الدولة الإسلامية، فيشنون على سواحل مصر أو الشام هجماتهم علّهم ينالون من قوة المسلمين البحرية فى الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

كما كانت غزوات البيزنطيين على مصر، تستهدف ـ إلى جانب الحد من نشاط الأسطول المصرى، شرق البحر المتوسط ـ الحيلولة دون وصول الإمدادات المرسلة باستمرار فى مصر إلى مسلمى كريت وقواتهم البحرية. فلما هاجم الأسطول البيزنطى دمياط سنة ٢٣٨هـ، أحرق ـ تنفيذا لهذا المخطط ـ كل ما كان مُعَدًّا للشحن إلى كريت، من عتاد ومؤن؛ لأنها ـ أى كريت ـ كانت قد أضحت بمثابة قاعدة هجومية متقدمة للمسلمين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط.

وكانت الأحداث السياسية التى عاشتها مصر فى تلك الفترة، عاملا هاما ساعد على الاهتمام بالأسطول ودور صناعة السفن بها؛ ذلك أن أحمد بن طولون، الذى استقل بولاية مصر عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، رأى أن الحاجة ماسة إلى الاهتمام بالسواحل والثغور، والقوة البحرية التى تحرسها وتدرأ عنها الأخطار التى قد تتعرض لها؛ لذلك أبدى اهتماما واضحا بالقوات البحرية المصرية، ودور صناعة السفن بمصر.

فيذكر المقريزى أن أحمد بن طولون أمر دور الصناعة ببناء المراكب، وقام بتحصين «جزيرة الروضة» ليحتمى فيها بأهله وماله، من غائلة العباسيين لو هاجموه، كذلك حصّن مدن السواحل وحصونها مثل : دمياط وتنيس، كما ظل سعد (جزيرة الروضة) عامراً أيام بنى طولون، ونشطت فيه صناعة السفن. فكانت تنشأ فيه المراكب الحربية، إلى أن تقلد محمد بن طغج الإخشيد إمارة مصر من قبل الراضى بالله سنة ٣٢٢ هـ.

وكان أحمد بن طولون ـ لشدة اهتمامه بالسواحل ـ يحمل إلى طرطوس وغيرها من الرباطات البحرية، وقواعد أسطوله فى الشام ومصر ما تحتاجه من عتاد وزاد، بدرجة لم يحملها إليها أحد قط. كذلك شرع فى بناء حصن يافا، لكنه توفى سنة ٢٧٠هـ، قبل الفراغ من بناء هذا الحصن، فأتمه ابنه أبو الجيش خمارويه. والواقع أن

أحمد بن طولون عنى عناية كبيرة بتدعيم وتحصين سواحل مصر والشام. فأنفق عليها بسخاء، حتى وصل ما أنفقه على المرات وعلى حصن يافا مائتا ألف دينار.

صارت وحدات الأسطول الطولونى تتخذ من موانئ الشام ومصر قواعد بحرية، للدفاع عن الدولة الطولونية، كما أسهمت هذه الوحدات فى النشاط البحرى الذى اضطلع به أسطول كريت الإسلامي فى مياه بحر إيجه.

وقد وصل عدد مراكب الأسطول المصرى عند وفاة أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ نحو ألف مركب. فلما خلفه ابنه أبو الجيش خمارويه، حذا حذوه فى الاهتمام بإيجاد قوات بحرية وسفن حربية ترابط على السواحل المصرية والشامية، المطلة على البحر المتوسط. كما أقام فى منار الإسكندرية ـ بعد تجديدها ـ «قوما مرتبين لوقود النار طول الليل، لإرشاد السفن. . فإذا أحسوا بقدوم قوات معادية أشعلوا النار فوق المنار من جهة المدينة حتى ينتبه الحرس، ويتخذون حذرهم . .». وقد استطاع الأسطول الطولونى فى مصر والشام ـ برغم الصعوبات الداخلية التى واجهت الطولونيين ـ أن يصد هجمات البيزنطيين البحرية سواء على مصر أو الشام.

وكانت قوة الأسطول الإسلامى، شرق البحر المتوسط ـ فى أواخر القرن الثالث الهجرى ـ وقواعده البحرية، تسمح له بالقيام بعمل كبير ضد الروم. يقول اليعقوبى ـ عن ميناء طرابلس الشام ـ فى أواخر القرن الثالث الهجرى ـ بأنه «عجيب يحتمل ألف مركب»، كما كانت طرابلس تعد آنذاك ميناء دمشق كما يقول الإصطخرى.

ولقد واصلت القوات البحرية الإسلامية فى أواخر القرن الثالث الهجرى نشاطها، فخرجت من مينائى طرطوس، وطرابلس، حملة بحرية فى أوائل سنة ٢٩١هـ استولت على جزيرة «لمنوس»، دون مقاومة من البحرية البيزنطية، التى كانت ـ وقتذاك ـ تعانى الاضطراب والفوضى. كما قامت حملة إسلامية أخرى فى هذه السنة مكونة من ٥٤ سفينة ناقلة للجند، كل منها بها نحو مائتى رجل بعتادهم، بقيادة قائد كفء، هو «أبو الحارث غلام ظرافه»، أمير صور ـ أو «رشيق الورداني»، كما تسميه بعض المصادر- ففتح تساليا (تسالونيك) وهاجم منطقة الدردنيل، ولم يُبد البيزنطيون أى مقاومة؛ لذلك استطاع ليو الطرابلسى (أو غلام ظرافه كما يسميه المؤرخون المسلمون)، أن يدخل بقواته المضايق مندفعا نحو القسطنطينية، بينما تحصن البيزنطيون بأسوار عاصمتهم.

ولا شك أن القائد أبا الحارث غلام ظرافة (ليو الطرابلسى) كان يخطط ـ بهجومه على تسالونيك سنة ٢٩١هـ ـ للاستيلاء على القسطنطينية. فدخل منطقة الدردنيل

واستولى على أبيدوس، وانضمت إليه وحدات بحرية من كريت، مما اضطر القائد البيزنطى إلى الانسحاب.

ولقد كانت حملة «أبى الحارث غلام ظرافة» على تسالونيك، من أهم ما قامت به القوات البحرية الإسلامية من سوريا، بالاشتراك مع قوات بحرية من كريت ومصر، لتأمين القوى الإسلامية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. وقد أحرزت القوات الإسلامية نصرا عظيما فى تسالونيك، إذ أسروا نحو ٢٢ ألف من سكانها. وكانت هذه المدينة قاعدة للأسطول البيزنطى ينطلق منها إلى الشام ومصر.

وكان الإمبراطور ليو السادس «الحكيم» (٨٨٦-٩١٢م/ ٢٧٧ -٣٠١هـ) يعلم بقيادة وحدات من البحرية العباسية، من قواعدها بالشام (طرابلس وطرطوس)، فى عهد المكتفى بالله العباسى (٢٨٩-٢٩٥هـ / ٩٠٢-٩٠٨م)، بهجوم جرىء على أملاكه. ثم مالبثت مخاوف ليو السادس أن تحققت صحتها حين ترامت إليه الأنباء، بأن المسلمين فى طريقهم لمهاجمة حاضرة دولته، وخاصة أنهم هاجموا تسالونيك سنة ٢٩١هـ، التى لم يكن بها وقتذاك حامية تدفع عنها الهجوم الإسلامى المباغت.

دلت حملة «أبى الحارث غلام ظرافة»، على تسالونيك، على مدى قوة الأسطول الإسلامى فى الشام، وإحكام التعاون بين وحداته ووحدات الأسطول المصرى، وقوات كريت الإسلامية البحرية. ويكفى لإدراك أهمية هذه الحملة، أن الدولة البيزنطية نفسها لم تبدأ فى عمل استحكاماتها الدفاعية الحصينة حول تسالونيكا وميناءها البحرى، إلا بعد هذه الحملة التى أنزلت بالمدينة الكثير من الخسائر والدمار.

استمر نشاط القوات البحرية الإسلامية من قواعدها فى كل من مصر والشام، يساعدهما فى ذلك قوات كريت البحرية، حتى صارت البحرية البيزنطية تخشاها طوال القرن الثالث الهجرى، وكان الهجوم على تسالونيك ونهبها وتخريبها، يعد دليلا على ذلك. وفى نفس الوقت لم يواجه النفوذ الإسلامى فى قبرص صعوبات إلا بعد حملة «أبى الحارث غلام ظرافة» على تسالونيك.

ولما خرجت جزيرة قبرس على موقفها الحيادى إزاء الصراع بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٢٩١هـ، عَوَّلَ ليو الطرابلسى (غلام ظرافه) على مهاجمتها، أثناء عودة الأسطول الإسلامى من تسالونيك. وقد عاودت قبرس تمردها على حيادها، بقيام حاكمها البيزنطى بمهمة قطع الاتصال بين سوريا وجزيرة كريت، ومنع استمرار تدفق الإمدادات الواردة إلى كريت، عن طريق خليج طرطوس، وموانئ الساحل السورى وكذلك بالنسبة لطرابلس واللاذقية.

حاول البيزنطيون إعادة سيطرتهم على قبرص بعد سنة ٢٩١هـ، فبدأوا يُضيِّقُون الخناق على تحركات الأسطول الإسلامى شرق البحر المتوسط. ويقول المسعودى أن سبب الحملة يرجع إلى نقض القبارسة للاتفاق السابق مع المسلمين، الذى أقروا فيه بأن يكونوا محايدين لا ينحازون للروم، ولا يساعدونهم. . .، وأن يدفعوا الفدية المقررة عليهم مناصفة للمسلمين والروم. لكن الخليفة العباسى وجه إلى الجزيرة حاكم طرطوس العباسى ـ وكان اسمه داميانا ـ على رأس حملة سنة ٢٩٧هـ، لإخضاع أهل الجزيرة المتمردة على المسلمين، فقام بالمهمة خير قيام.

ظلت جزيرة قبرص منذ القرن الأول وحتى بداية القرن الرابع الهجرى ـ (من السابع حتى بداية العاشر الميلادى) ـ ضمن أملاك الدولة الإسلامية، ولم تكن خاضعة للسيادة البيزنطية خضوعاً مطلقا. يقول ابن خرداذبة: «حينما كانت الحكومة الإسلامية (العباسية) تأمر بإرسال حملة بحرية، فإن حاكمى سورية ومصر كانا يكلفان بإنجاز التجهيزات اللازمة للحملة، ويلتقى الأسطولان، المصرى والشامى فى قبرص. فكانت هذه الجزيرة دائما منطقة تجمع للأساطيل الإسلامية، المهاجِمة للبلاد الخاضعة للروم فى البحر المتوسط، وكان رئيس الحملة غالبا، هو حاكم سواحلِ سوريا.

يقول المقدسى: «إن قبرص» جزيرة آهلة قَدَّمتْ للمسلمين كثيرا من الخدمات التجارية فى حوض البحر المتوسط. . وأن من يحكمها يسيطر على ذلك البحر».

لكن البيزنطيين تمكنوا من استعادة سيطرتهم التامة على الجزيرة فى عهد الإمبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م/ ٣٥٢-٣٥٨/ ٣٥٩هـ) سنة (٣٥٥هـ ـ ٩٦٥م)، وحلت الهزيمة بالأسطول الإسلامى. فقد انتهزوا فرصة الضعف الذى تعرضت له الدولة الطولونية، فى أواخر عهدها، فواصلوا حملاتهم على سواحل مصر فى رشيد والفرما وأشتوم تنيس.

ولما استقل الإخشيديون بحكم مصر سنة (٣٢٣هـ ـ ٩٣٥م)، عمدوا إلى الاقتداء بالطولونيين. فاهتموا بالأساطيل، ودعموا قواعدها وأسسوا دورا لصناعة السفن البحرية التجارية، حتى لقد صار لدى الإخشيديين أسطول قوى.

غير أن الإخشيديين لم يتمكنوا من بعث النشاط البحرى الإسلامي فى شرق البحر المتوسط، بسبب انشغال ولاتهم بالدفاع عن مصالحهم الخاصة. ثم لم يلبث حكمهم أن زال بعد وقت قصير (سنة ٣٥٧هـ - ٣٥٨هـ/ ٩٦٨-٩٦٩). مما ترتب عليه توقف نشاط الأسطول الإسلامى فى مصر والشام شرق البحر المتوسط إلى حين.

والحقيقة أن العناية بالأسطول، كانت أمرا هاما فى إستراتيجية الدولة الإسلامية عامة، وبالنسبة لجميع ولاة مصر وحكامها بخاصة. وفى ذلك يقول المقريزى: «ومازال حصن الجزيرة (بالروضة) هذا عامرا أيام بنى طولون وعملت فيه صناعة مصر، التى تنشأ فيها المراكب الحربية فاستمرت صناعته، إلى أن تقلد الأمير محمد بن طغج إمارة مصر، من قبل الخليفة الراضى بأمر الله (العباسى)، عوضاً عن «أحمد بن كيغلغ» وسير المراكب من الشام عليها «صاعد بن الكلكم»، فدخل تنيس وسارت مقدمته فى البر، ودخل صاعد دمياط.. وأقبل بمراكبه إلى الفسطاط، فكان بالجزيرة. وقدم محمد بن طغج الإخشيد، وتسلم البلد، لستٍّ بَقِينَ من رمضان سنة ٣٢٣هـ.. وكان نقل الصناعة - أى دار الصناعة - من الجزيرة، إلى ساحل النيل بمصر، فى شعبان عام ٣٢٥هـ.

أصبح للعالم الإسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى، ثلاث قوى إسلامية بحرية متميزة فى حوض البحر المتوسط: الأولى فى الغرب وهى الأموية بالأندلس، والثانية: فى الحوض الأوسط للبحر المتوسط وهى قوة الأغالبة، والثالثة: فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وهى قوة العباسيين البحرية فى مصر والشام. وكانت القوة البحرية للمسلمين شرق البحر المتوسط تتكون من أساطيل سورية ومصر.

وقد استطاعت القوات البحرية العباسية بالشام ومصر، أن تهزم الفاطميين بحريا، الذين كان أسطولهم لا يزال فى ذلك الحين أقل كفاية. ففى سنة (٣٠١هـ - ٩١٣م) تمكنت ٢٥ مركبا حربيا من أسطول الشام أن تلحق الهزيمة بنحو ٨٠ مركبا من أسطول الفاطميين. لكن البحرية الإسلامية، شرق البحر المتوسط، تعرضت للضعف بسبب عدم اهتمام الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م) بأمرها، وعجزه عن إمداد حصون السواحل الشامية ورباطاتها البحرية، فى طرابلس وصيدا وصور وعسقلان بما تحتاجه من عتاد ومؤن. فتأثرت بذلك مقدرة ونشاط الأسطول الإسلامى بالشام شرق البحر المتوسط. كما طمع فيهم البيزنطيون، حتى تجرأ الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (٩١١-٩٥٩م/ ٢٩٩-٣٤٨هـ)، وطلب من أهل السواحل الشامية أن يؤدوا إليه خراجهم وقال: لهم مهددا «إن فعلتم ذلك طائعين، وإلا قصدتكم فقد صح عندى ضعفكم».

وهكذا تقلص نشاط الأسطول الإسلامى بالشام ومصر فى أواخر القرن الثالث الهجرى، ولم يصبح له أى تأثير بارز فى ذلك الوقت، بسبب ما كان يعانيه من ضعف، نتيجة لما ساد بلاد الشام والدولة الإخشيدية بمصر من اضطراب.

وقد ترتب على تداعى القوة البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط آنذاك، أن سيطر الروم على موانئ: بيروت وصيدا وجبيل. أما طرابلس فاستعصت عليهم وعادت الحملة البيزنطية إلى أنطاكية بقيادة الإمبراطور زيمسكيس.

٢- الفتح الإسلامى لجزيرة أقريطش، كريت، وموقف بيزنطة منه:

شرع المسلمون ـ أيام خلافة هارون الرشيد ـ فى الإغارة على جزيرة كريت (أقريطش). فهاجمها أسطول إسلامى بقيادة حميد بن معيوف الهمذانى، وسيطر المسلمون فى هذا الهجوم على بعض نواحى الجزيرة.

لكنهم لم يلبثوا أن غادروها عائدين إلى الشام. وظل الحال على ذلك حتى ولى المأمون الخلافة (١٩٨ ـ ٢١٧هـ/ ٨١٣ ـ ٨٢٣م). وفى عهده تم فتح هذه الجزيرة على يد قوم من مهاجرى الأندلس. ويعد دخول أولئك الأندلسيين جزيرة كريت، وفتحهم لها، واستقرارهم بها، دليلا على نشاط الجماعات الإسلامية، التى كانت تعمل فى مياه البحر المتوسط». ذلك أن معظم حركات الأندلسيين، فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وقعت حوالى عام ١٩٩هـ/ ٨١٤م، حين اضطر فريق منهم يبلغ عدد نحو ١٥,٠٠٠ شخص إلى الهجرة من الأندلس، على إثر ثورة قامت فى ضواحى قرطبة، فى ربضها الغربى، أيام الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م)، الذى عرف بعد هذا التمرد «بالحكَم الربضى».

وكان سبب هجرة الربضيين هو ذلك التمرد الخطير، الذى قاموا به فى الربض الغربى لمدينة قرطبة؛ ذلك أنهم ثاروا أكثر من مرة ضد الأمير الحكم بن هشام، بسبب ما عرف عنه من انصراف عن شئون الرعية.

على أن سياسة الشدة والعنف التى انتهجها الأمير الحكم بن هشام لإخماد ثورة الربضيين فى سنتى ١٨٩ - ١٩١هـ (٨٠٥-٨٠٧م)، أدت إلى إثارتهم سنة (١٩٩هـ ـ ٨١٤م). فأعلنوا خلعه، وتمردوا عليه وبايعوا أحد أقاربه ويدعى «ابن شماس» الذى خدعهم وأفشى سر ثورتهم للحكم وجنده. فقاتلهم الأمير الأموى وهدم دورهم ومساجدهم، حتى أطلق عليه تخليدا لهذا الحادث اسم «الحكَم الربَضِى».

أبحر هؤلاء المهاجرون الأندلسيون، دون أن يصحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم، إلى الإسكندرية، حيث استقروا فى ضواحيها سنة ١٩٩هـ ـ ٨١٤م)، وتحالفوا مع قبيلة من عرب إفريقية على حمايتهم، إلى أن تمكنوا من المدينة بعد أن قويت شوكتهم.

ويظهر أن هؤلاء اللاجئين وصلوا بمراكبهم إلى الإسكندرية، دون أن تعترضهم سفن البيزنطيين أو العباسيين.

واختار المهاجرون من بينهم «أبا حفص عمر البلوطى» أميرا عليهم. وعلى الرغم من أن الأندلسيين كانوا ممنوعين من دخول الإسكندرية، لكنهم - رغم ذلك - استمروا يسيطرون عليها لمدة تزيد على عشر سنوات أو أكثر ابتداء من سنة ٢٠٠هـ / ٨١٦م. وقد عرفوا بنشاطهم فى البحر المتوسط، وكانوا أحيانا يذهبون بمراكبهم إلى كريت، للإغارة وأحيانا أخرى للتجارة.

ولما وقعت الفتن والقلاقل فى مصر، فى عهد المأمون العباسى، أرسل هذا الخليفة قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين ، سنة ٢١٠هـ لوضع حد لها. واستمر عبد الله بن طاهر يعمل بقواته نحو سنتين، لإخضاع والى مصر العباسى عبيد الله السرى، الذى أعلن استقلاله عن الخلافة العباسية، وقد تيسر له ذلك فى ربيع الأول سنة ٢١٢هـ (يونيو ٨٢٧م). كما صالحه الأندلسيون على أن يُسيِّرهم من الإسكندرية حيث أحبوا، واشترط عليهم ألا يُخرِجُوا فى مراكبهم أحدا من أهل مصر.

بعث عبد الله بن طاهر، إلى سفن الأندلسيين المهاجرين، من فَتَّشَ سفنهم. فوجدوا فيها جمعا من المصريين، مخالفين بذلك، ما اشترطه عليهم. فأمر ابن طاهر بإحراق سفنهم، غير أنهم توسلوا إليه ألا يفعل، ويتركهم لشأنهم. فأجاب طلبهم وساروا متجهين إلى أقريطش فى ربيع الأول سنة ٢١٢هـ، وعلى رأسهم أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى.

ومما يجدر ذكره، أن أحداث قدوم الأندلسيين من الإسكندرية، إلى كريت (أقريطش) يرددها المؤرخون والكتاب المسلمون وحدهم. أما المؤرخون الأوربيون، فيذكرون أن فاتحى (أقريطش) قَدِمُوا مباشرة من الأندلس أو صقلية إلى الجزيرة (كريت)، دون أن يشيروا إلى رحيل الأندلسيين عن الإسكندرية.

لما عبر الأندلسيون المهاجرون البحر المتوسط إلى كريت، تحصَّنوا فى إحدى نواحيها حول خندق، وسموها باسم «الخندق» أوقندية، واتخذوها - فيما بعد - مركزاً لنشاطهم البحرى فى حوض البحر المتوسط. وكانوا - فيما يرجح - قد نزلوا بالجزيرة فى العام السابق (٢١١هـ/ ٨٢٩م) فى محاولة منهم للتعرف على أحوالها ومعرفة قوة الروم بها، إذا ما تيسر لهم دخولها أو الاستيطان بها. ولا يبعد أن يكون الأندلسيون قد عادوا من غارتهم الاستطلاعية سنة ٢١١هـ بمعلومات وافية عن أحوال الجزيرة، فضلا عما

حملوه من غنائم وأسلاب، حصلوا عليها فى غاراتهم الخاطفة، مما شجعهم على الاتجاه إليها بعد أن أخرجهم عبد الله بن طاهر من الإسكندرية.

لما استقر أبو حفص وأتباعه من الأندلسيين فى جزيرة كريت، استولوا على حصن، على مقربة من ساحلها، وأقاموا به، كما احتموا بخليج سودا، وقاموا بتخريب الحصون والقلاع البيزنطية التى صادفتهم على أرض الجزيرة. ويبدو أن الأندلسيين لم يواجهوا عند نزولهم أية مقاومة، إذ كان السكان أنفسهم يكرهون الإدارة البيزنطية، كما يرجع عدم مقاومة البيزنطيين لهؤلاء المسلمين الذين دخلوا كريت، إلى ما أصاب الأسطول البيزنطى أثناء قيامه بالقضاء على ثورة توما الصقلى قبيل الفتح الإسلامى لكريت.

أسس أبو حفص مدينة جديدة فى جزيرة أقريطش وأحاطها بخندق، فسميت المدينة باسمه «قنديه» أو «الخندق» واتخذها حاضرة له. ولم يلبث المسلمون أن سيطروا على كثير من مدن هذه الجزيرة، وقد شعر أهل كريت بالأمن والاستقرار فى ظل الحكم الإسلامى، واستمروا على هذه الحال حتى هاجم البيزنطيون الجزيرة سنة (٣٥٠هـ - ٩٦١م) واستولوا عليها.

كان اعتراف حكام كريت المسلمين، بالتبعية للعباسيين، مما ساعد على جعل هذه الجزيرة بمثابة قاعدة بحرية هامة للأسطول الإسلامي شرق البحر المتوسط. إذ غدت كريت تابعة لولاية مصر إداريا، كما صارت الإمدادات تصلها تباعا من مصر والشام. وفى نفس الوقت عمل مسلمو كريت على تكوين وحدات بحرية جديدة لهم، وكان مما ساعدهم على ذلك غابات منطقة «إدا» بكريت التى أمدتهم بحاجتهم من أخشاب السفن.

ولم يغفل الأباطرة البيزنطيون - ابتداء من ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩ م) - عن الخطر الذى أحاط بهم، نتيجة وقوع جزيرة كريت فى يد المسلمين؛ ذلك أن ضياع هذه الجزيرة الغنية الهامة من يد البيزنطيين لم يكن بالأمر الهَيِّن عليهم؛ ولذلك بذل الإمبراطور ميخائيل الثانى، ومن وَلِىَ بعده، جهودهم لإعادتها إلى حوزتهم، فأنفذ إليها عدة حملات بحرية، لكنها لم تسفر عن شىء. بل إن المسلمين دعموا أنفسهم فى كريت، فغزوا جزيرة إيجين - الواقعة فى بحر إيجه - ودخلوها، وأدَّبوا أهلها، كما أسروا منهم الكثير.

ثم أرسلت الإمبراطورة زوى (Zoë)- والدة قسطنطين السابع الوصية على ميخائيل الثانى - حملة بحرية بقيادة الفوتينوس، لضم جزيرة كريت إلى السيطرة البيزنطية. غير أن هذه الحملة فشلت فى تحقيق أغراضها، كما حلت الهزيمة بحملة أخرى أرسلها البيزنطيون لاسترداد كريت. وقد كشفت هذه الحملات البيزنطية الفاشلة، عن مدى ثبات أقدام المسلمين بجزيرة كريت وضعف البحرية البيزنطية فى نفس الوقت.

وبهذا النصر، ضمن المسلمون بقاء جزيرة كريت فى يدهم حتى سنة ٣٥٠هـ، قاعدة لأسطولهم فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، مما حمل الروم على بذل المزيد من جهدهم لأخذ هذه الجزيرة. فعملوا على تجهيز عمارة بحرية ضخمة، لإخضاع المسلمين بها، بعد أن أصبحوا مصدر قلق شديد على كيان دولتهم فى البحر المتوسط. غير أن تدابير أهل كريت المحكمة، عَوَّقَتْ هذه الحملة، وحالت دون إبحارها من الموانئ البيزنطية. وكان مما ساعد على ذلك الفشل، تشتت جهود الإمبراطور البيزنطى، الذى شغل بحماية جزر بحر الأرخبيل، التى تعرضت لغارات قوات كريت البحرية.

ومن ناحية أخرى، لم يقم البيزنطيون بعد سنة (٢٢٨هـ - ٨٣٤م) بأية عمليات بحرية جديدة ضد المسلمين فى شرق البحر المتوسط عامة، وكريت بصفة خاصة، إلى أن جاء عام (٢٣٨هـ - ٨٥٣م)، فقاموا بهجوم مفاجئ على مدينة دمياط لقطع الإمدادات المرسلة من مصر إلى مسلمى كريت. لأن مسلمى كريت كانوا على اتصال بمصر - التى تشرف حكوماتها على الجزيرة إداريا باسم الدولة العباسية - وقد نهبت الحملةُ البيزنطية مدينة دمياط واستولت على العتاد والذخائر التى كانت معدة لإرسالها إلى كريت.

ويبدو أن الإغارات البيزنطية على هذه المدينة، ودلتا النيل فى مصر، فيما بين سنتى ٢٣٨، ٢٤٥ هـ كان لها - بلا شك - بعض الأثر، فى الإقلال من نشاط وحدات كريت البحرية ضد الروم، فى بحر إيجه وشرق البحر المتوسط عامة. فظلت الأراضى البيزنطية، فى شرق البحر المتوسط، فى مأمن من غارات قوات كريت البحرية حتى عام (٢٤٨هـ - ٨٦٢م)، حيث بدأ المسلمون فى كريت يستأنفون نشاطهم فى بحر إيجه.

وكان آخر ما قام به الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧م/ ٢٢٧-٢٥٢هـ) أن حشد حملة كبيرة أعدها قائده بارداس، للهجوم على كريت سنة (٣٥٢هـ - ٨٨٦م). على أن تبدأ الحملة هجومها فى فصل الربيع من هذه السنة. لكن الحظ قلب ظهر المجَن للبيزنطيين، ففشلت حملتهم، كما فشلت ما سبقها من حملات، ولم يقدر لهذه الحملة أن تقلع من موانيها بسبب اغتيال «بارداس» على يد باسيل الأول.

صارت القوات البحرية الإسلامية، من القوة بحيث يخشاها الروم وأساطيلهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى (أوائل القرن العاشر الميلادى). فقامت الوحدات البحرية لمسلمى كريت بغارات تأديبية على شواطئ البلوبونيز، وسيطروا من جديد على جزر بحر إيجه. واشتدت هجماتهم، وعمل أسطولا كريت وسوريا على تنسيق نشاطهما ضد البيزنطيين فى البحر المتوسط، ففى سنة (٢٨٩هـ - ٩٠٢م) هاجم أسطول سوريا (بقيادة أبو الحارث)، «غُلاَمْ ظرافه» - (ليو الطرابلسى) - الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى. ثم أعقب ذلك الحملة البحرية سنة (٢٩١هـ - ٩٠٤م) على تسالونيك. فاضطر الإمبراطور ليو السادس إلى تدعيم قواته البحرية للدفاع عن أملاك الروم ضد القوات الإسلامية وعملياتها التى تميزت بطابع التنسيق بين كل من سوريا ومصر وكريت.

وخلال احتدام ذلك الصراع السياسى والحربى، بين كل من المسلمين والبيزنطيين فى حوض البحر المتوسط، فقد ذكر البعض أن بطريق القسطنطينية - وقتذاك - أنفذ رسالة إلى حاكم كريت المسلم، يطلب إليه فيها المهادنة، ويذكر له أن من مصلحة المسلمين والروم معا، أن يتعايشا فى سلام، برغم اختلاف العادات والديانة والتقاليد بين الطرفين المتحاربين.

لكن مسلمى كريت استمروا - رغم عرض المهادنة الذى قدم لهم من جانب الروم بواسطة بطريق القسطنطينية - فى تدعيم قواتهم البحرية؛ لأن عرض السلام، الذى قدمه هذا البطريق، كان صادرا عن شعور البيزنطيين بحاجتهم إلى فترة يستعيدون فيها نشاطهم الحربى. خاصة بعد أن تجلى تعاون القوات الإسلامية البحرية فى كل من كريت ومصر وسوريا، وذلك فى الحملة التى هاجمت تسالونيك سنة (٢٩١هـ - ٩٠٤م)، والتى حققت نجاحا كبيرا على الروم، وأنزلت بهم كثيرا من الخسائر. مما حمل البيزنطيين على توجيه حملة إلى كريت سنة (٢٩٦هـ - ٩٠٩م)، كان نصيبها الفشل. وظلت - قندية عاصمة كريت الإسلامية - مصدر خطر على النفوذ البيزنطى فى بحر إيجة.

كما ظل قائد الأسطول السورى «أبو الحارث غلام ظرافة» (ليو الطرابلسى) مصدر قوة يخشاها الوجود البيزنطى فى شرق البحر المتوسط إلى أن أسره الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣/ ٣٤٨ -٣٥٢هـ)؛ بعد أن تحطم أسطول ليو الطرابلسى على مقربة من جزيرة لمنوس (لمنى).

وبهذا النصر الذى أحرزه البيزنطيون؛ استطاعوا أن يدرأوا عن أنفسهم خطر مسلمى كريت، وأسطول الشام مدة تزيد على العشرين عاما. وفى سنة ٩٤٩م

(٣٣٧ - ٣٣٨هـ) عاود البيزنطيون محاولتهم للسيطرة على جزيرة كريت، فباءت حملتهم بالفشل فى غزوة مدينة «قندية» عاصمة تلك الجزيرة.

وهكذا كان الصراع البيزنطى الإسلامى حول جزيرة كريت، فى غير صالح الروم، طوال عهد الإمبراطور، ليو السادس، ففى آخر عهد هذا الإمبراطور أعد قسطنطين السابع حملة كبيرة، فشلت فى هجومها على كريت سنة ٩٤٩م كما ذكرنا. وظلت هذه الجزيرة فى نطاق السيادة الإسلامية حتى زمن الإمبراطور «رومانوس الثانى» ابن قسطنطين السابع، الذى استطاع أن يرسل قائده نقفور فوكاس، فأضاف إلى الإمبرطورية جزيرة كريت سنة (٣٥٠هـ - ٩٦١م) يعد حصار ضربه عليها لمدة تسعة أشهر متوالية.

وكانت هذه الحملة التى قادها نقفور، وتيسر لها إعادة غزو كريت وضمها إلى حوزة الإمبرطورية البيزنطية، عظيمة العدد والعدة. كما أن القسطنطينية احتاطت للأمر، فبعثت ببعض أساطيلها إلى شرق البحر المتوسط، لتحول دون وصول أية إمدادات يحتمل أن تصل إلى الجزيرة سواء من سورية أو مصر.

ويذكر ياقوت، أن نقفور قاد الحملة، وابتدأ حصار الجزيرة من جمادى الآخر سنة ٣٤٩هـ (أغسطس سنة ٩٦٠م)، حتى المحرم سنة (٢٥٠هـ - مارس ٩٦١م)، وأن حاكم الجزيرة المسلم «عبد العزيز بن شعيب»، - وفى رواية أخرى غير مرجحة حبيب بن عمر - أسر وأخذ إلى القسطنطينية، حيث ظل بها حتى مات.

على أن البيزنطين لم ينزلوا كريت - رغم ضخامة حملتهم - بسهولة، بل لقوا عناء كبيرا ومقاومة عنيدة، من مسلمي هذه الجزيرة وحاكمها الذى أسروه عند استيلائهم عليها، مما كان سببا فى أن لَقَّبَ البيزنطيون نقفور فوكاس بلقب «القائد المظفر».

وفى ربيع الثاني سنة ٣٥٠هـ (٧ مارس ٩٦١م) سقطت مدينة قندية «الخندق» عاصمة الحكم الإسلامي بجزيرة كريت. واستولى الروم على ما فيها من مال ومتاع ونساء صِرْنَ سبايا لهم ورجال استَرَقُّوهُمْ، وبعثوا بكل هذه الغنائم والأسلاب إلى القسطنطينية. ويقال أن نقفور فوكاس حمل من أموال وسبى أقريطش نحوا من ٣٠٠ (ثلاثمائة) مركب وأن جنده هدموا قندية بقلاعها.

ويُرْجعُ ابن حوقل السبب فيما أصاب مسلمي كريت، من وهن وضعف ساعد على زوال دولتهم، إلى ما داخل أهلها من الحسد والنكد والشحناء والصراع الداخلى، وما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية، وأهل ذلك البلد من الفسق، والفساد، والشح،

والعناد، والغيلة، فَجُعلُوا عبرة للمعتبرين، وموعظة للناظرين، ثم يعقب ابن حوقل على ذلك بقوله : «وكان للمسلمين فى بحر الروم (البحر المتوسط) غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة، فاستولى العدو عليها مثل : أقريطش وقبرس، وكانتا جزيرتين كثيرتى الخير والميرة (المؤن) والتجارة، الوارد منها والصادر عنها، وكانوا يغزون بلاد النصرانية». «وجزيرة أقريطش حرة منذ فتحت، لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج، إلا على طريق الجهاد، أو فى حين الهدنة والمسالمة يدخلونها على شرائط».

ولم يجد الروم موقعا يحكمون منه أقريطش خيرا من الموقع الذى أُقيمت عليه مدينة «الخندق» ـ قندية ـ الذى اختاره المسلمون من قبل، حين نزلوا أرض الجزيرة. كما رأوا أن السيطرة على الجزيرة تقتضيهم الخلاص من البقية الباقية منهم، فخربوا دورهم وهدموا قلاعهم فى «قندية» واختاروا ربوة إلى جوارها، أقاموا عليها قلعة أسموها تيمتوس، وهكذا زال الحكم الإسلامى من كريت.

وصفوة القول، أنه كان لدخول المسلمين حوض البحر المتوسط، وسيطرتهم على مياهه، وتهديدهم شواطئه البيزنطية، وفتحهم بعض جزره، نتائج بعيدة الأثر على مصائر الدول الأوربية، التى تطل على حوض هذا البحر، منذ أوائل القرن الثامن وإلى نهاية القرن الحادي عشر الميلاديين تقريبا.

٣- فتح جزيرة صقلية :

كانت سيادة المسلمين على حوض البحر المتوسط، الأوسط والغربى، تامة حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، حيث وصلت قوة الأغالبة البحرية فى إفريقية، والأمويين فى الاندلس، إلى درجة كبيرة من التفوق، حتى أن سفن جزيرة سردينية (أو سردانية) كانت لا تأمن عبور البحر إلى إيطاليا، خوفا من خطر الأسطولين الأغلبي والأندلسى. ثم بدأت هذه السيادة تصبح محل صراع بينهم وبين شعوب غرب أوربا، خاصة أيام ببين الكبير، مؤسس البيت الكارولنجى.

أما عن النشاط البحرى الذى أبداه أهل المغرب، ابتداءً من القرن الثامن الميلادي تجاه جزيرة صقلية، فلم يَعْد أن يكون سرايا هجومية خاطفة، أصبحت فيما بعد بمثابة محاولات لاختبار أحوال الجزيرة، التى سيقدر للأغالبة أن يقوموا بفتحها، ابتداء من سنة (٢١٢هـ ـ ٨٢٧م). وكانت الحملات الإسلامية على جزيرة صقلية، قبل سنة ٢١٢هـ، مجرد سرايا لا تؤدى إلى استقرار بالجزيرة بقدر ما كان هدفها الإغارة السريعة الخاطفة، ثم العودة إلى قواعدها، بعد تحقيق هدفها المحدود.

وفى منتصف عام (١٨٤هـ - ٨٠٠م) وجه الخليفة العباسى «هارون الرشيد» إلى ولاية إفريقية، إبراهيم بن الأغلب - رأس الأسرة الأغلبية، الذى اهتم بتدعيم السلطة الإسلامية فى هذه الولاية، كما عنى بإنشاء الأساطيل، لمد النفوذ الأغلبي عبر البحر المتوسط.

ومن ناحية أخرى، فقد بات واضحا أن القسطنطينية، لم يعد لها القدرة أو القوة الكافية لصد غارات المسلمين على جزيرة صقلية، أو استعادة جزيرة كريت وقتذاك، أو حتى حماية جزر بحر إيجه والسواحل التى تعرضت لغارات المسلمين البحرية بصفة مستمرة، سواء من جزيرة كريت بعد فتحها - أو من القوات الإسلامية فى الشام ومصر.

وكانت جزيرة صقلية ضمن المناطق التى شملتها الهدنة التى عقدت بين الأمير إبراهيم بن الأغلب، وبين حاكم «أو بطريق» الجزيرة سنة ١٨٩هـ (٨٠٤ - ٨٠٥م). ولكن على الرغم من أن الهدنة جُدِّدَتْ لعشر سنوات أخرى تبدأ من عام ١٩٧/١٩٨هـ (٨١٣م)، إلا أن أثرها كان فيما يبدو معدوما؛ لأنها لم تمنع مسلمى شمال أفريقيا وبحريتهم، من القيام بغارات متعددة على جزيرتى كورسيكا وسردينيا، فيما بين سنتى ١٩٥ ، ١٩٨هـ. ورغم أن خسارة المسلمين فى هذه الإغارات كانت كبيرة، إلا أنها حفزتهم إلى مهاجمة صقلية سنة ٢٠٥-٢٠٦هـ (٨٢٠م).

وكانت الظروف التى تحيط بالأغالبة تحتم عليهم إعداد جيش قوى، والاهتمام ببناء المراكب الحربية، وإعداد القوات البحرية، حتى يمكن تنفيذ مخططهم، الذي كان يرمى إلى بسط سيادتهم على الحوض الأوسط للبحر المتوسط، وكان دافعهم إلى ذلك اعتقادُهم أنه جهاد فى سبيل الله. هذا، فضلا عن ضمان وسيلة حماية لوجودهم ومصالحهم فى حوض البحر المتوسط. فعملوا على إعادة بناء أسطولهم بشمالى أفريقيا، وأقاموا دورا لصناعة السفن في مدينتي ترشيش (تونس حاليا)، وسوسة، ودعموهما بمهرة الصناع. وبهذا أصبح لديهم أسطول قوى، يمكنه مواصلة الفتوحات الإسلامية، وفى الحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط. وكان فتح صقلية من أهم هذه الفتوحات.

لم يكن طريق فتح صقلية ميسورا، بل اكتنفه الكثير من الصعاب والعقبات، خاصة وأن الغزوات والسرايا، التى اتجهت إلى الجزيرة من قبل - ابتداءً من سنة ٣٢هـ (٦٥٢م) وحتى حملة ١٩٨هـ (٨١٣ -٨١٤هـ) نَبَّهت الروم إلى المناطق التى يرمى المسلمون إلى السيطرة عليها فى البحر المتوسط. فأعدوا للأمر عدته وحصنوا جزيرة

صقلية، فجعلوا منها قاعدة أمامية لأسطولهم، الذى ترابط وحداته فيها لحماية الإمبراطورية البيزنطية. وصارت سفنهم تخرج كل عام لتطوف بالجزيرة، فضلا عن مراقبتهم لتحركات أسطول الأغالبة، وأساطيل سورية ومصر فى شرق البحر المتوسط، وأسطول الأمويين بالأندلس.

وكانت سياسة بيزنطة فى صقلية من العوامل التى أدت إلى قيام ثورة يوفيميوس - قائد الأسطول البيزنطى فى هذه الجزيرة - «فوقع الخلاف بينه وبين واليها البيزنطى قسطنطين بن بطريق، فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى. فحرض يوفيميوس الأغالبة على دخول الجزيرة وفتحها، ووعدهم بالمساعدة نكاية فى واليها البيزنطى، على أن يكون بعد فتح الجزيرة تابعا للأغالبة فى «إفريقية. وهكذا كانت هذه الظروف فرصة مواتية، ليبدأ الأغالبة تنفيذ خطة فتح صقلية، متذرعين باستنجاد يوفيميوس بهم.

وقد ذكر ابن الأثير أن الأغالبة أرسلوا - بناء على طلب يوفيميوس - حملتهم الأولى بقيادة أسد بن الفرات. وحقيقة الأمر أن الأغالبة كان قد استقر رأيهم على فتح جزيرة صقلية، لأهميتها بالنسبة لسواحل شمالى أفريقيا. ولم تكن أحوال الجزيرة قبيل الفتح الإسلامى تختلف عن أحوال الأندلس كثيرا إبان فتحها. وفى نفس الوقت كان الأغالبة قد استقر حكمهم، وأصبحوا قادرين على فتح جزيرة صقلية.

لم يكن من السهل على زيادة الله الأول، أمير الأغالبة، أن ينفرد بالبت فى هذه الأمر. ولذلك جمع وجوه أهل القيروان وفقهاءها، وكان فيهم أسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد بن قادم الفقيه، ولما بحث المجتمعون موضوع فتح صقلية، انقسموا إلى فريقين : فريق لا يؤيد الغزو ولا يوصى به، وفريق متحمس للغزو ويَعُده ضربا من ضروب الجهاد فى سبيل الله. وقد انتهى الأمر إلى تغليب كفة الفريق الثاني.

أصبح غزو صقلية وفتحها هو شغل الأغالبة الشاغل منذ ذلك الوقت، رغبة فى ضمها إلى حوزتهم. فرأى أسد بن الفرات، قاضى القيروان- التحلل من الهدنة السابق عقدها سنة ١٨٩هـ، وجددت سنة ١٩٨هـ لعشر سنوات، حين أقر رسل الروم الوافدون من طرف يوفيميوس بوجود أسرى من المسلمين لديهم فى جزيرة صقلية، وعهد إليه أمير الأغالبة أبو محمد، زيادة الله الأول - فى ذى الحجة (١٤ رجب ٢٠١ هـ) بقيادة الحملة التى أعدها لفتح الجزيرة.

ومما يدل على أن فتح جزيرة صقلية كان متسما بطابع الجهاد فى سبيل الله، أن تخطيط الفتح، والتفكير فيه، كان بفضل أسد بن الفرات -قاضى قضاة إفريقية- الذى قاد بنفسه أولى حملات الفتح سنة ٢١٢هـ.

أبحر أسطول الأغالبة من قاعدته فى سوسة، فى ربيع الأول ٢١٢هـ - (٤يونية ٨٢٧م)، وكان مكونا من مائة مركب تحمل ما بين سبعمائة وألف فارس، عدا عشرة آلاف راجل، من الجند العرب والبربر ومن الفرس الخراسانية والأندلسيين.

فلما وصلت حملة الأغالبة بقيادة أسد بن الفرات إلى صقلية، اشتبكت قوات المسلمين مع قوات حاكم الجزيرة البيزنطى فى قتال، وحلت الهزيمة بالروم فى أول صدام لهم مع المسلمين على أرض الجزيرة، وغنم أسد وجنده مغانم كثيرة. غير أنه حين شرع فى حصار سرقوسة سنة ٢١٣هـ وضيق عليها الخناق، مستعينا بإمداد من الأندلس، وصل أسطول من القسطنطينية لنجدتها، بينما كان الوباء قد تفشى فى المسلمين، ومات من جرائه كثيرون كان من بينهم أسد بن الفرات نفسه.

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من وباء نزلوا فى مراكبهم، فمنعهم الروم من الخروج- وعندئذ أحرق المسلمون مراكبهم، وقصدوا مدينة «ميناو» فحاصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن.

وعلى الرغم مما لحق المسلمين من خسائر، ووفاة قائدهم (أسد بن الفرات) فإنهم واصلوا القتال، وولوا عليهم «محمد بن أبى الجوارى» -أو الحوارى، واستطاعوا - بتماسكهم - أن يستولوا على بعض الحصون منها حصون مازرة، وميناو أو مينيو، وجرجنت.

لم توجه الدولة البيزنطية جهودا كبيرة للدفاع عن صقلية، إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها الداخلية؛ ولذلك اعتبرت أحداث الفتح الإسلامى بجزيرة صقلية، فى المرتبة الثانية بالنسبة لأراضيها فى الشرق، التى كانت عرضة لتهديد العباسيين المباشر. ولكن ليس معنى هذا أنهم أهملوا مسئولية الدفاع عن صقلية، وإنما كان وضع دولتهم، وقتذاك، يحتم عليهم تركيز جهودهم لدرء الأخطار، التى يتعرضون لها من ناحية حدود آسيا الصغرى الجنوبية.

تجلى اشتباك قوات الروم البحرية مع قوات المسلمين فى حصار سرقوسة. فأسهم الأسطول البيزنطى فى الدفاع عن هذه المدينة، وألحقَ بالمسلمين كثيرا من الخسائر، كما تفشى فيهم الوباء، واضطروا إلى الانسحاب منها، وعَوَّضُوا خسارتهم أمام سرقوسة، بفتحهم مدينة بلرم سنة ٢١٦هـ، بعد وصول الإمداد من إفريقية.

كان فتح مدينة بلرم خطوة كبيرة، مهدت السبيل لفتح سائر مدن الجزيرة فيما بعد، فليس هناك ما يعوق اتصالها بإفريقية، وبذلك أصبح فى استطاعة الفاتحين أن

يحصلوا على مؤنهم وعتادهم باستمرار وفى يسر وأمان. ثم إن المنطقة المحيطة ببلرم خصبة، يمكنها سد حاجة المسلمين من المؤن والمياه، ومن ثم اتخذ المسلمون من بلرم قاعدة لهم، وبنوا بها دارا لصناعة السفن. كما أخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير على أنحاء جزيرة صقلية، ثم ترجع محملة بالغنائم والأسرى.

وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التى واجهها المسلمون، فى فتح مدن وحصون جزيرة صقلية، إلا أنهم تابعوا حملاتهم عليها. ففى سنة ٢١٧هـ -أى السنة التالية لسقوط بلرم- سار (أبو فهر محمد بن عبد الله التميمى)، من إفريقية إلى صقلية غازيا، بعد أن هزم (مطيع السهمى بن الصمصامة). ثم قصد المسلمون قصريانه، لكنهم لم يتمكنوا من فتحها، وأخذوا يرسلون إليها الحملة تلو الحملة، ولم يزالوا يواصلون نشاطهم حتى توفى «زيادة الله الأول» ابن الأغلب سنة (٢٢٣هـ ـ ٨٣٨م).

غير أن المسلمين بصقلية، على الرغم من توالى إرسال الإمدادات إليهم من إفريقية، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الجزيرة كلها آنذاك. واستمرت حملات الأغالبة البحرية، تغزو مدن هذه الجزيرة وحصونها حتى تم للفضل بن جعفر الهمدانى سنة ٢٢٨هـ - ٨٤٢/ ٨٤٣م فى عهد إمارة أبى العباس محمد بن الأغلب الاستيلاء على مسينا، وهى مدينة حصينة بشمالى شرق صقلية.

وبدخول القوات البحرية للأغالبة، إلى مسينا، أصبح جنوب إيطاليا مهددا من ناحيتهم، ولعل هذا مما حمل نابولى على التحالف مع الأغالبة فى ذلك الوقت. ومع ذلك استمرت الفتوحات فى صقلية فيما بين سنتى ٢٣٢، ٢٤٠هـ أيام الأمير محمد الأول الأغلبى ففتحت مدينة قطانية وبثيرة وغيرهما فى الجانب الشرقى لصقلية.

ثم تمردت مسينا فى عهد محمد الأول (٢٢٦-٢٤٢هـ) بعد فتحها، واستنجدت سنة ٢٣٢هـ، بالإمبراطور البيزنطى الذى وعد أهلها بالمساعدة. فلما علم المسلمون بذلك، شددوا الحصار بقيادة «الفضل بن جعفر» حتى خضعت مسينا مرة ثانية للحكم الإسلامى. وفى نفس السنة (٢٣٢ هـ) حاصروا مدينة (لنتينى) - التى تقع بين قطانية وسرقوسة فى الجانب الشرقى للجزيرة - وانتهى الأمر بخضوعها للحكم الإسلامى. واستسلم أهل لنتينى مثلما خضع أهل مسينا من قبل، كما سلمت مدينة رغوس (راغوس) سنة ٢٣٤هـ للمسلمين. ولم تلبث قصريانة أن تعرضت فى العام التالى (٢٣٥هـ) لحملة بحرية إسلامية، لم يكن غرضها سوى الإغارة، والسلب، واختبار قدرة المدينة على الصمود والدفاع.

ولما توفى الأمير (محمد الأول الأغلبى) سنة ٢٤٢هـ، خلفه أبو إبراهيم أحمد بن محمد الأغلب (٢٤٢-٢٤٩هـ). وفى عهده استمرت حركة الفتح الإسلامى لمدن صقلية وحصونها، فتابع قواده البحريون وعماله على الجزيرة العمل على إخضاع باقى نواحيها.

والواقع فلقد لقى الفتح الإسلامى لجزيرة صقلية مقاومة شديدة من القوات المحلية البحرية والبرية، التى كان يقودها حاكم الجزيرة البيزنطى، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى كان يرسو أمام الجزيرة. وكانت أعنف مقاومـة لقيها المسلمون فى فتح صقلية، فى حملاتهم على مدن قصريانة وسرقوسة.

وقد ظل المسلمـون يواصلون العمل لإتمام فـتح جزيرة صقلـية، حتى تيـسر لهم الاستـيلاء على «قصـريانة» سنة ٢٤٤هـ. وكان لسقـوط هذه المدينة فى يد المسلمين أثر سيئ فى نفوس البـيزنطيين. فأرسلوا أسطولا من ثلاثمائة مركب، مشـحونة بالعسكر، ومـقاتلة البـحر إلى «سـرقوسـة» ليهـاجمـوا المسلمين منهـا، وليثـأروا لما حل بهم فى «قصـريانة». لكن المسلمين كانوا يراقبـون كل التحركات البـيزنطية. ففـاجأوا الأسطول البيزنطى القـادم لمحاربتهم، ولم يتركوا له فـرصة للدفاع وأوقعوا بـه الهزيمة وغنموا منه نحو مائة مركب حربى.

كان القسم الشرقى من جزيرة صقليـة لا يزال ممتنعا، ومُمْعنا فى المقاومة، وذلك بتحريض ومساعدة الإمبراطور البيزنطى، كما أن نفوذ المسلمين لم يكن قد توطد بعد فى الجزيرة. بل إن كـثيرا من القـلاع التى استسلمت للمـسلمين انتقضت عليـهم ثانية سنة ٢٤٦هـ. ولذلك لم يجد العـباس بن الفضل بن يعقوب ـ والى صـقلية آنذاك ـ بُدًا من تحصين مدينة قصريانة، ليلجأ المسلمون إليها. كما حاول مهاجمة «سرقوسة»، لكن منيته عاجلته سنة ٢٤٧هـ.

سار والي صقليـة («عبد الله بن العباس بن الفـضل بن يعقوب» ٢٤٧-٢٤٨هـ) خلال هذه الفترة القصيرة التى تولى فيهـا ولاية صقلية للأغالبة، ومن بعده «خفاجة بن سفيـان» علي نفس نهج العباس بن الفضل، فى بعث السـرايا. ففى سنة ٢٥١هـ كانت غزوة السرية المعروفة «بسرية الألف فارس»، وذلك أن خـفاجة بن سفيان- والى صقلية فى إمارة «أبى الغـرانيق محمد بن أحـمد بن محمـد الأغلب - غزا «قصريانة» فـأفسد زرعها، وسار إلى «سـرقوسة»، فقاتل أهلها، ثم رحل عنهم، وأنفذ ابنه مـحمد إليهم بسرية، فكمنَ لهم، وقتل منهم حول الألف فارس، ومن ثم سميت تلك السرية «سرية الألف فارس». وفى العام التالى (سنة ٢٥٢هـ) غزا خفاجة بنفسه، أرض الروم بصقلية.

وافتتح بها حصونا كثيرة ثم لقى حملة بيزنطية فأوقع بها الهزيمة، وغنم المسلمون كثيرا من أسلحة البيزنطيين وخيولهم، وتمكن خفاجة من دخول مدينة (سرقوسة)، وغنم منها مغانم كثيرة. لكنه ما لبث أن عاد إلى «بلرم» قاعدته التى خرج منها منذ أول رجب سنة ٢٥٢هـ.

ولقد ظلت مدينة «سرقوسة» تقاوم نحو نصف قرن (من ١١٣ حتى ٢٦٤هـ) - وكان أسد بن الفرات يظن أنه يستطيع فتحها فى حملته على صقلية سنة ٢١٢هـ - لكن مقاومتها لم تضعف إلا حين استطاع جعفر بن محمد- والى صقلية ببلرم سنة ٢٦١هـ (٨٧٥م)- أن يستولى على بعض أراضيها. ولما وصلت إليها مراكب الروم أصابها المسلمون وتمكنوا من حصارها على فترات متقطعة - من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٦٤هـ- كان آخرها حصار التسعة أشهر وكان بقيادة «أحمد بن الأغلب»، الذى سقطت بعده المدينة فى يد المسلمين ، وذلك بعد أن عانى سكانها من ويلات الحصار الشىء الكثير، ولم يفدهم المدد البيزنطى شيئا، بل إن (سرقوسة) سقطت فى يد الفاتحين المسلمين فى شهر رمضان من عام ٢٦٤هـ (٧٨٧م).

كان لسقوط (سرقوسة) سنة ٢٦٤هـ، أثر بالغ فى نفوس البيزنطيين. وقد قامت الحملة التى حاصرت هذه المدينة بهجوم على مدن : قطانية، وطبرمين ،.ورمطة، وغيرها من بلدان الجزيرة التى لا زالت بيد الروم، فخربوا هذه المدن ، حتى يضعفوا من مقاومتها تمهيدا لفتحها فيما بعد.

والواقع أن البيزنطيين لم يفرطوا فى (سرقوسة)، بل استماتوا فى الدفاع عنها. كما أن الأغالبة من ناحية أخرى بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل فتحها؛ لأنهم كانوا يرون فى «سرقوسة» شوكة تفسد على الأسطول الأغلبى سيطرته على جزيرة صقلية. وقد حاول البيزنطيون أخذها ثانية، فأرسلوا، فى أواخر سنة ٢٦٦هـ، أسطولا لمهاجمة المسلمين فيها، وأخذها منهم. لكن محاولتهم باءت بالفشل، وأسر المسلمون نحو أربع قطع بحرية بيزنطية، واضطر البيزنطيون إلى التخلى عنها ليسيطر عليها الأغالبة، ويجعلوا منها قاعدة لأسطولهم بصقلية.

وقد مهد فتح مدينة (سرقوسة) سنة ٢٦٤هـ السبيل للاستيلاء على باقى مدن الجزيرة؛ ولذلك حفلت الفترة من سنة ٢٦٦هـ إلى ٢٨٩هـ بكثير من الحملات والسرايا التى خرجت لتغزو أنحاء متفرقة من الجزيرة، لإخضاع باقى مدنها، للمسلمين وأهمها طبرمين، ورمطة، وقطانية.

وفى سنة ٢٧٣هـ تعرض الحكم الإسلامى فى مدينة (بلرم)- عاصمة صقلية - لتمرد أهلها على الوالى «سوادة بن محمد»، لكنه ما لبث أن تمكن من إخماده. ولم يمض على ذلك غير قليل، حتى عقد المسلمون بصقلية سنة ٢٨٣هـ صُلْحا مع البيزنطيين، كان من شروطه: إطلاق سراح ألف أسير مسلم، وأن تكون عندهم رهائن المسلمين فى كل شهر «ثلاثة من العرب ومثلهم من البربر».

ويبدو أن الذى حمل الأغالبة فى صقلية على قبول مثل هذا الصلح مع الروم، تلك القلاقل التى كانوا قد بدأوا يعانون منها، بسبب انحياز بعض قبائل البربر إلى أبى عبد الله الشيعى، داعى الفاطميين ببلاد المغرب. فضلا عن المشاكل التى نشبت بين العرب والبربر. كما كانت الحرب بين الطولونيين والأغالبة، فيما بين سنتى ٢٦٧، ٢٨١هـ، سببا فى وقف الحملات التى كانت تخرج لاستكمال فتح صقلية.

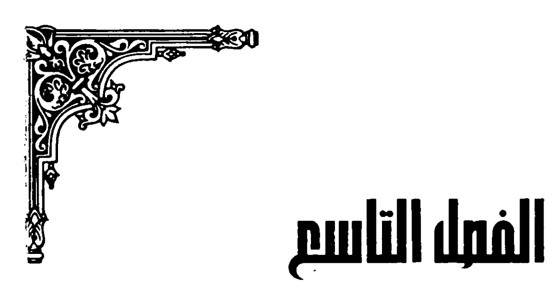
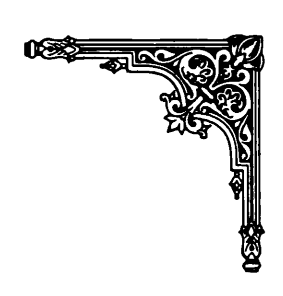
واستقر رأى إبراهيم بن الأغلب على الخروج ـ بعد أن أوقعت جيوشه الهزيمة بالطولونيين فى برقة وطرابلس الغرب ـ لإتمام فتح جزيرة صقلية. فأنفذ ابنه عبد الله إلى صقلية سنة ٢٨٧هـ، على رأس أسطول يتكون من ١٦٠ مركبا حربيا، وحاصروا طرابنة (ترابانى) ـ وهى مدينة حصينة فى الطرف الشمالى الغربى لجزيرة صقلية - لكن أهل بلرم تمردوا وهاجموا المسلمين برا وبحرا فتمكن منهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، وفر أكثرهم إلى القسطنطينية. ثم أعقب ذلك بمسيره إلى قطانية، على الشاطئ الشرقى لجزيرة صقلية. ولما امتنعت عليه تركها، ليغزو- فى السنة التالية (٢٨٨هـ) ـ مدينة (زلة)، وعدة حصون أخرى وافقت على دفع الجزية.

وفى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨-٩٠٩م) استطاع المسلمون فتح طبرمين، وكان لنبأ سقوطها أثر سيئ على نفس الإمبراطور البيزنطى. ولاغرو، فقد كانت تعد من أهم حصون جزيرة صقلية المنيعة. وكان سقوطها خاتمة فتوح صقلية التى استمرت منذ حملة أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ حتى استيلاء المسلمين على طبرمين سنة ٢٩٦هـ.

بهذا تم للأغالبة - باستيلائهم على طبرمين- السيطرة على جزيرة صقلية. ويعد هذا النصر دليلا قويا على مدى ما وصلت إليه كفاءة الأسطول الأغلبى، الذى وقف أمام أسطول البيزنطيين. وبعد أن بسط الأغالبة، سلطانهم على طبرمين، بثُّوا سراياهم إلى باقى جيوب صقلية التى لم تسقط، فوجدوا أهلها قد جَلُوا عنها.

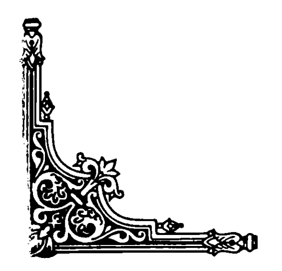
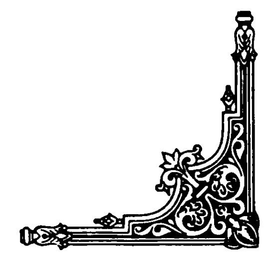
ويعتبـر فتح صقلية من الأحداث الهامـة فى تاريخ البحرية الإسلاميـة فى البحر المتوسط. إذ صارت سيادة الحوض الأوسط لهذا البحر فى يد الأغالبة وكان يدعمهم قوة بحرية أخرى فى الغرب، تتمثل فى الأسطول الأندلسى الذى ساندهم فى فتح الجزيرة، واستطاع أسطول الأغالبة أن يتخذ من هذه الجزيرة قاعدة له.

وظل الأغالبة يُعنَوْن بتـعزيز قواتهم، ويحرصون على تتبع حـركات أعدائهم فى البلاد الأوربية، إلـى أن قامت الخلافة الفاطمـية فى المغرب، وقضى دعـاتها على حكم الأغالبـة فى إفريقية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م، ثم خَلَفـهُم الفاطميـون فى مد سلطانهم إلى جزيرة صقلية منذ ذلك التاريخ.

الفصل التاسع

سياسة العباسيين الخارجية

نبذة عن الثغور الشامية والجزرية[1]:

يقول المسعودى: «أرض الروم واسعة فى الطول والعرض آخذة فى الشمال بين الشرق والغرب مقسومة فى قديم الزمن على أربعة عشر قسما: أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام كجند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين. غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول». وقد حاول المسعودى أن يقارن بين الترتيبات العسكرية الإدارية الإسلامية والبيزنطية. على أن نظام البنود (الثيما) تختلف فى أمور كثيرة عن نظام الأجناد الشامى. وقد جاء نظام البنود البيزنطى بعد الحروب الفارسية ثم العربية التى خاضتها الإمبراطورية البيزنطية، مما دفعها إلى إعادة تنظيم إستراتيجيتها، وتنقسم الإمبراطورية إلى أقسام إدارة عسكرية جديدة مع إعطاء الصدارة للسلطة العسكرية فى هذه المقاطعات. وبهذا ضمن أن يكون الجيش على أهبة الاستعداد فى أى وقت لصد الغارات الإسلامية. وقد منح الجند قطعا من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها. وبمرور الزمن أخذت هذه المقاطعات أسماء الفيالق العسكرية التى استقرت فيها. وقد طبق نظام البنود البيزنطى بصورة خاصة فى الأناضول كتدبير دفاعى ضد المسلمين. وقد مر نظام (الثيما) البنود بتجارب كثيرة حتى وصل درجة من القوة فى القرن الثامن الميلادى.

وقد أصبحت كلمة (ثيما) اليونانية التى تعنى «فرقة» من الجيش ترابط فى منطقة ما، ذات مدلول واسع حيث امتدت لتشمل الإقليم كله.

أما فى الجانب الإسلامى فهناك ما يسمى بالثغور والعواصم، فالثغور: كما يقول ياقوت كل موضع قريب من أرض العدو. وكانت الحدود الإسلامية الرومية فى أيام بنى العباس الأوائل تتألف من سلسلتى جبال طوروس واتنى طوروس. وكانت الثغور خطا من القلاع يحمى هذه الحدود وكان يتبادل هذه القلاع الروم والمسلمون من حين لآخر.

وهناك خطان رئيسيان من الثغور الإسلامية :

الأول: الثغور الجزرية وهى شمالية شرقية تحمى منطقة الجزيرة، ومنها ملطية وزبطره وحصن منصور وبهسنا والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربه.

---

(١) هذه النبذة مأخوذة عن دراسة للدكتور فاروق عمر من كتابه (العباسيون الأوائل جـ٢ ص٢٣٤-٢٣٦).

والثـــانى: الثغور الشامـية وهى جنوبية غربية تحمى الشام ومنهـا المصيصة وأذنه وطرطوس.

أما العواصم: فهو الخط الدفاعى الداخلى الثانى، وسميت العواصم؛ لأنها سلسلة من الحصون الداخلية التى تعصم الحدود ضد غـارات الأعداء. ويعطينا قدامة بن جعفر تصنيفا واضحا للثغور والعواصم الإسلامية فيقول :

(إن الثغور المقابلة لبلاد الروم - منها برية تلقاء بلاد العدو وتقاربه من جهة البر، ومنها بحرية تلقاه وتواجـهه من جهة البحر، ومنها ما يجتـمع فيه الأمران وتقع المغازى من أهله فى البر والبحر.. وعواصم هذه الثغور وما وراءها إلينا من بلدان الإسلام وإنما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير).

وقد اهتم الخليـفة الرشيـد بالحدود مع البيـزنطيين وجعل الثغـور كلها تحت إدارة واحدة سنة ١٧١هـ وسـميت العواصم . وليس هذا محل التـفصيل فى تدابير الـرشيد العسكرية.

وقد انتـشرت الرُّبَط فى هذه الفـترة فى مناطق الثـغور الرُّبَط : وهى عـبارة عن حصـون تقام فى مناطق كثـيرة التعرض لغـارات الروم وتشحن بالمقاتلة والذخـيرة. ثم تحولت هذه الربط إلى مراكز ثقافـية وحضارية كثر فيها العلمـاء. وقد برزت فيها الطرز المعمارية والزخرفية الإسلامية. وبهذا كانت الربط تمثل نظاما دفاعيا متكاملا.

وكان الرباط يسمى بالغزو والمـرابطون الغزاة. يقول ابن كثير فى التفـسير: «قيل المراد بالمرابطة مرابطة الغزو فى غـور العدو، وحفظ ثغور الإسلام وصيـانتها من دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين». وفى لسان العرب «الرباط والمرابطة ملازَمةُ ثغر العدو أو الجهاد وأصله أن يربط فيه الخيل» وفيه يقول الشاعر المرابط:

لا يسـتوى غـبار خـيل الله فى ... أنـف امرئ ودخـان نـار تلتهب

هـذا كـتـاب الله ينطـق بـيننـا ... ليـس الشهـيـد بميـت لا يكذب

وفـى القــرآن الكـريــم ﴿**يـا أيُّهـا الَّذيـن آمـنُـوا اصْـبرُوا وصَـابـرُوا ورابـطُوا** ... ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران] فهنـاك ثلاثة أصناف فى المرابطين: **أولهـم** أهل

الدين والتقوى الذين يشتركون فى الحملات تطوعا وعقيدة ويرابطون هناك. **وثانيهم** أهل السياسة والزعامة الذين فشلوا فى حياتهم السياسية وفضلوا الانسحاب من المعترك السياسى. **وثالثهم** أولئك الذين يفضلون حياة العزلة ويتهربون فى الدنيا ومنهم المتصوفة.

لقد منعت كثرةُ المشاكل والاضطرابات الداخلية الخلفاء العباسيين الأوائل من الاهتمام بالجهاد ضد الروم والخزر أو فى جهات ترانسكسونيا. ومهما يكن من أمر فإن روح الجهاد ومظاهره ظلت مستمرة لسببين رئيسين:

الأول: لقد كان الجهاد من واجبات الخليفة الدينية الرئيسية حيث كان عليه أن يجهز الحملات السنوية ضد (دار الكفر) وأن يعمل ما فى وسعه لإضافة مناطق جديدة إلى (دار الإسلام).

الثانى: لقد استعملت بلاد الروم وترانسكسونيا ملاجئ لأعداء الدولة والثوار يلجأون إليها بعد فشل ثوراتهم ويَحْظَوْنَ برعاية إمبراطور الروم أو أمراء أقاليم بلاد ما وراء النهر.

١ - العلاقات العباسية - البيزنطية

«إن دولتى العرب والروم ظاهرتان على العالم كله.
تمتازان وتتألقان كالشمس والقمر فى القبة الزرقاء، ولا
مندوحة أن نعيش معا كالإخوة على الرغم من
اختلافاتنا فى الطبائع والعادات والدين»

من رسالة كتبها البطريق
نيقولا مستيكس بَطْريق القسطنطينية
فى القرن العاشر الميلادى - الرابع الهجرى

أ. العلاقات العباسية - البيزنطية:

لم تنقطع الحروب بين المسلمين والروم منذ ظهور الإسلام. إذ حاول المسلمون- ثلاث مرات- الاستيلاء على القسطنطينية. فكانت المرة الأولى فى خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ)، والثانية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦١هـ). والثالثة فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ).

فلما انشغل المسلمون فى الحرب الأهلية، أواخر أيام بنى أمية، انتهز الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع هذه الفرصة، لشن حرب مباغتة على تخوم الدولة الإسلامية.

وعندما قامت الدولة العباسية ١٣٢هـ/ ٧٥٠م تغيرت إستراتيجية الصراع والحرب بين الروم والمسلمين، لتصبح إغارات كان الغرض منها التخويف للروم، بعكس ما كان أيام بنى أمية، الذين كان هدفهم هو الفتح المستقر المنظم، وصولا إلى القسطنطينية وتحويلها إلى مدينة وقلعة إسلامية دائمة.

ولعل السبب فى تغير إستراتيجية العباسيين عن بنى أمية - يرجع إلى:

١- مناوأة بلاد الشام للعباسيين.

٢- أن الخلفاء العباسيين لم يهتموا -اهتماما مباشرا- بأمر الأسطول الإسلامى فى البحر المتوسط، ليقف وقفة صامدة، أمام قوة الروم البحرية فى هذا البحر، بل اعتمدت الدولة العباسية فى حروبها غالبا على القوات البرية فى معظمها.

الحروب مع الروم:

إن أهم ما يميز المواجهة العسكرية بين العباسيين والروم أنها لم تكن حربا مخططة تهدف إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية، بل إنها انخفضت فى مستواها إلى اشتباكات فصلية على الحدود، تتخللها هجمات يتفاوت عمقها داخل حدود الدولة المعادية. على أن حصيلتها لم تكن أكثر من السلب والنهب وتدمير الحصون والمعسكرات الثغرية. ولعل هذا الاختلاف فى المجهود الحربى تجاه الروم بين الدولتين العباسية والأموية، يعود إلى أن العباسيين اهتموا بالأقاليم الشرقية من دولتهم أكثر من اهتمامهم بالأقاليم الغربية. ويعود السبب فى ذلك إلى إدراكهم بأن ضمان الاستقرار فى المشرق يعنى ضمان السلطة لهم؛ ولذلك بذلوا جهودا لا بأس بها فى تثبيت مراكزهم هناك، بنقل العاصمة إلى العراق ليكون على مقربة من إيران المضطربة، وبالقضاء على كل حركة ثورية فيها... أما السبب الثانى للاهتمام بإيران فربما يعود إلى رغبة العباسيين فى الانتفاع أكثر من الأمويين بمظاهر الحضارة الإيرانية وأساليبها الإدارية والسياسية والثقافية.

وقد ظلت إمبراطورية الروم العدو الرئيسى للدولة الإسلامية منذ نشأتها؛ ذلك لأن الروم خسروا عدة أقاليم غنية من إمبراطوريتهم بعد الفتوحات الإسلامية مثل الشام ومصر. والمعروف أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين (٧٤١م-٧٧٥م) هاجم منطقة الثغور منتهزا فترة الاضطرابات فى السنوات الأولى من عمر الدولة العباسية ، وهدد كل الثغور الإسلامية، فدمر حصونها وخاصة حصون الفرات وحصون المنطقة الوسطى (الجزرية) مثل الحدث وزبطرة وملطية.

فقد حاصر الإمبراطور ملطية واستسلم أهلها بعد أن يئسوا من المدد ، وقد اشترط عليهم إخلاء القلعة. كما ضربت شميشاط وكمخ وهدم حصن قلوذية وكان ذلك فى ١٣٣هـ/ ٧٥٠-٧٥١م.

وقد أمر الخليفةُ العباسيُّ الأول أبو العباس عبد الله عمَّه وواليه على الشام عبد الله بن على العباسي بالتحرك بمن معه من الخراسانية وأهل الشام لجهاد الروم وإزاحتهم. على أن عبد الله بن على كان يطمح بالخلافة ويعتبر نفسه الرجل الثانى بعد الخليفة. ولذلك فقد كان اهتمامه منصبا على مصير الخلافة لا مصير الثغور الإسلامية ، وكان متثاقلا فى سيره إلى الحدود؛ ولذلك فلم يكن قد قطع شوطا بعيدا حين جاء نبأ وفاة الخليفة ، فغير اتجاهه جنوبا نحو العراق مدعيا بالخلافة.

وحين جاء الخليفة الثانى المنصور إلى الحكم (١٣٦-١٥٨هـ) اهتم بمنطقة الحدود. على أن جل عمله كان دفاعيا لا هجوميا؛ وذلك بأن أعاد تحصين المنطقة التى دمرها قسطنطين الخامس وبنى كثيرا من الحصون التى هدمت. ولا شك فى أن المنصور نفسه كان ملما بأحوال المنطقة لأنه كان واليا على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فى عهد أخيه الخليفة الأول.

ويذكر البلاذرى معلومات جيدة عن الجهود التى بذلها المنصور، وعن الإمكانات البشرية والمالية التى أنفقها من أجل أن يضع أساسا جديدا لإقليم الثغور. ويذكر بأن ٧٠,٠٠٠ من أهل خراسان والجزيرة والشام اشتركوا فى إعادة تحصين ملطية ، وكان على رأسهم الحسن بن قحطبة الطائى الخراسانى الذى استطاع - بدأبه على العمل المستمر- أن يعيد بناء ملطية فى ٦ أشهر.

وقد استعمل الخليفة وسائل إغراء كثيرة لحث الجند والناس على العمل فى الثغور منها:

١- زيادة العطاء لكل مقاتل عشرة دنانير إضافية.

٢- تخصيص معونة قدرها ١٠٠ دينار لكل واحد منهم.

٣- بناء بيوت خاصة لإقامتهم مع عائلاتهم. وعلى هذا الأساس كان يُقَسِّمَهُمْ إلى جماعات صغيرة تحيط بالحصن ولا تبعد عنه كثيرا.

٤- إقطاع الأراضى للمقاتلة لكى يزرعونها فى أوقات السلم.

وقد عادت الإغارات البيزنطية على أراضى الدولة العباسية، فى خلافة «أبى جعفر المنصور». إذ غزى قسطنطين الرابع (٧٥٦-٧٥٧م/ ١٣٨هـ) بعض بلاد الشام واستولى على ملطية ـ إحدى الثغور الجزرية جنوب شرقى آسيا الصغرى ـ وضرب حصونها. لكن المسلمين استردوها فى العام التالى «١٣٩هـ/ ٧٥٧م» وأقاموا فيها حامية كبيرة. واستمرت الحرب بين الطرفين إلى أن طلب الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الصلح سنة ١٥٥هـ على أن يؤدى للمنصور جزية سنوية.

لقد تمت مرحلة استكمال الدفاع والتحصينات بين عامى ١٣٨هـ/ ١٤١هـ. حيث بُنِيَتْ ملطية وعُمِّرَتْ المصيصة ١٣٩هـ وأُسكِنتْ فى السنة الثالثة وسميت (المعمورة)، ونقل إليها بعض الفرس والصقالبة والأنباط والنصارى ، بعد أن نُقِلَ سكانها الأصليون إلى داخل الدولة الإسلامية (فلسطين) لاتهامهم بالتواطؤ مع الروم. كما بنى صالح بن على العباسى مرعش وحَصَّنها وشحنها واهتم بتحصين أطنة ١٤١هـ، وعسكر فيها مقاتلة من أهل خراسان وأهل الشام. وأعيد تعمير حصن زبطره فى خلافة المنصور أيضا. ولكن المنصور لم ينتظر كل هذه المدة دون مواجهة الروم، فقد أرسل حملة بقيادة العباس بن محمد على رأس أهل خراسان وصالح بن على رأس أهل الشام سنة ١٣٨هـ. ويؤكد اليعقوبى بأن هذه الغزوة كانت أول غزوة فى العصر العباسى ويوافقه ابن النديم فى وجهة النظر هذه غير أنه يذكر ١٣٩هـ بدلا من ١٣٨هـ.

على أن اعتبار ١٣٨هـ أول غزوة فى الحروب العباسية الرومية لا ينفى وجود محاولات سابقة لها . حيث يذكر الطبرى أن صالح بن على وجه سعيد بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب ١٣٣هـ. على أن هذه الحملة الأخيرة لم يكتب لها النجاح، حيث يقول اليعقوبى عن حملة سنة ١٣٣هـ «فلم يكن لقاء بينهما» ، كما لم يرد ذكر لهذه الحملة فى البلاذرى أو ابن الأثير. كما أننا ذكرنا سابقا محاولة عبدُ الله بن على عم الخليفة الغزو، ولكنه «بلغ دلوك ولم يدرب حتى أتته وفاة أبى العباس. . وقَدِمَ حاجب بن العباس ببيعة أبى جعفر وعبد الله بأفواه الدروب يريد الروم».

على أن أهم ما حققته حملة ١٣٨-١٣٩هـ كان هو إعادة بناء الحصون الثغرية أولا، وتحذير الروم من مغبة هجماتهم المدمرة ثانيا. ثم الفداء واستنقاذ أسرى المسلمين من أيدى الروم ثالثا.

ويظهر أنه لم يعـقب حملة ١٣٨هـ غزوةُ حقـيقية جـديدة حتى ١٤٦هـ؛ وذلك لتعرض الدولة العباسية إلى ثورة علوية كادت تودى بكيانها ألا وهى ثورة «محمد النفس الزكية» وأخيـه إبراهيم. تقول الرواية «ولم يكن بعد ذلك... ... للمسلمين صائفة إلى سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م لاشتـغال أبى جعفر بأمـر ابنى عبد الله بن الحسـن». وقد يعزى الهدوء على الحدود الإسلامية ـ الرومية إلى عدة عوامل لا إلى عامل واحد:

أولها: الاضطرابات الداخلية فى الدولة الإسلامية ـ حيث كان عهد المنصور كثيرَ القلاقـل، إذ هددته أخطار ثلاثة هى : خطر عبـد الله بن على العبـاسى ، وخطر أبى مسلم الخراسانى وأتباعه ، وخطر الشيعة العلوية.

ثانيـها: انشغـال الروم أنفسهم بمشـاكل داخلية. حيث تنـازعت الحكمَ تكتلاتٌ سياسية وعسكرية. ولعل جذور هذا الانشقـاق تعود إلى حركة دينية ترأَّسَها الإمبراطور «ليـو الثـالث الأيسـورى» الذى اتخـذ إجـراءات عدائـية تجـاه عـبـادة الأيقـونات فى الإمبـراطورية. (وهى عبـادة الصورة المقـدسة والتـماثيل التى تـصور المسيـح والعذراء والقديسيين). وتعرف هذه السياسة (بالحركة اللاأيقونية) أى حركة إصلاح الدين بتطهيره من الماديات ورفض عبادة الصور والتماثيل المقدسة.

وقد تطورت الحـركة اللاأيقونيـة من دينية إلى دينية سـياسيـة ، وأدت إلى عداء الإمبراطور للبـابا. ومع ذلك فقد استمر الأباطرة البـيزنطيون على سياستـهم، فقد سار قـسطنطين الخـامس على نفس سـياسـة والده بإصـداره مراسـيم جـديدة ضد الصـور والتماثيل. وتبعه فى ذلك ليو الرابع.

هذا من جهـة،ومن جهة أخـرى كان خطر البلغـار يهدد الإمبـراطورية مما صرف قسطنطين عن الاهتمام بالحرب مع المسلمين.

ثالثـها : أن الاضطرابات فى أرمـينية والخـزر شغلت الدولة العـباسيـة فى هذه الفتـرة. وقد اسـتفـاد الروم من ذلك ، حيث خف ضـغط المسلمين عليهم. فـفى سنة ١٤٨هـ غزا حميد بن قحطبة الترك بعـد أن دمروا تفليس، وغزا الحسن بن قحطبة الخزر سنة ١٦٣هـ. كما أن المنصور اهتم اهتـماما كبيرا بجبهـة الخزر ، وولى مولاه «واضحا» على أرمينية وأذربيجان. وأسكن بعض القبائل العربية هناك [١].

---

(١) صابر دياب : أرمينية منذ الفتح الإسلامى . . . (النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م).

وفى الفـتـرة بين سنتى ١٤٦هـ/ ٧٦٣م و١٥٨هـ/ ٧٧٥م - أى إلى نهـاية حكم المنصور - لم تتوغل القوات الإسلامية بعمق أو تلاقى قوة بيزنطية حقيقية. ولعل اشتباكا حـدث بين الطرفين فى ١٥٣هـ/ ٧٧٠م، حين سار مـعـيوف بن يحـيى الحجـورى إلى حصن للروم (ليلا وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة، ثم سار إلى «اللاذقية المحترقة» ففتحها وأخرج منها ستة آلاف رأس من السبى سوى الرجال البالغين)[1].

ثم كانت وفاة الخليـفة المنصور فى نفس السنة (١٥٨هـ/ ٧٧٥م) التى توفى فـيها الإمبراطور قـسطنطين الخامس. وخلف المنصور ابنه المهدى، بينمـا خلف قسطنطين ابنه ليو لرابع (٧٧٥م- ٧٨٠م)، الذى استمر فى فرض سياسـته اللاأيقونية. فاضطهد الكثير من أبناء الشعب ، حتى شمل اضطهادُه زوجتَه إيريني (IRENE). كما انشغل فى جبهة أوربا بحـــربه فى إيـطاليـــا. ثم خلف فى الحـكم ابنه الطفـل قـســطنطين الســـادس (٧٨٠-٧٩٧م)، تحت وصاية أمـه «إيريني». وكان للمـشاكل الداخليـة ، والنزاع على السلطة فى القسطنطينية، الأثر الكبير فى إضعاف القوات البيزنطية خلال هذه الفترة.

ولم تتنازل إيريني عن العـرش لابنها قسطنطين الذى بـلغ سن الرشد (١٨ سنة) حتى أجـبرت على إعلان ابنهـا إمبراطورا بعد عـصيان الجند عليـها، وفشلهـا فى صد غارات المسلمين على الحدود. ولكن الإمبراطورةَ الطموحة ذات الأطماع الواسعة انتهزت أول فرصة مـواتية وقبضت على ابنها، وسَمَلَـتْ عينيه، وأعلنت نفسها إمـبراطورة مرة ثانية. مما مـهد الطريق لزوال حكمها بسلسلة من المؤامـرات حاكها رجـال البلاط وقواد الجيش، حتى استطاع نقفور (٨٠٢ - ٨١١) القضاء على نفوذها ونفيها سنة ٨٠٣هـ.

على أن أهم ما يميز عهـد الخليفة المهدى بالنسبة للمـوقف مع بيزنطة هو تصاعد وتيرة العـمليات الحربـية. حيث لم تمر سنة إلا وتكون هنـاك صائفة أو شـاتية ، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى عوامل منها :

١- تأكيد الخليفة العباسى على الصبـغة الدينية للخلافة التى كان أهم ما يؤكدها هو الجهاد فى سبيل الله، وإرسال البعوث الحـربية ضد الروم لتوسيع رقعة دولة الإسلام وتأمينها.

---

(١) فاروق عمر : العباسيون الأوائل جـ٢ ص٢٤١.

٢- إظهار الخليفة لدوره كمهدي منتظر لهذه الأمة. وذلك ببعثه روحَ الجهاد، وتذكيرُ الناس بأنه هو المهدى الذى سيعيد للدولة سيرتها الأولى وينتصر على أهل الكفر.

٣- كما أن عهد المهدى كان عهد استقرار وأمن نسبيين، بعد أن وطد المنصور دعائم الدولة وقضى على الأخطار الرئيسية. وكان مما أوصى به المنصورُ ابنَه المهدى الوصية التالية فيما يتعلق بالجهاد:

«.... ولْيكُنْ أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك .. وارغب إلى الله فى الجهاد والمحاماة عن دينك وإهلاك عدوك، بما فتح الله على المسلمين ويمكّن لهم فى الدين. وابذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك ، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك. وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك».

وعلى هذا فلم يكن المهدى فقط على حد قول البلاذرى قد «استتم ما كان بقى من المدن، والحصون وزاد فى شحنها»، بل إنه أخذ زمام المبادرة فى الحرب. وكانت أول حملة فى سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٦م بقيادة العباس[١] بن محمد وعلى مقدمته الحسن الوصيف . وكان هدف الحملة على ما يظهر هو الرد على هجوم قام به ليو الرابع الذى ضرب سميساط ، وأخذ بعض الأسرى. وقد وصلت الحملة إلى أنقرة دون أن تحاصرها أو تحاول فتحها. وقد أسكن المهدى فى هذه السنة - حسب رواية البلاذرى - ٢٠٠٠ جندى فى حصن المصيصة كما أنه بدأ ببناء كفر بايا[٢].

لكن الروم عاودوا الهجوم مرة أخرى أيام خلافة المهدى العباسى. فاستولوا على مرعش - (جنوب شرقى آسيا الصغرى) - وأحرقوها . فأرسل لهم الخليفة« المهدى» العباسى، جيشا بقيادة الحسن بن قحطبة. ثم عاودوا الهجوم، فخرج لهم المهدى بنفسه على رأس جيش عدده ١٥٠ ألف جندى، وجعل ابنه موسى الهادى على بغداد، واتخذ المهدى من حلب مركزا لعملياته ، بينما وجه ابنه هارون الرشيد على جيش كبير ، كان فيه يحيى بن برمك، وعبد الله بن موسى، والحسن بن قحطبة. وقد انتصر هذا الجيش على الروم ، فتعهدوا بدفع غرامة حربية للمسلمين افتداءً لأسراهم[٣].

---

(١) فاروق عمر : العباسيون الأواتل جـ ٢ ص ٢٤٣,

(٢) فاروق عمر : نفس المرجع .

(٣) صابر دياب : قراءة فى تاريخ الدولة العباسية (ط اولى ١٩٩١م).

فلما عــاود الروم إغارتهم سنه ١٦٥هـ، جمع المهـدى جيشا بلغ نحــو مائة ألف مقاتل، بقيادة ابنه هــارون. وقد أرغم هذا الجيش الإمبراطورة "IRENE" على أن تدفع للمســلمين ٩٠ ألف دينار جزية سنوية تدفع على قِــسْطَين، وتسمــح للمسلمين بإقــامة الأسواق والإدلاء على تخوم بلدها وعند عودتهم، وتُسلِّم أسرى المسلمين، وتعقد هدنة مع المسلمين لمدة ثلاث سنوات[1].

وفى سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٨-٧٧٩هـ أُرسِلَتْ عــدة حــملات إســلامــية ضــد الروم.
فكانت الأولى: بقيــادة ثمامة بن الوليــد، الذى عزل عن القــيادة ليتــولاها الحسن بن قحطبة . وقد سار الحســن بجيش قُدِّرَ بحوالى ٨٠,٠٠٠ من المقاتلة، أَوْغَلَ فى داخل أراضى الإمبراطورية حتى عــمورية ،إلا أنه لم يفتحها لحصانتهــا . وقد استطاع الجيش البــيزنطى أن يقطع المئــونة عن جيش الحــسن من الخلف مما اضطره على التــراجع. ولم تحقق حملة الحسن انتصارا حــربيا، إلا أنه أعاد بناء حصنى طرسوس والحدث الذى أراد المهدى أن يغير اسمه إلى المهدية أو المحمدية.

أما الحــملة الثانــية: فى هذه السنة (١٦٢هـ)، فقــد كانت بقيادة يزيد بــن أُسَيْد السُّلَمى، الذى قاد حملته إلى قــاليقالا (ثيودو سيوبوليس) وخَرَّبَ بعض الحــصون كما غَنِمَ بعضَ الأسرى، إلا أن محاولاته لاحتلال بغض المدن الــبيزنطية فشلت فاضطر إلى العودة .

على أن أهم حملتين خــلال هذه الفترة المبكرة من العــصر العباسى ، يذكــرهما المؤرخون بشىء مــن التفصــيل والإعجاب وبروح مــشوبة بالمبــالغة ، هما حــملتى سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩و ١٦٥هـ/ ٧٨١م . ورغم أن الحملتين كــانتا فى الواقع جريئــتين وفيهــما الكثير من الشجاعة والمغامرة حيث وصلت الجــيوش العباسية للمرة الأولى والأخيرة إلى أسوار القسطنطينيــة وحاصرتها،فإن من حق المؤرخ أن يتساءل عن أثر الســياسة وتكتلات البلاط فى القصص والمبــالغات التى أثيرت حول هاتين الحمــلتين . خاصة إذا علمنا بأن هارون بن المهدى كان قد عُيِّنَ أميــرا للحملة ولا يزال فى بداية شبابه، يساعده فى ذلك البرامكة والربيع بن يونس. وقد استُقْبِلَ هارون بمظاهر العظمة والتهليل بعد رجوعه من الحملة وأُعطِي لقب (الرشيد) كما عُيِّنَ وليا للعهد بعد أخيه موسى الهادى .

(١) صابر دياب: نفس المرجع.

ولقد ظل المهدى شهرين يجهز لحمله ١٦٣هـ فى معسكره فى البردان، كما رحل الخليفة مع الجيش إلى الموصل بعد أن ترك ابنه موسى (الهادى) نائبا عنه فى بغداد. ثم استمر حتى وصل حلب، ونزل هناك بقصر «بطياس» حيث أتاه هناك خبر القضاء على ثورة المقنع الخراسانى. كما أنه قتل فى حلب عددا من الزنادقة الذين ظهروا فى دابق، ثم عاد أدراجه إلى بيت المقدس. هذا بينما سار هارون يغزو داخل الأقاليم البيزنطية. وقد استطاع الجيش العباسى أن يحتل سمالو - بعد حصار دام حوالى ٤٠ يوما- وقد استسلمت على شروط هى ألا يُقَتَّلُوا، ولا يُفَرَّق بينهم. وقد وافق المسلمون على هذه الشروط. لكن أهل سمالو رَحَلوا إلى بغداد، ونزلوا فى موضع قرب باب الشماسية سمى باسمهم. أما من بقى فى الحصن فعومل كأسير وبيع على أساس كونه عبدا.

وقد رجع الجيش المنتصر إلى بغداد محملا بالغنائم والفيء واستغل أنصار هارون هذا الانتصار، فأثروا على المهدى، الذى أعلن ولاية العهد الثانية لهارون وأطلق عليه لقب الرشيد كما ولاه الأقاليم الغربية كلها إضافة إلى أذربيجان وأرمينية رغم حداثة سنه آنذاك . وهو ما تؤكده الرواية التى تقول بأن (موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح كانا يتضاحكان منه).

لكن البيزنطيين تمكنوا فى السنة التالية (١٦٤هـ/ ٧٨٠-٧٨١م) من تحقيق نجاح جزئى، حيث ردوا الجيش العباسى الذى كان يقوده عبد الكبير بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب. وكان هذا القائد قد أمر جيشه بالانسحاب بعد أن رأى كثرة عدد الجيش البيزنطى (حوالي ٩٠ألف). وقد غضب عليه الخليفة وحبسه بعد أن توسط له عدد من رجال البلاط. ويقول بعض المؤرخين بأن اشتباكا وقع بين الجيشين وأن الغلبة فيه كانت للبيزنطيين فى هذه السنة.

على أن أهم - بل وأكبر - حملة فى عهد المهدى كانت حملة سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١-٧٨٢م. فقد أنفذ الخليفة ابنه هارون للمرة الثانية ومعه الربيع بن يونس ويحيى بن خالد ويزيد بن مَزْيَد الشيبانى، ولقد استطاع هارون أن يصل للمرة الأولى منذ عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/ ٧١٥-٧١٧م) إلى سواحل مضيق البسفور.

والواقع فإن الإمبراطورية البيزنطية كانت فى مأزق شديد نتيجة أوضاع داخلية شاذة سببت عدم الاستقرار، وأوهنت القوة العسكرية للدولة التى انشغلت بمشاكل

عقائدية وحروب خارجية ما كان أغناها عنها. ولعلنا نستطيع أن نجمل أسباب الوهن فى الكيان البيزنطى فى هذا الوقت بالذات إلى[1]:

١- يقول الطبرى بأن وقت حملة ١٦٥هـ كان مناسبا جدا للمسلمين؛ لأن الروم كانوا مشغولين بقمع ثورة داخلية فى جزيرة صقلية .

٢ - كانت إيريني (أوغسطه) إمبراطورة البيزنطيين فى هذه الفترة تواجه مصاعب داخلية كبيرة بعد أن قضت على مقاومة ابنها قسطنطين. ولعل أهم ما يقال عن هذه الفترة أن الحكام شغلوا أنفسهم باتخاذ الوسائل المناسبة والرادعة للحفاظ على السلطة بأيديهم والقضاء على معارضيهم. وبهذا أهملوا وسائل الدفاع عن الدولة ولم يعيروا أية أهمية إلى تقويتها أو ازدهارها.

٣- أن النزاع العقائدى قَسَّمَ الشعب إلى فئات وكان الإمبراطور طرفا فى هذا النزاع . والمعروف أن إيريني ـ التى عانت من سياسة زوجها التعسفية تجاه حركة تقديس الصور والتماثيل واحترامها ـ انتهجت سياسة جديدة معاكسة لسياسة الأباطرة الذين سبقوها .

٤- أن الانقسام بين صفوف قادة الجيش البيزنطى وزعمائه أدى إلى انحياز بعضهم إلى صفوف المسلمين . فقد انحاز تاتزيت إلى هارون[2] بسبب كرهه للرجال المحيطين بالإمبراطورة . وكان هذا القائد البيزنطى خير عَوْنٍ لهارون من الناحية العسكرية.

كما أن مما لا شك فيه هو مواجهة الجيش الإسلامي لكثير من الصعوبات نتيجة وعورة الطريق وتعقده، خاصة فيما يتعلق بإيصال المؤن والإمدادات، وإمكانية الوقوع فى كمائن بسبب كثرة الجبال والمسالك الضيقة. وتتفق الروايات التاريخية على ذكر وصول هارون إلى البسفور، ولكنها تختلف فيما حصل بعد ذلك. والشىء الذى يلفت نظر المؤرخ لهذه الأحداث هو طلب إيريني الإمبراطورة الصلحَ وإرسالها السفراء إلى هارون، وقبول هارون الفورى لهذا الصلح بشروط أن عليها (الوفاء بما أعطت له، وأن تقدم له الأدلاء والأسواق فى طريقه وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته إلى ما سأل). وتدل هذه الرواية على أن الجيش الإسلامي كان فى وضع حرج، حيث أنهكته المسافة ووعورة المسالك وقلة المئونة. وكان لا بد من الصلح إذا أريد لهذا

(١) فاروق عمر: العباسيون الأوائل جـ ٢ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) فاروق عمر : العباسيون الأوائل ج٢ ص٢٤٥-٢٤٦.

الجيش أن يعود سالما إلى الديار الإسلامية، وهذا ما تؤكد الروايات غير الإسلامية ورواية الطبرى.

وقد وجه هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) همته إلى توطيد دعائم السلم فى أراضى الدولة العباسية المتاخمة للحدود البيزنطية . وفى سبيل ذلك سار بنفسه سنة ١٨١هـ على رأس جيش إلى آسيا الصغرى، فحارب الروم وهزمهم وزحف حتى أنقرة. ولهذا سارعت الإمبراطورة إيرينى إلى طلب الهدنة والصلح، أما شروط الصلح بين هارون وإيريني فكانت كما يلى:

أولا: أن ترسل إيريني إتاوة سنوية تقدر ما بين ٧٠ ألف ـ ٩٠ ألف دينار على دفعتين فى نيسان وحزيران (أي أبريل ويونيو).

ثانيا: أن ترسل إيريني رسولا يمثلها شخصيا إلى الخليفة المهدى فى بغداد، ومعه هدايا الذهب والفضة وغيرها من العروض كالملابس الحريرية.

ثالثا: أن تقدم إيريني الأدلاء والغذاء إلى المقاتلة المسلمين فى طريق عودتهم إلى بلادهم عبر الأناضول، وأن تسهل طريق العودة بكل الوسائل الممكنة.

رابعا: أن تسلم إيريني جميع الأسرى المسلمين الموجودين لديها .

خامسا: مدة الصلح ثلاث سنوات .

وهناك من المؤرخين من يقول بأنه كان على هارون وقواده أن يصبروا ويصابروا، فربما أدى ذلك إلى فتح القسطنطينية على أيديهم. ولكن الوضع العسكرى- كما رأينا- لم يكن تماما فى صالح المسلمين، ولم تكن تساند المسلمين قوة بحرية كما كان الحال فى عهد الأمويين. وخاصة أن رواية تاريخية لميشيل السريانى تؤكد بأن الجيش الإسلامى كان قد وقع فى كمين عند بعض الممرات الضيقة؛ ولذلك أدرك قادته أن من الأفضل الموافقة على الصلح . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت غنائم المسلمين كبيرة. فهى كما يقول الطبرى :

١- كان عدد الأسرى الروم ٥٦٤٣ وقد قُتِلَ منهم ٢٠٩٠ .

٢- غنم المسلمون ٢٠,٠٠٠ دابة بأدواتها.

٣- وذبح ١٠,٠٠٠ رأس من البقر والغنم.

٤- وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم.

والدرع بأقل من درهم، وكل ٢٠ سيفا بدرهم.

وقد حصن هارون فى طريق عـودته المصيصة وجـامعها، كمـا بنى حصنا جديدا قرب جسر أذنة على نهر سيحان[١].

لكن هذه الهدنة نقضها خليفتها الإمبراطور «نقفور» بعد اعتلائه العرش. إذ أرسل لهارون خطابـا يُصَغِّر فـيه من شأنـه، ويُلِحُّ على هارون فى إرسال الجزيـة، التى كانت إيرينى قد دفعتها للمسلمين وجاء فى هذا الخطاب ما يلي:

«إن الملكة التى كانت قبلى حملت إليك من أموالها ما كنتَ حـقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعفُ النساء وحمقُهن، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حُصِّل قِبلَك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيـد خطاب نقفور، إمبراطور الروم، استشاط غـضبا ودعا بقرطاس ودواة ورد عليه ردا جاء فيه:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأتُ كـتابَكَ والجوابُ ما تراه دون مـا تسمعه». وسـار هارون بجيوشه مـخترقاً آسـيا الصغرى، مغيرا على أراضى الدولة البيـزنطية، وزحف حتى أخذ مدينة «هرقلية» دون أن يتمكن نقفور إمـبراطور الروم من التصدى له لانشغاله بإخـماد الفتنة التى قامت فى بلاده.

وقد أدت سـياسة الرشـيد العسكرية إزاء الروم، إلـى تحطم كبرياء «نقـفور» هذا الإمبراطور البيزنطى الأحمق. بحـيث أصبح لا يطمع فى أكثر من صلح أُرْغِمَ فيه على دفع الجزية من جـديد. لكن الروم لم يلبثـوا أن نقضوا هذه الهـدنة ـ كعهـدهم دائما ـ وتقدمـوا فى بلاد الدولة العـباسيـة، وأوقعـوا بالمسلمين هزيمة فى مرعـش وطرسوس، بسبب انشغال الرشيد فى مشاكل الدولة الداخلية آنذاك[٢].

وإذا كـانت الدولة الإسـلاميـة ـ فى العـصـر العـباسى الأول ـ قـد عـانت من الاضطرابات والفتن، التى صحـبت الحرب بين الأخوين، فإن الدولة البيـزنطية لم تكن أحسن حـالا من الدولة العبـاسية. لكن الإمـبراطور تيوفـيلس عمل على تكدير صـفو العلاقات، فشجع بابك الخُرَّمى على إعلان ثورتـه على الخليفة العباسى، وجعل أعالى بلاد الشام ملجـأ للخُرَّمِـية. كمـا نهج المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) نفس المسلك، فـشجع

---

(١) فاروق عمر: العباسيون الأوائل جـ٢ ص٢٤٨.

(٢) صابر دياب: قراءة فى تاريخ الدولة العباسية ١٣٨-١٤٠.

الثائر «توماس الصقلبى» الذى خرج فى آسيا الصغرى ثائرا على الإمبراطور، وساعده بالمال والرجال، بل سعى إلى تتويجه إمبراطورا على الدولة البيزنطية نفسها.

ومن أهم مظاهر تطور العداء بين العباسيين والروم، أن البلاد الإسلامية أصبحت ملجأ للمضطهدين من الروم، كما غدت بلاد الدولة البيزنطية موطنا للخارجين على النظام العباسى، فاحتوى الخليفة المأمون العباسى الثائرَ «مانويل Manuel» أحد القادة البيزنطيين، الذين اشتركوا، من قبل، فى محاربة الدولة الإسلامية ، بعد اتهامه بالطمع في العرش البيزنطى؛ ذلك أن المأمون رَحَّبَ به، واستعان به للانتفاع بخبرته العسكرية فى إخماد الفتن التى وقعت فى خراسان وبلاد المشرق. لكن الإمبراطور البيزنطي بذل جهده لإعادة هذا الثائر إلى حظيرته ونجح فى مسعاه فى ذلك الصدد[١].

استمر المأمون فى جهوده لصد الخطر البيزنطى عن أملاك الدولة العباسية. فهاجم شرقى آسيا الصغرى، واستولى على بعض الحصون. ولما عجز الإمبراطور عن المضى فى الحرب عرض على الخليفة أن يعقد معه صلحا، يؤدى له بمقتضاه إتاوة كل عام، فلم يُجِبْه المأمون إلى طلبه؛ لأنه رأى ألا يترك فرصة الاضطراب السائد فى الدولة البيزنطية، دون أن يزحف إلى القسطنطينية، لكن الموت حال بينه وبين ذلك، فمات سنة ٢١٨هـ فى طرسوس، وهو يتأهب للخروج لغزو الروم.

وفى خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) حاول إمبراطور الروم الاتصال مرة ثانية بـ «بابك الخُرَّمى». فزحف إلى بلاد أرمينيا، ليتمكن بذلك من تحقيق غرضه، ثم أغار على مدينة «زبطرة» ـ أحد الثغور الجَزَرِيّة جنوب شرقى آسيا الصغرى ـ وخَرَّبها تماما. فلما علم المعتصم بذلك عوَّل على تخريب عمورية ـ وسط آسيا الصغرى ـ وهى المدينة التى نشأ فيها الإمبراطور ثيوفيلوس. وخرج على رأس قوة كبيرة، حيث تابع السير فى بلاد آسيا الصغرى، حتى تمكن من حصار هذه المدينة، وقتل فى هذه الواقعة نحوا من ثلاثين ألفا من سكانها، وافتدى أشرافُها ونبلاؤها أنفسَهم بأموال كثيرة. ولما عاد المعتصم إلى سامراء ـ بعد هذا النصر الذى أحرزه فى عمورية سنة ٢٢٣ هـ ـ احتفل بذلك احتفالا باهرا.

كذلك سعى المعتصم لفتح القسطنطينية، لكن منيته عاجلته سنة ٢٢٧هـ قبل أن يحقق هدفه. وقد حاول ابنه الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) تنفيذ غرض والده؛ فأرسل حملة

---

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص١٤١

بحرية لغزو القسطنطينية، لكن الحملة تعـرضت لعواصف وأنواء بحرية هائلة حطمتها، وفشلت الحملة. وبذلك لم يتمكن العباسـيون ـ مثلما لم يتمكن الأمويون من قبل ـ من فتح عاصمة الروم.

وقد نتج عن هذه الحـملات المتتاليـة من الجانبين، أن كثر عدد أسـرى كل جانب وأصبح الأمـر يتطلب عمل ترتيـبات فداء للأسـرى. فعرض الإمـبراطور ميـخائيل بن ثيوفيلس على الخليفة العباسى اتفاقا يتبادل الطرفان بمقتضاه الأسرى فوافق الواثق[1].

وقد أورد كلٌّ من الطبرى، والمسعودى وصفا لما تم بين الطرفين من عمليات فداء آنذاك، نسـتشف منه مـا اتبع فى هذا الفـداء. فيـذكر الطبـرى أنه فى المحرم من عـام ٢٣١هـ. جرى الفـداء بين المسلمين والروم، وكان عدد الأسرى الذين مع الـروم، أكثر من الذين مع المسلمين. فـرأى الخليـفة الواثق أن يكمل الـنقص بشراء رقـيق الروم من الأسواق، كمـا أخرج من قصره كثـيرا من النساء الروميات، حـتى تكافأ عدد الروم مع أسرى المسلمين. وقـد تم هذا الفداء على نهر صـغير من غـرب آسيا الصغـرى، غرب مدينة طرسـوس يقال له «نهـر اللامش» أو «اللامس» يصب فى البحـر المتوسط. فـمر المسلمـون من جانب النهـر الشرقى والروم من الجـانب الغربى. وكان الـروم إذا أطلقوا أسيرا من المسـلمين، أطلق المسلمون أسيرا من الروم. فـإذا وصل المسلم إلى أهل دولته كبَّـر المسلمون، وإذا قَـدِمَ الرومى إلى قومـه تكلم وتكلموا هم كـلاما يشـبه التكبـير. ويحدثنا الطبرى ـ فى رواية أخرى ـ أن المسلمين أقاموا على نهر اللامش جسرا، ونصب الروم جسـرا آخر. فكان المسلمون يطلقـون الأسرى الروم على جسرهم، وكـذلك كان يفعل الروم بأسرى المسلمين.

وقد نتج عن استمـرار الحروب بين المسلمين والروم، أن مكث المسلمون الأسرى سنين طويلة فى بلاد الروم. فَـيُرْوى أن بعض الأسـرى المسلمين عند الروم ظلوا ثلاثين سنة، كما أقام أسـرى الروم فى البلاد الإسلامية فترة طويلة. وقـد تأثر كثير من هؤلاء الأسرى بالحـياة العامـة في كلتا الدولتين. ومن هؤلاء الذين مكـثوا طويلا بأرض الروم «مسلم بن أبى مـسلم الجُرْمى»، الذى كان من أهل الثغور ثـم أُسِرَ فى بعض الحروب، ومكث فى القسطنطينية وغيرها، وأمكنه أثناء إقامـته هناك أن يكتب عن جغرافية الدولة البيزنطية. فلمـا جاءت عملية الفداء سنة ٢٣١هـ، رفض القول بخلق القـرآن فأعيد إلى منفاه ببلاد الروم [2].

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص١٤٢.

(٢) صابر دياب : المرجع الساق ص١٤٣

كما تعرضت الدولة البيزنطية لحمـلات إسلامية فى العصر العباسى خرجت من: مصر وشمال أفريقيا. ففى سنة ٢١٢هـ فتح المسلمون جزيرة كريت «اقريطش» أيام إمارة عبد الله بن طاهر بن الحسين على مـصر. وفى نفس السنة (٢١٢هـ) أيضا خرجت أول حملة لفتح جزيرة صقلية بقيادة قاضى قضاة القيروان «أسد بن الفرات بن سنان»، وذلك فى عهد إمارة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب. وكانت حملة «أسد» هذه بداية لمجهود إسلامى تواصل حتى أتم الأغالبـةُ فتحَ جزيرة صقلية أواخر القـرن الثالث الهجرى سنة ٢٩٦هـ، حيث اسـتسلمت الجزيرة تماما بسـقوط أقوى حصـونها ومعاقلهـا وهى مدينة «طبرمين».

وقد أسـس المسلمون فى جـزيرة صقليـة دولة، كمـا اعتنق أغلب أهلهـا الديانة الإسلامية، وكَثُر العلماء والأدباء المسلمون فيها، وأقيمت فى أنحائها الكثير من المساجد الإسلامية والعمائر.

يقول القزوينى فى كتـابه آثار البلاد وأخبار العباد: «رأيت فى صـقلية على مقدار غلوة سهم أكـثر من عشرة مسـاجد، رأيت بعضهـا تجاه بعض فسألت عن ذلـك فقالوا القوم، لانتفاخ أدمغتهم - «اعتزازهم بأنفسهم» - لا يرضى أحدُهم أن يصلى فى مسجد غيره».

واستمرت صقلية - منذ فتحها - فى يد بنى الأغلب، يتناولها عمالهم إلى أن زال عنها سلطان الأغالبة سنة ٢٩٦هـ، باستيلاء أبى عبد الله الشيعى على أفريقية، وإسقاط دولة الأغالبة. ومـنذ ذلك الوقت خرجت هذه الجزيرة من سلطة بنى العـباس، لتدخل فى نطاق السيادة الفاطمية الشيعية(١).

وقد تسبب ضعف الخلافة العباسية، فى فـقدانها زمام المبادرة فى علاقتها الحربية والدبلوماسـية مع جيـرانها المعـاصرين: كالبـيزنطيين والكارولونجيـين. مما جعل الدولة العباسية تنتقل من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع، وتتجنب القيام بحملات عسكرية - برية أو بحرية - طويلة الأمد، لعدم قدرة الدولة على ذلك من جهة؛ ولأن جنود الدولة شغلهم عن المعركة هَمُّ الحصول على الأرزاق وزيادةُ العطاء سنة بعد أخرى، ولو بالتمرد على الوزير أو الخليـفة. أمـا القادة فكان كل مـنهم يتوق إلى جـمع السلطة السـياسـية والعسكرية، فتركو شئون الحرب والقتال للتصارع على الوزارة، والإمارة وإمرة الأمراء، ورئاسة دواوين الدولة بكاملها، والنيابة عن الخليفة فى العاصمة.

---

(١) صابر دياب: المرجع السابق ص١٤٤.

ولم يعد الجندى والقائد العباسى هو ذلك الذى يقف معتدا بانتصاراته الرائعة فى الثغور البيزنطية أو التركية، بل أصبح إنسانا عاطلا خاملا يستجدى الناس فى الشوارع ويجتر ذكرياته الخالدة فى الأيام الغابرة المجيدة.

فحين تولى المنتصر الخلافة سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م، أرسل وصيفا التركى على رأس جيش من ١٠ آلاف مقاتل. وقد لعبت العداوة والبغضاء بين وصيف والوزير أحمد بن الخصيب، دورا فى ترشيح وصيف للقيادة، حيث اتفق الخليفة والوزير على إبعاد وصيف عن العاصمة. ولكن لم تكد تنقض سنة على ذهابه حتى عاد أدراجه دون أن يفعل شيئا يذكر فى منطقة الثغور، وذلك لوفاة الخليفة المنتصر.

وقد حقق المسلمون نصرا باهرا فى خلافة المستعين، حيث غزا (الصائفة) جعفر ابن دينار، وتبعه أمير ملطية عمر بن عبد الله الأقطع الذى اخترق بلاد الروم فى هجوم برى كاسح، واستولى على حصونها الوسطى حتى وصل ساحل البحر الأسود، واحتل ميناء أميزوس (سمسون). ويبدو أن القائد عمر الأقطع هذا قد ساءه أن يقف البحر حائلا بينه وبين الاستمرار فى الزحف، وربما تذكر هنا عقبة بن نافع الذى أوقف المحيطُ الأطلسىُّ، سيرَ فتوحاته فى أفريقيا الشمالية[1].

وقد ردت بيزنطة على توغل عمر الأقطع، بإرسال جيش كبير بقيادة أخى الإمبراطورة تيودورا. فكانت موقعة عظيمة سقط فيها ألوف القتلى، وقتل فيها قائدان من قواد الجيش العباسى، هما: عمر الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى، اللذان يصفهما المسعودى بأنهما «من أهل البأس والنجدة والمكايد...» بينما عادت القوات البيزنطية ظافرة، إلى عاصمتها القسطنطينية، حيث احتفلوا بنصرهم فى السيرك.

ومما يدل على نكاية عمرُ الأقطع فى الروم عبارة وردت فى كتابات الروم تقول: وشمل السلام الشرق من ذلك الوقت بسبب موت عمر»، وكان لهزيمة المسلمين هذه سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م، أثر كبير».. فى إذكاء روح الجهاد، حيث خرج سكان بغداد وسامراء يطالبون الخلافة بإرسال المجاهدين والمتطوعين لحرب الروم. وانقلبت المظاهرات إلى شغب وإضراب، وأخرَج الموسرون أموالا قَوَّوْا بها من خَفَّ للنهوض لحرب الروم. ولكن السلطة العباسية قابلتها بالقمع والإرهاب حيث ركب القادة أوتامش، ووصيف، وبغا، وعامة الأتراك، فقتلوا من العامة جماعةً، وألقىَ على وصيف قِدرٌ مطبوخ، وقيل رماه العامة بحجر، فأمر وصيف النفاطين فقذفوا حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار.

---

(١) صابر دياب: المرجع السابق ١٤٥.

على أن «الانتصار البيزنطى لم يؤد إلى استقـرار المنطقة، فقد غزا القائد بلكاجور بالمسلمين «صائفتين» سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، واستولى على حصون مهمة، وأسر عددا من أشراف الروم».

لكن ما كـانت تعانيـه الدولة العباسـية من اضطرابات داخليـة، أدت إلى حرب شعواء بين سامراء وبغداد، تسببت فى وقف الجهاد بحيث لم يعد يرجى من هذه الدولة المضطربة خـير «للثـغور أو لجـهاد الروم». وقد اسـتفـاد المسلمون من الـبيالقـة سكان الأناضول، الذين اضطهدتهم السلطة البيزنـطية، فمالوا إلى جانب المسلمين، ولكن هذه الفـائدة لم تَدُمْ طويلا، حيث رحلوا وتفـرقوا فى البـلاد، لعدم اهتـمام قـادة المسلمين بإدامتهم وتدبير أمورهم[١].

على أن المنعطف الجديد فـى العلاقات مع الروم «البيـزنطيين» منذ النصف الأول من القـرن التاسع الميـلادى / الثالث الهـجرى، تمـثل فى تأرجح قوة المسلمين لدرجـة ملحوظة، فبعد أن كانت الحرب سجالا بين الطرفين، رَجَحت كفةُ الروم، رغم أنهم لم يحققوا انتصـارات كبيرة حاسمة أو مكاسب مادية مـهمة. ويعود ذلك إلى قوة الأباطرة المقدونيين الذين سيطروا على السلطة فى القسطنطينية. بينما كان القادة الأتراك يسيطرون على الأمور فى سامراء، حيث انشغلت الخلافة فى مواجهة حركات الزنج، والقرامطة، والحركات الانفصالية فى الأقاليم. مما أدى إلى تشتت قوة المسلمين العسكرية، حيث لم يعد الروم يواجهـون قوة إسلاميـة واحدة، بل قوى متعـددة، يتعاملون معـها كُلاًّ على حدة، فهناك الطولونيون، والحمدانيون، والعباسيون.

وحين نجح أحمد بن طولون فى تأسيس إمارته فى مـصر، ثم وسعها إلى الشام، ولاه الخليفة المعتمـد ولاية الثغور الشامية، مما أقلق البيزنطيـين ودعاهم إلى مهادنته. ثم عاد بـاسيل الأول فشـن «حملة قـوية على حصن المسلمين، فـاحتل حـصن لؤلؤة سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م، ثم زبطرة وسميساط، وحاصر ملطية (Melytene)، وبذلك أصبحت جبال طوروس فى حوزة البيزنطيين (الروم)».

ولعـل هذا الزحف البـيزنطى مما اضطر الخليفـة المعتمـد العباسى إلى الاعـتراف بدولة أرمـينية سنة ٢٧٢هــ/ ٨٨٥م، لتكون حاجـزا بين العبـاسـيين والبيـزنطيين . . . (Buffer State)، مما دفع باسيل الإمبراطور البيزنطى بالتالى إلى الاعتراف بملك أرمينية الجديد.

---

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص ١٤٦.

لكن الجيش العباسى استطاع أن يثأر لنفسه سنة ٣٩٢هـ/ ٩٠٤م، حيث فتحوا أنطاكية، ووصلوا قونية وخربوها، مما اضطر الروم إلى الصلح وتبادل الأسرى.

وفى سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م، نجح الجيش العباسى فى إيقاف الجيش البيزنطي عند حده. فأرسل المقتدر قائده مؤنس الخادم، فهزم الروم ولقبه الخليفة «بالمظَفَّر». وقد أرسل الإمبراطور رسولَيْن إلى الخليفة المقتدر العباسي لطلب الصلح وتبادل الأسرى.

ولما أدرك الإمبراطور قسطنطين السابع ضعف العباسيين العسكرى والسياسى فى عهد المقتدر، طلب الخراج من سكان الثغور مهددا إياهم: «إن فعلتم ذلك طائعين، وإلا قصْدتُكم، فقد صَحَّ عندى ضعفُكم». مما دفع سكان الثغور للفرار والاستعانة بالخليفة فى بغداد، لمساعدتهم لدحر الروم، وفك أسرى المسلمين لديهم، وخاصة أنه أساء معاملة أسرى المسلمين وطالبتهم بيزنطة بالتَنَصّر. مما جعل الوزير على بن عيسى، يطلب من بطريكى أنطاكية والقدس التوسط فى الأمر، وإلا سوف يعامل النصارى فى الدولة العباسية بالمثل.

وهكذا ظلت المناوشات بين الطرفين. ولم يكن الجانبُ الإسلاميُّ فى وضع يُمكِّنه من المبادرة، بل كانت كل تحركاته عبارة عن رد فعل على تحرشات البيزنطيين.

وقد سبق أن أوضحنا كيف أن الدولتين ـ الإسلامية والبيزنطية ـ تبادلتا السفارات فى مناسبات مختلفة ، وحَرَصتا على إظهار فخامة العاصمة ومباهجها، وقوة الدولة وأبهتها أمام هؤلاء السفراء. ومن ذلك تلك السفارة البيزنطية التى استُقْبِلتْ ببغداد، فى عهد المقتدر سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٨م، وكانت تتكون من عشرين شخصا أو يزيد احتُفِى بهم احتفاء كبيرا، وشاهدوا مباهج العاصمة العباسية وقصورها[1].

النزاع حول السيادة على البحر المتوسط بين المسلمين والروم:

تعتبر معركة ذات الصوارى ٣٤هـ/ ٦٥٥م من المعارك المهمة فى تاريخ البحرية الإسلامية حيث انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين. وأكد هذا الانتصار قوة المسلمين البحرية التى يعود الفضل فيها إلى عبد الله بن سعد ومعاوية بن أبى سفيان. وكانت هناك حملات بحرية منتظمة على عهد الأمويين، الذين استطاعوا أن يهددوا القسطنطينية ثلاث مرات ويبسطوا نفوذهم على جزر رودس وقبرس ويهاجموا صقلية، كما امتد نفوذهم حتى وصل جزر بحر مرمرة أحيانا.

---

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص ١٤٨.

على أن الحرب البحرية فى عهد الأمويين كانت سجالاً، ولذلك لم يستطع المسلمون تثبيت نفوذهم على جزر البحر المتوسط. فلقد كان عصر بني أمية عصر بداية تعريف العرب بالبحر. ولذلك انصرفت الجهود إلى تحصين الثغور البحرية، وبناء السفن، وتدريب العدد الكافى من المقاتلة البحريين. وكان المنتظر من الدولة العباسية أن تبدأ الخطوة التالية، وهى خطوة السيطرة على جزر البحر وشواطئه، واستخدام الموانئ البحرية كطرق للتجارة، ولربط الأجزاء البعيدة من الدولة الإسلامية - كالأندلس والمغرب - بالمشرق. على أن شيئا من هذا لم يتم، وذلك لأن وجهة العباسيين كانت شرقية، ففقدوا - نتيجة لذلك - تدريجيا كلَّ صلة بالأقاليم الغربية[1].

يقول المؤرخ المصرى ساويرس بن المقفع أن مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين هرب إلى مصر بعد اندحاره فى معركة الزاب. وهناك أرسل حامية من جنده إلى الوجه البحرى وأمرهم بحرق كل السفن البحرية. . ويستمر المؤرخ نفسه فيقول بأن الخليفة العباسى المنصور أمر الكثير من رجال الدين غير المسلمين بأن يعملوا فى أحواض بناء السفن فى مصر مقابل إعفائهم من الجزية. ولعل هذا الخبر إن دل على شىء فإنما يدل على اهتمام المنصور بالبحرية الإسلامية. ولكن كثرة المشاكل فى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية ربما غيَّرت من وجهة نظر المنصور وأجبرته على الاهتمام بالمشرق أكثر من غرب الدولة الإسلامية[2].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقط انشغلت دولة الفرنجة كذلك بمشاكل داخلية حَولَت اهتمامها إلى الداخل عوضا عن البحر المتوسط. مما مهد الطريق للإمبراطورية البيزنطية، بأن تبقى سيدة الموقف في البحر المتوسط لأكثر من نصف قرن تقريبا. حين بدأت كلٌّ من دولة الأغالبة والدولة الأموية فى الأندلس تُنَازِعُها السيادة البحرية من بداية القرن التاسع الميلادي (٨٠٠م)[3].

ومهما يكن من أمر فإن التاريخ يسجل للعباسيين الأوائل عنايتهم بتحصين الموانئ الشامية والمصرية. ولكنهم نظروا إليها لا كقواعد هجومية بل كحدود لدولتهم ينبغى حمايتها والدفاع عنها. وتسجل الروايات بعض الغزوات البحرية العباسية، ففى سنة ١٥٦هـ/ ٧٧٣م أغار الأسطول الإسلامي على قبرس وأسر حاكمها. فى حين كان الروم

---

(١) فاروق عمر : العباسيون الأوائل جـ٢ ص٢٥٠-٢٥١.
(٢) فاروق عمر : نفس المرجع جـ٢ ص٢٥٠-٢٥١.
(٣) فاروق عمر : نفس المرجع جـ٢ ص٢٥٠-٢٥١.

منشغلين بحروبهم مع البلغار فى أوربا. وفى عهد المنصور كذلك قاد ثمامةُ بن وقاص حملةً بحرية سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٣م على شواطئ آسيا الصغرى الغربية. ولكن السفن البيزنطية استطاعت قطع الاتصال بين الجيش الإسلامى البرى وبين أسطوله. ولكن تعاوُنَ الجيش والبحرية الإسلامية مكَّن لثمامة أن ينجو من الحصار، وينسحب إلى داخل حدود الدولة العباسية البحرية. وفى عهد المهدى قام الغمر بن العباس الخثعمى بغزو بحر الشام فى سنتين متتاليتين ١٦٠هـ و١٦١هـ[١].

وهكذا نرى بأنه لم يكن للعباسيين باع طويل فى البحر المتوسط. مما شجع الأسطول البيزنطى على مهاجمة الموانئ الإسلامية فى كل من الشام ومصر، كما أنه حفَّزَ الأمويين فى الأندلس على مهاجمة مصر كما حدث سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٥م[٢].

من كل ذلك نستنتج النقاط التالية في العلاقات العباسية البيزنطية:

تبادل السفراء بين العباسيين والروم[٣]:

رغم أن «الحروب المتتالية من صوائف وشواتى كانت سجالا بين العباسيين والبيزنطيين، لا تؤدى إلى نتيجة حاسمة كما ذكرنا من قبل، إلا أنها دون شك كانت تؤدى إلى دمار الثغور والعواصم وما فيها من رباطات، كما وأنها تؤدى إلى وقوع العديد من المقاتلين أسرى لدى الطرفين.

والواقع أنه قد جرى اثنا عشر فداءً منذ خلافة الرشيد حتى خلافة الطائع. ومن هذه الأفدية الفداء التاسع الذى حدث فى خلافة المقتدر بالله سنة ٣٠٥هـ فقد كان ملك البيزنطيين قسطنطين السابع صغير السن تسيطر عليه أمه «زوى». ولما وجد أن لاطائل من الحرب، أرسل وفدا إلى بغداد ومعه هدايا وتحف يعرض على الخليفة الهدنة والفداء. وقد توجه الوفد إلى العاصمة، ودخل العراق، وحين وصل إلى تكريت أمر الخليفة بأن يمكث الوفد مدة من الزمن، حتى يتم تزيين بغداد وإظهارها بمظهر يناسب تراثها العربى وحضارتها التليدة.

وقد وصل الوفد بغداد يوم الإثنين ٢ محرم سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، وقد تألف من رئيس الوفد، وعشرين عضوا، ومترجم يتكلم العربية، وعين الخليفة مرافقا للوفد هو :

---

(١) فاروق عمر : نفس المرجع جـ٢ ص٢٥٢

(٢) فاروق عمر : العباسيون الأوائل جـ ٢ص٢٥٢.

(٣) راجع : صابر دياب : قراءة فى تاريخ الدولة العباسية ١٥٠.

«أبو عمر عدى بن أحمد التميمى الطرسوسى» صاحب السلطان والمسئول عن الثغور الشامية. واهتم الوزير على بن الفرات بأمر الوفد وراحته ومسكنه.

من كل ذلك نستنتج النقاط التالية فى العلاقات العباسية البيزنطية :

لقد استمرت الحروب بين العباسيين والبيزنطيين فى حالة مد وجزر، وكانت عبارة عن إغارات سريعة خاطفة، ولم تأخذ طابع الفتوح المنظمة؛ وذلك لأنها لم تكن تهدف أو لم ينتج عنها توسيع لرقعة الدولة الإسلامية. وكان دور الأسطول الإسلامى فى العصر العباسى محدودا جدا، بحيث لم يتعد مراقبة الأسطول البيزنطى أو الإغارة الخاطفة على وحداته المرابطة على الشواطئ.

ولم يكن فى هذه الحروب العباسية ـ البيزنطية زخم الفتوحات الإسلامية المجيدة ولاغنائمها ولا نتائجها.

ويبدو أنه كان من مصلحة الدولتين ـ الإسلامية والبيزنطية ـ استمرار هذه الحروب لأثرها العملى والسياسى فضلا عن دوافعها الدينية[١].

ولقد بذل العباسيون الأوائل جهودا لا بأس بها لا من أجل تحصين المنطقة فقط، بل أيضا لإعمارها بشريا واقتصاديا، كى يسهل العيش فيها ولتوفر المؤن للذين يرابطون بها أو يمرون من هناك أثناء غزواتهم. وقد حاول الخليفة أبو جعفر المنصور ـ بصفة خاصة ـ زيادة عدد الرعاة الذين يربون الجاموس فى هذه المناطق، لخلق نوع من الحياة الريفية حول الحصون والمدن الثغرية الإسلامية[٢].

ويظهر أن انتصارات المهدى فى سنة ١٦٥ هـ على الروم هى التى زادت من شهرته. حيث يشير اليعقوبى إلى تقديم ملوك كابل وطبرستان والصغد وطخارستان الطاعة والولاء له.

ورغم إشارة الروايات الإسلامية إلى عمق التغلغل العباسى فى منطقة ترانسكسونيا، فإننا نعتقد بأن هناك نوعا من المبالغة؛ وذلك لأن إقليم خراسان نفسه لم يكن إقليما مستقرا فى هذه الفترة المبكرة من حياة الدولة العباسية، حيث كثرت فيه الاضطرابات وتعاقب على ولايته ولاة متعددون، على أن هؤلاء الولاة لم يدخروا وسعا فى الجهد حينما كانوا يرون الفرصة مناسبة وخراسان هادئة[٣].

---

(١) فاروق عمر : العباسيون الأوائل جـ٢ ص٢٥٣.
(٢) فاروق عمر : نفس المرجع جـ٢ ص٢٥٤.
(٣) فاروق عمر : المرجع السابق ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

العباسيون فى الجبهة الشمالية الشرقية[1]:

كانت الطبيعة الوعرة لإقليم أرمينية، وضيق الممرات البرية، وقلة المئونة سببا فى ضعف السيطرة الإسلامية عليها؛ ولذلك كان الولاة يترددون فى قبول هذا الإقليم. فيروى الأزدى فى تاريخ الموصل: أن الخليفة أبا العباس السفاح قلّد الموصل رجلا يقال له : محمد بن صول مولى الخثعم، وقلّد أرمينية رجلا من الأزد من آل المهلب، فوافيا الموصل جميعا، فلم يقبل أهل الموصل ولاية ابن صول وقالوا : ما نرضى أن يكون أميرنا مولى الخثعم ومنعوه من الدخول إلى الموصل، وقالوا للمهلبى: نحن نرضى بك واليا علينا، واجتذبوه إلى الولاية، فأجابهم إلى ذلك وكتبوا إلى أمير المؤمنين يسألونه أن يوليهم المهلبى ويصرف عنهم ابن صول.. فكتب أبو العباس إلى ابن صول: أن أقِمْ بمكانك إلى أن يأتيك أمرى، وكتب إلى المهلبى أن خَلّف (أي اترك) أصحابك وثقلك بالموصل وانحدر، فانحدر المهلبى وخلف رجاله. وأنفذ أبو العباس السفاح قائدا من قواده فى جماعة إلى المهلبى وثقبوا الزورق وغرقوه وكاتبه. وكان من أقوى ولاة أرمينية فى عهد أبى العباس أخاه أبا جعفر الذى تولى الجزيرة وأرمينية وأذربيجان. فجعل مركزه فى الجزيرة، وأرسل يزيد بن أُسَيْد السلمى على أرمينية ويزيد بن حاتم المهلبى على أذربيجان. وكان يزيد المهلبى أول من أسكن قبائل عربية من الأزد وطيئ وغيرهم من اليمانية فى أذربيجان فى حصون مختلفة.

كما أن العباسيين اضطروا لحماية طريق المواصلات، بين المركز وأرمينية، إلى أن يضعوا حامية عسكرية فى سيسر.

وفى ولاية يزيد بن أسيد السلمى الذى استقر فى برذعة ، اضطربت أرمينية، فكتب إلى المنصور بذلك. فأجابه الخليفة (إن بلاد أرمينية لا تستقيم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر. والرأى عندى أن تصاهرَ القوم حتى تستقيم البلاد، وإلا فإنى خائف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر. فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا. فانظر ولا تخالف أمرى واجتهد فى مصاهرة الخزر والسلام).

وقد تزوج يزيد بابنة ملك الخزر (خاقان) وكان صداقها ١٠٠ ألف درهم. ولكنها ماتت عند يزيد بعد حوالى ثلاث سنوات. وبهذا لم تنفع هذه المصاهرة حيث ثار الخزر

---

(١) فاروق عمر : المرجع السابق جـ٢ ص٢٥٧ ـ ٢٦٠ وصابر دياب أرمينية.

ولم يكن عند يزيد السلمى أكثر من ٧ آلاف مقاتل من الخيالة. فاستنجد بالمنصور الذى اهتم بالأمر كثيرا، حيث أكد على وجوب حماية النفوذ الإسلامى هناك والدفاع عن (الثغر الأعظم) وهى الصفة التى أطلقها الخليفة على حدود المسلمين مع الخزر.

وكانت التعزيزات الجديدة التى وصلت إلى يزيد السلمى مكونة من : أكثر من ١٠,٠٠٠ مقاتل من أهل الشام، أما جند العراق فكان يتكون من ١٠,٠٠٠ بقيادة جبريل بن يحيى و٥,٠٠٠ مع حرب بن عبد الله الراوندى و١٠,٠٠٠ مع مخلد بن الحسن و١٠,٠٠٠ مع حميد الطائى، وسار يزيد بن مزيد الشيبانى فى ٢٠ ألف من أهل الجزيرة والشام. وقد واجه الجيش الإسلامى أعدادا هائلة من الخزر قدر عددهم بحوالى ١,٠٠٠,٠٠٠ (مليون) مقاتل، وحدثت المعركة فى أرض الشروان. وانهزم المسلمون فى برذعة، حيث قُتِلَ عدد كبير منهم، كما قتل حرب الراوندى فى هذه المعركة التى حدثت فى سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ - ٧٣٦م.

وكانت إجراءات المنصور فورية حيث أوجد نظام الأجناد ورتب فيه المقاتلة من أهل النجدة من الشام والجزيرة والعراق. ونزلت هذه الفرق فى (باب الأبواب) وكمخ، وبنيت حصون جديدة، واستقرت المقاتلة وأجريت عليها الأرزاق التى كانت بنى أمية تجريها عليهم من قبل.

وفى ولاية الحسن بن قحطبة الطائى على أرمينية الذى جاء ومعه ٥٠ ألف مقاتل من أهل خراسان والشام والعراق ثارت (الصنارية) - وهم صنف من سكان البلاد الذين لم يسلموا - فاستنجد الحسن الطائى بالمنصور الذى أرسل إليه ٣٠ ألفا مع عامر بن إسماعيل الجرجانى، وعيسى بن موسى الخراسانى، والفضل بن دينار ومقاتل بن صالح. فقاتلوهم وانتصروا عليهم وكان ذلك سنة ١٤٨هـ/ ٧٩٥ _ ٧٩٩م.

وقد استقر الحسن الطائى فى برذعة وعين أولاده الثلاثة قحطبة وإبراهيم ومحمد ولاةً على مناطق مختلفة من أرمينية. ولكن السياسة المالية التعسفية التى اتبعها محمد أدت إلى ثورة جديدة فى أرمينية بقيادة (البطريرك موشابذ). وقد وجد الجيش الإسلامى الجديد الذى قدم من العراق لقمع الثورة أسلحة مدخرة فى الكنائس. ولعل وجود الأسلحة فى الأماكن المقدسة المسيحية اعتبر مبررا لمقاتلة المسلمين لكى يهاجموا الكنائس ويأخذوا ما بها من أموال وتحف وسلاح، ويقتلوا موشابذ و٣ آلاف من أتباعه.

استمر المنصور فى سياسته فأرسل مجموعات قبلية جديدة وأسكنها فى أرمينية. وكان هدفه دون شك هو إحكام السيطرة الإسلامية على هذا الإقليم، لضمه إلى إطار الدولة الإسلامية. وكان الخليفة يخشى من مساعدة الإمبراطورية البيزنطية للثوار الأرمن. ولكن الأرمن قاموا أحيانا بمساعدة الجيش الإسلامى. وذلك بإرشاده إلى أماكن احتشاد قوات الروم. ولهذا السبب ينعتهم المؤرخ «داينوسس التلمحرى» بالخداع وعدم الأمانة والمكر. على أن كره داينوسس التلمحرى لهم قد يكون متأتيا من اختلافه وإياهم فى المذهب. والمعروف أن الخزر أنفسهم كانوا جزءا من الجيش الإسلامى فى حربه مع البيزنطيين سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م. ولم تهدأ أرمينية فى عهد المنصور الذى اهتم بها إلى درجة أنه ولى مولاه «واضحا» عليها. وبقى واضح أميرا عليها وعلى أذربيجان حتى وفاة المنصور. واستمرت سياسة الشدة تجاه أرمينية فى عهد الخليفة الهادى، حيث استعمل واليه عليها سياسة تعسفية شملت أمراء أرمينية أنفسهم، حتى لقد قُتِل منهم اثنان بأمر من الخليفة.

٢- العلاقات العباسية - الكارولنجية:

تعتبر العلاقات العباسية الـكارولنجية حلقة هامة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب، فى حـقبة مهـمة وحساسـة من العصور الوسطى، تكشف مدى الحـاجة إلى العمل الدؤوب المتواصل لإبراز العـوامل المادية والروحية، التى كانت تتحكم فى طبـيعة الصلات بين الشرق والغرب؛ ذلك لأن المشاكل والصعوبات التى اعتورت هذه العلاقات فى العصـور الوسطى بكل ما فيهـا من مظاهر، تواجهنا اليوم فى القرن العـشرين رغم اختلاف المفاهيم وتطور الأطر وتعقدها[١]. ومن هنا تأتى قيمة هذا الموضوع فى الكشف عن الجذور التاريخية لطبيعة هذه العلاقات.

على أن هناك عقـبات عديدة تعـترض عمل المؤرخ. يقـول البروفسـور هاملتون جب. Gibb,H[٢]:

«على المؤرخ الذى يرغب فى تقديم صورة تاريخية عن القرون الوسطى، أن يقوم بجمع النبذ المتناثرة من المعلومات ثم يسد الثغرات المتبقية بالاستنتاج المنطقى».

لكن المشكلة التى تواجـهنا عند البحث فى طبـيعة العـلاقات الدوليـة بين الشرق والغرب أعقـد من ذلك بكثير، فالنصـوص التى لدينا غامضة ومـقتضبة، وقـد حمّلها المؤرخون أكثر من طاقتها، ولم يعد بعض ما استنتجوه يدخل فى باب الاستنتاج المنطقى الذى أشار إليه البروفسور Gibb.

ثم هناك التحيز . . فقد اعتادت أوربا الغربية ـ خاصة بعد منتصف القرن السادس عشر الميلادى ـ على مسـتوى حضارى امتاز بتفوقـه المادى والثقافى. ونسى مفكرو أوربا وكتـابها أو تناسـو المستوى الحـضارى الواطئ الذى عـاشته مـجتمـعاتهم فى العـصور الوسطى[٣]. بل إنهم لم يتحملوا حتى التفكير فى حضارات لم تكن فى يوم ما منافسة لهم ماديا وروحـيا فـحسب بل أرقى منهم درجات عـديدة. وهذا ما أكـد عليه المؤرخ الكبير البروفسور بارتولد حين قال :

(١) راجع فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص١٨١ -١٩٧.
(٢) هاملتون جب : دراسات فى حضارة الإسلام ، بيروت ١٩٦٤ ، ص٦٢
(3) Cambridge. Mass. R.W. Southern : Western Views of Islam in the Middle Ages, 1962. PP. 2. ff.

«نجد أن أوربا الغربية فى القرون الوسطى كانت بلدا متأخرا قياسا بالمشرق - مسيحيا كان أو مسلما - تماما كتأخر الشرق اليوم بالقياس إلى أوربا الغربية.. ولكن نجد الأسس المتبعة فى طرق البحث التاريخية تجد صعوبة فى إزالة الخرافة التى تعتبر أوربا فى كل العصور، تحتل تلك الأهمية العالمية سياسياً وحضارياً كالتى تتمتع بها الآن»(١).

لقد تصور هؤلاء الكتاب والمؤرخون أن الغرب الذى استطاع أن يحصل على «الامتيازات» من الدولة العثمانية وحصلت دوله على حقوق لحماية الأقليات المختلفة فى تلك الدولة كان بمقدوره أن يحصل على امتيازات وحقوق حماية من الدولة العربية فى العصور الوسطى.

وهناك عقبة أخرى وهى «النظرة المسبقة» التى نظر بها المجتمع الأوربى الغربى إلى المجتمع الإسلامى. فلقد كانت الصورة التى يحملها الأوربيون عن العرب وعقيدتهم الإسلامية صورة مشوهة لا تمت إلى الحقيقة بصلة. ولم تتعدل هذه الصورة وتتعرض للتقويم وإعادة التقييم إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى(٢). حين ازداد اتصال الأوربيين بالشرق بطرق شتى سلمية وحربية، وتعرفوا على حضارته ونظمه، حيث بدأ الطلبة يستمعون إلى مناقشات أساتذتهم للعلوم التى نقلوها عن العرب، وخاصة فى الفلسفة والطبيعيات. وبدأوا يستعملون الأرقام العربية فى حساباتهم علانية بعد أن كانت ممنوعة وتدارسوا بوصلة العرب» وظهر لهم أنها ليست من عمل الشيطان ولا تُستَخدم فى تضليل البشر!!» كما كان يَدَّعِى رجالُ الكنيسة(٣).

لقد كان أرنست رينان من المؤرخين الغربيين الرواد الذى تعرض بصورة جدية وعلمية للعلاقات بين الشرق العربى والغرب الأوربى فى العصور الوسطى، إلا أن مؤرخى عصره لم يتمثلوا به. حتى جاءت الفترة بين الحربين العالميتين فشهدت جهودا محمودة لإظهار التأثير العربى على الغرب فكان ما كتبه مونيريه ونيرى شاهد على ذلك. ثم تعاقبت البحوث والمقالات تعالج العلاقات السياسية والحضارية والحربية فى فترات مختلفة(٤).

---

(١) راجع مقدمة الناشر الروسى الأستاذ خالدوف فى (دراسات فى تاريخ فلسطين فى العصور الوسطى) بغداد ١٩٧٣.

(2) Southern, Op. Cit., PP. 34 ff.

(٣) هارولد لامب، شعلة الإسلام، بغداد، ٦١٧ فما بعد.

(4) H.A.R. Gibband Bowen. Islamic Society and the West. (London. I. 1950 II. 1954).

لقد كان قيام الدولة العربية يمثل مشكلة سياسية وحضارية عنيدة للغرب المسيحى. وكان على الغرب أن يجابهها عسكريا وعقائديا من جهة؛ وأن يتعامل معها من جهة أخرى تجاريا وحضاريا. وفى الوقت الذى كان لدى الغرب الكثير لمجابهة اليهود والرد عليهم، لم يكن لديه أى تراث فكرى يعينه على مجابهة الإسلام كقوة سياسية وفكرية[١].

لقد كانت الدولة الإسلامية دولة منتصرة قوية فاتحة. لم تقاوم الهجمات البيزنطية فحسب، بل ردت عليها بهجمات موفقة وصلت بها إلى ضواحى القسطنطينية. كما أن المسلمين هاجموا آراء الكنيسة حول طبيعة المسيح وعبادة الصور المقدسة. وكان الفكر والثقافة الإسلاميين أرفع بدرجات عديدة من المستوى الأوربى[٢].

وليس هذا فحسب، بل إن المجتمع الأوربى كان مجتمعا زراعيا إقطاعيا كنسيا، بينما كان المجتمع العربى الإسلامى مجتمعا تجاريا بالدرجة الأولى يمتاز بمدنه الكبرى الكثيرة. كذلك لم يوجد فى الإسلام ذلك النظام الكنسى المعقد بأديرته ورهبانه الذى يحتلون مكانا رئيسيا فى البنية الاجتماعية فى أوربا وبيزنطة. وبكلمة مختصرة فإن الفارق كان كبيرا، لأنه فارق بين مجتمع متأخر بطىء ومجتمع ناضج متطور. على أن هذا الفارق لم يَحُلْ دون الاتصال والاحتكاك اللذَيْن اتخذا أشكالاً ومجالات مختلفة أهمها: المجال العسكرى، والمجال الدبلوماسى ـ السياسى.

العلاقات الدبلوماسية:

لم تكن العلاقات بين الشرق والغرب مقصورة على العداء والحرب، بل شملت صلات ودية مع الإمبراطوريتين البيزنطية والفرنجية (الكارلونجية).

فلقد كانت تتخلل الحروب بين العرب والبيزنطيين فترات سلمية يتبادل فيها الطرفان الأسرى والوفود. كما ساعد إمبراطور الروم (البيزنطيين) الأمويين فى عملية إعادة بناء بعض المساجد فى الحجاز والشام. وكانت التجارة نشطة بين الدولتين برا وبحرا. وتشير رواية إلى أن عبد الملك بن مروان استعان بخبرة البيزنطيين فى مشروعه لتعريب السكة (النقود)[٣]. كما استقبل المنصور سفيرا بيزنطيا بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، الذى أشار على الخليفة - كما تقول الرواية - بألا يبنى السوق داخل سور المدينة حفظا للأمن من الشغب والتجسس[٤].

---

(1) F. Hitti : Islam and the West. London 1962.
(2) M. Khadduri. War and peace in the Law of Islam. Baltimore. 1955.
(٣) هاملتون جب : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، الفصل الثالث ص ٦١ فما بعد.
(٤) فاروق عمر : العباسيون الأوائل ، الجزء الثانى، ص٨١ دمشق ١٩٧٣.

وإذا كانت رواياتنا عن العلاقات العربية ـ البيزنطية الحربية والسلمية واضحة وصريحة لأنها فى الغالب تتصل بالجهاد، فإن الطابع الأسطوري الغامض يغلب على الروايات القليلة الغامضة المتعقلة بالعلاقات العربية ـ الفرنجية (الكارولنجية) تلك العلاقات التى تلتزم المصادر العربية حولها جانب الصمت ولا تذكرها إلا ثلاثة مصادر لاتينية هى (الأخبار الملكية الفرنكية) (وسيرة الإمبراطور شارل الكبير «شارلمان» لأينهارد وما كتبه الراهب سنت كول (S't. Goll)[1].

فلقد اختلف المؤرخون حول العلاقات العربية ـ الفرنجية (الكارولنجية) ليس فقط حول طبيعة هذه العلاقات وأهدافها، بل على حقيقة وقوعها. إذ تشير بعض الروايات إلى أن شارلمان إمبراطور الإمبراطورية الكارولنجية بدأ يخطب ود الخليفة هارون الرشيد. فأرسل له وفدا رسميا سنة ١٧١ هـ ٧٩٧م ، ثم أرسل رسولا إلى بطريق القدس سنة ١٧٣هـ/ ٧٩٩م. وقد رد الرشيد بإرسال وفد سنة ١٧٦هـ / ٨٠١م، وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة ١٧٥هـ / ٨٠٢م، فرد عليه الرشيد بوفد وكانت الوفود تحمل الهدايا المختلفة إلى كل من العاهلَيْن. كما أرسل شارلمان هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين، مما دعا بطريَق القدس إلى إرسال وفد سنة ١٧٤هـ / ٨٠٠م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ومدينةَ القدس ورايتها إلى شارلمان.

وقد حَمَّلَ بعضُ الباحثين الأوربيين هذه الروايات المفعمة بالخيال والغامضة فى مصادرها الأصلية أكثر مما يجب، فابتدعوا أسطورة تاريخية جديدة فحواها أن شارلمان أصبح حاميا للأراضى المقدسة فى فلسطين وأميرا على القدس بموافقة الخليفة، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين، ويقف ضد البيزنطيين ليحول دون تهديدهم البرى والبحرى للدولة العباسية. وهذا غير صحيح ولا يستند إلى دليل.

كما أن هذه الأساطير والافتراضات لا تصمد أمام النقد الموضوعى، ولا تنسجم مع سياسة هارون الرشيد، وروح العصر الذى عاش فيه. هذا فضلا عن أن المؤرخ ستيفن رنسيمان دحض هذه المقولة «أسطورة الحماية»، مؤكدا أنها من اختراعات الراهب سانت كول المستندة على روايات أينهارد الغامضة[2]. كما ناقشها الدكتور مجيد خدوري مناقشة موضوعية مسهبة معتمدة على المصادر. فكانت دراستُه أحسنَ دراسة علمية حديثة للموضوع وهو يرى :

---

(١) مجيد خدورى : الصلات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان، (بغداد ١٩٣٩) ص٤.

(٢) عن فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص ١٩٢ راجع
Runciman Charlemagne and Palestine in EHR, 1935.

«بأن المصادر اللاتينية المعاصرة بالغت كثيرا فى خطورة هذه الصلات وفى شأنها السياسى. فنسجت حول البعثات الدبلوماطيقية ما شاءت لها مخيلات مؤلفيها أن تنسجه من الآراء تعظيما لمركز الإمبراطور شارلمان فى الغرب»[١].

حقا المصلحة السياسية كانت تدعو الدولتين العباسية والكارلونجية (الفرنجية) إلى التقارب، لأن عدوَّهُما المشترك كان واحدا ألا وهو البيزنطيين، والأمويين فى الأندلس. فكانت الدولة العباسية فى نزاع حربى مستمر مع البيزنطيين، بينما كانت الدولة الكارلونجية فى حروب مستمرة مع الأمويين فى الاندلس[٢] من جهة. ومن جهة أخرى كان العباسيون يعتبرون الأمويين متمردين، وقاموا بعدة محاولات لاستعادة الأندلس منهم. وكان النزاع على أشده بين البيزنطيين والكارولنجيين. حيث كان كل منهما يعتبرُ نفسَه الوريثَ للمجد السياسى للإمبراطورية الرومانية القديمة.

كذلك كان للبابوية دورها فى توتر الصلات بين الطرفين. فقد ناصر البابا الكارولنجيين وعارض بشدة سياسة البيزنطيين الدينية (الأيقونية) - وهى عبادة الصور المقدسة للمسيح والعذراء والقديسين - وقَدَّمَ الدعمَ المعنوى للأباطرة الفرنج الكارولنجيين وساند طموحهم السياسى للسيادة على أوربا. كما يبدو أنه كانت هناك سفارات متبَادلة بين البيزنطيين، والأمويين فى الأندلس بسبب عداء الدولتين لكلّ من الفرنج والعباسيين.

على أن كل هذه المصالح المشتركة بين الأطراف المعنية كان من الممكن أن تؤدى إلى صلات سياسية وعسكرية قوية، ومع ذلك فإن المصادر لا تذكر عنها إلا القليل الغامض. ورغم أن الدولة العباسية تركت السياسة الهجومية إلا أنها كانت تمثل الجانبَ الأقوى فى النزاع مع البيزنطيين طيلة العصر العباسى الأول. ثم إن الرشيد عُرِف بسياسته الدينية المتشددة، تلك السياسة التى لا تسمح له بأن يعطى شارلمان حقا أو امتيازا فى الأراضى المقدسة بفلسطين، أو يسمح لبطارقة الكنيسة بالاتصال بعاهل أجنبى. وفى هذا الوقت كانت الدولة العباسية فى عهد الرشيد تمر بمرحلة التفكك الإدارى وانفصال الولايات. وقد حاول الرشيد كإجراء إصلاحى أن يقَسِّمَ الدولة بين أبنائه الثلاثة. فقد انفصلت المغرب وتونس عن جسم الدولة رغم اعترافها بسلطة الخليفة. فكيف يفكر الرشيد باستعادة الأندلس وقد فقد شمالى أفريقيا؟؟

---

(١) مجيد خدورى : الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان بغداد ١٩٣٩، ص٦١.

(٢) راجع : عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٦٦) ص٦٥-٧٣.

وأخيرا وليس آخرا، فقد كانت ـ ومازالت ـ الأراضى المقدسة فى فلسطين - وخاصة مدينة القدس- ذات أهمية دينية وسياسية فى وقت واحد للمسلمين طوال تاريخهم، وطالما بقيت السموات والأرضين. حتى أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يختارون إعلان بيعتهم فيها. كما بنى عبدُ الملك بن مروان فيها قبةَ الصخرة والمسجد الأقصى. واهتم بها الخلفاء العباسيون الأوائل حيث زاروها وأصلحوا مساجدها. فكيف يحق للرشيد بعد ذلك أن يعطى إمبراطور الفرنج امتيازات مهمة فى فلسطين ؟

وإزاء سكوت مصادرنا العربية عن ذكر أية علاقة سياسية ـ عسكرية بين العباسيين والفرنج. فليس أمامنا إلا القول بأنه إذا كانت هناك علاقات بين الطرفين، فلا بد أن تكون ودية لَعبَ فيها التجار، الذين كان بعضهم من اليهود دورا كبيرا، ونؤيد وجهة نظر بارتولد التى تقول بأن ما ذكِرَ عن هذه الصلات محض خيال[1].

ومهما يكن من أمر فإن العلاقات بين الشرق والغرب لم تنقطع منذ أقدم العصور حتى الآن. ولكنها مرت بفترات من المد والجزر، وتباينت بين صلات سلمية وأخرى حربية. وهناك بعض الكتابات التى تشير بأن الإسكندر الأكبر (المقدونى) طلب من أهالى الأقاليم التى فتحها فى الشرق أن يُؤْوُا اليونانيين المهاجرين فى أراضيهم ويُعْفوهم من الضرائب. كما أشارت بعض الروايات الأسطورية الأوربية إلى أن شارلمان قام بحملة صليبية لتحرير الأراضى المقدسة فى فلسطين، وأن وقائع هذه الحملة أُرِّخَتْ بعد قرن من وفاة شرلمان[2].

٣-الروس يهاجمون الحدود الإسلامية:

هاجم الروس أذربَيْجَان، وهزموا أميرها من «بنى الساج» واحتلوا العاصمة برذعة. ولم يستطع المسلمون فى أذربيجان أن يثبتوا أمامهم، ولكن الناس قاوموهم ولم يخضعوا لهم. وقد أدى ذلك إلى مذبحة رهيبة قَتل فيها الروسُ آلاف السكان الأذربيجانيين والمسلمين. وقد وصف مسكويه الروسَ قائلاً : «هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام، ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولى الرجل منهم حتى يَقْتل أو يُقْتل».

---

(١) فاروق عمر : بحوث فى التاريخ العباسى ص١٦٤ ـ ١٩٥ .
(٢) فاروق عمر : بحوث ص ١٩٦ . .

على أن أمير أذربيجان استطاع أن يجمع شتات جيشه الإسلامى وانتصر على الروس وردهم على أعقابهم.

٤. العباسيون والبلغار:

تعرف «البلغار»، المستقرون على أطراف نهر الفولجا على الإسلام عن طريق اتصالهم بالتجار السامانيين المستوطنين فى إقليم خوارزم. وقد أرسل البلغار وفدا إلى الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، ليطلب منه خبراء بفن بناء الحصون وفقهاء بالدين الإسلامى. فأرسل إليهم الخليفة ما أرادوه. وكان من بين الوفد الإسلامى «ابن فضلان»، الذى وصف لنا طريق هذه الرحلة، التى مرت: ببخارى، وخوارزم ثم حوض الفولجا على الطريق المار بشمالى بحر الخزر، وقد نقل ياقوت فى معجمه جزءا من وصف هذه الرحلة.

كما يشير الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة إلى أن الإسلام انتشر بين الغز النازلين فى الحوض الأسفل لنهر الفولجا بفضل التجارة كذلك. وحين أسلم ملكُ الغز أعطى المسلمين المستقرين هناك امتيازات خاصة.

٥- العباسيون وموقفهم من بني أمية في الأندلس

بدأ سلطان الخلافة يتقلص عن بلاد الأندلس بسقوط دولة بنى أمية فى دمشق. فقد انتهى النزاع بين المضرية واليمنية فى الأندلس، بتغلب العنصر الأول وإسناد الولاية إلى رجل منهم. وظل الحال كذلك، إلى أن زال سلطان بنى أمية فى الشرق، وتعقبهم العباسيون ومثَّلوا بهم. فأتيحت الفرصة لأحد أمراء البيت الأموى وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذى قدر له أن يفلت من يد العباسيين، واستطاع أن يقيم دولة فى الأندلس لبنى أمية.

ولم يكن طريق عبد الرحمن بن معاوية مفروشا بالورود، إذ تعقَّبه عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى والى إفريقية، ويوسف الفهرى أمير بلاد الأندلس، فهرب إلى «مكناسة» - إحدى قبائل البربر - حيث لقى هناك الكثير من الشدائد، فتسلل إلى بعض قبيلة زناتة، حيث لقى هناك إحسانا وترحيبا. وبدأ عبد الرحمن بن معاوية يراسل أمراء بنى أمية بالأندلس، ويدعوهم لمبايعته مستغلا سوء الأحوال فى هذه البلاد، بسبب الانقسامات التى وقعت بين اليمنية والمضرية.

دخل عبدُ الرحمن بن معاوية بلاد الأندلس سنة ١٣٨هـ فى شهر ربيع الأول، وخضعت له البلاد بالتدريج، حتى خضعت قرطبة، وقضى على نفوذ واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، وبويع له بالإمارة فى العاشر من ذى الحجة ١٣٨هـ. وبذلك تَيسَّر له إقامة الدولة الأموية بالأندلس. وهو ما سيكون له أثره على الدولة العباسية.

ولذلك لم ولن يهدأ العباسيون - خاصة أبو جعفر المنصور - ما دام عبد الرحمن بن معاوية قائما بدولته فى الأندلس؛ ولذلك حاول المنصور التدبير للتخلص منه، واستعمل فى هذه المهمة العلاء بن مغيث الرومى، لكن العلاء انهزم وقُتِل معه فى هذه المعركة نحو سبعة آلاف عباسى. وعلى هذا لم تنجح محاولات المنصور فى استرداد بلاد الأندلس.

لجأ أبو جعفر المنصور إلى استمالة ملك الفرنجة، رغبة فى مساعدته والتحالف معه - وهو غير مسلم - ضد عبد الرحمن الداخل. لكن مساعى المنصور فى هذ السبيل لم تصل إلى هدفها، ولم تترك سوى المرارة التى ولَّدَتْها فى نفس عبد الرحمن الداخل، والخشية من هجوم الفرنجة على بلاده.

ولم يكن المهدى العباسى أقل عداءً لبنى أمية بالأندلس من أبى جعفر المنصور، بل حذا حذو أبيه، فى السعى المستمر لإزالة ملك بنى أمية من الأندلس، وبسط سلطان العباسيين عليها. لكن المهدي لم يفكر فى إرسال الجيوش العباسية إلى بلاد الأندلس، نظرا لبعد الشقة بينها وبين مركز الخلافة العباسية فى بغداد، ولقوةّ عبد الرحمن الداخل التى كانت فى تعاظم دائم. ومن ناحية أخرى نجد عبد الرحمن الداخل كان يفكر فى غزو بلاد الشام، ولم يثنه عن عزمه هذا سوى انشغاله بالأحوال الداخلية فى بلاد الأندلس.

وقد حاول المهدى إضعاف عبد الرحمن الداخل فى الأندلس، فكلف عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى بالتوجه إلى تلك البلاد. فعبر عبد الرحمن الفهرى البحر، وكتب إلى سليمان بن يقظان» ـ فى برشلونة ـ يدعوه إلى الدخول فى طاعة العباسيين، ومحاربة عبد الرحمن الأموى، فلم يُجِبه سليمان بن يقظان إلى طلبه، مما أغاظ عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى فأغار على بلده فى جيش كثيف من البربر، فانهزم الفهرى، كما عمد عبد الرحمن الداخل إلى حرق سفن العباسيين، التى كانت مرابطة فى الموانئ الأندلسية، حتى يحول دون هرب عبد الرحمن الفهرى. ولم يلبث طويلا حتى قُتِلَ الفهرِى بيد أحد رجال البربر. وبذلك فشلت سياسة الخليفة المهدى العباسي أيضا فى إعادة بلاد الأندلس إلى حظيرة التبعية للدولة العباسية.

وقد نتج عن هذا العداء العباسى ـ الأموى، أن تقرب إمبراطور الفرنجة «شارلمان» إلى الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) سعيا لخدمة مصالح بلاده. فقامت بين العاهلَيْن العلاقات الودية التى اتسمت بالود والصفاء، بعكس ما كانت عليه العلاقات العباسية البيزنطية.

وتقول الروايات التاريخية أن إمبراطور الفرنجة «شارلمان» بعث بسفارة دبلوماسية إلى هارون الرشيد. وكان هدف هذه السفارة هو تأمين وحماية المسيحيين فى الأراضى المقدسة، وذلك بتيسير سبل الحج إلى بيت المقدس وكنيسة القيامة، وتدعيم التبادل التجارى بين الدولتين. أما الرشيد فكان يسعى إلى مثل هذه الصداقة لتدعيم جانبه فى صراعه مع كل من الإمبراطور البيزنطى، وبنى أمية فى الأندلس، الذين كانوا ـ فى نظر العباسيين ـ خارجين على الطاعة للدولة العباسية.

مكثت البعثة الدبلوماسية الفرنجية فى بلاط الخليفة العباسى وبلاد الشرق الإسلامى، نحو ثلاث سنوات. وكانت فى أثناء سفرها قد توفى اثنان من أعضائها

الثلاثة، وكانا من النصارى. أما الثالث وهو المترجم اليهودي «إسحق» فوصل إلى بلاط الخليفة العباسي ببغداد، وقدَّم للرشيد كتاب شارلمان وهديته. وقد استقبله الرشيد بحفاوة، وأنزله منزلة كريمة، ورحَّبَ بصداقة ملك الفرنجة. وأرسل الرشيد لملك الفرنجة رسولَيْنِ مبعوثَيْن: **أحدهما** مبعوثه «ممثله» الشخصي وهو فارسي، **أما الآخر** من إفريقية، وهو ممثل شخصي لإبراهيم بن الأغلب «أمير القيروان»، وبعث الرشيد معهما بهدية جليلة. وقد استقبل شارلمان سفارة الرشيد بترحاب عظيم، وبلغ من ارتياحه للنتائج التى أسفرت عنها مباحثات البعثة الدبلوماسية الأولى أن أوفد بسفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحق اليهودى.

غير أن أخبار السفارة الثانية من ملك الفرنجة للرشيد غير وافية. إذ لم تذكر المصادر أكثر من أنها سافرت إلى بغداد. ومن المحتمل أن تكون المراسلات والكتب قد تمت بين الطرفين فى أول عهد الرشيد.

لكن هؤلاء السفراء وتلك الكتب لم تؤد فى الحقيقة إلا إلى إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شارلمان، وتبادل الهدايا بين الرشيد وشارلمان. وبمقتضى تسلم شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة، أصبح هو حامى المسيحيين، الذين يفدون إلى الأراضى المقدسة، لأداء فريضة الحج. وعلى الرغم من أن هذا الأمر لم يكن وقتها ذا اعتبار، إلا أنه أدى فيما بعد إلى نتائج خطيرة إبان الحملات الصليبية، التى اتخذت من هذا حقا للاعتداء على أراضى العالم الإسلامى، بحجة حماية الأراضي المسيحية المقدسة وحماية الحجاج فيها. وهو أمر خطير عانى ويعانى منه العالم كله عامة، والمسلمون خاصة.

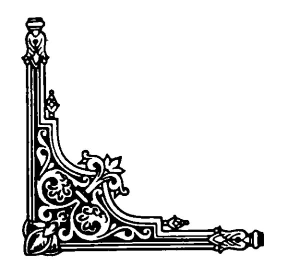
وكان من بين الهدايا التى أرسلها الرشيد لشارلمان خيمة عربية، وساعة مائية دَقَّاقَة، وأثوابٌ حريرية، وتحف ذهبية، وفيل يسمى «أبا العباس» أثار إعجاب الناس فى بلاد الفرنجة.

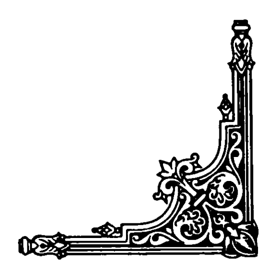
والحق، لقد استمرت أمنية إعادة بلاد الأندلس إلى الحظيرة العباسية، تراود العباسيين، إلى أن وَلِيَ المعتصم الخلافة، فعزم ـ كما يذكر السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ـ على السير إلى أقصى بلاد المغرب ليبسط سلطان بنى العباس، على البلاد التى لم تنضم بعد إلى حوزتهم، ولكن منيته عاجلته، فحالت بينه وبين ما يبغى. وهكذا ظلت بلاد المغرب وبلاد الأندلس بمنأى عن السيادة العباسية.



الفصل العاشر

تدهور نفوذ الخلافة العباسية





شقت الخلافة العباسية (الحكومة المركزية) طريقها خلال أزمات وتحديات متلاحقة واجهتها في أقاليم الدولة وولاياتها. وظلت الخلافة تحكم دون أسس ثابتة تعتمد عليها، ومكّنتها ثروتها من تجنيد قوات عسكرية كافية لوضع حلول للمشاكل المتعددة في أقاليم الدولة. وحين كانت التدابير العسكرية تفشل، فإن الحكومة العباسية كانت تضطر للقبول ببعض التساهلات السياسية، بأمل العودة عنها حين تسنح الفرصة لذلك، أما الإجراءات البعيدة المدى التي اتخذتها الخلافة فلم يكن لها من هدف سوى تعزيز سيطرتها على البلاد عامة.

وكان استمرار هذا النظام السياسي العباسي متوقفا على استمرار تدفق الأموال إلى بيت مال الخلافة. هذا بينما كان تزايد الاتجاه في الولايات للدفاع عن مصالحها الاقتصادية قد بدأ يؤثر في واردات الحكومة المركزية. مما أثر في قدرتها على تجنيد قواها للمحافظة على سلطانها وهيبتها على الأقاليم والولايات.

فلما اعتلى المعتضد دست الحكم سنة ٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م وجد الخزانة خاوية لأول مرة في تاريخها[١]. وكان هذا الوضع الحرج يتطلب علاجا. وقد فشلت جهود المعتضد لأنه لم يَحِدْ، ولا استطاع أن يحيد عن المبادئ الأساسية التي نهجها أسلافه. فلا عجب أن تكون بذور الانهيار والتلاشي الكامنة في هذه المخططات ظلت تنمو، بحيث سببت لخلفائه من بعده مشاكل أشد تعقيداً، أدت في النهاية إلى انهيار سلطة الحكومة المركزية في بغداد. ثم صار الإقطاع العسكري هو السبيل الوحيد للمحافظة على السيطرة على الولايات. كما أدى إلى ظهور المتغلبين - أي القادة العسكريين- الذين كانوا يَتَحدَّونَ سلطةَ الخلافة، وباتوا مستقلين بوجه عام في بعض المناطق النائية. لذلك كانت الحكومة بحاجة إلى مزيد من المال لدفع مرتبات عدد وافر من الرجال للقتال، محافظة على سلامتها في الأقاليم الباقية الواقعة تحت سيطرتها[٢].

لذلك اعتمدت الدولة طريقة التلزيم (الالتزام)، في جباية الضرائب، لكي تضمن استمرار تدفق الموارد الضرورية. لكن تزايد عبء الضرائب المفروضة، أدى إلى إرغام الفلاحين الصغار على ترك أراضيهم، والثورة على أوضاعهم السيئة؛ ولذلك هاجموا القوافل وحاولوا السيطرة على شبكة الطرق التجارية البرية. مما هدد التجارة. وأدى إلى نشوء صراعات جديدة، وتحالفات بين رفقاء كان تحالفهم مستبعدا. وكان على

---

(١) الصابي : الوزراء ص ٩-١٠.

(٢) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٤١-١٤٣.

الحكومة المركزية أن تعمل لحماية التجارة. فلجأت إلى توسيع دائرة الإقطاع الإدارى العسكري، ليشمل دخل الضرائب المفروضة على التجارة العابرة بين مختلف المناطق. وكان للديلم - سكان مناطق بحر قزوين - الدور الرئيسي في تدهور سلطة حكومة الخلافة. مما شجع الحركات الثورية ذات الطابع الشيعي، للعمل بين التجمعات الريفية، الأمر الذي أدى إلى التعجيل بتفكك وتلاشي سلطة الحكومة في دار الخلافة(1).

ولقد حاول الخليفة الموفق طلحة وضع حد للإقطاع الإداري العسكري، لكن دون جدوى. وذلك بسبب ما كان موجودا من توازن للقوى المنتفعة بهذا النظام.

وعلى الرغم من أن الخليفة المعتضد كان رجلا قويا، إلا أنه كان بحاجة لنظرة واقعية للأمور؛ ولذلك - ولافتقاده لهذه النظرة - فإنه فشل خلال حكمه (٢٧٩-٢٨٩ هـ / ٨٩٢-٩٠٢م) في إجراء أية إصلاحات، لعدم إدراكه مؤشرات وأسباب القلق والتوتر الحقيقية. ولجأ إلى تشديد قبضته وسيطرته على عناصر الإدارة المركزية، وقام بالفصل بين الشئون العسكرية والضرائب، ليضمن التحكم فيهما، إلا أن سياسته هذه أَوْصَلَتْه إلى نتائج عكسية سلبية(2).

حقا، لقد ورث المعتضد جيشا قويا وموحدا، وكانت لديه خُطة لاستخدامه بصورة سليمة تقوم على تقسيم الجيش إلى ثلاثة أقسام رئيسية لكل منها وظيفته الخاصة. فكان القسم الأول يقوم بدور الجيش النظامي المرابط في بغداد عاصمة الخلافة، وكان رجال هذا القسم من الخيالة والمشاة (السودان وبعض الديالمة)، وهؤلاء عُرِفوا بـ«المصافيَّة». أما الخيالة فكانوا أيضا نوعا مميزا من الرجال، ومعظمهم كانوا أبناء قادة عسكريين ورؤساء وغيرهم من القادة، وكان بعضهم عربا والبعض الآخر من الأعاجم والخزر(3)، ويقومون بواجبات الحرس الخاص للحاكم. وكانوا كلهم تحت إشراف موظف عاليَ المكانة في القصر يعرف بـ «الخادم». وكانت مرتباتهم تدفع من الخزانة العامة للدولة (بيت مال الخلافة)، وكان عددهم في البداية نحو مئة خيال، ثم أخذ يزداد بسرعة بمرور الوقت(4).

---

(١) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٤٢.
(٢) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٤٣ .
(٣) الصابي : رسوم دار الخلافة ص ٧١-٧٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٣٧٦.
(٤) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٣٧٦.

أما القسم الثاني من جيش المعتضد فـتكون من خيالة ومشاة وعرفوا باسم عسكر الخدمـة أو الشرطة. وكانت مهـمتهم هي المحـافظة على الأمن في بغداد وما حـولها، وتأمين سلامة الطرق الرئيسية المؤدية إلى العاصـمة، ويشرف عليهم مسئول أقل درجة، ومرتباتهم تدفع أيضا من بيت المال وهي أدنى من مرتبات القوة الخاصة[1].

والقسم الثالث يتألف من أقل الرجال مقدرة وتَسَمّوا باسم «عسكر الدون» وكانوا يرسلون إلى الولايات بقـيادة قـوادهم لبسط سـلطة الحكومة، وحـماية المنطقـة، ودعم موظفي الضرائب لتمكينهم من أداء مهـامهم دون التدخل في عملهم. وكانوا في الواقع يقبـضون عطاءاتهم من موارد الولايات التي يرابطون فـيها. وقـد عينت الخلافة مـوظفاً مدنيـا هو« المنفق» للإشـراف على توزيع العطاءات وللتأكـيد على الـفصل بين الشـئون العسكرية والشئون الضرائبية[2].

وقد عين المعتضد وزيرا مسئولا عن الحكومة المركزية هو عبيد الله بن سليمان بن وهب، وهو جد زوجـة المعتضد، وكـان موظفا أشد أمانـة وإخلاصا[3]؛ ولذلك منح سلطةً على قادة القسم الـثالث من الجيش في الولايات[4]. وكان المتوقع أن تكون هذه الترتيبـات كافية لاستقرار الأوضـاع في الدولة، لكن الفشل كان نصيبـها لأنها لم تكن مصحوبة بأية تدابير لمعالجة المشاكل معالجة حقيقية جذرية.

وكـانت المشكلة الأولى تـتمثل في خلو الخـزانة العـامة (بيت مـال الدولة). ثم جاءت وفاة الحاكم الساماني عام ٢٧٩هـ / ٨٩٢م فرصـة مناسبة شجعت على الاعتداء على أملاك الأسرة السامانية. فحاولت بقـايا قوات الطاهريين في خراسان، والشيعة في طبرستان أن تسـتغل ما بدا أنه انهيار للسلطة السـامانية، لتعيد تأكيـد سلطتها على هذه المناطق. كما اعـتقد عمرو بن الليث الصـفَّار أن الفرصة مواتية للتـخلص من آل سامان نهائياً[5].

وإذا كانت هذه المغامرة لم تحـقق لبغداد شيئا ذا بال ماليـا، فإنها أثقلت الحكومة المركزية بأعباء بقايا آل طاهر.

---

(١) الصابي : الوزراء ص ٧١ -٧٢.
(٢) الصابي : الوزراء ص ١١-١٧، ١٥٨، ومسكويه: تجارب الأمم ج١ ص١٥٣.
(٣) ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص٧٤.
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج٨ ص ١١٤.
(٥) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٤٤ -١٤٥.

وعلاجاً للموقف المتأزم، لجأ الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب إلى إطلاق سراح أبناء آل الفرات من السجن، وتعيينهم مستشارين له في شئون الضرائب. وهم الذين اختبأوا عند مجيء المعتضد للحكم ثم اعتقلوا فيما بعد [1]. وقد بدأ آل الفرات عملهم وبدأت الأموال تتدفق على الخزانة. واتصل أبناء الفرات برجل من قبيلة طيئ يدعى أحمد بن محمد وعرضوا عليه امتياز جمع الضرائب في المناطق المجاورة للعاصمة، بما في ذلك الطرق التجارية المؤدية إليها لقاء مبلغ ٧٠٠٠ دينار للخزينة المركزية كل يوم أي ما يعادل (٢,٥٢٠,٠٠٠ دينار سنويا) [2]. كما طلبوا سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م من الطولونيين في مصر والشام زيادة ما يدفعونه لبيت مال الخلافة إلى ٤٥٠,٠٠٠ دينار في السنة، مع تخليهم عن قنسرين[3]. وكان لهذه الترتيبات التي أحدثها أبناء آل الفرات نتائج سيئة بعيدة المدى في أنحاء الدولة العباسية.

إذ عمد كل واحد تقريبا من القادة العسكريين المتغلبين إلى المطالبة بالسيطرة على تحصيل الضرائب كلٌّ في منطقته، أو استولى عليها فعلاً. كما قام عدد من الأعيان، ومشايخ البدو، والتجار، والأغنياء، وكبار الملاك بسلسلة من الثورات للحصول على امتيازات مماثلة أو لحماية مصالحهم المحلية[4].

وقد حاول المعتضد - دون جدوى - السيطرة على الموقف باستخدام قواته الخاصة أو النخبة، ولكن ذلك لم يُجْد، مما اضطره للرضوخ واعتماد نظام الإقطاع العسكري الإداري اعتمادا كليا. كما لجأ الملتزمون لإنشاء جيوش خاصة بهم. وهكذا تحول الفارق بين التزام الضرائب والإقطاع الإداري العسكري إلى فارق نظري فقط. وكذلك سارع قادة العسكر بالعمل بسرعة لزيادة ثرواتهم ونفوذهم. وصار موظفو الدولة شركاء لملتزمي الضرائب، وتحول الوزير إلى ملتزم للضرائب[5].

إزاء هذا الموقف المتأزم استُبْدِلَ أبناء آل الفرات بآل الجَرَّاح لمواجهة الظروف الحرجة الجديدة، وسُمِحَ لقائد شرطة بغداد في هذا الوقت بالتدخل في مسألة الضرائب لصالح الحكومة المركزية[6].

---

(١) الصابي : الوزراء ص ١٠.
(٢) الصابي : نفس المصدر ص ١١.
(٣) الطبري : المصدر نفسه ج٣ ص ٢١٨٥-٢١٨٧، وابن الأثير ج٧ ص ٣٤٠.
(٤) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٤٧ -١٤٨.
(٥) محمد عبد الحي شعبان : المرجع السابق ص ١٤٨.
(٦) الطبري : ج٣ ص ٢١٩٠ -٢١٩٢.

أما عن الثغور فقد سيطر عليها القادة الذين كانت لديهم قوات عسكرية، وكانوا يتطلعون لإنشاء ولايات لهم في هذه المناطق النائية. وقد تمكن أحدهم من أبناء أمراء أشروسنة واسمه «محمد بن ديفداد بن ديفدست» - المعروف «بابن أبى الساج» - من أن يرغم الخليفة المعتضد العباسي على التخلي له عن أرمينيا وأذربيجان كإقطاع إداري وعسكري. وهو الذي مازال إلى جانب أتباعه في خدمة بني العباس منذ خلافة المعتصم بالله العباسي (٢١٨-٢٢٧هـ)(١).

كذلك تمكن الرؤساء العرب المحليون ـ كبني حمدان ـ من الاستيلاء على قلاع حصينة فى نقاط رائجة فى إقليم الجزيرة(٢).

واكتفى آخرون في نفس المنطقة بجمع الضرائب من التجارة العابرة(٣) كما شمل هذا الوضع جميع الشعوب المهتمة بالتجارة بين الدولة الإسلامية وكل من بيزنطة وروسيا وأوربا حتى بلاد الشمال(٤).

أضف إلى ذلك أن تجار بغداد الأغنياء اهتموا بالمبادلات التجارية. وعلى مسافة أبعد إلى الشرق كان زعماء العرب في سميساط وماردين وآمد يتصارعون فيما بينهم على نصيب أكبر من هذه التجارة مع الموانى السورية ومنافسة طرسوس. هذا مع المحافظة على التجارة عبر نهري دجلة والفرات بتدعيم علاقتهم مع بغداد عاصمة الخلافة. لكن جيرانهم في أرمينية وأذربيجان كانوا أكثر اهتماما بالتجارة الأوربية عبر منطقة القوقاز (٥).

وأمام هذا الوضع المعقد، كان على المعتضد أن يحدد الأولوية اللازمة لعلاج الموقف المتعسِّر للحكومة العباسية. وكان من أولى المهام التي وجه إليها عنايته مسألة الرواج التجاري، وضمان التدفق المالي لخزانة الدولة. وكان يرى أن عليه مسئولية احتواء هذا الوضع ومنع التدهور. ولهذا لجأ إلى مهادنة السامانيين، ومنح كلاً من أرمينيا وأذربيجان لابن أبى الساج، وهادن الروم (البيزنطيين)، وتوصل لعقد معاهدة مع

---

(١) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٤٩.
(٢) محمد عبد الحي شعبان : المرجع السابق ص ١٤٩.
(٣) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٥٢.
(٤) محمد عبد الحي شعبان : المرجع السابق ص ١٤٩.
(٥) الإصطخري: مسالك الممالك ص ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٩٩، وابن رسته : الإعلاق ص ١٤١، وابن فضلان: رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار (تحقيق سامي الدهان، دمشق ، ١٩٥٩م) ص ٧٤، ٩٨، ١٠٣، ١٤٥.

الطولونيين. وأصبحت مشاكله المباشرة محصورة في تأمين الصلات الحيوية مع المناطق الشرقية للدولة الإسلامية، بدءا من بغداد إلى الري[1]. واستعادة الهدوء والنظام في الثغور الجزرية المضطربة وإنهاء الاضطرابات والاستفزازات من جانب الروم عند طرسوس[2].

على أن جهود المعتضد العسكرية لم تؤد إلى النتائج المرجوة على الجبهة الشرقية. ولذلك كان عليه أن يعتمد على الحنكة السياسية لوزيره الذي أوفَده إلى الري. وفعلاً تمكن هذا الوزير من إعادة الهدوء للمناطق المجاورة، بواسطة التوسع في تطبيق نظام الإقطاع الإداري العسكري[3].

بعد ذلك توجه المعتضد بنفسه إلى إقليم الجزيرة حيث حقق بعض النجاح العسكري، وسيطر على قلاع سميساط وآمد وماردين بسهولة. كما انقلب الحمدانيون - العرب الشيعة - الذين كانوا قد تعاونوا مع الأكراد «الخوارج» على حلفائهم، وانضموا إلى الخليفة المعتضد لإخضاع هذه القوة الخارجة. وقد كوفئ الحمداتيون على موقفهم هذا، بأن أعطاهم الخليفة حكم الموصل، حيث كانت تقوم قلاعهم الحصينة. وبذلك صارت قوات الحمدانيين جزءا من قوات الحكومة العباسية ونصيرا لها. وسرعان ماراحت تلعب دورا هاما فى مجال تدعيم سلطة الخلافة، مع تحقيق المصالح الحمدانية. وقد تشبه بهم العرب الذين كانوا يسيطرون على قلاع فى مناطق الثغور. فأعلنوا خضوعهم للخلافة في عهد المعتضد الذي وضع مجموعة قوية بقيادة ابنه - الذي سيعرف بالمكتفي فيما بعد - في الرقة ، وعاد هو إلى بغداد[4].

أما بالنسبة للمشاكل التى كانت قائمة في طرسوس، فقد أرسل المعتضد إليها صاحب البريد. حيث وقع هناك اضطراب خطير في أذربيجان. إذ اختلف وصيف، المسلم الأرمني الأصل فيما يرجح، وقائد مجموعة كبيرة في جيش ابن أبي الساج، مع قائده بشأن الترتيبات الجديدة بالنسبة للمنطقة. وقاد أنصاره زاحفا على ملطية، إحدى المواقع في الثغور، دون أن يواجه أية مشاكل في توطيد سلطته. ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك أي اعتراض على إقامة محطة إسلامية مجاورة لهم. ولذا لم يُبدُوا أى

(١) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص ١٥١-١٥٢ .
(٢) الطبري : ج٣ ص٢١٤٠-٢، و ٢١٤٧، ٢١٥٥-٦ ، و ٢١٦١، ٢١٧٨.
(٣) محمد عبد الحي شعبان : نفس المرجع ص١٥٢.
(٤) محمد عبد الحي شعبان :نفس المرجع ص١٥٢.

مقاومـة لوصيف. لكن المعتـضد حشد قواته كلهـا وقادها بنفسه لحـرب وصيف، الذي حاول الهرب واللجوء إلى البيزنطيين، لكنه فشل واعـتُقِلَ ودُمِجَ جيشه بهدوء في قوات الحكومة(١).

بعد ذلك قـام المعتضد بجـولة متفقـدا مناطق الثغور كلها. وفي طرسـوس اتخذ قراراً خطيـرا وغريبا فى نفس الوقت. إذ أمـر بتدمير أسطول طرسـوس الإسلامي الذي كان يعمل ضـد البيزنطيين. فاندلعت النيـران في خمسين قطعة بحرية إسـلامية تكلفت أموالاً باهظة، وبطبيعة الحال كان هذا الإجراء محل ترحيب من الروم(٢).

على أن المعتـضد، في السنوات الثلاث الأخيـرة من حياته، واجه مـشكلة كانت موجودة من قـبل، وهي القلاقل في منطقة جنوبى العراق. تلك القـلاقل التى كان لها صدى عـميقـا وقويا فى كل أنحاء الدولة تـقريبا. إذ توحـدت فيهـا المصالح الإقليمـية والمذهبية الشيعية، في مـواجهة النظام الإقطاعي الإداري العسكري، الذي لم يقم اعتبارا لمصالح سـكان الولايات. هذا فضـلاً عن أن وجود قوات عـسكرية منفصلـة وقوية في الأقاليم، مـثل القوات الطولونيـة في مصر والشـام، يعتبـر أمرا ضارا بمـصالح المناطق الضعيفة، بحيث لم يكن أمام هذه المناطق الضعيفـة لحماية مصالحها الحيوية، إلا الثورة المسلحة ضد النظام العباسي القائم.

وقـد أدى تصلب الحكومة المركـزية وتجـاهلها للمـشكلتين الأسـاسيـتين في هذا الوقت-وهما المصـالح الإقليمية وثورة أهل الريف-إلى إتاحـة الفرصة للحزب الـشيعي لتزعم الثورة واللعب على هذه الأرضية المتفجرة(٣).

وفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م أصدرت الخـلافة العبـاسية أمـرا إلى جيش محـمد بن سليمان لمهـاجمة الطولونيين في مصـر، وفعلاً تمكن هذا الجيش من القـضاء على حكم الطولونيين في نفس السنة(٤).

ومما ساعد على النصر العباسي على آل طولون اشـتراك قوات طرسوس البحرية، التي كان قد أعيد بناؤها، حيث تم التنسيق بين القـوات البحرية والقوات البرية الزاحفة إلى الفسطاط حـيث يحكم الطولونيون. وكـان وجود الحمـدانيين في صفـوف القوات

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٨ ص ٢٩٦-٢٩٨.
(٢) الطبري: ج٣ ص ٢١٩٩-٢٢٠٠ ، محمد عبد الحي شعبان: الدولة العباسية ص١٥٣.
(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا (تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ، ١٩٤٨) ص٢٢٣.
(٤) الطبري : ٣/ ٢٢٣٢-٢٢٤٨.

العباسية المهاجمة لمصر، يعتبر دليلاً على ما كان لهم من مصالح في القضاء على الحكم الطولوني، مثلهم في ذلك مثل الطرسوسيين الذين لم يترددوا في الزحف بحرا عبر البحر المتوسط لهذه الغاية نفسها[1].

هذا فضلاً عن أن معرفة قائد الحملة الدقيقة بمشاكل مصر آنذاك، مما أهَّله للقيام بهذه المهمة الخطيرة. فبعد انتصاره وجه همته نحو تحطيم ما تبقى من قوة للجند السودانيين في مصر[2].

على أنه بعد ستة أشهر من سقوط الحكم الطولوني، قامت العناصر المؤيدة للجند السوداني بثورة جعلت القوات العباسية تنسحب من الفسطاط إلى الإسكندرية[3].

وبالنسبة للإستراتيجية العامة للدولة العباسية فإن بغداد أدركت خطورة ما ينجم عن انهيار الأغالبة في شمال أفريقيا(القيروان وما حولها)، وقيام دولة الفواطم العبيديين على أنقاضها. ولذلك قررت الخلافة العباسية تعزيز تواجدها بتكثيف وجودها العسكري في مصر. فأرسى الوزير محمد بن سليمان أسس السيطرة المباشرة على كل شئون مصر. وذلك بأن عيَّن ممثلَيْن مُنفصلَيْن للحكومة العباسية، يكونان مسئولين عن الشئون العسكرية والضرائبية. وكان هذا العمل بمثابة انحراف عن نظام الإقطاع الإداري العسكري الذي اعتمدته الخلافة قبل ذلك [4].

أما عن الوضع في بلاد الشام، فقد انتهز القرامطة الفرصة، وأعادوا تجميع قواهم، وقاموا بسلسلة من الهجمات الصاعقة ألقت الرعب في أوساط المجموعات الحضرية على حدود الصحراء السورية العراقية، وظلوا طوال سنة ٢٩٣و٢٩٤هـ/ ٩٠٥-٩٠٦م يهاجمون القوافل ويتولون على ما لديها، بما في ذلك القوافل العائدة من موسم الحج، الأمر الذي دفع الحمدانيين إلى مساعدة الحكومة العباسية، حيث أنزلوا هزيمة ماحقة بهؤلاء النهَّابة، وجُرِحَ في هذه الحملة زكرويه نفسه، ووقع في أسر القوات الحمدانية العباسية، وكانت وفاته نهاية لهذه الحركة التمردية[5].

أما قرامطة البحرين فقد تُرِكُوا وشأنهم، ثم مضت سنوات قبل أن يفرضوا وجودهم. فلما آلت الخلافة إلى المكتفي بن المعتضد (٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠٢-٩٠٨م) اهتم

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) المقريزي : الخطط ج١ ص٣٢٢- ٣٢٧، والكندي : المصدر السابق ص٢٤٨.

(٣) الكندي: نفس المصدر ص٢٥٩-٢٦٣، والمسعودي: نفس المصدر جـ٨ ص٢٣٦-٢٣٧.

(٤) الكندي : المصدر السابق ص٢٥٨ ، والطبري : ٣/ ٢٢٥٣.

(٥) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص١٦٣-١٦٤.

- كالإمبراطور البيزنطي ليو السادس الحكيم(٨٨٦-٩١٢م)-بإيجاد صيغة للتعاون والتعايش السلمي بين الدولتين العباسية والبيزنطية. فقام المكتفي في عام ٢٨٩هـ/٩٠٢م - أي عقب توليه الخلافة مباشرة - بإرسال الهدايا إلى الإمبراطور ليو السادس. وقد رد الإمبراطورعلى ذلك - في عامي ٢٩٠هـ/٩٠٣م و ٢٩٤هـ/٩٠٧م - بإرسال بعثة سلام إلى بغداد برئاسة صهره[1]. ولم تؤثر فى هذه العلاقات الودية أية مناوشات تقع على جانبي الحدود بين الدولتين.

وقد عين الخليفةُ المكتفي من جهته أميرا من آل حمدان على الموصل، فبادر هذا إلى إخضاع البدو العرب والأكراد الساكنين فى المنطقة الثغرية. ومن ناحية أخرى، قطع ليو السادس عن القاعدة العسكرية البيزنطية فى قونية الدعم العسكري والمادي، مما اضطر حاميتها ليس إلى وقف العمليات فحسب، بل محاولة اللجوء إلى طرسوس بالذات[2].

أما في الأقاليم المشرقية فإن صعوبة المشاكل هناك ازدادت لانعدام الاتفاق على أسلوب موحد لمعالجتها، حتى بين الأطراف المعنية نفسها. ولنبدأ بوزيره أولاً، وهو جده، الذي كان ملتزما جمع ضرائب منطقة فارس وكرمان لقاء مبلغ أربعة ملايين درهم سنويا. مما دفعه لإقناع المكتفي بأهمية الاتفاق مع الصفاريين المجاورين[3].

ولكن القائد العسكري المسئول عن أمن فارس عارض هذه الخطة، وأيده في ذلك شخصيات ذات نفوذ في بغداد، كان من بينهم عم الخليفة المكتفي نفسه. إلا أن رأي الوزير العباسي انتصر، حيث تمكن من اغتيال خصميه القويين.

على أن محاولات الوصول إلى اتفاق مع الصفاريين باءت بالفشل لوجود معارضة قوية في صفوفهم، وسرعان ما وصلت هذه القوى المعارضة إلى بغداد. كما وقعت سلسلة من الانتفاضات في الري وطبرستان وجرجان. مما دفع الحكومة العباسية للعمل على استعادة هذه المناطق دون جدوى. وذلك بسبب مسارعة السامانيين إلى استخدام قوتهم العسكرية لإخماد ثورة الثائرين[4]. مما اضطر «باري» الحاكم الساماني السابق في جرجان وأربعة آلاف من رجاله إلى الفرار لبغداد. وكان وصولهم بعد وفاة الخليفة المكتفي بالله، الأمر الذي أصبح يتطلب توجيه عناية مركزة لمشاكل أخرى في الدولة أكثر إلحاحا [5].

---

(١) الطبري : ٣/ ٢٢٢٣ - ٢٢٣٦ و ٢٢٧٧.
(٢) ابن الأثير : ج٧ ص٢٩٣-٢٩٤.
(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج١ ص١٦.
(٤) الصابي : الوزراء ص٢٢٩ و ٣٦٠-٣٦١، ومسكويه : نفس المصدر ج١ ص٤.
(٥) مسكويه : تجارب ج١ ص٤.

ثم بويع بالخلافة - بعد المكتفي - لأخيه جعفر الذي لُقِّبَ بالمقتدر بالله العباسي سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م ، واستمر في الحكم حتى عام ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م[١]. وتحققت مخاوف الوزير العباسي خلال فترة لم تزد على أربعة أشهر. إذ قام بعض قادة الجيش بانقلاب ، وقتلوا الوزيرَ السيئ الحظ ، وخلعوا المقتدر، واستبدلوه بعباسي آخر باسم «المرتضى». ولكن في غضون ٢٤ ساعة قامت قوة النخبة العسكرية بانقلاب مضاد ، فقلبت الموقف وأعادت «المقتدر» للخلافة[٢].

في هذه الفترة المضطربة برز أربعة رجال أقوياء وهم «نصر القَشْوَرِي» قائد القسم الأول ، و«غريب» خال المقتدر القائد البارز والحليف الوثيق لنصر، و«مؤنس الفحل» قائد قوة الشرطة ، و«مؤنس الخصى» قائد القسم الثالث. وكان نصر القَسْوَري الذي لقب رسميا بـ« الحاجب» و « مولى أمير المؤمنين » من أصل خزري من قرية تسمى قَشْوَرَة بجوار «بلنجر»[٣]. وكان للنساء فى قصر المقتدر نفوذ كبير على الأقل فى إدارة أمور قصر الخلافة [٤].

والجدير بالذكر أن الخلافات والصراعات بين القادة العسكريين آنذاك، وبين رجال القصر والحاشية، هى التى مهدت لاستيلاء بنى بويه على السلطة. ومما زاد الأمر سوءا تدخل والدة المقتدر -قبل بلوغه سن الرشد- وقيامها بدور نشيط فى إدارة شئون الدولة. مدفوعة فى ذلك - فيما يرجح - برغبتها فى حماية ابنها المقتدر.

وفى هذا الجو المضطرب فى خلافة المقتدر تغير الوزير مالا يقل عن خمس عشرة مرة، كما وقعت خمسة انقلابات على الأقل [٥]. هذا فضلاً عن أن سيطرة العسكريين على الحكومة أدخلت عاملا جديدا على الوضع. إذ صار «بنو الجراح» المحافظون، خاضعين خضوعا كاملا للسيطرة العسكرية. ولذلك، فمن أجل خدمة سادتهم العسكر على وجه أفضل، تحولوا إلى تأييد قضية «الإدارة الجيدة». وكانت تدابيرهم تصب فى مصلحة الأغنياء والأقوياء دون الفقراء والضعفاء.

---

(١) عريب : صلة الطبري ص ٢١-٢٢ ومسكويه : تجارب ج١ ص٢-٤.

(٢) مسكويه نفس المصدر ج١ ص٥-٨، والصابي : الوزراء ص٨٧-٨٨، وعريب: نفس المصدر ص٢٦-٢٩.

(٣) الصابي : الوزراء ص٩٢ ، ١٥٤، والمقدسى : احسن التقاسيم، ص٥١،٣٥٥، ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٤٨٩، وعريب : الصلة، ص٢٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٧٤، وعريب : نفسه، ص٣١

(٥) محمد عبد الحى شعبان، الدولة العباسية، ص ١٦٧-١٦٩.

أما آل الفرات فقالوا علنا أن نظام تـلزيم الضرائب شر. وكانوا يرون أن جمع الضرائب يجب ألا يمنح لموظفين عسكريين أو مـدنيين حكوميين على كل حال [1]. وأن العسكريين لابد أن يخضعوا للسلطات المدنية[2]. لكنهم سمحوا بالرشوة باعتبارها شرا أهون، عاملين فى الوقت ذاته على الإفادة لمصلحة خزانة الدولة. بأن اشترطوا تخصيص نصيب من الأرباح للخزانة العامة. وكان تجـار بغداد على استعداد لإقراض الحكومة في عهـد وزارة آل الجراح بفائدة عـالية (١٢٪) سنويا، مـتجاهلين بـذلك النصوص الواردة بالتحريم الصارم للربا في القرآن الكـريم. حيث أهملها أفتى وزراء آل الجراح «علي بن عيسى» الذي وُصِفَ بـ «الوزير الصالح» [3].

وفي سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨-٩٠٩م تسلم آل الفرات السلطة لأول مرة في أعقاب الانقلاب الذى أعاد المقـتدر إلى الخلافة [4]. وكانت الأوضاع الماليـة للحكومة المركزية في حالة مُـرْضيـة، إذ كان في الخـزانه العامة ٦٠٠,٠٠٠ ديـنار، بينما كـانت خزانة الخليفـة الخاصةَ تحـوي ١٥ مليون دينار [5]، استخـدمها الوزير وإخوانه لسـد حاجات الخزانة العامة للدولة [6].

ومع أن ابن الفـرات أرْضَى حاجـات الأوساط الحاكـمة في بغـداد، إلا أنه اصطدم ببعض القادة العـسكريين، الذين حاول إخضاعهم. وأعـدم أحدهم على الفور نتيجة لمحاولته التدخل في شئون هي من اختصاص الوزير [7].

وفي هذه الظروف الجديدة ترك ابن الفرات قوات القـسم الثاني التي كان تعدادها نحو ٩٠٠٠ رجـل لحراسة بغـداد وجوارها، واتخـذ بعض الخطوات لدمج القـسمين الآخرين، توفـيرا للنفقـات. لكن تضارب رأيه مع رأي القائد مـؤنس الخصي أدى فى النهاية إلى عـزله من منصبه عـام ٢٩٩هـ/ ٩١٢م بعد أن مكث فيـه نحو ثلاث سنوات وثمانية أشهر [8].

---

(١) الصابى، الوزراء، ص٧١،٢٥٨.
(٢) الصابى، نفس المصدر، ص٧٢.
(٣) الصابي : نفس المصدر ص٨١.
(٤) الصابي : نفس المصدر ص٨٨، ومسكويه: تجارب ج١ ص٥.
(٥) عريب : الصلة ص٢٢-٢٣.
(٦) مسكويه: تجارب ج١ ص١٠٨.
(٧) مسكويه : نفس المصدر ج١ص١٢.
(٨) مسكويه : نفس المصدر جـ١ ص٢٠-٢٥، وابن الأثير : الكامل ج٨ ص٥١.

تولى الوزارة - بعد ابن الفرات - محمدُ بن عبيد الله بن يحيي بن خاقان ، وكان مُسِنّا ، وهو يتحدر من سلسلة طويلة من الإداريين ذوي الخبرة. وقد واجه والده عبيد الله مثل هذه المشكلة في سامراء وبغداد منذ خمسين عاما مضت(١). وفي خلال سنة من تعيين هذا المُسنِ الأحمق الذي حاول إرضاء جميع الأطراف ، فإذا به قد أغضب كل الأطراف. فَعُزِل عام ٣٠١هـ/ ٩١٣م وهي السنة التي مات فيها مؤنس القائد رئيس الشرطة، وهى القوة النافذة بين القوى الداعمة للخلافة(٢).

وقد أدى هذا الضعف الذى أصاب مركز الخلافة إلى فقد القدرة على المبادرة باتخاذ قرار يُصْلِحُ الأمور. ومع أن والدة المقتدر وخاله نصر كانوا مؤيدين لإعادة آل الفرات لمنصب الوزارة ، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على تحقيق ذلك؛ وذلك لأن مؤنس القائد كان قد اختار شخصا آخر من آل الجراح هو «الوزير الصالح» على بن عيسى ، الذى كان قد التجأ إلى مكة خلال السنوات الخمس الماضية(٣).

وقد عمل آل الجراح لمصلحة مؤنس وتعزيز قواته. وكان كل ما يريده مؤنس القائد هو تأمين رواتب جنده مما أدى إلى قيام علاقات جيدة دامت بين الرجلين - الوزير و القائد- طوال عقدَين، حاول الوزير خلالهما العمل بهمة ملحوظة للتخلص من الفوضى التى خَلَّفَها سلفه(٤).

ولكن برغم الشهرة الذائعة التى تمتع بها الوزير على بن عيسى إلا أنه لم يذهب إلى إرضاء الحنابلة المتشددين في عاصمة الخلافة. كما جرت انتفاضات فى بغداد حيث عمدت أم الخليفة المقتدر إلى حماية ممتلكاتها الواسعة من احتمال تعرضها للأخطار(٥).

ثم نشأت قضية أخرى وهى قضية الحلاج. وما فيها هو أنه كان خطرا على الأوضاع في ظل الحالة التى كانت سائدة آنذاك فى عاصمة الخلافة ببغداد. فقد رأى فيه المحافظون عدوًّا حقودا وعاملا مساعدا على هدم النظام، بينما أخذ آخرون بتعابير الحلاج المؤثرة، ورأوا فيه إنساناً غير مُؤْذٍ ، ولعله مصاب بالعَتَه ، بحيث لا يمكنه التأثير

(١) محمد عبد الحي شعبان : الدولة العباسية ص١٧١-١٧٢.
(٢) عريب: صلة الطبري ص ٤٦.
(٣) الصابى: الوزراء ص ٣٠، ٢٦٣، و مسكويه جـ١ ص ٢٥-٢٧.
(٤) الصابى: المصدر نفسه ص ٢٨٦، ٣٤٠ , ٣٤٣-٣٤٦ وابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٠٣، والإصطخرى: مسالك الممالك ص ١٥٨، و مسكويه: تجارب جـ ص ٢٧ ، ٢٩-٣٠، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ص٥١
(٥) مسكويه: جـ ١ ص ٢٣٥.

في النظام حتى لو أراد ذلك. وكان الوزير حائرا إزاء قضية الحلاج، لكنه قرر حبسه توخيا منه جانب الحذر و الحيطة، وانتهى الأمر بإعدامه[1].

ومن ناحية أخرى أجرى الوزير على بن عيسى مفاوضات مع القرامطة انتهت باستجابته لهم، والسماح لهم أيضا بالاتجار مع سيراف عبر الخليج[2]. وليس لهذا من تفسير سوى أن الوزير أراد الاحتياط من هجمات الفاطمية التي كانت متوقعة على مصر، وإحباط أي عمل يفكر فيه القرامطة.

والواقع أن الفاطميين احتلوا برقة ، ثم هاجموا الإسكندرية سنة ٣٠٢هـ / ٩١٥م. ولذلك جند مؤنس القائد جيشا يزيد عن ٤٠ ألف جندي زحف بهم نحو مصر حيث تمكن من طرد القوات الفاطمية[3].

وقد حاول الحمدانيون استغلال هذه التطورات فقاموا بانتزاع المزيد من الأراضي والامتيازات في إقليم الجزيرة من الحكومة العباسية لكن مؤنس القائد زحف عليهم فتفرقوا بسرعة[4].

وقد تكلفت هذه العمليات العسكرية الكثير من الجهد والمال . مما اضطر الوزير للسعي لتحقيق التوازن في الميزانية ، فقام بتشديد رقابته على وجوه الإنفاق . إلا أنه تجاوز حدود المعقول في هذا السبيل . وانتهى أمره بأن اضطر الخليفة إلى عزل الوزير علي بن عيسى سنة ٣٠٤هـ / ٩١٧م ، أي بعد أن مكث في الوزارة نحو أربع سنوات (٣٠١-٣٠٤هـ / ٩١٣ - ٩١٧م) وتم استبداله وجهازه بآل الفرات[5].

تسلم آل الفرات الوزارة هذه المرة سنة ٣٠٤هـ في ظروف صعبة كانت تمر بها الدولة. ومع أن مؤنس القائد ورجاله كانوا راضين عن ترتيبات دفع عطاءاتهم ورواتبهم ، إلا أن الخليفة المقتدر وأمه كانا يطالبان بوجوب دفع نفقات البلاط كلها من قِبَلِ الخزانة العامة . فاضطر ابن الفرات للتعهد بدفع ١٥٠٠ دينار يوميا فضلا عن نفقات أخرى . وحاول - للوفاء بذلك - تدبير هذه المبالغ بطرق شتى، فقرر أن يضع أصولا لفرض ضريبة على الرشاوى ، وأنشأ لذلك ديوان الرشوات [6]. لكنه فشل في مهمته. وكانت

---

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٢٨٩.
(٢) الصابى: الوزراء ص ٢٩٢-٢٩٣، وعريب: الصلة ص ٥٩.
(٣) الطبري: جـ ٣ صـ ٢٢٩٩ - ٢٣٠٠، وعريب : الصلة ص ٥١ - ٥٣.
(٤) مسكويه: تجارب جـ ١ ص ٣٦ - ٣٩ م .
(٥) مسكويه: نفس المصدر صـ ٤١ ، ٤٢ .
(٦) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ صـ ٧٣، وابن مسكويه: تجارب ج١ ص ٤٢.

النتيجة أنه بعد فترة ثمانية عشر شهرا صرف ابن الفرات وجهازه عن الوزارة وكان ذلك عام ٣٠٦هـ / ٩١٨م.

آل منصب الوزارة - بعد إقالة ابن الفرات وجهازه - إلى حامد بن عباس، الذي كان أكبر ملتزمي الضرائب آنذاك ، وكانت قوته وثروته في بغداد وموطنه واسط. وكان معاونه الأول هو علي بن عيسى «الوزير الصالح» من آل الجراح[١].

وكان الهدف الأساسي من تعيين حامد بن عباس هو الاهتمام بتدبير موارد أفضل لزيادة دخل الخزانة العامة، بينما يقوم على بن عيسي - مساعد الوزير - بإجراء خفض في النفقات . وقد أخذ الوزير التزام جباية جميع الأراضي الواقعة تحت الإدارة المباشرة لبغداد ، وقدرها ٥٤ مليون درهم . ثم لزم هذه الجباية، محققا بذلك ربحا كبيرا إلى مندوبيه، في الأراضي المشار إليها[٢]. كما منح التزام جباية الضرائب في مصر وسوريا إلى عامل الضرائب هناك بثلاثة ملايين دينار [٣].

ومع ذلك لم ينجح الوزير ومساعده في القضاء على عيوب نظام الالتزام (التلزيم). بل سرعان ما انهار هذا النظام [٤]. كما كانت ممارسات الرشوة الجديدة سيئة إلى حد كبير ، هذا فضلا عن مضار الاحتكارات والمضاربات في أسعار السلع . مما أدى إلى وقوع العديد من حركات التذمر المدني والعسكري معاً.

وفي سنة ٣٠١هـ / ٩٤١م نشبت ثورة شيعية في طبرستان، كما اغتيل الحاكم الساماني. وكانت الثورة الشيعية بقيادة أطروش الحسنى المعروف الذي كان يعيش بين الديالمة منذ ١٣ سنة [٥] وقد جعل مقرهُ في شالوس ، وهي موقع منيع يسيطر على الطرق الشمالية بين طبرستان وبحر قزوين[٦].

ونتيجة لذلك، وللعجز عن مواجهة هذه المشاكل كلها؛ بدأت الحكومة تضعف. فأسرع الحنابلة إلى استغلال الوضع للتأكيد على قوتهم . فعمد الوزير حامد بن عباس إلى تقديم كبش فداء، وجيء بالحلاج من السجن الذي قضى فيه تسع سنوات ،

---

(١) مسكويه: نفس المصدر جـ ١ ص ٥٨ ، ٧٠ - ٧١

(٢) مسكويه: تجارب جـ١ ص ٥٩ - ٦٠ و ١٥٤.

(٣) مسكويه: تجارب جـ ١ ص ١٠٧.

(٤) عريب: الصلة ص ٢٠، جتى ٢٠ ، ٣٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٦١ - ٦٢.

(٦) الإصطخرى: مسالك الممالك ص ٢٠٦ .

وحوكم محاكمة سـريعة ثم أُعْدِمَ عام (٣٠٩هـ ـ ٩٢٢م) . ولكن ذلك أيضا لم يعالج المشكلة الرئيسيـة وهي الأزمة المالية . مما دفع الخلافة إلى عزل آل الجـراح برئاسة حامد ابن عباس سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م وجيء بآل الفرات وجهازهم[(١)].

ومما يجدر ذكره أن سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م يشار إليها في المصادر بسنة الخراب[(٢)]. إذ قام القرامطة بسلسلة من الهجمـات المخربة على المدن والقوافل. وكان الهجوم الأول على مدينة البصرة بقوة تعدادها ١٧٠٠ (ألف وسبعمائة) رجل ، حيث قامت تلك القوة باحتلال المدينة ونهـبها طوال سبعة عشـر يوما. وبعد عشرة أشهـر هاجم القرامطة قافلة حجـاج وهي في طريق عودتها إلى بغـداد، حيث نهبـوها وأسروا العديد من الحـجاج البارزين. وكانت هاتان الهجمتان نموذجاً لجميع الهجمات الأخرى التي كانت تحدث بين وقت وآخر[(٣)].

وكـان من مخططات القـرامطة الاستيـلاء على قـسم من الأرباح التجـارية في الخليج، والصحراء السورية العراقية ، والصحراء العربية. فضلا عما كانوا قد مُنِحُوه من حقوق تجـارية في سيراف. فعمدوا بقـيادة سليمان بن حسن الجنابي إلى احـتلال مواني عُمَان . وبذلك سـيطروا على الخليج العربى. ثم حاولوا بعـد ذلك إقامة مراكز مـراقبة على الجهة الإيرانية من الخليـج. وكانت هجماتهم كافية لتنفـير التجارة عن هذه الموانى المزدهرة ، وتحـويلها إلى منطـقة خـاضعـة للقرامطة حـيث كـانوا يفرضـون ضرائبـهم ويجمعونها[(٤)].

أما بالنسبة للطرق البـرية فقد استدار القرامطة في البـداية إلى قوافل الحجاج التي كانت لا تـقل أهمية عن الـقوافل التجـارية . ثم تحول القـرامطة للطرق التجـارية بين الشمال والجنوب عبر الصحراء السعودية العراقية ، وحاولوا السيطرة على المدن التجارية عبر هذه الطرق، وكان هدفهم أن يجمعوا ما كانوا يسمونه بالضرائب وما كان خصومهم يسمونه بـ «مال الحماية»[(٥)].

---

(١) مسكويه : تجارب جـ١ ص ٨٥ ـ ٨٨.

(٢) عريب : الصلة ص ١١٠

(٣) مسكويه : المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٤ ـ ١٢١ ، وعريب : الصلة ص ١١٠ ـ ١١١.

(٤) المسعودي : التنبـيه والإشراف ص ٣٩٣ وابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٥، ومـسكويه: نفس المصدر جـ١ ص ١٣٩، ٢٨٤ .

(٥) مسكـويه: نفس المصـدر جـ١ ص ١٤٥ ـ ١٤٦، ١٧٣ ـ ١٨٢ ، ٢٠١، والمسـعودي: المصـدر الـسابق ص ٣٩ .

كان من الطبيعى أن يصاب حكام بغداد بالهلع والفزع إزاء هذا الخطر الجديد على التجارة، لاسيما حيال السهولة التى تم بها للقرامطة تحقيق انتصاراتهم العسكرية رغم قلة عدد قواتهم(١)؛ ولأنهم كانوا يَحْظَوْن بعطف السكان في المناطق التى يعملون فيها، ولاسيما في العراق، في وقت اشتد فيه الخلل فى الحكومة التى فقدت دعم وثقة رعيتها إلى حد كبير. فإذا كانت الحكومة العباسية تريد الاستمرار فى الحكم، فعليها أن تقوم بتغييرات جذرية بصفة سريعة، وإلا أصبحت عرضة للإطاحة بها(٢).

أما الزعماء والقادة المحليون فكانوا يرون أن هذا النوع من الإقطاع الإدارى العسكرى هو السبيل الوحيد للإنقاذ، لاسيما فى هذا الوقت الذى بدأ فيه ظهور الديالمة بحشودهم. وكان نصر، القائد العسكرى البارز فى بغداد، مقتنعا بأن الانقلاب قد حدث فعلاً (٣).

أما عن موظفى الدولة العباسية المدنيين - سواء في العاصمة أو الولايات- فكانوا منقسمين فى آرائهم بشأن علاقتهم بالعسكريين. وبينما كان معظم آل الجراح وأنصارهم، على استعداد لمواصلة التعاون مع العسكريين، فقد ظل آل الفرات متمسكين بوجوب إخضاع القادة العسكريين للسلطة المدنية؛ ولذلك دفع الوزير الفراتى وابنه حياتهما ثمنا لذلك، بعد صرفهما من الوزارة عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (٤).

وفى السنوات الثمانى الباقية من عهد الخليفة المقتدر (٣١٢- ٣٢٠ هـ)، ساد صراع بين فئات مختلفة من المدنيين والعسكريين لإقامة نظام جديد وخليفة جديد. ولم تتحسن الأمور عندما رأى المقتدر - الذي كان قد بلغ سن الرشد- أنه ليس هناك ما يبرر عدم ممارسته صلاحياته والحكم الفعلي.

ففى هذه الفترة القصيرة -٣١٢م/ ٣٢٠ هـ- تعاقب تسعةُ وزراء، وبقى أحدهم فى منصبه مدة لم تزد على شهرين فقط. ثم قام مؤنس القائد عام ٣١٧ هـ/ ٩٢٩م- نتيجة نقص العائدات -بتدبير انقلاب ضد الخليفة المقتدر، وعَزَل الخليفة، وجيء بعباس آخر خليفةً ولقب بلقب «القاهر». إلا أن هذا الانقلاب فشل بفضل تعاون قواته الخاصة والشرطة فى بغداد حيث أعيد المقتدر إلى الخلافة مرة أخرى (٥).

---

(١) محمد عبد الحى شعبان، الدولة العباسية، ص١٨٤-١٨٦.

(٢) الصابى، الوزراء، ص٤٥-٤٦.

(٣) مسكويه، تجارب، ج١، ص١١٥، وعريب، التكملة (الصلة)، ص٥٧ .

(٤) عريب، الصلة، ص١٣٧، ومحمد عبد الحى شعبان، نفس المرجع، ص١٨٧.

(٥) مسكويه، نفس المصدر، ج١، ص١٨٧-٢٠٠.

بادر المقتدر- فور إعـادته لكرسي الخلافة- إلى العمل بهمة لتـوطيد سيادة الدولة المدنية على الـقادة العسكريين. وعَـهِدَ بإدارة أمور الـدولة في عام ٣١٩ هـ/ ٩٣١م إلى «حسين بن قـاسم المنحدر من عـائلة قديمة من الوزراء» ولَقَّـبه بـ«الموقر»، وسـمح بطبع اسمه على السكة (العملة) إلى جانب اسم الخليفة[١].

هذا في الوقت الذي كان فيـه بعض الإداريين المدنيين في الولايات قد أخذوا في تجنيد قواتهم الخـاصة من الديالمة، واستخدمـوها لإقامة إدارات شبه مـستقلة في مناطق نفوذهم ، مدلّلين بذلك عـلى مبدأ سيادة وسطوة المدنيين . وتم الاعـتراف بهم من قبل الحكومة باعتبـارهم مسئولين عن شئون هذه المناطق. لكن القضـية والمشكلة أخذت بُعدا آخر حين وجه الوزير محاولاته للتفريق بين العسكريين والحكم. مما أغضب مؤنس القائد الذي قام بإقـصاء الوزير بسرعـة ـ بعد قضـاء سبعة أشـهر فقط في منصـبه ـ إذ زحف مؤنس القائد بقواته على بغداد ، وقُتِلَ الخليفةُ المقتدر بالله في القتال الذي نشب في عام ٣٢٠هـ / ٩٣٢ م [٢].

وللمرة الثانية يُنَصَّب «القاهر»، خليفة لكنه بمجرد تنصيبه ، انغمس في المؤامرات لدعم فئـة عسكرية ضـد أخرى[٣]. وفي عام ٣٢١هـ / ٩٣٣م نجح في القـضاء على مؤنس القائد، أحـد أهم عناصر الاستقرار في بغداد . ولما كـان هذا الصراع يجري في مـركز الخـلافة ، فـإن سكانهـا بميولهـم المذهبيـة انجرفـوا في هذا الصـراع . وكثـرت المؤامرات، وانقلب المتآمرون على الخليفة القـاهر ، حيث خلعوه بعد عهد مضطرب دام ١٨ شهر فقط (٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ / ٩٣٢ ـ ٩٣٤)[٤].

عند هذا الحد قرر القادة العـسكريون أن يفسحوا المجال أمام رجـال السياسة لحل المشكلات المالية والإدارية. فـاتفقوا على إقـامة أحد أبناء المقـتدر خليفة وبويع بالخـلافة ولُقِّبَ بلقب «الـراضي بالله» [٥]. وكـان الراضي شـابا غـيـر ذي خـبـرة في أواسط العشرينيـات من عمره ، ولكنه قام بجهـد كبير لمواجهـة الأزمة . وعين وزيرا جمع في جهازه الإداري مجموعة من آل الجـراح وآل الفرات معا ،وأطلق يد الوزير للقيام بما يراه مناسبا لعلاج الموقف[٦].

---

(١) عريب، الصلة، ص١٦٥، ومسكويه، تجارب، ج١، ص٢٢٣.
(٢) مسكويه : تجارب جـ١ / صـ ١٦٦ ـ ١٧٩.
(٣) مسكويه : نفس المصدر جـ١ / صـ ٢٥٩ ـ ٢٦٤.
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٠٤.
(٥) مسكويه : نفس المصدر ج١ صـ ٢٩٠.
(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١١، ومحمد عبد الحي شعبان: الدولة العباسية ص١٨٧-١٨٩.

وبعد سنة من العمل الشاق ، في محاولة منه للتوفيق بين مصالح الحكم ومصالح القادة العسكريين في بغداد والولايات وجد أنه لا بد من اتخـاذ بعض التدابير الصارمة. لكن العسكريين تمـكنوا ـ بعد أشهـر قليلة ـ أن يزيحوه من منصبـه وأن يستبـدلوه بآخر أحب إليهم من آل الجراح[1]. لكنه اضطر للاستقالة بعـد شهرين، حيث خلفه وزيران آخران خلال أشهر قليلة. وإزاء فشل المدنيين لم يكن أمام الخليفة الراضي بالله العباسي خيار سوى أن يستدعى القادة العسكريين لتسلم زمام الأمور[2].

ثم كانت سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦م بداية عِـقْد آخر من الاضطراب. حيـث كان قد أنشيء منصب «أمير الأمراء»، وعُهِد إليـه بالسلْطةَ الكاملة على جميع القوات العسكرية وكل المصالح والإدارات في الدولة . وهذا المنصب ستعاظم سلطة صاحبه ونفوذه حتى تصل إلي درجة تطغى على سلطة الخليفة والخلافة والحكومة المركزية معا.

في هذا الوقت ـ بعد عام ٣٢١هـ ـ كان القرامطـة قد تراخوا قليلاً، لكنهم كانوا لا يزالون يسيطرون على شرقى شبـه الجزيرة العربية، ويُشْعِرون بقية أنـحاء شبه الجزيرة بقوتهم ونفـوذهم، أما إقليم الجزيرة ومناطق الثغـور فكانت بيد بني حمدان. أمـا مصر وسـوريا فكانـتا مـستقلتين استقـلالا ذاتيا بالفعل في ظل الإدارة الإخـشيدية (٣٢٢ ـ ٣٥٨ هـ).

على أن تنصيب رجل قوي والتضحية بمبدأ الفصل بين الشئون العسكرية والشئون المالية لم ينقذا سلطة الدولة التي لم يعد لها وجود لتُنقَذ .

ففي فترة عشر سنـوات (٣٢٤ ـ ٣٣٤هـ / ٩٣٦ ـ ٩٤٥م) تصارع خمسة قواد عسكريين فـيما بينهم ، وتعـاقب الواحد منهم عـقب الآخر ، كمـا دخل القرامطة في الصراع الدائر[3].

أما قوات الديالمة بقيادة بني بويه، فكانت تتـقدم من الشرق نحو العراق والجنوب الشرقى، بهدف الاستيلاء على بغداد التى صارت هدفا قريب المنال.

---

(١) مسكويه : تجارب ج٢ / ص ٣٣٦.
(٢) مسكويه : نفس المصدر ج١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .
(٣) الصولي : أخبار الراضي بالله ص ٢٠٤

ولم تكن قـوات الديالمة البـويهـيين تحتـاج أكـثـر من انتظار الفـرصة السـانحـة للانقضاض. فلما مات الراضي سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م خلفه أخوه «المتقى» الذي تورط أيضا في الصـراع السياسي العسكري الـدائر وقتذاك. ثم لم يلبث أن عزل من الخـلافة وفقئت عـينيه عقابا له على مـا قام به في عام ٣٣٣هـ / ٩٤٤م . وخلَفه شـقيق له هو «المستكفى» الذي شهد نهاية هذه المرحلة وبداية مـرحلة تاريخية حاسمة في تاريخ الدولة العباسية خاصة وعالم الإسلام بعامة ، حيث أصبح منصب «أمير الأمراء» منصبا مدنيا، يدل على أن العسكريين تخلَّوا نهائيا عن محاولة إنقاذ حكومة الخلافة فى بغداد.

بنو بويه وسياستهم مع الخلفاء العباسيين:

بدأ انقسام البلاد الإسلامية فى العصر العباسى إلى منطقتين متمايزتين بوضوح، وذلك نتيجة لانهيار وضعف سلطة الخلافة العباسية فى بغداد. وتجلى هذا الضعف على إثر دخول البويهيين[(١)] بغداد، ذلك أنهم أساءوا معاملة الخلفاء، واستأثروا بالنفوذ دونه. يقول ابن الأثير: «وازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق لهم من الأمر شيء ألبتَّة، وقد كانوا يرجعون ويؤخذ أمرهم فيما يُفْعل والحرمةُ قائمة بعض الشيء. فلما كان أيام «معز الدولة» زال ذلك جميعه، بحيث إن الخليفة لم يبق له وزيرا، إنما كان له كاتب يدير إقطاعاته وإخراجاته لاغير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يسْتَوْزِرُ لنفسه من يريد»[(٢)].

وكان من أهم أسباب سوء معاملة البويهيين للخلفاء العباسيين تعصبَهم للشيعة. وقد حاول معز الدولة أن ينقل الخلافة لأحد العلويين، لولا تحذير بعض خواصه من مغبّة هذا العمل؛ لأن عامة الناس اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا للعباسيين طاعة منهم لله ورسوله[(٣)]. ولذلك أقلع معز الدولة عن عزمه فى ذلك، وفضَّل أن يستبد بالسلطة بجانب خليفة عباسى ضعيف، على أن يكون تابعا لخليفة يعترف بإمامته[(٤)].

ولم يراع البويهيون فى معاملتهم للخلفاء العباسيين مالهم من حرمة وقَدْر. فأقدم معز الدولة بن بويه - بعد دخوله بغداد بوقت قصير - على خلع الخليفة «المستكفى» لاتهامه بالتآمر عليه والاستنجاد بالحمدانيين. وقد جرى هذا الخلع بصورة مهينة ومزرية. إذ تقدم إليه اثنان من جند الديلم وهو فى مجلسه، ومعز الدولة حاضر، والناس وقوف

---

(١) بنو بويه من بلاد الديلم أو من بلاد جيلان الواقعة فى الجنوب الغربى من بحر قزوين. وقد فتح المسلمون هذه البلاد زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وظل اهلها على دياناتهم القديمة. والبويهيون ينتسبون إلى جدهم بويه بن فناخسرو الملقب بأبى شجاع. واولادهم على والحسن واحمد وكانوا جميعا جنودا مغامرين (راجع محمد حسين الزبيدى: العراق فى العصر البويهى ص٢٩-٣٣. نشر دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٩م).

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٦ ص٣١٥ (ط. القاهرة، ١٣٥٣هـ).

(٣) ابن الأثير: نفس المصدر جـ٦ ص ٣١٥، وعبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص٢٤٨.

(٤) سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص٨٠.

بين يديه، فمـدا أيديهما إليـه، فظن أنهما يريدان تقـبيل يديه فمـدها إليهما، فـجذباه وطرحاه إلى الأرض، ووضعا عمامته فى عنقه، وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة حيث اعتقل بهـا. فاضطرب الناس ونهبت دار الخلافـة حتى لم يبق بها شىء، وأحضـر معز الدولة الفضلَ بن المقتدر بالله وبايعه بالخلافة ولقّبه «المطيع لله»(١).

وأُحضِرَ المسـتكفى فشهد على نفسـه بالخلع، وسُمِلَتْ عيناه، وظل معتـقلا حتى توفى عام ٣٣٨هـ(٢). وفى هذا أبلغ دليل على مـدى مـا وصلت إليـه سلطة الخلافـة والخلفاء ونفوذها من تدهور وانهيـار. ولا غرو، فقد كانت سياسـة البويهيين مع الخلفاء العباسيين تـنطوى على إضعاف نفوذهم والاستـئثار دونهم بالسلطة والنفوذ والحكم(٣). كما شاركوهم فى شارات الخلافة التى كانت تمثـل السلطة السياسية. فصارت أسماؤهم تُذكر إلى جانب اسم الخـليفة فى الخطبة منذ عهـد عضد الدولة. كمـا سُكَّتْ أسماؤهم على العملة مع اسم الخليـفة، وحذفوا لقب «أمـير المؤمنين» من السِكة، واكتـفوا بذكر اسم الخليفة مجردا من اللقب، بينما حرصوا على ذكر أسمائهم وكُناهُمْ وألقابهم(٤).

ولم يبق بيد الخليـفة من شارات الخلافة شىء سـوى نفوذه الدينى الذى تمسك به الخليفة العباسى «القائم بأمر الله»، واعتبره السلاح القوى الذى يقاوم به استئثار البويهيين بالسلطة، الأمر الذى أوضـحه البيـرونى قائلاً (٥): «إن الدولة والمُلْكَ قد انتقل من آل العـباس إلى آل بويه، والذى بقى فى أيدى خـلفاء الدولة العـباسـية إنما هو أمـر دينى اعـتقـادى لا مُلك دنيوى». كـما احـتفظ الخلفـاء بحـقهم فى تفـويض أمراء الأقـاليم والولايات حكم البلاد(٦).

---

(١) مسكويه: تجـارب الأمم جـ٢ ص٨٦-٨٧، محمد حـسين الزبيدى: العراق فى العصـر البويهى ص٣٤-٣٥.

(٢) الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٥٧.

(٣) مسكويـه: نفس المصدر جـ٢ ص٨٧، ١٠٥، ٣٠٧، والسـيوطى: تاريخ الخلفـاء ص٢٦٧، وابن الأثير: الكامل جـ٧ ص٤٥، ٥٣، ١٤٧-١٤٨ وجـ٨ ص ٥٣، وسرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٥٦.

(٤) الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص٢٥٢.

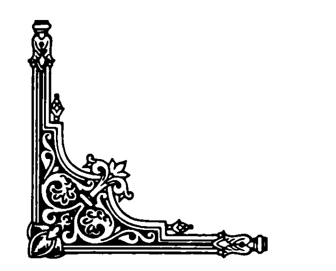
(٥) البيرونى: الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٣٢ (ط١ حيدر أباد، ١٣٥٥هـ).

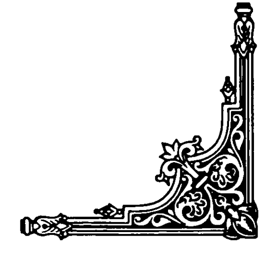
(٦) محمد حسين الزبيدى: العراق فى العصر البويهى ص ٣٨ ـ ٤٤.



دراسة تحليلية(*)

للعصر العباسي وملامحه





(*) راجع كتاب كلود كاهن Cahen, Claude: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. «الجزء الاول» وصابر دياب: قراءة فى تاريخ الدولة العباسية (ط. ١٩٩١م، نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة).

أولاً: ملامح الطابع الإسلامى للعصر العباسى

إن السمة الأساسية التى اتسمت بها الخلافة العباسية، بل تحددت بها هويتها، هى البحث عن لون من ألوان الحكم، يكون أقرب إلى مقتضيات الإسلام بدرجة أكبر مما كان فى العهد الأموى، وفى هذا الصدد أفادت الثورة العباسية من المذاهب المتباينة، ومن العناصر التى كانت حديثة العهد بالإسلام. فلم تقنع الأسرة العباسية بالطموح إلى ولاية الرسول، باعتبار هذه الولاية حقا يتدثر بها الخليفةُ فى الاحتفالات، بل إنها ادعت لنفسها قيمة إسلامية خاصة. فلم يكن الخليفة «حاكما زمنيا» فقط إنما هو أيضا «أمير المؤمنين»، أو بالأصح «إمام المسلمين».

والحق أن العباسيين لم يقصدوا من وراء ذلك إلى ما قصد إليه غلاة «الشيعة»، ممن نسبوا أنفسهم إلى سلالة الرسول. بل طالب آل العباس بأن يكون ورثةُ النبى سادةَ الأجسام، وأن يكونوا أئمة الأرواح، فى كل ما يتصل بمسائل الشرع. وزعموا أن المشيئة الإلهية هى التى فرضت هذا الحق لبنى العباس.

واستقرت الأمور على هذا النحو حتى أزمة المعتزلة ـ على الأقل ـ وهو ما تحدثنا عنه فى حينه. ومن المهم أن نتساءل هنا فيما إذا كان «المنصور» الخليفة العباسى، قد استهدف من تسمية ابنه «المهدى» بهذا الاسم، مكافحة مزاعم «محمد النفس الذكية»، وغيره ممن يدعون صفةَ المهدى. ومهما يكن من أمر فقد توطد ـ منذ زمن هذا الخليفة ـ حقُ الأسرة العباسية، فى ممارسة الخلافة بوصفها حقا، اختصت به دون سواها، وأن هذه الأسرة ليست مساوية لهذا الفرع أو ذاك من آل البيت.

لقد أراد العباسيون إظهار طبيعتهم الساميَة ـ على نحو ظاهر وملموس ـ وذلك فى تنظيم حياتهم المادية. إذ كان لبنى أمية بلاطٌ على جانب كبير من البساطة، لا يفصلهم عن الرعية أو على الأقل لا يعزلهم عن باقى أشراف العرب. أما فى البلاط الجديد «العباسى» فى بغداد، فإن الحال قد تغيرت. فقد صُمِّمت بغداد ـ المدينة المستديرة ـ منذ البداية لتكون مقرا لسرير العرش للخليفة مع حريمه وحاشيته وحرسه ودواوينه الكبرى، بعيدا عن الرعية، التى انزوت فى أطراف المدينة. ثم إن سلطان بنى العباس لا يعتمد على ولاء الأرستقراطية العربية، بل هو يستند إلى هذا العدد العديد من الموالى، أو كل من هو غير عربى.

ونحن نجد الملامح الأولى لهـذه الخصائص جميعـا منذ تنظيم الحركة العبـاسية. لكن هذه الخصائص أخذت تتضح فى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، هذا من ناحيـة. ومن ناحية ثانية، فـقد أحاط الخليفـة نفسه داخل حاضـرته بأسْمَى مظاهر الترف، التى لا يقوى على بلوغها إنسان غيره. وسلك فى طريقة عيشته مسلكا تغاضى فيه عن بـعض المحرمات، مثل مـعاقرة الخمر، التى حـرمها الخليفـة على رعيته تـنفيذا لتعـاليم القرآن. والغاية من وراء ذلك كله هـى أن يكون التقرب إلى الحـاكم فى منتهى الصـعوبة، حـتى غـدا الحاجب ـ وهـو الذى نظم مثـول الأفـراد بين يديه ـ من أعظم شخصيات ذلك العصر. لكن الخليفة كان يظهر للناس فى المناسبات الكبرى، وحين ذاك تغمـره هالة من الأبهـة والبذخ الباهظ، سـواء ذلك فى الأعيـاد التقليـدية، أو فى أيام الانتصارات أو فى استقبال السفراء.

ويوضح الخليفـة تلك المهمة للناس ـ على غرار أسـلافه ـ فى صلاة الجمـعة فى مسجـده. وحين يتولى القضاء على مشـهد من الجمهور، وحين يترأس ـ فى كـثير من الأبهة ـ تلك الحمـلات العسكرية، التى يوجهها إلى بلاد الكفر. كـذلك يمارس الخليفة رسالته الرفـيعة حين يفرض على رعيـته تطبيق الشرع الإسـلامى، على الوجه الأكمل، وحين يتعمق فى مضمون هذا الشرع ليوضح أسراره وفلسفته على نحو أفضل من غيره.

وقد عرف العباسيون كيف يـوضحون للناس هذا المظهر من نشاط الخلفاء وكيف يستـخدمونه فـى صالحهم. حـتى إذا تبوأوا سدة الحكم، دعـموا الحـركة الإسلامـية، ووجهوها، ومـارسوا نشاطهم خلالهـا، وسلكوا فى سبيل ذلك ثلاثة مـسالك أو سبل متكاملة هى:

إعداد الفقه، وإعداد الكلام، وانضاج ثقافة جديدة:

(١) إعداد الفقه:

المعروف أن من المقتضيات الأساسية للمجتمع الإسلامى ـ كما هو واضح ـ إنشاء نظام اجتـماعى يقوم على أساس مـستمد من الشريـعة الإسلامية (وهى شـريعة الله). فالقاعدة الثابتة ـ من حيث المبدأ ـ هو الشرع الإسلامى الحنيف، الذى أَوْحَى به الله إلى الناس، عن طريق رسوله الكريم، والذى لابد من وضعه موضع التنفيذ.

بل إن الخليفة لم يُمَنَحْ سلطة معنوية لـتطبيق هذا الشرع. لكن هذا التطبيق يؤدى حتما من الناحـية العملية إلى إيجاد قطاع سياسى حـر بإزاء القطاع الشرعى. وقد سعى النظام العباسى ما وسعه الجهد إلى تحديد القطاع الأول (السياسى).

وإذا كان المُسَلَّم به أن ينهض الخليفة العباسى بهذه المهمة، إلا أنه لا يقوى على احتكارها، بل لعله لا يملك القدرة الكافية على القيام بها. فليس بوسع الناس جميعا أن يزعموا معرفة الشريعة، والتعمق فيها. بل إن الإنسان الذى كرس وقته وفكره فى استيعابها وفهمها هو الذى يستطيع وحده الإسهام فى هذا الحق - الذى هو فى الواقع حق يشمل الجماعة كلها - ومعنى ذلك من الوجهة العلمية، أن الواجب الأول على الخليفة أن يقرب إليه العلماء وينزِلَهُم فى عهده منزلة سامية. وتتضح لنا هذه النتيجة بالذات فى دويلات الخوارج، أو عند الشيعة. وإن كان الإمام فى نظر هؤلاء الشيعة مصدرا من مصادر الشرع.

وتنتظم الشريعةُ الإسلامية السمحة، تلك المجموعة من الأحكام، التى احتلت، فى اهتمام المسلمين، مكانا أوسع فى نفوسهم. والعلماء هم الذين تفرغوا لدراسة الشرع «أو العلم»، أما الفقهاء فقد انصرفوا إلى دراسة الأحكام الشرعية. وموضوع دراستهم هو ما يسمى بالفقه، الذى ترجم فى الغالب إلى لفظة «حقوق». لكن كلمة أو لفظة حقوق فى المفهوم الإسلامى، تتجاوز - فى معناها - المفهوم الأوربى للحقوق. فهى عند المسلمين تشمل الفرائض والشعائر، كما تشمل الأحكام الاجتماعية. وعلى هذا، فقد اتسم العهد العباسى بالاهتمام الكبير بالفقه وبالتالى بالفقهاء.

ذلك أنه عندما اعتلى العباسيون سدة الحكم كان الفقه لا يزال فى بداية إعداده، والأمويون لم يولوا هذا الأمر العناية الكافية، لأنه كان فى البداية؛ لذلك وجدت آنئذ بعض الأعراف والتقاليد العربية، وكذلك أعراف وتقاليد اتبعها أهالى البلاد المفتوحة، فاستبقاها الإسلام على حالها مشترطا ولاء السكان له. وذلك هو نظام «شخصية القوانين»، إلى جانب سنة الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه، التى تحدد اتجاها معينا فى حل بعض المسائل، لكنها لا تتداخل - إلا استثناءً - فى التفاصيل الدقيقة التى اقتضاها تنظيم الدولة.

وغنى عن البيان أن هذه المبادرات هى أخطر شأنا فى شئون الإدارة والسياسة منها فى ميدان الحقوق الخاصة. وعلى هذا النحو استمر العمل بتقاليد وأعراف تلك الطوائف المتباينة التى عاشت آنئذ جنبا إلى جنب. لكن التطورات، المفاجئة، والطارئة، والمتباينة، هى التى حملت المسلمين على بذل الجهد اللازم فى سبيل إعداد موسوعة (منظومة) قانونية تشمل المجالات الحقوقية جميعا.

وكان على القضاة - فى بادئ الأمر - أن يجتهدوا، وأن يأتوا بآراء شخصية عندما يتصدون لمشاكل متباينة ومعقدة، ولكنهم لم يكونوا أبدا فى حيرة؛ أو انتابهم إحساس

بأنهم فى تيه من المشاكل؛ لأن كتابَ الله وسنةَ رسوله كانا دائما أمامهم يرسمان لهم الخطوط الرئيسية للحل، لأى مشكلة تعترضهم. وقد اعتمد المسلمون - فى بادئ الأمر - إجماع الأحياء - من حيث الأساس - وهذا أمر يصعب تجديده، بل إن معرفة هذا الإجماع وفهمه أسيء فهمها، ولم ينظر الجيل اللاحق لها نظرة ملتزمة.

وعندما تبوأ العباسيون سدة الحكم، أخذت بعض المذاهب الفقهية تتشكل. وكان مذهب أهل المدينة المنورة أوسع انتشارا وأعمق تطورا من مذهب الأوزَاعى (ت١٧٦هـ - ٧٧٤م). لأن المدينة حاضرة النبى ﷺ، وهى بالتالى تتأثر تأثرا عميقا وشديدا بسنته ومبادئه. وصاحب هذا المذهب هو «مالك بن أنس» (١٠٢-١٧٤هـ/ ٧٢٠ - ٧٩٢). وهو لم يسهم فى الحركة العباسية وإن كان صديقا «لمحمد بن عبد الله». لكنه - مع ذلك - تمكن من أن يكون قريبا من الخليفة المهدى والخليفة هارون الرشيد.

وأشهر مؤلفات مالك كتابه «الموطأ» الذى بقى للمسلمين من خلال الآمالى التى أملاها على طلابه. وهذه الأمالى تضم مجموعة مبوبة من الأحاديث التى قبلت بها المدينة المنورة، والتى ينبغى أن يعتمد عليها فى تطبيق الشرع الحنيف. وقد تم للمالكية نشر مذهبهم فى بلاد المغرب والأندلس، عبر الديار المصرية. ولكن هذا المذهب ظل فى المشرق قليل الشأن، بل لعل المذهب المالكى تقهقر فى الجزيرة العربية ذاتها.

أما المذهب الذى اتصل اتصالا وثيقا بالعهد العباسى فهو مذهب «أبى حنيفة النعمان» (٨٠- ١٥٠هـ/ ٦٩٩-٧٦٧م) الذى توفى فى يوم الأحد الموافق ٢٩ من رجب الفرد ١٥٠هـ/ ٢ أغسطس سنة ٧٦٧م، وكان مسجونا فى حبس الخليفة المنصور العباسى لتَمنّعِه عن ولاية القضاء له، ويحق لنا أن نسميه «المذهب العراقى».

ولقد ازدهر مذهب أبى حنيفة النعمان ازدهارا سريعا بفضل رعاية العباسيين له. ولم يكن أبو حنيفة عربى الأصل، مثل الأوزَاعى، بل كان من موالى الكوفة. واستطاع أن يستغنى عن المناصب الرسمية لأنه عاش مقتّرا ومتقشفا، وهذا ما يساعدنا على فهم الطابع الخاص الذى طبعت به تعاليمه حسبما نقلها إلينا أتباعه.

ومما يجدر ملاحظته فى مذهب أبى حنيفة انسجامه انسجاما عاما من الناحية النظرية، وكذلك أحيانا جرأته فى التجديد. لكنه لا ينطبق دائما على الأحوال المختلفة، ولا على المسائل المحسوسة، كما كان يرجو رجال القضاء؛ لذلك حاول «تلميذه أبو يوسف» (٩٦-١٨٢هـ/ ٧٠٥-٧٩٨م)؛ صاحب كتاب الخراج محاولات حثيثة لإيجاد حلول عملية، بعد أن ولاه هارون الرشيد منصب قاضى القضاة، وطلب إليه أن يضع

مؤلفه الشهير «كتاب الخراج» لتنظيم جباية الضرائب فى الدولة، وفق تعاليم الشريعة ومتطلبات العصر.

وبذلك تأسست مدرسة فقهية قوامها كل من «أبو يوسف» و «الشيبانى» الذى كان أصغر منه سنا.. وقد تميزت هذه المدرسة ـ إبان فترة طويلة من الزمان ـ باهتمامها البالغ بمشاكل الحياة العملية وعنايتها بحاجات الدولة، مع السعى إلى إيجاد التسويات اللازمة لتجنب كل تناقض مع الشرع الإسلامى.

واعتبارا من النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة، كان لشخصية الإمام الشافعى (١٥٠-٢٠٤هـ/ ٧٦٧-٨٢٠م) تأثيرها القوى فى الفقه وإن لم يؤخذ بجميع اجتهاداته. والشافعى من أهالى فلسطين، وقد تلقى العلم عن مالك بن أنس، وأراد أن يكمل تعاليمه، وشجع العلويين فاتصل بالعلوى «يحيى بن عبد الله» الذى ثار فى الديلم. ولذلك ظل الشافعى طوال عمره بعيدا عن رجال الحكم. ودرس الفقه فى سوريا، ومصر التى توفى ودفن بترابها الذى تَشرَّف بجثمان هذا الإمام العظيم، وانتشرت آراؤه فى هذين القطرين قبل أن تنتشر فى جزء كبير من المشرق الإسلامى على يد أتباعه، الذين نافسوا المذهب الحنفى.

وبفضل الإمام الشافعى تُوِّجَتْ جهود المحَدِّثين فى ميدان الفقه. فكان كتابه الجامع المسمى «الأم» عَرْضا منهجيا رائعا لمذهب فقهى، يستبعد الرأى، ويعتمد اعتمادا كليا على الحديث الذى يُفَسَّر، بطريقة القياس أو الاستنتاج المنطقى. ولا يتشدد الشافعى فى صحة الأحاديث، بل هو يثق بها، وهى تساعده على تفسير ما غمض من الآيات القرآنية.

وقد بلغ من أثر الشافعى أن راح أصحاب المذهب الحنفى يعتمدون ـ هم أيضا ـ على الأحاديث فى إبداء آرائهم. وهذا ـ من وجهة نظر بعض العلماء ـ أفسحَ مجالا للاجتهاد أو الرأى الشخصى. فانبرى «أحمد بن حنبل (١٦٣-٢٤٠/ ٢٤١هـ / ٧٨٠-٨٥٥م)، ليعلن على الملأ «أن من واجب الفقيه الابتعاد قدر المستطاع عن كل تفسير للحديث يبتعد عن معناه الحرفى». وأحمد بن حنبل هذا أشفق على نفسه ـ على عظمتها وسُمُوِّهاَ ـ أن يظهر فى أعماله بمظهر الفقهاء وهذه خاصية من خصائص ابن حنبل، احتج بها خصومُه ليقارعوا بها أنصارَه».

وفى الحق كان موقف ابن حنبل على النقيض من المواقف المعروفة، لا تشدد ولا تسلط. وهو يكتفى بالابتعاد عن كل رأى قاطع لا ينحدر بصورة ثابتة عن النصوص

الدينية المعترف بها (القرآن والسنة). وبالتالى بدا ابن حنبل وكأنه من المفكرين المتحررين؛ لأنه امتنع عن تحريم أمر لا يثبت حرمانه نَصا، أو عن تحليل أمر لا يكون حلالا صرفا. ومن بعده بالَغ مذهبُ (الظاهرية) فى الأخذ بالمعنى الظاهر فقط للأحاديث، ومنه لفظة «ظاهرية». ويرجع هذا المذهب فى نشأته إلى منتصف القرن التاسع الميلادى، وكان له أتباع بارزون فى إسبانيا يجمعون بين التشبث بالنص والنزعة التحررية.

فى تلك الفترة أخذ علماء الحديث يشعرون بالحاجة إلى النظر فى صحة الأحاديث بسبب تكاثرها وازدياد أهميتها، وصاروا يُمَحِّصُون سلاسل الإسناد. ويبدو لنا منهجهم هذا معاكسا بعض الشىء لمناهج النقد الحديث. وإن دل على رقى فكرى وحسن طوية جديرَيْن بالثناء. وكان ابن حنبل قد صنف الأحاديث حسب إسنادها فى كتابه «المسند». ثم اقتفى أثره البخارى ومسلم وغيرهما فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى «النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى». فكانت مؤلفاته أفضل تبويبا، من الناحية العملية، وأقرب مثالاً. وراحوا يميزون - وفق منهج معين - الأحاديث الصحيحة، والمجرَّحة، وتلك المنحولة، واستبعدوا هذه الزمرة الأخيرة من تصانيفهم.

وبمضى الزمن فقدت المذاهبُ الفقهيةُ طابعَها المحلى الضيق فى الفترة التى حدث فيها ذلك التطور.

أما المذهب المالكى الذى نشره «سحنون» - فى بلاد المغرب والأندلس فى مطلع القرن الثالث الهجرى «التاسع الميلادى» - فقد استأثر بهذين القُطْرين استئثارا يكاد يكون مطلقا بحكم بُعْد المسافات. وفى أقطار أخرى ربما تغلب مذهب على آخر. إلا أن وحدة الحكم العباسى، والاختلاط السكانى فى الحواضر الكبرى، وازدهار العلائق التجارية، بالإضافة إلى مواسم الحج، وغير ذلك مما أدى إلى امتزاج المذاهب. فكان لها جميعا ممثلون فى بغداد، حتى بعد ضعف الحكم العباسى. ولم تُطبع المذاهب الفقهية بطابع رسمى، إلا منذ القرن الثالث الهجرى «التاسع الميلادى» فسميت بأسماء مؤسسيها، أى أنها وضعت تحت رعاية الفقيه الذى أنشأها، ونَظَّمَهاَ، ودعَّم مبادئها، فلم يعد ثمة حاجة إلى إعادة عمله هذا.

وبالنسبة لأوساط الشيعة، فقد حدث تطور مماثل، قبل انفصالها عن غيرها من الأوساط. لكنه كان تطورا بطيئا من بعض الوجوه. فاحتفظت بمجموعة فقهية حملت اسم «زيد»، وهو العلوى الذى توفى سنة ١٢٢هـ-٧٤٠م. على أنه ليس من المعقول أن

يكون زيد وحده هو مؤلفها؛ لأنها تشير إلى مساهمة عدد من تلاميذه ومن تلقوا عنه توجيها عاما، فاتسمت المجموعة كلها بروح واحدة لا تختلف - فقهيا - اختلافا أساسيا، عما يعتبر الحد الوسط بين آراء مالك وأبى حنيفة. كذلك حرصت الطوائف الشيعية الأخرى على نشر تعاليم إمامها «جعفر الصادق» الذى عاصر الثورة العباسية.

قلنا: إن العباسيين قد شجعوا - بصفة عامة - حركة التصنيف الفقهى، فاتصلوا بكبار الفقهاء، أو على الأقل اتباع المذهب الحنفى، ولم يجدوا حرجا من صدور أبحاث تتعلق بالأحوال الشخصية. وكان لديهم من النفوذ والسلطان ما يجعلهم قادرين على تقبل تصانيف فى القانون العام. ولربما تمنى الفقهاء على الدولة، أن تتبنى قانونا رسميا. والدولة لا تملك امتيازا خاصا بإزاء الشريعة. وبالتالى كانت المجموعة الفقهية التى صدرت منذ القرن الثالث الهجرى« التاسع الميلادى» لا تتصف بصفة الإلزام الرسمى. إلا أن رواج بعض المجموعات الشهيرة منها قد أدى إلى وضعها موضع التطبيق بصورة منتظمة. وكان هناك «كتاب الخراج» لأبى يوسف - الذى يعالج موضوعا خاصا. لكن طابعه الرسمى - تقريبا - يرجع إلى تلك الشخصية الكبرى التى أمرت بتأليفه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قد يتاح الحديث عن أبحاث أخرى متنوعة تصدت لأساليب الإدارة الحكومية. ولقد وضع هذه الأبحاث نفر من موظفى الدولة آنذاك. ومع ذلك كان لابد لنا من الانتظار حتى منتصف القرن الخامس الهجرى «الحادى عشر الميلادى».

لكننا نعثر على بحث حقيقى، فى القانون العام، أنشأه «الماوردى» فى كتابه «الاحكام السلطانية»، يدور حول النظم الحكومية». وقد بقى هذا الكتاب فذا لا مثيل له فى التصانيف الإسلامية جميعا فى مجال النظم والإدارة الإسلامية.

وغنى عن البيان أن العباسيين حاولوا أن يُرَقُّوا من شأن مهنة القضاء نظرا لاتساع نطاق الشريعة.

(٢) علم الكلام:

سبق أن تناولنا جانبا من هذا الموضوع فى حديثنا عن طائفة المعتزلة وموقف الخلفاء العباسيين من فكر هذه الطائفة، وأثر فكرها على الحياة السياسية فى الدولة العباسية، بل العالم الإسلامى كله.

ولفظة كلام - التى تشير إلى التفكير الدينى فى الإسلام، وبعامة إلى تلك الفئة من الرجال، الذين يشتغلون بمثل هذا التفكير - ينبغى أن ندركها إدراكا كافيا لا من أ-ل

استعمالها المتواتر فحسب، بل أيضا بسبب معناها الخاص. فى البدء إذن كانت كلمة «الله» تتضمن العقل والحياة. وتبعا للنزعة الواقعية التى سادت التفكير فى الأزمنة القديمة والوسيطة، وفيها كان الاسم يفيد، ضمنا، وجود المسمى والعكس بالعكس. وبالتالى فإن الحديث عن ذلك الكلام الذى أبلغ للناس «أى القرآن» يعنى أيضاً التساؤل عن العلاقة بين الله سبحانه وكلامه. أيكون هذا الكلام من صفاته الجوهرية بالذات ؟ أم هو مخلوق ليبلغ للناس «العالمين»؟. ولما كانت الفلسفة القديمة والمسيحية، التى يمثلها فى العهد الأموى يوحنا الدمشقى، قد أعطت مدلولا خاصا للعقل ومَنَحَتْه فى الوقت نفسه للكلمة (لوغوس أى «الله»)، فإن الاهتمام بعلم الكلام أيضا يعنى كذلك الاهتمام بالعقل، كما يعنى فعلا النظر فى مضمون هذا الإيمان، الذى أوحى الله به إلى رسله لتبليغه للناس.

ويُطلَق اسم «المتكلمين» على العلماء الذين تخصصوا فى هذه الأبحاث، ويمكن تسميتهم، «علماء الدين» مع تحفظ واحد، وهو أن ندرك أن الإيمان عند المسلمين ـ ومن الناحية المبدئية ـ أمر عقلى صرف. إذ ليس فى الإسلام انفصام بين الإيمان، والعقل على نحو ما عهدته مثلاً الفلسفة المسيحية.

ولما كان مذهب الاعتزال ـ الذى تكلمنا عنه كحركة فكرية، ذات أصداء سياسية فى حياة المسلمين إبان الحكم العباسى ـ قد نُسِبَ إلى رجلين هما : «واصل بن عطاء» و«عمرو بن عبيد» اتصلا بالعباسيين. فقد راح بعض المؤرخين يؤكدون على أن المعتزلة هى فى أساسها عقيدة العباسيين الرسمية.

ويبدو أن كلا من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، قد أعلنا فى تلك البيئة السياسية المحيطة بهما، أنه إذا كان لابد من قيام الفتنة وظهور المذنبين، فإن الإنسان ـ خلافا لما قالت المرجئة ـ لا يملك حق البت فى هذا الأمر. وربما أدى ذلك القول إلى قبول مؤقت لأى أسرة حاكمة. وقد يوحى بأن على المسلمين، أن يسعوا سعيا حثيثا وحقيقا إلى النهوض بالإسلام، حتى يَتَيَسَّر لهم اختيار موقف على نحو أقرب إلى الحكمة والصواب. وإلى أن يتم ذلك فعلا، لا يحق اتخاذ موقف معتدل إزاء العلويين، الذى راحوا ينشرون ـ لصالحهم الخاص ـ أفكارا مخالفة، ورأىُ المعتزلة يخدم العباسيين.

والواقع إن آل العباس كانوا على صلة بغير «واصل» و«عمرو»، كما كان هذان الرجلان على صلة أيضاً بغير العباسيين، وخاصة بالطائفة الزيدية، التى اتفقا معها فى الرأى. وسوف نَلقَى فى صفوفها رجالا من المعتزلة، كما كان للزيدية آنئذ نشاط سياسى منفصل عن النشاط العباسى، وإن أمكن التقارب معه.

وكانت البصرة قاعدة الزيدية، حيث ضمت العباسيين أقل مما ضمت الكوفة. أما النظريات التى جاء بها كل من واصل وعمرو فمن العسير فصلها عما نسب إلى أتباعهما الحقيقيين أو المزعومين، إن صح أن كان لهما بالفعل أتباع. ومهما يكن من أمر، فمن الصعب إذن، ومن جميع الوجوه، أن نجزم بأن أوائل العباسيين كانوا حقا من المعتزلة.

والواقع أن المسلمين كانوا فى حالة توهج فكرى واسع، سواء فى علوم الدين، أو فيما عداها من مجالات الفكر، وكان المركز الرئيسى لهذا النشاط المتوهج هو مدينة البصرة.

(٣) نحو بزوغ أفكار جديدة:

إن جميع «الحركات» التى تحدثنا عنها سواء كانت علوية أو زيدية أو معتزلة سوف تتقارب فيما بينها، ويتسع نطاقها، وتتشابك، وتتداخل مع حركات غيرها، لتظهر بثوب جديد أثناء خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٢٣م). فقد رأينا أن هارون الرشيد يقسم معظم مملكته بين اثنين من أولاده هما : الأمين الذى كانت له ولاية العهد مع الأقطار العربية جميعا، والمأمون الذى كانت له الأقاليم الفارسية يحكمها جميعا تحت إشراف أخيه. فهل قصد هارون الرشيد من عمله هذا أن يخفف من حدة المنازعات العائلية، ومن الخصومة بين العرب والخراسانيين؟ على كل حال أن ما تم كان عكس ذلك.

ذلك أن هذا التقسيم أدى إلى نوع من الانفصام بين غرب العالم الإسلامى ـ وهو مستقر العناصر العربية ـ الذى تولاه الأمين، الذى هو عربى النشأة، يؤازره بالنصح والمشورة مولى عجوز مُستَغْرِبُ هو «الفضل بن الربيع»، وبين الشرق الفارسى «الإيرانى» ـ الذى تعهده المأمون ـ وكان فارسى الأم والنشأة يؤازره من آل خراسان رجل حديثُ العهد بالإسلام، هو «الفضل بن سهل» الذى كان مولى للبرامكة. فهل يقوى نصفا الدولة على الصدام؟. لقد كان الواجب يحتم على الأخوين أن يتفاديا الصدام بأى وسيلة ممكنة، حتى لا تقع الكارثة. إلا أن ما حدث ـ للأسف ـ كان عكس ذلك.

ذلك أن الأمين اتخذ من الأمور والتدابير ما جعل حق أخيه المأمون فى الوراثة يأتى فى المرتبة الثانية بعد ابنه هو(أى ابن الأمين). حينئذ تصرف المأمون تصرف أمير المستقبل. إذ أعلن الأمين خَلْعَه، ونشبت الحرب بينهما.

وسرعان ما استولت قوات الأمين «بقيادة طاهر بن الحسين» على إيران قاطبة. ولم يجد هذا الجيش الخراسانى «التابع للمأمون» مشقة كبرى فى توثيق عرى التفاهم.

مع الجماعات الإيرانية فى بغداد. بينما عجز الأمين على حل الخلافات والمنازعات ـ وهى منازعات قبلية ـ بين إتباعه العرب، الذين استنجدهم. ونتج عن ذلك أن تَحَرَّجَ موقفُ الأمين، وحوصر فى بغداد، مما اضطره إلى توزيع السلاح على عامة الشعب، الذين أبدوا ضروبا من الشجاعة اليائسة، التى بقيت بلا طائل، وتم القبض على الأمين وإعدامه على يد طاهر بن الحسين سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م.

صدى حرب الأَخَوَيْن:

إن معنى تلك الأحداث المأساوية ـ كما هو ظاهر ـ ، أن كِفَّةَ الفرس ـ وبخاصة الخراسانيون ـ رَجَحَتْ، واستولوا مرة ثانية على مقاليد الأمور، وأن هذا الانتصار سيكون أعمق أثرا من المرة السابقة ـ الذى قامت به الدولة ـ لأنه تحقق ـ فى هذه المرة الأخيرة ـ على حساب النصف العربى من السكان، ولم يتم بمؤازرتهم الجزئية، كما حدث عند قيام الدولة العباسية.

ولسوف تؤكد لنا أحداث السنوات التالية، ذلك الطابع الإيرانى. فالمأمون لم يحاول نقلَ مقر خلافته إلى بغداد، بالقطر العراقى، لأنه لم يتأكد له ولاؤه بعد. لكن الحسن بن سهل «أخا الفضل»، الذى أُوفدَ إلى بغداد، لم يستطع استجلاب الناس إليه، فسنحت الفرصة للعلويين، حتى يقوموا بإحداث فتنة جديدة. كما فعل «ابن طباطبا» ثم أعقبه ـ بعد موته ـ تمردٌ علَوِى آخر بقيادة واحد ادعى أنه من ذرية «الحسن بن على»، هو ابن السرايا الزعيم البدوى فى العراق، كما خرجت الجزيرة العربية على المأمون. وبعد أن تم سحق هذه الفتن جميعا، ثار الوسط العباسىُّ ذاته، تحت راية عم المأمون ـ واسمه المنصور ـ الذى كان ممن بقى من أولاد المهدى على قيد الحياة.

وكان السبب فى هذه الثورة ـ التى غَشيتْ الأسرة العباسية ـ ما تبين من نوايا المأمون لنقل الخلافة وولاية العهد إلى «على الرِضا» ـ من آل بيت النبى وهو من نسل الحسين بن على بن أبى طالب ـ وهو الإمام الثامن فى الشيعة «الإمامية». فما الذى قصده المأمون من عمله هذا؟. وهو الذى جمع بين السعى المتأنى الحثيث، وبين قوة الشباب وتأجج العاطفة؟ أم هل قصد إلى إعادة الوئام بين أولاد العمومة المتخاصمين، وتوحيد كلمة آل البيت ـ ضد الغلاة ـ فيجعل الخلافة بالتناوب بين فرعيه ؟

الحقيقة أنه سرعان ما ثبت بطلان هذا الأمل، الذى راود ـ بعد المأمون ـ أناسا آخرين أيضا. فلقد خشى نفر كبير من أتباع العباسيين أن تنقل الخيرات إلى أتباع العلويين، فدفعوا بولد آخر للمهدى ـ واسمه إبراهيم ـ إلى المطالبة بحقه فى الخلافة.

وفى نفس الوقت ثارت فتنةٌ فى كل من مصر وأذربيجان، بسبب تلك الفوضى التى وقعت فى العراق. حينئذ قرر المأمون السفر إلى بغداد والتخلى عن «على الرضا». وفى خلال الطريق توفى «الفضل بن سهل» الذى حُمِّلَ مسئولية الأخطاء السياسية الأخيرة، وجاء موته فى الوقت المناسب. كما توفى «على الرضا»، وصار قبره على مر الزمن، مزارا كبيرا للشيعة الإيرانيين فى «مشهد»، بينما قضى بعض القواد الثائرين على «الحسن بن سهل»، واختفى «إبراهيم» من تلقاء نفسه.

والحق إن المأمون تلكأ عدة سنوات ليتحول من الراية العلوية الخضراء إلى الراية العباسية السوداء، واستمر المصلون يعلنون من فوق المنابر : أن على بن أبى طالب خير العالَمين بعد الرسول». فأدرك المأمون أن من واجبه - عمليا - العودة إلى سياسة توحيد الأمة. واعتبر أن أحسن وسيلة لذلك هى «تبنيه - أى المأمون - لفكر المعتزلة وفلسفتهم». وهو ما تحدثنا عنه فى موضوع «العباسيون وفكر المعتزلة».

ثانياً: أضواء حول الحواضر الإسلامية في العصر العباسى

تمهيد:

ارتبط تطور المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى، ارتباطا وثيقا بتطور المدن الإسلامية التى أصبحت مركز النشاط. حتى أنه يمكننا أن نصف الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى بأنها حضارة مدن. تلك المدن التى أصبحت مستودع الحياة الاقتصادية والفكرية، وقد غلبت الصفة الآسيوية الشرقية على الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى، أكثر من صفة البحر المتوسط الغربية. على أن هذه الحضارة لم تكن (ساسانية حديثة) كما يروق للبعض تسميتها؛ لأنها بقيت مخلصة لروح الإسلام محافظة على مآثر العرب.

إن توسع المدن وتعقد الحياة بجوانبها المختلفة فيها، أدى إلى ظهور تنظيمات جديدة تشير إلى ازدياد دور العامة من الناس فى هذه الحياة. وليس من اختصاص هذه الدراسة أن تفصل فى حياة العامة فى بغداد. ولكننا نشير هنا إلى دور العامة من أهل بغداد من أمثال العيارين والشطار، الذين وقفوا بوجه جيش المأمون ـ بعد مقتل الأمين ـ وحافظوا على النظام فى بغداد، وعارضوا سياسة المأمون الخراسانية العلوية، كما وقف الزواقيل. فى بلاد الشام ضد المأمون ونصروا الأمين، وهؤلاء الزواقيل الذين كانوا عربا أكثرهم من القيسية، عارضوا الدولة العباسية فوصفتهم «باللصوصية»؛ وذلك لأنهم لجأوا إلى السلب والنهب بسبب حالتهم السيئة. وبمرور الزمن أصبح اصطلاح «زواقيل» اصطلاحا اجتماعيا أكثر من كونه عنصرياً يدل على العرب (الضعفاء).

وأخيرا نقول: إن هدفنا من هذه الخلاصة التحليلية هو إدراك الحقيقة التاريخية؟؟ منطلقين من منهجية العلم وأخلاقيات العَالِم الذى يُقَوِّمُ الحقَّ ويُمَيِّزُ الحقيقة. إننا نعتقد بأن «دراسة التاريخ فى وطننا العربى الإسلامى يجب أن تُقوَّم، ولكن على الدرب الذى سار عليه علماؤنا، أمثال ابن الهيثم البصرى، والغزّالى، وابن خلدون، وغيرهم، وتسعى لتعويض ما فاتها، وهى تتخبط خلال سنى الخمول والأهواء والتسلط. فيسجل المؤرخ كلامه بصدق وواقعية، وعندئذ تكون عملية التأريخ معايشةً صادقة للأحداث لا مجرد كلام غير واع».

حواضر العراق ومظاهر تقدم الحياة الثقافية والاجتماعية بها:

أولاً: البصرة والكوفة:

أُسِّسَتْ كلٌّ من البصرة والكوفـة أيام خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ)، ولم يمض سوى عشرين سنة على إنشائهمـا حتى صارتا من أهم مراكز العالم الإسلامى سياسيا واقتصاديا وأدبيا، فأصبحت الكوفةُ قصبةَ العراق الأعلى. فلما ولى على بن أبى طالب الخلافـة ترك المدينة، واتخذ الكوفة حاضـرة لخلافته؛ لأن بهـا شيعتـه وأنصاره، ولتوسطها وسهولة اتصالها بأجزاء الدولة الإسلامية وقتذاك. وكان علىٌّ يقول فى الكوفة قولا كريما هو «الكوفة كنزُ الإيمان، وحُجَّةُ الإسـلام، وسيف الله ورمحه، يضعه حيث يشاء، والذى نـفسى بيده ليـنتصرن الله بـأهلها فى شرق الأرض وغـربها كـما انتـصر بالحجاز».

وطوال عهد الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ) شاهدت كلٌّ من الكوفة والبصرة الفتن والثورات. فـخرج الحسين من مكة إلى الكوفـة، وعلى مقربة منهـا كان مقـتله، وظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة يطالب بثأر الحسين. واستولى مصعب بن الزبير على البصرة، وسـار منها إلى الكوفة حيث قتل المختـار. وجهز عبد الملك بن مـروان جيشا أوقع الهزيمة بمصعب وقتله، ثم تغلب عبد الرحمن بن الأشعث على الكوفة، فسار إليه الحجـاج وقضى على فتنتـه. وفى خلافة هشـام بن عبد الملـك خرج زيد بن على زين العابدين بالكوفة، فتغلب عليه يوسف بن عمر الثقفى.

وقد أثارت هذه الأحـداث كثـير من الجدل بين أهل المِصْـرَيْنِ «البصـرة والكوفة» حيث امتد البحث عن عواملها إلى حلقات الدرس فى المساجد. مما جعل هاتين المدينتَين منبعا لكثير من المذاهب الدينية، التى أثَّرت فى العلم والسياسة والأدب.

والجدير بالذكـر أن كثيرا من صـحابة رسول الله ﷺ نزلوا مـدينة الكوفة. ومن أشهرهم عبد الله بن مسعود الذى كان من أول الناس إسلاما، حتى قيل أنه كان سادس ستة أسلمـوا. وقد لازم ابن مسعود النبى ﷺ، وأجاد حـفظ القرآن وفهمه. كمـا بعثه عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة ليعلمهم القرآن ويُفَقِّهُهم فى الدين، فأخذ عنه كثير من الكوفيين، واشتهر من مدرسته بعض العلماء، الذين خلفوه فى التعليم بالكوفة. وبذلك قامت فى مدينة الكوفة حركة علمية كبـيرة، ظلت تنمو حتى تُوِّجَتْ بأبى حنيفة النعمان الكوفى، الذى درس الفقه فى مدرسة الكوفة، وكان يتشدد فى قبول الأحاديث النبوية، ويتحرى عنها وعن سندها، ولا يقبل الخبر عن رسول الله ﷺ إلا إذا رواه الجماعة عن جماعة، أو اتفق فقهاء الأمصار على العمل به.

كذلك نزل البصرة عدد كبير من الصحابة - رضوان الله عليهم - اشتهر منهم «أبو موسى الاشعرى»، «وأنس بن مالك». وكان أبو موسى الاشعرى فقيها فوق معرفته القرآن والحديث. أما أنس بن مالك فكان محدثا أكثر منه فقيها. كما اشتهر من مدرسة البصرة فى عهد بنى أمية «الحسن البصرى» و«محمد بن سيرين»، وهما من أبناء الموالى. فأبو الحسن البصرى كان مولى لزيد بن ثابت، «وسيرين أبو محمد» كان مولى لأنس بن مالك. وقد امتاز الحسن البصرى بورعه وعلمه وفصاحته، وكان يلقى دروسه الدينية فى حلقة خاصة له. أما محمد بن سيرين فقد أخذ العلم على زيد بن ثابت وأنس بن مالك، وكان من ثقات المُحَدِّثِينَ والفقهاء.

وكان يقيم فى البصرة والكوفة جالية نُسِبَتْ إلى عدة قبائل عربية، وعدد من الموالى الذين يتكلمون الفارسية، ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شىء غير قليل من الفساد، كما أن الموالى أنفسهم كانوا بحاجة إلى نوع من العلم يُسَهِّلُ لهم طريقة تعليم اللغة العربية والدين الإسلامى.

وهكذا صارت الحاجة ماسة إلى تقويم اللسان العربى، خاصة بعد أن وفد إلى الأمصار الإسلامية عددٌ من الموالى. فاشتغل العلماء بالنحو، والصرف، وعلم اللغة، وبخاصة فى القرآن الكريم، ونشأ بهذا الإقليم جمع اللغة وتدوينها. ولم يكن بالحجاز ولا بغيره من الأمصار شىء يذكر من اللغة والنحو بجانب ما كان بالعراق.

والحقيقة أن العراق كان من أسبق الأمصار الإسلامية إلى تدوين اللغة والنحو. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بعض سكان العراق، ينتسبون لأمم قديمة متحضرة أسهمت فى تقديم العلوم. كما أن هذه البلاد التى أقام بها الأعاجم، كانت بحاجة إلى النحو واللغة أكثر من البلاد العربية. وكان أصحاب الفضل فى دراسة النحو هم البصريون فالكوفيون، فالبغداديون.

ويعد أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو أيام بنى أمية، وهو أول من وضع أساس مدرسة البصرة، التى هي أقدم من مدرسة الكوفة.

ومن علماء البصرة وأدبائها البارزين: أبو عمرو بن العلاء «المتوفى سنة ١٥٣هـ» الذى اشتغل بالتفسير، «والخليل بن أحمد» واضع علم العَروض، و«عمرو بن الجاحظ» المعروف بحرية الفكر والميل لعقائد المعتزلة وأنشأ فرقة سماها «الجاحظية»، ومن كتبه الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء وغيرها.

ومن علماء الكوفة فى النحو: «على بن حمزة الكسائى ،العالِمُ الفارسىُّ»، وهو أحد القراء السبعة، ومؤدب الأمين والمأمون.

وإذا كان التنافس شديدا بين البصرة والكوفة أيام بنى أمية، فإن جراراته زادت أيام العباسيين، وكثيرا ما دارت المحاضرات والمناظرات بين علماء المدينتين. وكان من مفاخر البصرة «المِرْبَدُ» ـ وهو سوق أقامهُ العرب لقـضاء شئونهم ـ ثم صار فى الإسلام صورة معدلة لسوق عكاظ فى الجـاهلية. فكان العرب يجتمعون فى المربد لقضـاء حاجياتهم، ويتناشدوا فيه بالأشعار. واستمر المِرْبد فى العـصر العباسى قائما لكنه كان يؤدى غرضا آخر، غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى.

ذلك أن العصبية العربية ضعفت فى العصر العباسى، وقوى نفوذ الفرس، فغلبوا العرب على أمرهم، وبدأ الناس فى المدن كالبصرة يَحْيَون حياة اجتماعية أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حـياة العرب. وظهرت العلوم تُزَاحِمُ الأدبَ والشعـرَ، وفشا اللحن بين الموالى، الذين دخلوا فى الإسـلام، وأفسـدوا على العرب لغـتهم؛ ولذلك صـار المربد يؤدى غرضا آخر يتفق والحياة الجديدة، فقصده الشعراء وأُمُّوهُ، ليأخذوا من أعرابه الملكة الشعرية. كما قصده اللغويون ليأخذوا عن أهله اللغة الفصحى، ويدَوِّنُونَ ما يسمعونه. وكان النحويون يحرصون على زيارته ليسمـعوا من أهله ما يصححوا به قواعدهم ويؤيد مذاهبهم.

كذلك كان مسجد البصرة مركزا عاما للحركة العلمية. وقد كثرت حلقات العلماء والأدباء فى هذا المسجد. فـكان فيه حلقة قوم من أهل الجـدل، وبجانبها حلقـة الشعر والأدب. وهكذا ازدهرت الحيـاة العلمية والأدبيـة فى كل من البصرة والكوفـة، وفاقت بذلك المدينة المنورة التى كانت الحركة العلمية فيها دينية بحتة.

ولم يزدهر الغناء فى البـصرة والكوفة كـما ازدهر فى مدن الحـجاز. وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الأمويين تبوأوا الخلافة وحصروها فى بيت من بيوتهم، وضيَّقُوا على من عداهم من بطون قريش، وحالوا بينهم وبين التفكر فى الشئون السياسية.

ومن ثم انصرف فـتيان الحجـاز ـ بما يمتلكون من الأموال ـ عن الإمارة والخـلافة والسياسة إلى اللهو، بينما شُغِل أهالى البـصرة والكوفة بالفتن والثورات التى أَلْهتْهُم عن الغناء والموسـيقى، وغلـبت روح التصـوف والزهد عددا كـبـيرا منهم. وقـد أدت هذه الظروف إلى أن صارت مدن الحجاز موطنا للموسـيقى، بجانب ما كان يسودها من زهد وورع وتقوى وحديث وفقه، بينما صارت مدن العراق مركزا للحياة الفكرية والعقلية.

ثانياً: مدينة بغداد "دار السلام":

لما انتقل الحكم إلى بنى أمية، اتخذ معاوية دمشق حاضرة لدولته. ولا غرو فقد عمل، منذ وليها فى عهد عمر بن الخطاب، على توطيد نفوذه فى بلاد الشام مستعينا بأتباعه وذوى قرباه. ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لتكون عاصمة بنى أمية.

وظل الحال كذلك حتى قامت الدولة العباسية ١٣٢هـ «٧٥٠م»، فنزل «أبو العباس السفاح» فى الكوفة أولاً، ثم اتجه للأنبار بعد ذلك وهى المدينة الفارسية القديمة، الواقعة على الشاطئ الشرقى من نهر الفرات، وبنى بها قصر الهاشمية« نسبة لجده هاشم بن عبد مناف».

ولما وَلِىَ أبو جعفر المنصور الخلافة، رأى أن يبادر إلى اختيار موضع آخر يصلح ليكون به عاصمة الدولة، ووقع اختياره على مكان بالقرب من الشاطئ الغربى لنهر دجلة، وهذا الموضع قريب من قرية قديمة تسمى «بغداد» كان قد بناها بعض ملوك الفرس. وكلمة بغداد يقال أنها فارسية وهى من شطرين: باغ: يعنى بستان، وداد اسم الرجل الذى يملكه «أى بستان الرجل»، وقيل غير ذلك كثير. وقد بلغ عدد من اشترك فى بنائها وتخطيطها نحوا من مائة ألف بَنَّاء وصانع وغيرهم، ممن لهم بُصَرٌ أو معرفة بالصنائع والحرف. وممن اشترك فى بنائها أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفى، الذى اشترك فى ضرب طوب المدينة وعَدِّه. وقد وضع أبو جعفر المنصور حجر الأساس للمدينة سنة ١٤٠هـ، وتم بناؤها بعد نحو عام واحد من ذلك.

وقد أمر المنصور ببناء جامع وقصر له فى وسط المدينة، حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر، وعرف هذا القصر «بقصر الذهب» أو «القبة الخضراء». ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء إلا الدار التى بناها للحرس من ناحية باب الشام، وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص. وبنى حول ذلك منازل أولاده الصغار، ومن يقوم بشئونهم من الخدم والعبيد، وقصور الأمراء، ورجال الدولة، ودواوين الحكومة. وأخذ البناءون يبنون حوله الدواوين ودور الأهالي تتخللها الأسواق.

وبعد أن قضى المنصور على ثورة العلويين بنى حول المدينة سوران مرتفعان: الأول داخلى ارتفاعه عشرون ذراعا وعرضه من أسفل خمسون ذراعا، والسور الآخر خارجى ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه كعرض الداخلى. وبهذا السور الخارجى أربعة أبواب وهى : باب الكوفة فى الجنوب الغربى، وباب البصرة فى الجنوب الشرقى، وباب خراسان (أو باب الدولة) فى الشمال الشرقى، وسمى كذلك لأقبال القوة للدولة العباسية من خراسان، ثم باب الشام فى الشمال الغربى ويوصل إلى طريق الأنبار.

واستمرت أسـواق بغداد بداخلها حتى وفد مبعـوث الروم على الخليفة فطيف به فى أنحاء المدينة الجديدة، ثم سأله الخليفة عن رأيه، فقال: ... يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك وفيه ثلاثة عيوب هى :

أولاً : بعده عن الماء.

ثانياً : ليس فى بنائك بستان.

ثالثاً : فإن رعيتَك معك فى بنائك، وإذا كان الرعية مع ملكهم فشى سِرُّه.

ومع أن المنصـور أدرك صواب رأى مـبعـوث إمـبراطور الروم، إلا أنه رد عليـه بقوله:

«أما قـولك فى الماء فحسـبنا من الماء ما بَلَّ شفـاهنا، وأما العيب الثـانى فإنَّا لم نخلق للهو واللعب، وأما قولك فى سرى فمـا لى سر دون رعيتى». ومن ناحية أخرى أمر المنصور رجاله بمد قناتين من دجلة ويغرسوا حولهما الأشجار حتى مدينة «العباسة»، وينقلوا الناس إلى الكَرْخ. وقد تم نقل الأسـواق من المدينة سنة ١٥٧هـ إلى باب الكَرْخ فى الجنوب الغربى من بغداد، حيث بنيت هناك أسواق جديدة.

وعلى الرغم من أن أبا جـعفر المـنصور ببنائه بغـداد يكون قد حقـق الهدف من بنائها، وهو عدم وصول العدو إليه، إلا أنه لـم يَحُلْ دون ما قد يحدث إذا شَغِبَ عليه الجند. ولقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمنا على نفسه كل الأمن، بإقامته فى بغداد، فقد وقع هـذا الشغب فعلا حين ثار عليـه جنده، فأشار عليه أحـد رجاله، أن يبنى فى الجانب الشـرقى من دجلة مدينة جديدة، يقـيم فيهـا ابنه المهدى ومعـه فريق من الجند، ويكون هو - أى المنصور - فى الجانب الغـربى. فأمر الخليفة ببناء مـعسكر للجيش الذى قدم به المهـدى من خراسان، وكان هذا المـعسكر نواة بغداد الشرقـية التى سمـيت أيضاً «برصافـة بغداد»، وبنى لها المنصـور سورا، وحفر حـولها خندقا، وجـعل فيها مـيدانا فسيحا ومسجدا وبستانا.

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع، وظهرت فيها الحدائق والمتنزهات والميادين الواسعة والمباني الفخمة، كمـا تجلت فيها مظاهر الحضارة وبنى فيها الخليفة المهدى مسجدا فى أول خلافته.

الحياة الثقافية فى بغداد :

أصبحت بغداد فى العصر العباسى الأول مركزا ثقافيا هاما. وكان من العوامل التى ساعدت على ذلك، حركة الترجمة والنقل إلى العربية. فقد اتجهت ميول الخلفاء العباسيين - بعد أن اختلط الفرس والعرب بالروم - إلى معرفة علوم الفرس واليونان. فاهتم أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب. وكان «ابن المقفع» من أشهر المترجمين، وقد نشأ بالبصرة وقضى من حياته فى العصر العباسى نحو عشر سنوات. أما بقية حياته فقضاها فى العصر الأموي. وقد ترجم «كليلة ودمنة» من اللغة الفهلوية «الفارسية القديمة»، وكتاب «إقليدس فى الهندسة» إلى اللغة العربية.

وقد اهتم هارون الرشيد - بعد أن وقع فى يده بعض المدن البيزنطية - بترجمة ما يصل إليه من كتب اليونان ، فنشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإجزالهم العطاء لهم.

ولم يكن المأمون بأقل اهتماما من الرشيد بالترجمة، فقد بعث البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلك والهندسة والموسيقى والطب. وقد روى «ابن النديم» أن المأمون كان بينه وبين إمبراطور الروم مراسلات، فكتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة، فأجابه الإمبراطور إلى ذلك بعد امتناع. فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف وابن البطريق وغيرهما بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية، وبعد أن عادوا إليه مزودين بالكتب التى وقع اختيارهم عليها أمرهم بنقلها للعربية.

ولما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرس «أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان. فأشار على وجوه الجزيرة، فأفتى أحد بطاركتها بالسماح بهذه الكتب، لأن هذه العلوم العقلية ما دخلت على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها». فأجاب صاحب قبرس المأمونَ إلى طلبه.

وكان أشهر المترجمين أيام المأمون هو «حُنَيْن بن إسحق» الذى ولد ١٩٤هـ من أب عربى من قبيلة كانت تقطن فى الحيرة، وكان نصرانياً على المذهب النسطورى. وقد ذهب فى بداية حياته إلى بلاد الروم حيث تعلم اليونانية، ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد، فأخذ عنه العربية. وكان حنين بن إسحق يجيد أربع لغات، وهى الفارسية واليونانية والعربية والسريانية. وقد أسند إليه المأمون الإشراف على بيت الحكمة، الذى كان يذخر بالكتب اليونانية، التى نقلت من آسيا الصغرى والقسطنطينية.

فأخذ يترجم فيها إلى السريانية أولاً، ثم إلى العربية. وقد واصل حنين بن إسحق نشاطه أيام المعتصم والواثق والمتوكل، ومات سنة ٢٦٤هـ.

كذلك عنى جماعة من الأثرياء بالترجمة مثل بنو شاكر المنجم، الذين أرسلوا حنين بن إسحق إلى بلاد الروم، ليُحضِر إليهم كثيرا من طرائف الكتب والمصنفات.

وقد ترتب على نشاط حركة الترجمة والنقل أيام المأمون العباسى، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى ترجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أخطائها. نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحق الكندى، الذى نبغ فى الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم.

وقد ساعد إنشاء بيت الحكمة فى بغداد فى ازدهار الحركة العلمية فيها. ومن المرجح أن الرشيد هو الذى وضع أساسه، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات. ويعد بيت الحكمة من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى. وقد ظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى المغول عليها بعد سنة ٦٥٦هـ، وكانت تحوى كل الكتب فى العلوم التى اشتغل بها العرب. كما أسهم العلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إليها، فى نشر الثقافة بين جمهور المسلمين. ولم يكن بيت الحكمة جامعة كبيرة، وإنما كان مكتبة ملحقة بقصر الخلافة، وكانت هذه المكتبة مزودة بعدد من المترجمين والنساخين لنسخ الكتب كما كان فيها مجلدون لتجليدها.

وقد وجد فى العصر العباسى الأول نوعان من الدراسات، دراسة دينية حول القرآن والحديث وعلومهما، ودراسة دنيوية حول الطب والفلسفة اليونانية والكيمياء والمنطق. وقد عبر ابن خلدون فى مقدمته عن هذين النوعين تعبيرا صادقا. فقال: «إن العلوم صنفان، صنفٌ طبيعى للإنسان سيهتدى إليه فكره، وصنف نَقْلى يأخذه عمن وضعه، والأول فى العلوم الحِكَمِيَّة الفلسفية، وهى التى يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها. والثانى هى العلوم النقلية التى اشتغل بها المسلمون فى بغداد، فى القرن الثانى للهجرة، وهى التفسير والحديث والفقه. وقد اعتُبِرَ التفسيرُ فى صدر الإسلام جزءا من الحديث أو فرعا من فروعه.

وقد شهد القرن الثانى للهجرة إقبال المسلمين على جمع الحديث وتدوينه، وأتيحت بذلك الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث أشهرهم فى هذا العصر. «أبو حنيفة النعمان» الذى ولد سنة ٨٠هـ بالكوفة ومات فى بغداد سنة ١٥٠هـ. وكان

أبو حنيفة ـ بجانب اشـتغاله بالعلم ـ يحترف التجارة، ويجلس فى الأسـواق، مما أكسبه خبرة عظيمة، وجعله يعرف حقيقة ما يجرى فى الأسواق، من معاملات الناس فى البيع والشراء. وقد تعلم أبو حنيفة الفقه فى مدرسـة الكوفة، وكان يتشدد فى قبول الحديث، ويتحـرى عنه وعن رجاله. فـلا يقبل الخـبر عن رسـول الله، إلا إذا رواه جمـاعة عن جماعة، أو إذا اتفق فـقهاء الأمصار على العمل به. ولم يصر إلينا أى كـتاب فى الفقه لأبى حنيفة، إلا أن ابن النديم فى الفهـرست ذكر من بين كتبه كتاب الفـقه الأكبر لأبى حنيفة.

وكـان «أبو يوسف يعقـوب بن إبراهيم» من تلامـيذ أبى حنيـفة، وقـد ولد سنة ١١٣هـ ومات سنة ١٨٢هـ، وتولى القضاء لثلاثة من الخلفـاء العباسيين وهم : المهدى، والهادى، وهارون الرشيـد. وقد تقلد فى أيام الرشيد منصب قـاضى القضاة. ولا شك أن بقاء أبو يوسـف فى منصب القضاء، هذا الـعهد الطويل، سـاعد على نشـر مذهب الإمام أبى حنيفة. وقد ألف أبو يوسف عدة كتب فى القفه، ولم يبق لنا من كتبه سوى «كتاب الخراج» .

وعلى الرغم من أن اسم هذا الكتاب هو «الخراج» إلا أنه يبحث فى ماهية الدولة الإسلامية فيقول فى أوله: «إن أمـير المؤمنين ـ أيده الله تعالى ـ سألنى أن أضع له كتابا جامـعا، يعمل به فى جبـاية الخراج، والعشـور والصدقات، والحوالى، وغـير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ويعنى بذلك ضريبة الأرض»، ويعنى بالعشور ما يحصل من الأراضى التى أسلم أهلها كأرض المدينة واليمن، ويعنى بالصـدقات الزكاة المفروضة على المسلمـين فى مـالهم، ويعنى بالحـوالى الجـزية عـلى رؤوس أهل الذمـة ومن فى حكمهم.

ومن أشهر المذاهب فى بغداد مذهب «أحمد بن حنبل» الذى ولد سنة ١٦٤هـ فى بغداد ونشأ فـيها، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشـام واليمن والجزيرة، سعيا وراء جمع الحديث، كما صحب الإمامَ الشافعى وأخذ عنه. وقد اتصف أحمد بن حنبل بالزهد والورع والتقوى، وموقفه مـن «خلق القرآن» يدل على قوة عزيمته، وشدة تمسكه بالدين. وهو يعد من كبار المحدثين ولم يختلف العلماء فى الكوفة فى اعتباره من كبار المحدثين، وإنما اختلفوا فى عدة من الفقهاء. فيقول عنه ابن جرير الطبرى: «إنما هو رجل حديث لا رجل فقه، وقد ثارت عليه الحنابـلة من أجل ذلك» . أما ابن قتيبة فلم يذكره من بين الفقهاء فى كتابه «المعارف» . ولم يضع ابن حنبل كتابا فى الفقه على نمط

خاصا به، وكان ما رُوِىَ عنه فى الفقه لا يخرج عن كونه مسائل سئل عنها، فأفتى فيها، وقام أتباعه بتدوين مذهبه وتبويبه.

أما عن العلوم العقلية، فلم يكن لبعضها ـ كعلم النجوم والكيمياء والرياضيات والفلسفة والطب ـ مكان ملحوظ بين العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى بغداد خلال العصر العباسى الأول؛ لأن همتهم كانت موجهة إلى نقل الكتب من اللغات الأجنبية إلى العربية.

وكان التاريخ من العلوم التى اهتم بها الكتَّاب آنذاك؛ ذلك أن العرب أخذوا فى القرن الثانى للهجرة يبحثون تاريخهم، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة غير متصل بعضها ببعض، أو دُوِّنَ بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة. ومن مؤرخى هذا العصر «محمد بن إسحق بن يسار» الذى نشأ فى المدينة وأخذ عن علمائها الحديث وألَّفَ «كتابه المغازى» ـ (والمغازى: جمع مغزى ومفردها مغزاة وكلاهما معناه الغزو أو الغزو نفسه) ـ من مجموع الأحاديث والأخبار التى سمعها فى كل من المدينة المنورة ومصر. ويعد هذا الكتاب من أقدم مصادر السيرة النبوية، وقد اختصره «ابن هشام» فى سيرته، وتوفى ابن إسحق فى بغداد سنة ١٥١هـ.

وممن ظهر ببغداد فى العصر العباسى الأول وألفوا فى المغازى والسير «محمد بن عمر الواقدى» ، الذى ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٠هـ فى خلافة مروان بن محمد، وسمع شيوخها ورحل إلى العراق فى خلافة الرشيد، حيث اتصل «بيحيى بن خالد البرمكى» فأجزل عليه العطاء، ثم خرج إلى الشام، والرقة على الفرات، ثم قَدِمَ ثانية إلى بغداد فظل مقيما بها حتى ولاه المأمونُ القضاء بعسكر المهدى المعروفة «بالرصافة» فى شرقى بغداد. ولم يزل الواقدى متوليا منصب القضاء حتى توفى ببغداد سنة ٢٠٥هـ. ومن مؤلفاته« التاريخ الكبير» وهو مرتب حسب السنين. وقد اقتبس منه الطبرى كثيرا من تاريخه. ويعد الواقدى مع أوسع الناس علما فى عصره بالمغازى والسير، كما كان واسع العلم فى الحديث والتفسير والفقه. ومن تلاميذه «محمد بن سعد» الذى ولد بالبصرة ١٦٨هـ وكتب فى التاريخ وقد دخل ابن سعد إلى المدينة فبغداد حيث اتصل بالواقدى وصار من تلامذته، ولُقِّبَ بكاتب الواقدى لأنه كان يُدَوِّنُ له كتبه وأحاديثه وما يشير به. ومن مؤلفاته كتاب «الطبقات الكبرى» وهو ثمانية أجزاء الأول والثانى منه لسيرة النبى الكريم ﷺ ومغازيه، والأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين، متبعا فى ذلك ترتيب الأمصار.

وكان من بين مؤرخى المسلمين من عنى بالأنساب، وخاصة فى العصر العباسى. ذلك أن الشعوبية ظهرت فى بغداد، وأخذ الشعوبيون يبحثون عن مسالك القبائل العربية، فأدى ذلك إلى العناية بالأنساب وتدوينها والتأليف فيها. وأصبحت هذه الدراسة نوعا من التاريخ، بجانب تاريخ السيرة، والمغازى وتاريخ الأحداث الإسلامية. ومن أشهر من كتب فى الأنساب «محمد بن السائب الكلبى» ، وابنه «هشام» الذى كان عالما بالأنساب وأخبارها وأيامها ومسالكها ووقائعها. وقد ألف كتبا كثيرة ذكرها ابن النديم فى كتابه الفهرست، ولم يصل إلينا منها إلا كتاب «الجمهرة» فى أنساب العرب «وكتاب الأصنام» . وقد اتصل هشام بن محمد بن السائب الكلبى بالخليفة المأمون وصنف له كتاب «الفريد فى الأنساب» وتوفى هشام ٢٠٤هـ.

ثالثاً: الإدارة فى العصر العباسى

أجهزة الإدارة

الوزير. الكتاب. الدواوين

فى هذه الفترة طرحت قضايا كثيرة أتينا على ذكرها، وفى هذه الفترة أيضاً نُظِّمَتْ وتوسعت أجهزة الحكومة والإدارة والقضاء ومنذ ذلك الحين برزت معالم الحضارة الإسلامية.

والمعروف أن الأمويين قد أداروا دفة الدولة، ومن قبلهم الخلفاء الأربعة الراشدين، وتولوا شئون الرعية. ومنذ عهد أواخر الخلفاء الأمويين رُسِمتْ الخطوط العريضة، للمؤسسات التى نجدها قائمة فى زمن آل العباس. فكلها - بالموازنة مع ما نلقاه فى العهد العباسى - تتسم بسمة النقص وعدم الاستقرار والتحول. ولن تزول هذه السمة بين عشية وضحاها، بل لابد أن يحل محلها بالتدريج البطىء، نظام أكثر نموا وثباتا.

ويبدو لنا بشىء من الوضوح - الذى يتفاوت بتفاوت شخصية الخليفة - أن الحكم الأموى عامة كان أقرب إلى الحكم الشخصى، يتولاه رجل يشرف من علٍ على الأمور الخطيرة، ويتتبع عن كَثَبٍ الشئونَ السياسيةَ الصرفة التى يعنيه أمرها. لكنه يعهد بالإدارة المركزية إلى بعض كبار رؤساء الدوائر، كما يعهد بإدارة الأقاليم إلى عمال يتمتعون بقسط كبير من الاستقلال، يؤازرهم فى عملهم جهاز أشبه بالجهاز المركزى ولكن على نطاق أضيق.

أما الحُكْمُ العباسى فقد اتجه اتجاها حثيثا نحو مزيد من المركزية والمراقبة. فلم يكن من قبيل المصادفة أن تحتفظ الأجيال اللاحقة بذكرى واضحة لشخصية المنصور، وهو المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، والرجل السياسى الذى لا يعرف اللين والشفقة. كما احتفظت هذه الأجيال بذكرى المهدى الذى انصرف - بطبيعة الحال - إلى تهدئة الخواطر ونشر العدالة الإسلامية. وذكر هارون الرشيد، الذى طبقت شهرته الآفاق - حتى يومنا هذا - من خلال قصص ألف ليلة وليلة، ونُسِبَتْ إليه أعمال وأحداث بعضها خيالى وبعضها واقعى، كما نسبت إليه وقائع لا صلةَ له بها. ومهما تكن الأسباب الصحيحة لتسميته بالرشيد (أى الذى يسلك طريق الرشد والاستقامة) فلابد من أن يرمز هذا الاسم إلى معنى من المعانى. ولربما وجد المسلمون فى هذا الخليفة - على مر الزمن - ذاك الرجل الذى رفع راية الإسلام فى وجه دولة الروم.

ولم يذعن الرشيد لآراء المعتزلة. ويشاء القدر أن يكون هارون الرشيد ـ بالنسبة لبلاد الغرب ـ معاصرا لشارلمان الذى تبادل معه السفراء، مما أكسبه شهرة لا ينازعه فيها منازع. على أن المأمون، رغم ميله إلى المعتزلة، فهو الذى ظل عند المؤرخين جميعا أعظم شخصية فى تلك الأسرة الحاكمة، وسوف نراه يتبوأ مركزا مرموقا فى تاريخ تقدم العلوم والآداب ... إلخ.

والناس يميلون إلى تصور الخليفة متربعا على عرشه وإلى جانبه وزيره، وغالبا ما ردد المؤرخون أقوال بعض الكتاب المسلمين، فى العصر الوسيط، من أن الوزير العباسى لم يكن سوى نسخة من سلفه الإيرانى، الذى وجد منذ عهد الساسانيين، ولقب بلقب «يوزورج فرامادار» وهذا الأمر غير صحيح. فلم يكن الوزير الإيرانى ـ كما تَصَوَّرَه المؤلفون ـ صورة سابقة للوزير العباسى. وظلت عمليا أقوال الكتاب المسلمين فى العصر الوسيط، المصدر الوحيد لهذا الوصف الذى ساقوه، عن قصد أو غير قصد، دفاعا عن تصورهم للوزارة.

ولا يمكننا ـ من ناحية ثانية ـ إثبات الأصل الفارسى لكلمة وزير، وهو الاشتقاق الذى أخذ به المؤرخون كما لو كان أمرا بديهيا، على نحو ما، حتى جعلوا من الوزير الفارسى أصلاً للوزير العباسى. هذا، وقد أكد كل من «جواتين» ، و«سوردل» تأكيدا قاطعا على أن أصل الكلمة عربى، وأنها فى أساسها تعنى بصورة عامة «الإنسان الذى يساعد على تحمل الوِزْرَ أو العبء» .

أما الوظيفة فلم تُحَدَّدْ منذ البداية تحديدا دقيقا، بل كانت تتصل بالخدمة الشخصية للأمير، أكثر من اتصالها بالعمل الإدارى. وكان أبو سلمة ـ زعيم الدعوة العباسية ـ أول من لَقَّبَ نفسه «بوزير آل محمد» ، ويعنى ذلك أداء مهمة ما، لا تزال غير محددة. فكان يتلقى مراسلات الأتباع ويرد عليها ردا مستقلا بطبيعة الحال. وعقب وفاته، وبعد أن تولى العباسيون زمام الحكم، لم يخلفه أحد فى هذه المهمة.

والحق إن تاريخ العباسيين الأوائل، وبخاصة هارون الرشيد، كان وثيق الصلة ـ من حيث الصيت والشهرة ـ بتاريخ أسرة قوية الشكيمة، هى أسرة البرامكة، التى يجب أن نقف عندها وقفة قصيرة. فقد كان جدها الأكبر راهبا بوذيا من مدينة «بلخ» التى سميت «باكثر» فى العصور القديمة، وهى فى أعالى «نهر جيحون» . واحتل ابنه خالد ـ الذى اعتنق الإسلام ـ مكانة مرموقة فى جيش أبى مسلم، ثم تقلد مناصب عالية فى عهد أوائل الخلفاء العباسيين الثلاثة، مما أتاح له أن يوطد مركز أبنائه، وبخاصة يحيى

الذى كان مربيا لهارون الرشيد، فى حين كان ولده الأخ الرضيع للخليفة، وكأنه حسب الرأى الشائع وقتئذ، من أفراد العائلة المالكة.

أما هارون الرشيد فقد اعتبر يحيى صراحة وكأنه والده الثانى، فعهد إليه فعلا بإدارة شئون الدولة التى تقاسمها مع ولديه: الفضل الذى ولى خراسان، وجعفر الذى عرف بصداقته الحميمة للخليفة الشاب. وهنا لابد أن نقف على طبيعة السلطة التى تولاها خالد أو يحيى وبخاصة هذا الأخير. لقد أشرفا - باسم الخليفة - على جميع الأمور التى كان يعنى بها، بحكم انتسابهما إلى الأسرة المالكة، كما ينتسب المربى إلى عائلة الولد الذى تولى رعايته. ولا يعنى هذا أنهما ترأسا الدواوين على نحو ما سوف تئول إليه أعمال الوزير فيما بعد. ولربما مُنحَا هذا اللقب أو لم يمنحاه وقتئذ. ومن ناحية ثانية قد يعهد الخليفة إلى وزيره بالاشراف إشرافا خاصا على أحد الدواوين، كما فعل المهدى سابقا مع أحد وزرائه، وهو أول من نعرف من الوزراء منذ «أبى سلمة» . لكن هذا الإشراف لم يكن حقا أو امتيازا، متصلا بصلته كوزير، بل كان إلى جانب تلك الصفة.

ومهما يكن من أمر، فقد انقلب هارون الرشيد وغَضِبَ غضَبه المفاجئ على أسرة البرامكة قاطبة بما فيها جعفر. وحاولت الروايات التاريخيةَ أن تضفى على تلك الحادثة ظروفاً عاطفية. وحقيقة الأمر؛ هو أن الخليفة، فيما يبدو، كان قد نَقِمَ على البرامكة من ذلك السلطان العريض، والغِنَى الوفير، الذى كانوا يتمتعون به.

ونحن بوسعنا أن نؤكد على بعض خصائص تلك الأسرة البرمكية؛ وهو أنهم كانوا يتمتعون فى خراسان بمركز رفيع، غير رسمى، أضافوا إليه مركزا رسميا رفيعا بالقرب من الخليفة فى بغداد. أى أننا بعبارة أخرى، إزاء هذا الجمع للنفوذ الذى اختبره العباسيون فى شخصية أبى مسلم. لكن المنصور لم يقبل بهذا الوضع وقضى عليه بمحض إرادته.

ومنذ نهاية عهد المأمون، ثبت هذا النفوذ لصالح آل طاهر، الذين حكموا خراسان فيما بعد. ولا شك أن ارتباط الأسرة العباسية بخراسان أدى إلى ظهور الوسطاء من هذا القبيل، مما أكسبهم - محليا - عددا كبيراً من الموالى، وبالتالى أكد استمرار أتباعهم فى بغداد على نحو ما يريدون. وبالفعل؛ وحتى بعد كارثة البرامكة؛ لم ينفك موالى البرامكة من أداء المهمة ذاتها، حتى بعد عهد الرشيد.

على أن التطور الذى أدى إلى هذه النتيجة كان يرتبط بارتقاء طبقة الكتاب، ونعنى بها تلك التى بلغت ذروتها فى العصر العباسى وهم موظفو الدواوين.

وإذا كان من المسَلَّم به أن يكون الكُتَّاب فى العهد الأموى من أهالى البلاد وأن تكون غالبيتهم من أهالى بلاد الشام، وبخاصة فى الحكومة المركزية إلا أن ذلك لم يكن سائداً فى الولايات الشرقية؛ لأن الأوضاع انقلبت رأسا على عقب فى العهد العباسى، عندما صار الجهاز المركزى مؤلفا من إيرانيين مُسْتَعْرِبين دون استبعادٍ لأهل العراق العرب الخُلَّص. ثم ازداد عدد الكتاب باتساع الأجهزة الإدارية، وازداد فى الوقت نفسه التعقيد الفنى المتعلق بأعمالهم. وتضافرت مصلحة الدولة مع الحاجة إلى التأهيل الفنى، فاتجه هؤلاء الكتاب إلى حصر وظائفهم فى سلالتهم أو فى أقربائهم، بعد أن كانوا يُنتَقُونَ أصلا من بين موالى العائلات الكبرى. وبديهى أن تضمن لهم هذه الوظائف حياة يسيرة، ونفوذا اجتماعيا كبيرا. ومن هنا تكونت طبقة اجتماعية جديدة.

ولئن كان معظم هؤلاء الكتاب قد اعتنقوا ـ وقتئذ ـ الإسلام أفواجا، إلا أنه كان يوجد بينهم نفر من الذميين، وبخاصة من نساطرة العراق، فضلا عن «نصارى مصر» . وعلى أى حال، فإن القضايا التى كان، يترتب عليهم النظر فيها، والتفكير الذى كانوا يُصْدِرُونَ عنه، جعلهم فى موقف، يعارض موقف رجال الشريعة ممن اختصوا بالأحوال الشخصية. ولم يكن الاتجاه الإسلامى الصريح للعهد العباسى كافيا للتخفيف من حدة هذا التعارض.

ولئن وجد منصب وزير حقيقى فى العصر العباسى، إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة وجود ما يسمى بالوزارة، أى تلك المجموعة من الموظفين، الذين يُكَلَّفون بإدارة طائفة من الأعمال، إدارة مستقلة بعض الشىء. فلقد أسندت الإدارة ـ سواء فى الحكومة المركزية أو فى الأقاليم والنواحى ـ إلى مجموعة من الدوائر نُصّبَ على كل منها رئيسٌ معين، وعرفت هذه الخدمات العامة أو الدوائر بلفظه «الديوان» الفارسية، التى تصح للدلالة على الإدارة المركزية فى مجموعها، كما تصح على أى خدمة من الخدمات الخاصة.

على أنه ليس من اليسير ـ ومن العبث ـ أن نقدم ثَبْتا كاملا يضم الدواوين جميعا؛ لأن أسماء هذه الدواوين واختصاصاتها، قد تحولت على مر الزمن، واختلفت باختلاف المناطق. وإن كان من الممكن الإشارة إلى أهم هذه الدواوين، واستنباط بعض السمات العامة لتلك المؤسسة، ولذلك النظام، الذى يشرف عليها.

ويعتبر كتاب الخراج لأبى يوسف من أهم المصادر لدراسة نظام إدارة الدولة العباسية. وذلك الكتاب يتحدث عن أهم الدوائر المالية، التى أثرت فى أجهزة الحكم جميعا. أما الديواتان الرئيسيان الآخران: فهما ديوان الجند الذى ينسب إلى دوائر عديدة، وديوان الرسائل الذى يضم المراسلات السياسية والإدارية. ويتصل بهذا الأخير ديوان البريد، الذى استخدم أحيانا للمراسلات الخاصة، لكنه فى الأصل بريد الدولة المكلف بنقل أوامر الحكومة إلى عمالها فى الولايات. وهو من جهة ثانية يشبه دائرة الأمن العام، التى تنقل جميع المخابرات، مما يستوجب على الولاةِ وعلى من يحيطهم من «الاستخبارات» أن يوافوا الحكومة بها حرصا على أمنها وسلامتها وحفاظا على استمرار العمل الإدارى المنظم.

رابعاً: القضاء والحسبة والمظالم

القضاء أو القاضى، والمحتسب، وصاحب المظالم

لم ينشئ العباسيون الجهاز القضائى إنشاءً، بل هم استكملوه، وقام الخلفاء شخصيا تعيين القضاة، حتى يمنعوا عنهم تحكم الولاة، وحتى يحسنوا رقابة كفاءتهم، أو رقابة ولائهم. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أنشأ العباسيون «منذ هارون الرشيد» منصب قاضى القضاة. وكان أبو يوسف أول من شغل هذا المنصب، الذى لا يعنى اختصاصا قضائيا أعلى من اختصاص سائر القضاة: فهم جميعا على قدم المساواة يتولون إحقاق الحق، ولا ينقض حكمهم إلا من قبل الخليفة أو الوالى الذى يحل محله. فكان لهذا المنصب حق الإشراف على الهيئة القضائية؛ لأن «قاضى القضاة» يمثل الخليفة، عند النظر فى مؤهلات المرشحين، كما يمثله فى رقابة الكفاءة المهنية للقضاة. وربما أنشئ هذا المنصب ليكون شبيها بما كان معروفا فى العهد الساسانى ـ الزرادشتى ـ بمنصب «المؤبذ ـ مؤبذان» وهو ترجمة دقيقة للفظة «قاضى ـ القضاة» .

ويحيط بالقاضى مستشارون ومساعدون أهمهم «الشهود» ، وهم ليسوا شهودا حقيقيين، كما هو مألوف فى قضائنا الحديث، بل مهمتهم النظر فى بسط الإجراءات وتقديم ما يفيد ذلك.

وقد توصل المسلمون إلى مبدأ انتقاء فيشة الشهود، بعد التثبت من حسن أخلاقهم، كما هو معهود بالنسبة للمحلَّفين فى القضاء الحديث، وقد أدى ازدياد أعباء القضاة إلى أن يعهدوا بجزء من أعمالهم لمساعديهم وعلى رأسهم الشهود.

وإذا كانت العقود المكتوبة لا تقف على نفس مستوى وأهمية الشهادة الشفهية، فى بداية عهد الدولة الإسلامية، إلا أنه بمرور الوقت أصبحت الحاجةُ ماسة إلى إثبات أية اتفاقات أو معاملات فى صحائف مكتوبة يُستند إليها كعنصر إضافى للشهادة. وأمكن لهذه العقود أن تحل محل الشهادة الشفهية فى كثير من الأحوال. فحُرِّرَتْ صيغ من العقود عُرِفَتْ باسم الشروط، وتكون جهاز من الكتاب الشرعيين الذين لا يختلفون كثيراً عن الشهود، واحتفظت الإدارة القضائية عامة بالعقود.

وإذا كان للقاضى سلطته المعنوية أو الاجتماعية، إلا أنه لم يكن من مسئوليته ملاحقة المذنبين، وتنفيذ العقوبات التى يقضى بها؛ لأن هذا يدخل فى اختصاص الشرطة، التى عرفت، منذ مطلع الفتوحات العربية، على أنها جهاز مساعد للولاة فى

سبيل الحفاظ على أمن الدولة. وعلى مر الزمان أنشئت فى الحواضر الكبرى شرطة بالمعنى الحقيقى، مزودة بعناصر من أهالى البلاد، إلى جانب الجيش المرابط فقط فى بعض المناطق المحصنة. ومن الناحية العملية كانت الدولة وحدها ـ عدا مساعدتها للقاضى ـ تعنى ـ خارج نطاق الشريعة ـ بالقضاء الجنائى وأعمال القمع.

وفى بداية العصر العباسى نُظِّمَتْ الحِسْبَةُ، وسُمِّيَ متوليها «المحتسب». والحسبة بمعناها الواسع، واجبة على كل مسلم، يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى إلزام بالنسبة للأمير.

وفى العهد العباسى تبلور مفهوم الحِسْبة أكثر وأصبح على المحتسب رقابة السوق، والإشراف على التجارة الداخلية. وكانت هذه الرقابة وقتئذ تتصل بالأمن العام، والحياة الاقتصادية. وقد تفرعت عن وظائف مماثلة لها عرفت فى المدن القديمة، وقد عهد بوظيفة المحتسب فى الحواضر التى لم تكن إسلامية فى الأصل، إلى الذميين. ولكن بعد اتساع حركة انتشار الإسلام، وبعد أن احترف العرب حرفا مختلفة بدا لزاما أن تصطبغ الرقابة العامة بصبغة أقرب إلى الإسلام. فاختص بالحسبة رجل مسلم، ولم يقتصر على رقابة الناحية الأخلاقية فى الأسواق حسب الشريعة، بل كُلِّفَ ـ وبشكل أوسع ـ بالإشراف على جميع مظاهر الأخلاق العامة ، فى إطار مجتمع يسوده الدين الحنيف : مثل ممارسة الشعائر، وحسن سلوك الرجال والنساء أثناء التعامل، وإلزام الذميين باتباع القواعد التى تخصهم. . إلخ. وكلمة «الحسبة» تفيد هذه المعانى جميعا.

وللمحتسب ـ فى الحواضر الكبرى ـ مساعدون يستعين بهم. ومن المسلم به ألا يمارس المحتسب صلاحياته إلا فى المدينة فهو عون للقاضى، أو يشاركه فى أعماله، وكان مثله وثيق الصلة بالخليفة. بل ليس القاضى بأوثق صلة بالمدينة من المحتسب. لكن عمل هذا الأخير يظل الرقابة اليومية للمهن وصغار التجار، والإدارات العامة، ومراعاة أداء الشعائر.

«نظر المظالم أيام بنى العباس»[(١)]:

كان القاضي يؤدى عمله ـ فى الدولة الإسلامية ـ فى نطاق من العدالة والكفاءة. وكذلك كان صاحب الحسبة يؤدى وظيفته الجليلةَ الشأن فى خدمة جمهور الأمة الإسلامية، وتيسير الحياة السوية للمجتمع، وحمايته من الغش، والجشع، والتدليس، وفساد الذمم.

---

(١) راجع صابر دياب : ولاية المظالم ومجالسها ... (نشر مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ١٩٨٤م).

غير أنه كانت تنشأ - فى بعض الأحيان - مشكلات وقضايا، يستعصى حلها، أو البت فيها أمام القضاء العادى. كما يصعب التعامل معها بمقتضى سلطات المحتسب. كأن يكون الخصمُ صاحبَ مركزٍ سامٍ ومقامٍ كبيرٍ، أو أن تكون الظلامة (المظلمة) مرتبطة بالدولة، فى شكل والٍ أو عاملٍ أو ديوان خراج أو بيت مال. مما استدعى إنشاء هيئة لها هيبتها ورهبتها، لتبتّ فى الأمر المستعصى على الحل، وتقضى فى الخلاف الشائك، الذى يحتاج إلى حزم وبت، وسلطة قوامها العدل، ودستورها الحسم والشدة. وإن ديوانا كهذا، لمحتاج إلى رئيس نافذَ الكلمة والرأى، بصيرا بالأمور، عادلا، حازما، مهيبا.

وكان من الطبيعى - بعد أن تشعبت أمور الدولة الإسلامية، واتسعت رقعتها، وضعف وازع الضمير، وانحرفت بعض النفوس عن مسيرة الخير - أن تنشأ ظلامات تتعدى طبيعةُ خطرها حدودَ القاضى، فكان لابد من اختصاص أحد ذوى الهيبة بالنظر فى المظالم، حتى ولو اقتضى الأمر أن يكون الخليفة نفسُه هو الذى يجلس للنظر فيها.

وقد لخص الماوردى (ت٤٥٠هـ) الأمر فيما يلى من عبارات:

«انتشر الأمر بعد على بن أبى طالب، حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم يكفهم زواجر العظة عن التمانع والتجانب. فاحتاجوا فى ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين، إلى نظر المظالم الذى يمزج به قوة السلطنة بنصفة القضاء، فكان أول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قُصَصَ المتظلمين، من غير مباشرة للنظر «عبدُ الملك بن مروان» . فكان إذا وقف منها على مُشْكِلٍ أو احتاج فيها إلى حكمٍ مُنَفَّذ، رده إلى قاضيه أبى أدريس الأزدى، فنفذ فيه أحكامه، لرهبة التجارب من عبد الملك فى علمه بالحال، ووقوفه على السبب. فكان أبو إدريس هو المباشر، وعبد الملك هو الآمر. ثم زاد من جَوْرِ الولاة، وظُلْمِ القضاة مالم يكُفُّهُمْ عنه إلا أقوى الأيدى وأنفذ الأوامر» .

ويستطرد الماوردى قائلا: «فكان «عمر بن عبد العزيز» (رحمه الله) أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم، فَرَدَّهَا وراعى السنن العدالة وأعادها، ورد مظالم بنى أمية على أهلها، حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ فقال: كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وُقِيتُه. . ثم جلس لها من بنى العباس جماعةٌ. فكان أولُ من جلس لها المهدى، ثم الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون وآخر من جلس لها - من بنى العباس - المهتدى (٢٥٥-٢٥٦هـ) حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها» .

على أنه ليس لدينا شيء عن المراحل التى مر بها تأليف «ديوان المظالم» حتى انتهى إلى ما انتهى إليه خلال القرن الخامس الهجرى، وهو العصر الذى كان يحيا فيه الماوردى وأبى الفراء يعلى الحنبلى. إذ ترك لنا صورة كاملة عن مجلس مهيب، لا تتم أسباب انعقاده، ولا يكون شرعيا إلا بعد أن تجتمع فيه أصناف خمسة من الرجال من: الحكام والرعية. وهؤلاء الخمسة لا يَستَغنى عنهم ناظرُ المظالم ولا ينتظم نظره فى الأمور إلا بهم، وهو ما يمكن تسميته بتشكيل هيئة ديوان المظالم، **وتتكون من:**

١- **الحماة والأعوان**: لجلب القوى، وتقويم الجرىء، الذى يحاول العبث أو اللجوء للقوة أو الفرار من وجه القضاء.

٢- **القضاة والحكام**: لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق. ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام، لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجرى بين الخصوم. فَيُلِمّون بذلك بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين. وبهذا استدركوا النقص الذى يمكن أن يكون فى والى المظالم، من حيث إلمامه بالأصول، والأعراف القضائية.

وكان القضاة يستفيدون من حضورهم هذه الجلسات. إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم. كما أنهم كانوا بمثابة مستشارين لصاحب المظالم، لسابق عملهم ببعض ما ينظر أمام المجلس من قضايا.

٣- **الفقهاء**: ليَرْجِعَ إليهم فيما أَشْكِلَ، ويسألهم عما اشتبه لديه من أمور تختص بعمله.

٤- **الكُتَّاب**: ليثبتوا ما جرى بين الخصوم، ويدوّنوا ما توجه لهم أو عليهم، من الحقوق.

٥- **الشهود**: ليشهدهم على ما أوجبه من حق، وما أمضاه من حكم. كما أن من مهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم، والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا يتنافى مع مبادئ الحق والعدل.

فإذا استكمل مجلس المظالم بمن ذكرنا من الأصناف الخمسة شرع حينئذ فى نظرها.

ومما لا شك فيه أن نُظُمَ القضاء فى الدولة العباسية كانت قد أصابت حظا من التقدم والتطور، حتى ساغ للفقهاء أن يضعوا لها كل هذه القيود والشروط. ولا ريب

فى أن فقهاء الإسلام ـ وهم يؤصلون تلك الأصول والقواعد ـ كانوا يَصْغُونَ إلى صوت القرآن يتعالى فى قلوبهم قبل ألسنتهم، ويهيب بهم أن:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء].

فإذا أضيف إلى هؤلاء الأصناف الخمسة، رئيسُ المجلس، صاروا ستة أعضاء، وشرع فى مباشرة مهامه.

فإذا نظر فى المظالم من انتُدِبَ لها، جعل لنظره يوما معروفا، يقصده فيه المتظلمون، ويراجعه فيه المتنازعون ليكون ما سواه من الأيام لما هو موكول إليه من السياسة والتدبير، إلا أن يكون من عمال المظالم المتفردين بها، فيكون مندوبا للنظر فى جميع الأيام.

ومما يروى أن رجلا رفع إلى الخليفة العباسى المنصور شكوى فى عامل الخلافة، بأنه أخذ حدا من ضيعته، فأضافه إلى ماله، فوقع الخليفة المنصور (أى أشر عليها إلى عامله) فى رقعة المتظلم :

«أن آثرت العدل صَحِبَتْكَ السلامة، فانصف هذا المتظلم من هذه الظلامة» .

وبهذا يكون الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور هو أول من قضى فى المظالم أيام بنى العباس، وليس المهدى.

ويرى بعضُ المؤرخين وكُتَّابُ النظم أن من الدواوين التى أنشئت فى عهد الخليفة العباسى «المهدى» «ديوان النظر فى المظالم» . وليس معنى ذلك أنه أول من نظر فيها من بنى العباس. وذلك لمعرفة مما تتشكى منه الرعية، من ظلم بعض عمالها وولاتها وجورهم وعَسْفِهم.

كما كان من حق صاحب المظالم (والى المظالم) النظر فى غلاء الأسعار إذا زادت عن حدها، بحيث تدخل فى نطاق الاستغلال البشع، أو الربح الباهظ أو الجشع التجارى، بما يضر بالرعية. كما ينظر أيضاً فى ظاهرة إيداع السجون من غير نظر دقيق فى دعاويهم (ما يعرف حالياً بالاعتقال أو الحبس التحفظى لدواعى الأمن). وأحيانا أيضاً كان والى المظالم ينظر فيما وقع ظلما، ومن مصادرةٍ لأملاك بعض الناس زعما منهم بأن تلك المصادرات جاءت بغير حق.

وقد ظهر فى العصر العباسى ما يسمى بـ «ديوان الاستخراج» وقد يظن قارئ اللفظة، للوهلة الأولى، أن هذا الديوان متصل بأمور الخراج وديوانه. بينما الواقع أن هذا الديوان بعيد كل البعد عن مجال واختصاصات ديوان الخراج. فهو عبارة عن دائرة رسمية، مهمتها تتبع أخبار الوزراء والكتاب والحجاج والعمال والولاة المتهمون بالمحسوبية، والرشوة، واستغلال النفوذ، لإحصاء أسمائهم وتحديد أوضاعهم، تمهيدا لمصادرة ما جمعوه حراما من أموال بأمر من الخليفة.

وهذا التصرف، الذى يقوم به «ديوان الاستخراج» يعتبر فى نطاق عمل ديوان المظالم أيضا. فهو بذلك دائرة مساعدة لدائرة المظالم على أداء مهمتها، التى من ألزمها وأهمها النظر فى «جور العمال، فيما يجبونه من الأموال، فيرجع فيه إلى القوانين العادلة فى دواوين الأئمة، فيحمل الناسَ عليها، ويأخذ العمالَ بها، وينظر فيما استزادوه، فإن رفعوه إلى بيت المال، أمر برده من بيت المال لأهله، وإن أخذوه لأنفسهم استرجعه لأربابه».

فيُروَى عن المهتدى أنه جلس يوما للمظالم، فرفعت إليه قُصَصُ المتظلمين فى الكسور، فسأل عنها، فقال سليمان بن وهب: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَسّطَ الخراج على أهل السواد، وما فتح من نواحى المشرق والمغرب ورقا (يعنى نقداً) وعينا».

وكانت الدراهم والدنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر، وكان أهل البلدان يؤدون ما فى أيديهم من المال عددا، ولا ينظرون فى فضل بعض الأوزان، على بعض. ثم فسد الناس، فصار أرباب الخراج يؤدون الطبرية والتى هى أربعة دوانق، وتمسكوا بالوافى الذى وزنه وزن المثقال. فلما ولى زياد العراق، طالب بأداء الوافى، الذى وزنه وزن المثقال، وألزمهم الكسور، وجارى فيه عمال بنى أمية، إلى أن ولى عبد الملك بن مروان، فنظر بين الوزنين، وقد وزن الدراهم على نصف وخمس المثقال، وترك المثقال على حاله. ثم أن الحجاج (بن يوسف الثقفى) من بعده أعاد المطالبة بالكسور، حتى أسقطها عمر بن عبد العزيز، وأعلاها من بعده إلى أيامِ المنصور، إلى أن خَرِبَ السواد، فأزال المنصور الخراج عن الحنطة والشعير ورقا وصيّرهُ مقاسمة، وهم أكثر غلات السواد، وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر على رسم الخراج.

وقال المهتدى (٢٥٥-٢٥٦هـ): «معاذ الله أن ألزِمَ الناسَ ظلما تقدم العمل به أو تأخر، أسقطُوه عن الناس» فقال الحسن بن مخلد: «إنَ أسقَطَ أميرُ المؤمنين هذا ذهب من أموالِ السلطان فى السنة اثنى عشر ألف ألف درهم (١٢ مليون درهم) فقال المهتدى: «علىَّ أن أقَررَ حقا وأزيلُ ظلماً، وإن أجْحَفَ بيتُ المالِ».

والمعلوم أن من سلطة والى المظالم مؤاخذة المنحرف ومكافأة المُجِدَ الأمين.

كذلك روى عن الخليفة المهدى العباسى أنه قال للربيع بن أبى الجهم والى بلاد فارس: «يا ربيع آثر (أى الزم) الحق والزم القصد، وابسط (انشر) العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدلَ الناس من أنصفَ من نفسه، وأظلَمَهم من ظلم الناس لغيره».

وحرصا من بعض الخلفاء العباسيين على هيبة ومكانة والى المظالم وهيئة مجلسه وديوانه، فقد بنى لها أربعة أبواب كان يجلس فيها، سماها قبة المظالم، وكان يلتقى فيها بالعامة والخاصة.

لكن الغريب أن نظام المظالم أخذ صورة مغايرة، حين تمكنت السيدة أم الموفق من أن تُعَين قهرمانتها «ثومال» صاحبةً للمظالم. فباشرت ثومال عملها فى الرصافة، وجلست تنظر فى رقاع الناس (ظلاماتهم) كل جمعة، وقد كان يحضر مجلسها القضاة والأعيان وتبرز التوقيعات وعليها خطها (تأشيراتها).

وهناك سلطة قضائية أخرى يعود الفضل فى تنظيمها - إن لم يكن فى إنشائها - إلى العباسيين وهى سلطة إزالة المظالم وإصلاح المفاسد. فإذا طبقت هذه السلطة فى بعض الحالات، فإنها تستند - مبدئيا - إلى هذا الحق الرفيع، الذى يتمتع به الأمير، أو مندوبه، فى إقامة العدل، وتُنَفَّذ عمليا فى القضايا التى تخرج عن التطبيق القانونى الدقيق، حينما تبدو عدالة القاضى عاجزة، كما فى حماية المستضعفين من تعسف الأقوياء، بل ومن تعسف الدولة نفسها، ومن ضرائبها مثلا. حينئذ تدعم المظالم بعض الإجراءات، التى يعجز فيها القاضى عن العمل. وهى تُقَوِّمُ فى بعض الأحيان حكما جائرا أصدره أحد القضاة. ولا ريب أن هذه التظلمات قد وجهت - أحيانا - إلى الأمويين وأوائل العباسيين. ولكن ليس من قبيل الصدف أن يأتى أول ذكر رسمى للمظالم فى عهد الخليفة المهدى العباسى.

ولما كانت المظالم سلطة قضائية تساير روح الشريعة، لكنها فى الواقع تعود - وبدرجة كبيرة - إلى تقدير الخليفة، فإن الفقه لم يتعرض لها كثيرا. ولقد شاع بين الناس أن الخليفة الصالح والحاكم الرشيد والأمير العادى، هم الذى ينفقون قسطا كبيرا من أوقاتهم ونشاطهم فى الاستماع إلى المظالم. وكانت المباحث التى تعالج أخلاق الأمراء مليئة بمثل هذه الصفات.

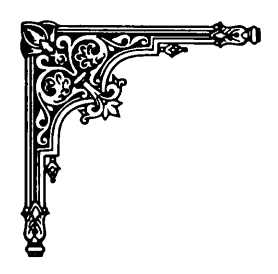
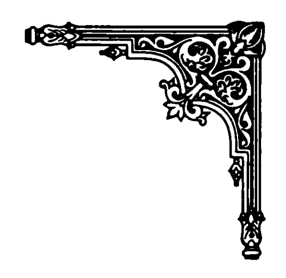
لكن يمكننا القول بأن الأمور سارت بالفعل سيرا حسنا دائما، فكانوا يؤكدون فى أوساط المؤمنين الأتقياء على أن «أرض جهنم مرصوفة بالقضاة». وكان هؤلاء المؤمنون

ينفرون من المناصب القضائية خوفا من التورط فى مشاكل لا مناص منها. والثابت أن سلطة المظالم كانت قادرة على إحقاق الحق، إذا ما أدركها المستضعفون. لكنه من العسير على عامة الناس أن يرفعوا إليها تلك الشكاوى التى يمكن لأصحاب النفوذ أن يعترضوا سبيلها بسهولة، أو أن يتخذوها ذريعة للتشفى والانتقام. ولا ينبغى لنا من جهة ثانية أن ننسب للقضاء مساوئ وعيوبا، استنادا إلى مجرد تذمر الكتاب الأخلاقيين وانتقادهم. والواقع أن مؤسسة القضاء الشرعى، إذ ما قورنت من قبل الاختصاصيين والمنصفين، بما أمكن وجوده فى بلاد أخرى من مؤسسات مماثلة، فإنها تبدو عبر القرون من المنشآت الإسلامية الشامخة ذات البنيان الراسخ المتين.

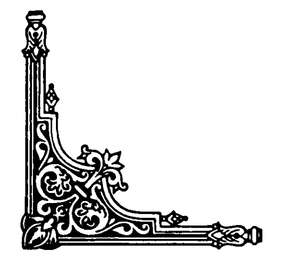
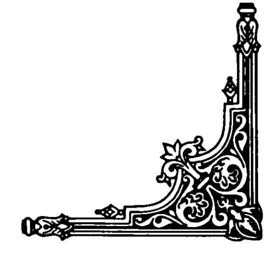
ولقد عملت الحكومة العباسية على إصلاح رقابتها فى الولايات بزيادة وسائل الإشراف والتوجيه، والامتناع عن إبقاء الحكام فى مناصبهم مدة طويلة من الزمن، مع مطالبتهم بتقارير دقيقة. مما يستدعى بدوره قيام جهاز مركزى واسع.

وكان الجهاز القضائى فى الدولة الإسلامية - وبخاصة فى العصر العباسى - يقف موقف الوسيط. فالخليفة هو الذى يُعَيِّن القاضى، وهو نفسه يعتبر قاضيا من درجة عليا. لكن المجال الذى يعمل فيه القضاة هو مجال الشريعة، وفى القطاعات التى لا تتدخل فيها السياسة إلا قليلا. وبالتالى أمكن للقاضى أن يحافظ على استقلال نسبى.

وإذا نحن أمعنا النظر فى قوائم الموظفين ومختلف عمال الدولة الإسلامية، لوجدنا تراكم ألوان متباينة من الوظائف الممكنة بين يدى موظف واحد، إلا أنه لم يحدث مطلقا جمع الوظائف السياسية كالجيش والمالية وإمامة الصلاة، بالوظيفة القضائية فى شخص واحد.

أهم المصادر والمراجع (*)

---

* مالم يرد ذكره في هذا الثبت تم بيان تفصيل بيانات نشره وتاريخه في الحواشي كلٌّ في مكانه، عند ذكره لأول مرة.

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

(١) ابن الأبَّار: الحلة السيراء ـ مجلد ١ج.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.

(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام : ٣ أجزاء .

ـ فجر الإسلام : ٣ أجزاء.

ـ ظهر الإسلام : ٣ أجزاء.

(٤) إحسان عباس: العرب فى صقلية .

(٥) أسد رستم: الروم .

(٦) أميرة مطر وآخرون: مسائل فلسفية.

(٧) الأنطاكى، يحيى بن سعيد: تاريخ سعيد بن بطريق مجموعة .

(٨) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٩) البغدادى:

ـ تاريخ بغداد .

ـ الفرق بين الفرق. (ط. القاهرة ، ١٩٤٨).

(١٠) البلاذرى:

ـ أنساب الأشراف .

ـ فتوح البلدان .

(١١) ابن حوقل:

ـ صورة الأرض .

ـ المسالك والممالك.

(١٢) أرشيبالد ، لويس:

القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط (٥٠٠-١٥٠٠م).

(١٣) أمارى، ميخائيل:

المكتبة العربية الصقلية.

(١٤) ابن إياس:

بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

(١٥) البلوى:

سيرة ابن طولون.

(١٦) بينز، نورمان (ترجمة حسين مؤنس):

الإمبراطورية البيزنطية .

(١٧) الجاحظ:

ـ مناقب الترك فى رسائل الجاحظ.

ـ تحقيق عبد السلام هارون، (القاهرة جـ١، ١٩٦٤).

(١٨) حتى فيليب:

تاريخ العرب (جزء ١).

(١٩) الحديثى ، قحطان:

تاريخ الخوارج فى خراسان (مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة عدد ٦).

(٢٠) حسن إبراهيم:

الإسلام السياسى. ٤جـ _ ٤ مجلدات.

(٢١) حسن أحمد محمود:

تاريخ الغرب الإسلامى (محاضرات).

(٢٢) حسن حسنى عبد الوهاب:
قصة جزيرة قوصرة.
(٢٣) حسين مؤنس:
المسلمون فى حوض البحر المتوسط.
(مقال بالمجلة التاريخية المصرية).
(٢٤) ابن خلدون:
العبر وديوان المبتدأ والخبر...
(٢٥) ابن خلكان:
وفيات الأعيان
(٢٦) الدورى، عبد العزيز:
دراسات فى العصور العباسية المتأخرة.
(٢٧) الذهبى:
العبر فى خبر من غبر جـ٢.
(٢٨) زينب عصمت راشد
كريت تحت الحكم المصرى.
(٢٩) زينى دحلان
الفتوحات الإسلامية.
(٣٠) السبكى
طبقات الشافعية.
(٣١) سرور ، محمد جمال الدين:
تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق.
(٣٢) سرهنك: الأميرالاى إسماعيل:
حقائق الأخبار عن تاريخ دول البحار ٣ مجلدات.

(٣٣) سعاد ماهر:

البحرية فى مصر الإسلامية.

(٣٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، وعبد الرحمن الرافعى:

مصر فى العصور الوسطى.

(٣٥) ابن سعيد الأندلسى:

المُغْرِب فى حلى المغرب .

(٣٦) السيوطى:

تاريخ الخلفاء .

(٣٧) شكيب أرسلان:

تاريخ غزوات العرب .

(٣٨) الشهرستانى:

الملل والنحل جـ١ (ط. كيرتون).

(٣٩) الشيبى:

الصلة بين التصوف والتشيع (جـ٢).

(٤٠) صابر دياب:

سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط. عالم الكتب، ١٩٧٣ .

(٤١) ابن الطقطقى:

الفخرى فى الآداب السلطانية.

(٤٢) عارف تامر:

القرامطة.

(٤٣) عبد الرضا الراشد:

العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس.

(٤٤) العدوى، إبراهيم أحمد:

الأساطيل العربية.

(٤٥) العدوى، إبراهم أحمد:

الأمويون والبيزنطيون.

(٤٦) ابن عذارى:

البيان المغرب.

(٤٧) عريب، القرطبى:

صلة تاريخ الطبرى.

(٤٨) العرينى ، السيد الباز:

الدولة البيزنطية.

(٤٩) على سامى النشار:

نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (جـ١).

(٥٠) ابن العماد الحنبلى:

شذرات الذهب.

(٥١) فاروق عمر:

- محاضرات فى تاريخ الحضارة الإسلامية .

مطبعة الزيدى ، بغداد، ٧١/ ١٩٧٢ .

- العباسيون الأوائل. (جـ١).

- طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت ١٩٧٠ .

- نظرات فى سياسة الخليفة المتوكل .

المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢/ سنة ١٩٧٢ .

(٥٢) فاروق عمر:

- سياسة المأمون تجاه العلويين .

ق١ مجلة الجامعة المستنصرية، ١٩٧٢ .

ق٢ مجلة كلية الآداب ب١٩٧٣ .

(٥٣) فازيلييف:

العرب والروم.

(٥٤) فتحى عثمان:

التاريخ الإسلامى والمذهب المادى فى التفسير جـ١ .

الكويت ١٩٦٩ .

الحدود الإسلامية البيزنطية.

(٥٥) أبو الفدا:

المختصر فى أخبار البشر.

(٥٦) فيصل السامر:

الدولة الحمدانية.

(٥٧) فيصل السامر:

ثورة الزنج، بغداد، ١٩٥٤ .

(٥٨) قدامة بن جعفر:

نبذة من كتاب الخراج.

(نشر دى خويه جـ٦، ليدن، ١٨٨٩).

(٥٩) القزوينى:

آثار البلاد وأخبار العباد.

(٦٠) القيروانى، ابن أبى دينار:

المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس.

(٦١) كاهن، كلود:

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. جـ١ .

(٦٢) ابن كثير:

البداية والنهاية.

(٦٣) الكندى:

القضاة والولاة.

(٦٤) متز ، آدم:

الحضارة الإسلامية.

(٦٥) أبو المحاسن:

النجوم الزاهرة.

(٦٦) محمد حلمى أحمد:

الخلافة والدولة فى العصر العباسى.

(٦٧) محمد عبد الفتاح عليان:

قرامطة العراق.

(٦٨) محمد كرد على

خطط الشام.

(٦٩) محمد مختار باشا إلهامى:

التوفيقات الإلهامية.

(٧٠) محمود إسماعيل عبد الرازق:

الحركات السرية فى الإسلام.

(٧١) المسعودى:

مروج الذهب.

التنبيه والإشراف .

(٧٢) المقدسى:

أحسن التقاسيم (دى خويه).

(٧٣) المقريزى، تقى الدين أحمد:

الخطط المقريزية . (ط. بولاق).

(٧٤) ابن النديم:

الفهرست.

(٧٥) نقولا زيادة:

عناصر الحضارة العربية.

(محاضرات المؤتمر الدولى للتاريخ، بغداد ١٩٧٣).

(٧٦) النوبختى:

فرق الشيعة.

(٧٧) النويرى، شهاب الدين أحمد:

نهاية الأرب فى فنون الأدب.

(٧٨) ياقوت:

معجم البلدان.

(٧٩) اليعقوبى:

البلدان.

تاريخ اليعقوبى.

ثانياً: المراجع الإفرنجية:

Aly, F. : The Muslim Sea - Power in the medit. in the 9th. century.

Brookes, E. : The Relations between Emp.& Egypt.

Camb. Med. Hist. Vol. IV.

Ency. Of Islam (Engl. Ed.) .

Finlay : Hist. Of Greece (2 Vols.)

Patton : Ahmad Ibn Hanbal and the Mehna. Leyden, 1897.

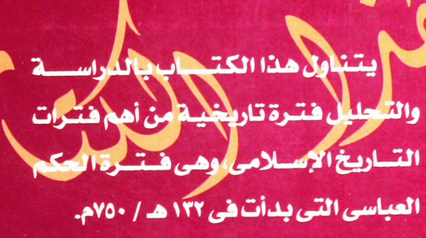
محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٤ - العباسيون والبلغار	٢٤٠
٥- العباسيون وموقفهم من بنى أمية بالأندلس	٢٤١
الفصل العاشر: تدهور نفوذ الخلافة العباسية	٢٤٥
.بنو بويه وسياستهم مع الخلفاء العباسيين	٢٦٦
• دراسة تحليلية للعصر العباسي وملامحه	٢٦٩
أولاً: ملامح الطابع الإسلامى للعصر العباسى	٢٧١
ثانياً: أضواء حول الحواضر الإسلامية فى العصر العباسى	٢٨٢
ثالثاً: الإدارة فى العصر العباسى	
(الوزير ـ الكُتَّاب ـ الدواوين)	٢٩٣
رابعاً: القضاء والحسبة والمظالم	٢٩٨
.المصادر والمراجع	٣٠٧
.فهرس المحتويات	٣١٧

رقم الإيداع	٢٠٠١ / ٤٩١٠
الترقيم الدولى I. S. B. N	977 - 10 - 1444 -7



يتناول هذا الكتاب بالدراسة والتحليل فترة تاريخية من أهم فترات التاريخ الإسلامى، وهى فترة الحكم العباسى التى بدأت فى ١٣٢ هـ / ٧٥٠م.

وقد سارت الدراسة فى هذا الكتاب من خلال عرض ورصد وتحليل عدة مواقف جابهت الحكم العباسى منذ بدايته وحتى فترة طويلة من تاريخ العصر.

فتحدثت عن موقف السلطة العباسية من القوى السياسية والدينية والعسكرية التى ظهرت فى هذا العهد، ولعبت دورا هاما فى تشكيل أحداثه.

كما تناولت الدراسة بالعرض والتحليل موقف الدولة من القضايا الفكرية والفقهية التى كانت محل نقاش فى هذا العهد.

كما رصدت الدراسة خط سير العلاقات الخارجية للحكم العباسى، سواء مع القوى الإسلامية أو مع القوى المسيحية المعاصرة آنذاك.

وتناولت الدراسة، بصورة موجزة، بعرض الجوانب الحضارية.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما تناولت. والله من وراء القصد وهو المستعان

المؤلف

١ - ليسانس آداب من قسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦١ بتقدير «جيد».

٢ - ماجستير فى الآداب من كلية الآداب جامعة القاهرة بتقدير «جيد جدا» عام ١٩٦٩ (تاريخ إسلامى).

٣ - دكتوراه الآداب من كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢ بتقدير «مرتبة الشرف الأولى».

- مدرس تاريخ إسلامى وحضارة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم فى ٧ مارس ١٩٧٣.
- أستاذ مساعد فى التاريخ الإسلامى والحضارة ٣١ يوليو ١٩٧٩.
- أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة منذ ٧/ ٨/ ١٩٨٥.
- رئيس قسم التاريخ سنة ١٩٧٩ و ١٩٨٦ بآداب القاهرة فرع الخرطوم.
- عميد كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم سنة ١٩٨٧.
- قام بعدد من المهام العلمية والوطنية داخل مصر وخارجها.
- عمل المؤلف بجامعات السودان، وأم القرى بمكة المكرمة والملك عبد العزيز بجدة لمدة تزيد على ١٥ سنة.
- ناقش وأشرف على العديد من الرسائل العلمية بجامعات القاهرة وأم القرى والملك عبد العزيز والإمام محمد بن سعود بالرياض، وجامعة الملك سعود بالرياض.
- يشغل حاليا - وظيفة أستاذ متفرغ بجامعة القاهرة فرع الفيوم.

I.S.B.N. 977-10-1444-7

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث